جوامع التفسير

تأليف

الحكيم الإلهي الشيخ

أبو الحسن بن إبراهيم اليزدي

تحقيق

أبو المكارم

الشيخ حسين بن علي المطوع

المجلد الأول

جوائز البرلمان البحريني

دار المحجة البيضاء

جوامع التفسير

المجلد الأول

موقع الأوحد
Awhad.com

جوامع التفسير

تأليف

الحكيم الإلهي الشيخ

أبو الحسن بن إبراهيم اليزدي

تحقيق

الشيخ حسين بن علي المطوع

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة تفضل بها
سماحة الحكيم الإلهي
آية الله المولى الميرزا
عبد الله الحائري الأحقاقي حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.
ولعنة الله الدائمة على أعدائهم أجمعين. إلى قيام يوم الدين آمين يارب العالمين.

قال الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)
لقد جاهد علماء الشيعة الإمامية على طول الزمن في نشر علوم أهل البيت عليهم السلام
وقد ألفوا وصنفوا الكثير من الكتب والمصنفات، ومن ممن هؤلاء العلماء، ومن
أبرزهم العلماء المنتسبون لمدرسة شيخنا الأجل الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي
رضوان الله عليه وعليهم. فقد أثروا المكتبة الإسلامية الشيعية بمؤلفات ومصنفات
جليلة. وأوردوا فيها من المطالب المنثورة في شتى أنواع العلوم ما يندر بل
يكفي القول أنه لا يوجد في غير مصنفاتهم ومؤلفاتهم، ومن ممن علماء هذه
المدرسة هو الشيخ (أبو الحسن اليزدي) رضوان الله عليه، وهو من تلامذة شيخنا الأوحد،
وقد عثرنا بواسطة لجنة التحقيق والنشر على كتابه المرسوم بـ (جوامع التفسير) وتوقام
بعض أعضاء هذه اللجنة بمراجعته وتدقيقه وتحقيقه، وهذا الكتاب في الواقع من الكتب
الجامعة لكثير من المطالب الحكمية والعبادية والسلوكية العالية جدا، ولكن مما يؤسف
له أن النسخة التي وقعت بيدنا ليست كاملة، وعلى الرغم من ذلك أومزت إلى أعضاء
لجنة التحقيق والنشر أن يقوموا بطباعة هذا الكتاب ليستفيد منه العام والخاص،
وقد قاموا بما هو مطلوب منهم، نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياهم لنشر المزيد
والمزيد من كتب ومؤلفات هذه المدرسة المباركة، وأن يوفقنا سبحانه وتعالى لكل
ما يحبه ويرضاه بحق محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.
وصلى الله على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين أجمعين.

عبد الله عبد الرسول الاحقاقي
٢٠ جمادى الثاني ١٤٤٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين، ولعنة الله الدائمة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين، آمين يا رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

لقد جاهد علماء الشيعة الإمامية على طول الزمن في نشر علوم أهل البيت عليهم السلام، وقد ألفوا وصنفوا الكثير من الكتب والمصنفات، ومن ضمن هؤلاء العلماء ومن أبرزهم العلماء المنتسبون لمدرسة شيخنا الأجل الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي رضوان الله عليه وعليهم، فقد أثروا المكتبة الإسلامية الشيعية بمؤلفات ومصنفات جليلة، وأوردوا فيها من المطالب المتنوعة في شتى أنواع العلوم ما يندر، بل يمكنني القول أنه لا يوجد في غير مصنفاتهم ومؤلفاتهم، ومن ضمن علماء هذه المدرسة هو الشيخ (أبو الحسن اليزدي) رضوان الله عليه، وهو من تلامذة شيخنا الأوحد، وقد عثرنا بواسطة لجنة التحقيق والنشر على كتابه الموسوم بـ(جوامع التفسير)، وقد قام بعض أعضاء هذه اللجنة بمراجعته وتحقيقه، وهذا الكتاب في الواقع من الكتب الجامعة لكثير من المطالب الحكمية والعبادية والسلوكية العالية

جدًا، ولكن مما يؤسف له أن النسخة التي وقعت بيدنا ليست كاملة، وعلى الرغم من ذلك أوعزت إلى أعضاء لجنة التحقيق والنشر أن يقوموا بطباعة هذا الكتاب ليستفيد منه العام والخاص، وقد قاموا بما هو مطلوب منهم، نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياهم لنشر المزيد والمزيد من كتب ومؤلفات هذه المدرسة المباركة، وأن يوفقنا سبحانه وتعالى لكل ما يحبه ويرضاه، بحق محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

وصلى الله على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين أجمعين

عبد الله عبد الرسول الاحقاقي

٢٠ جمادى الثاني ١٤٤٢هـ

مقدمة المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الديان، المتفضل المنان، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الإنس والجان، وآله سادات الأكوان.

وبعد:

منذ فترة ليست بالقليلة كنت مشتغلًا بقراءة بعض الكتب في علوم ومعارف القرآن الكريم، خصوصًا تلك الرسائل التي ألفت من علماء مدرسة الشيخ الأوحد الأحسائي، وقد وقعت على نسخة خطية لكتاب (جوامع التفسير)، من تأليف الشيخ أبو الحسن اليزدي، تلميذ الشيخ الأوحد أعلى الله مقامهم، فقرأته، ووجدت فيه الكثير من المعارف المهمة، فأحببت أن أتشرف بخدمة الكتاب، وقد يسّر الله لي مع مجموعة من الأخوة الأعزاء، كتابته والتعليق عليه بما تيسر.

وصف المخطوطة:

لم نجد للكتاب إلّا مخطوطة واحدة، توجد في مكتبة مدرسة آية الله البروجردي، وهي واضحة، كتبت باللون الأسود، وعناوينها باللون الأحمر، وضمت الجزئين في مجلد واحد، وتحتوي

المخطوطة كذلك على بعض العناوين الجانبية، فقمنا بإدراجها، وأما ما أضفناه من عناوين فقد وضعناه بين معكوفتين [ ] للتفريق، وكذلك كل إضافة أو سقط في بعض النصوص.

وحيث أن المجلد الأول كبير جدًا ولا يمكن طباعته في مجلد مفرد، فقمنا بتقسيم الكتاب إلى مجلدين، كالتالي:

١ ـ **المجلد الأول**: مقدمات التفسير مع تفسير الإستعاذة والبسملة وسورة الفاتحة المباركة إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٢ ـ **المجلد الثاني**: من قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، إلى آخر سورة الفاتحة، والجزء الثاني حسب تقسيم المؤلف ويبدأ بسورة البقرة.

ختامًا أشكر الله تعالى على هذا التوفيق في خدمة نشر فضائل الثقلين، وأسأله أن يتقبل مني هذا القليل، وأوجه شكري لكل ما ساهم في إخراج هذا الكتاب ومراجعته.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على ساداتنا محمد وآله الطاهرين

حسين بن علي المطوع ـ الكويت

الصفحة الأولى من الجزء الأول من المخطوط

جوامع النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المستشهد بحدوث خلقه على قدمه وبما ابرزه من آياته على وجوده وبما دلهم
بهم من الفقر على وجوبه وبما اضطرهم اليه من الفناء على دوامه وبما اظهر فيهم من العجز على
قدرته وبما صدر عنه من الافعال المحكمة على علمه وبما اودع في الاشياء من عجائب الصنع
على حكمته وبما فرق خلقه من عنائه المطلق على جده له وبما اسبغ عليهم من نعمه الظاهرة
والباطنة على كل الوجود الاول بلا اول كان قبله والآخر بلا آخر يكون بعده الذي قصرت
عن رؤيته النواظر وحسرت عن ادراكه المشاعر ولا تحيط به من خلقه السواتر دل بالعين
من لم يره وبالقلب من لم يعرفه بيمين الحق والعلو فلا شيء اعلى منه وقرب والدنو فلا
شيء اقرب منه ظهر في عظمته فلا شيء اظهر منه وخفي لشدة ظهوره فلا شيء ابطن منه
حجب عقول عباده بما اظهر لهم من غيب كبريائه وخلى افئدتهم بما اراهم في محكم خلقه
لا تدركه الافهام ولا تحيط به الاوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها واليها حاكمها
ما اختلفت عليه دهر فتخلف منه الحال ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال
بل احاط بالاشياء علما وهي في امكنة وجودها واحصاها عددا وهي في ازمنة
حدودها استوى على العرش برحمانيته فاعطى كل ذي حق حقه من بريته حزت
لعظمته جباه المتواضعين ونطقت بتوحيده شفاه المخلصين وقيد كل ناطق بسمع
وبري وحبيب كل قلب بحبك وابكى ومع كل زوج امات واحيى ورزق كل شيء اصلحت
وافق من تكلم مع خلقه نطقه ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه رزقه ومن مات

فاليه منقلبه امسك سمائه وارضه بقوته واحاط بكل شيء بقدرته ولم يكن الفراغ
من صنعته الا العدل الذي لا يجور والاكرم الذي ترجع اليه الامور كل موجود
موسوم ببنائه وكل شهود يرجع بجوده وكل شيء خاشع له وكل شيء قائم به سبحانه
ما اعظم ما نرى من آياته وما اصغر عظيمها في جنب قدرته قامت في عظمته
الملمات الهول وصارت في كبريائه لطائف الاوهام وهو الله الملك الاعلى الصمد
الفرد الذي لم يلد ولم يولد ليس كمثله شيء وخالق كل نقد وفي لم يزل حيا
بحياته لا بشيء ولا يزال ديمومية ملكوت كل شيء قائما دائما كنا اعتقدنا لم يكن
معه شيء فاحب ان يعرف الخلق به ليكون فيعرفوه من معرفته ويعبدونه لم
يزدد بوصف لهم من صفته شيئا لقربهم ذلك القرب ولا قربهم موجبة لمحبته ومحبته
سبب الطاعة وطاعته تكون عبادته دائمة لا يجاوز طاعته وموجبة لفواضل كرمه و
جزائل نعمه وموصلة الى جنته ودار كرامته فلم يجب خلقه بحكمته من واجب معرفته وجل
ان قيل منه نصيبا من محبته فكانه سبحانه لا من شيء كان فلا من شيء خلق ما كان
فتكلم بمشيته بكلمة ارتجها الحق الاكبر وبدت قدرته في العالم الاكبر و
الاصغر فامكن بها الامكان بالعلم والقدرة وانشأها الاشياء بلا فكر وروية
ثم قدرها بعد ما اراد بها بلا تجربة افادها من حوادث الدهور ولا شريك اعانه
على ابتداء عجائب الامور ثم قضاها واودع فيها من الاسرار والغيوب واحصاها
مشروح العلل وسامته من الغيوب فانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون
فسبحان الله وتعالى عما يصفون ومن اعجب ما ابتدعه من تلك العجائب وكل ما لا
فيها من الغرائب هو ذو الازار ومن الاسرار المتكلم بلسان الجامعية الكريم
صاحب مقام قاب قوسين او ادنى وخلاصة الصورة والمعنى وجامع الحقيقة للاسرار

الصفحة الأخيرة من الجزء الأول من المخطوط

الصفحة الأولى من الجزء الثاني من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على خير خلقه واشرف بريته وخاتم
انبيائه محمد وعلى الاصفياء من الرسل وعترته اما بعد فهذا اوان الشروع في المجلد
الثاني من الجامع في تفسير سورة البقرة لله عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم قد مضى في
تفسيرها وان التسمية في اول كل سورة ايتها وانما كان يعرف انقضاء السورة
بنزولها ابتداء للاخرى وما انزل الله كتابا من السماء الا وهي فاتحته وفي تفسير
الامام عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ان هذا القرآن ما دبة الله
تعالى فتعلموا من مادبة الله عز وجل ما استطعتم فانه النور المبين والشفاء النافع
تعلموا فان الله تعالى ذكره فكم متعلقه تعلموا سورة البقرة والعمران فان احدهما
وكنزوتكما حسرة ولا يستطيعهما البطلة الى تتمة الحديث اقول المادبة بالمعاء
صنع لدعوة العرس كذا في القاموس وفي الكافي عن مولانا الباقر عليه السلام انه
قيل له في قوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه ما طعامه قال علمه الذي ياخذه
عمن ياخذه ففسر عليه السلام طعام الانسان بعلمه الذي ياخذه وامر بان ينظر اليه
من اين جاءه وعمن ياخذه وذلك لان الطعام يشمل طعام البدن وطعام الروح
جميعا كما ان الانسان يشمل البدن والروح معا فكما انه مامور بان ينظر الى
غذائه الجسماني ليعلم انه نزل من السماء من عند الله عز وجل بان صب الماء
صبا ثم شق الارض شقا فانبت فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا و
حدائق غلبا وفاكهة وابا متاعا لعباده وانعامهم فكذلك مامور بان ينظر الى
غذائه الروحاني الذي هو العلم بحقائق الاشياء كما هي ليعلم انه مما نزل من سماء
قدرته وجهة العلوم شبهه بان الحكم التي هي قلب محمد صلى الله عليه وآله

صب ماء مطر الوحي الى ارض النبوة وشجرة الرسالة وينبوع

فاوسع من ارض الانبياء واعنابا طيبة الواقعة المبادكة زراعات مثمرة الاطعمة والحقائق
الانبياء واصناف المعارف المسكرة الربانية وقلب علوم الغريبة العربية وتنبيه
علم الطريقة الى المتقين بعلم اليقين والتقوى وتهذيب الاخلاق وغل صدورهم
التوحيد وحدائق العلوم الكثيرة لاهل التحقيق والتدقيق وانواع فواكه المعارف
التي يتفكهون فيها من القصص والامثال والاحكام وفتوى العلم الذي يفتح به
العلام وتنوير عليه السلام علم الذي ياخذه عمن ياخذه اي ينبغي له بل يجب عليه ان
ياخذ علمه من اهل بيت النبوة ومواضع الرسالة الذين هم مهبط الوحي ومعدن الحكمة
وينبوع العلم والمعرفة الاخذون علومهم من مادبة الله مجاز الذي هو الكتاب العزيز
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد حتى يصل الى
يد غذاء الروحه دون غيرهم من لا واسطة بينه وبين الله من حيث الوحي والالهام
وسماع الكلام من الملك العلام فان علوم غيرهم عليهم السلام اما حفظ اقاويل
الرجال ليس في اقوالهم حجة واما الرجال لا مدخل لها في الحجة وليس في شيء منهما
من الله سبحانه بل مدد من العيون الكدرة التي يمزج بعضها في بعض وعن الذين
الذين يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا فلا يصلح غذاء الروح الانسان
فقول رسول الله صلى الله عليه وآله ان هذا القرآن مادبة الله تعالى فتعلموا من ما
دبة الله عز وجل ما استطعتم فيعني ان هذا القرآن طعام صنعه الله عز وجل لعباده المؤمنين
وجعل ظاهره مكرما وباطنه علما وجعله قوتا لابدانهم وشفاء نافعا لنفوسهم وجعل العباد المؤمنين
ادبته وطعامه الذي فيه شفاء امراضهم ودبر قوام ارواحهم قال تعالى وننزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقوله صلى الله عليه وآله فتعلموا
من مادبة الله عز وجل ما استطعتم فيه وجهان الاول انه صلى الله عليه وآله

الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني من المخطوط

فيك ليلة اري بي يا علي مقعدهم يتبوءون على الله تعالى ويستفضونه حوائجهم ويتقربون
الى الله تعالى بمحبتك وبجعلوا تعالى اشرف ما يعبدون الله به الصلوة علي وعليك
وسمعت خطيبهم في اعظم مجامعهم فلم يقل وهو على الحاوي لاصناف الخيرات
المشتمل على انواع المكرمات الذي قد اجتمع فيه من خصال الخير ما قد تفرق فيه
من البريات عليه من الله تعالى الصلوة والبركات والتحيات وسمعت الاملاك بحضرته
والاملاك في سلم السموات والحجب والعرش والكرسي والجنة والنار يقولون
باجمعهم عند فراغ الخطيب امين اللهم وطهرنا بالصلوة عليه وعلى آله الطيبين
انتهى وفي تفسير الامام ع وفي المعاني عن الصادق ع في قوله تعالى ومما رزقناهم
ينفقون قال ومما علمناهم يبثون ومما علمناهم من القرآن يتلون وفي مصباح الشريعة
قال الصادق ع على كل جزء من اجزائك زكوة واجبة لله عز وجل بل على كل منبت
شعر على كل لحظة زكوة العين النظر بالعبرة والغض عن الشهوات وما يضاهيها
وزكوة الاذن استماع العلم والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة
وما فيه نجاتك بالاعراض عما هو منه من الكذب والغيبة واشباههما
وزكوة اللسان النصح للمسلمين والتيقظ للغافلين وكثرة التسبيح والذكر
وغيره وزكوة اليد البذل والسخاء بما انعم الله به عليك وتحريكها بكتب العلوم
ومنافع يتنفع به المسلمون في طاعة الله والقبض عن الشر والسوء وزكوة الرجل
السعي في حقوق الله تعالى عن زيارة الصالحين ومجالس الذكر واصلاح المنازل
وصلة الرحم والجهاد وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك هذا ما يحتمل
القلوب فهمه والقوى استعماله وما لا يقدر عليه الا عباده المقربون المخلصون
اكثر من ان يحصى وهم اربابه وهو شغلهم دون غيرهم المستغاث من هذه

الروايات

الروايات ان في كل ما بلغ الله على عبده من نعم الظاهرة والباطنة زكوة يجب
عليه انفاقها وايصالها الى المستحقين لها ولله عز وجل على عبده حجة بالغة
فيما انعم عليه فيما لكافي عن ابي عبد الله ع قال ان الله تعالى له نعيم على عبده
نعمة لا وقد الزمه فيها الحجة من الله فمن من الله عليه فجعله غنيا فحجته
عليه القيام بما كلفه واحتمال من هو دونه ممن هو ضعيف عنه ومن من الله عليه
فجعله موسعا عليه فحجته عليه ماله ثم تعاهد الفقراء بعد نوافله ومن
من الله عليه فجعله شريفا في بيته جميلا في صورته فحجته عليه ان يحمد الله
على ذلك وان لا يتطاول على غيره فيمنع حقوق الضعفاء لما له شرفه وجماله
انتهى

وقف
ناصري ١٣٨١ هـ لاهيجاني

ترجمة المصنف

بقلم: حيدر عبد الرضا الحرز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد:

كثيرون هم العلماء الذين تتلمذوا على يد شيخنا الأجل الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي، والتحقوا بركبه، وبسبب ظروف الزمان كان من الصعب الحصول على تراثهم الكبير، ومع التطور الهائل للتقنيات الحديثة، وسهولة نقل الملفات والكتب وقعنا على الكثير من هذا التراث المفقود.

ونشير هنا إلى أن هذه المقاطع التي نكتبها حول حياة المؤلف وإن كانت قليلة إلّا أن كتب التراجم لم تسعفنا بالكثير، فحاولنا اقتناص بعض المقاطع مما كتب في بطون الكتب، لاعطاء لمحة أوسع مما كتب في التراجم.

من هؤلاء العلماء الأجلاء العظام، هو الشيخ الفاضل الجليل المولى الشيخ أبو الحسن اليزدي أعلى الله مقامه.

سيرته:

الشيخ أبو الحسن بن إبراهيم اليزدي[١]، عالم فاضل جليل، محب للعلم والعلماء منذ صغره، تدرج في العلوم الدينية، وبلغ شأوًا رفيعًا، ومكانة عالية، إلّا أنه لم يقنع بما عنده، ولم يرتوي مما لديه.

تعرف شيخنا اليزدي على شيخنا الأوحد الأحسائي، فوجد فيه ضالته، ووجد فيه معينًا لا ينضب، وعين لا تجف، فاتصل به، وتتلمذ عنده، وأصبح من خواصه وملازميه حضرًا وسفرًا، يلتقط من ثمار علومه، ويشرب من نمير معارفه، وعلى حد تعبيره أنه: صار الخبر له عيانًا، والغيبة شهودًا، والمطلوب حاصلًا، والمأمول محصولًا، والمنقول معقولًا.

وثق الشيخ أبو الحسن هذه المرحلة من حياته في كتابه (جوامع التفسير)، وكتب حولها قائلًا: (فاعلم يا أخي أني كنت في ريعان الشباب وصفو عيش من الأحباب، طالبًا لصحبة الكرام ومحبًا للعلماء الأعلام، وكان العلم وأهله في عيني عظيمين، والجهل وأهله عندي حقيرين، وكنت إذا رأيت شخصًا كانت الدنيا في عينه حقيرة يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكانت نفسي مشتاقة إلى رياض الحكمة والشرب من حياض المعرفة، فخدمت العلماء وطلبت علومهم، ونظرت في كتبهم فرأيت رسومهم، ثم حال بيني وبين مطلوبي طلب الدنيا وأعراضها، وابتليت بأغراضها وأمراضها، فطلبت الميسور وتركت المعذور وجربت الأمور، وباشرت الأشغال وصحبت الرجال وضيعت عمري في طلب الآمال، وذقت مرارة الأشياء

---

(١) طبقات أعلام الشيعة، ج١٠ ص٣٢.

وحلاوتها، فما زلت أفكر في العواقب وأسير في المراتب حتى رأيت العجائب، فما رأيت شيئًا أسرع ذهابًا وأعجل زوالًا من العمر والدنيا، وما رأيت شيئًا أقرب من الموت والآخرة، ورأيت خير الدنيا والآخرة في الحياة الطيبة وهي القناعة، ورأيت شر الدنيا والآخرة في الميتة الخبيثة وهي الغفلة، ورأيت أقصر الناس عمرًا من ضيع أوقاته بليت ولعل وسوف، وكنت أداوم على قراءة هذه الأبيات لبعض أجلاء السادات رحمة الله عليه:

يا حليمًا ذا أناة واقتدار ليس يعجل
عبدك المذنب مما قد جناه يتنصل
كاد أن يقنط لولا سعة الرحمة يأمل
باء بالخسران عبد مهل المولى فأهمل
إن في ذلك لسرًا من يخاف الفوت يعجل
ملت التوبة من سوف ومن ليت ومن عل
تهت في بيداء تقصيري وهل يرشد من ضل
أدخلتني النفس لكن منهج المخرج أشكل
كلما أقبل عام أتمنى عام أول
فإذا أقبل عام كان مما فات أخمل
ليتني أجهل علمي أو بما أعلم أعمل
فعلى عفوك لا الأعمال يا رب المعول
فعسى جرح ذنوبي بمسيح العفو يدمل
لو برضوى بعض ما بي لتداعى وتزلزل
غير أني بالنبي المصطفى أشرف مرسل
وعلي وبنيه يا إلهي أتوسل

وبهم يا واسع الرحمة ثبت قد ما زل

وامنح الغفران يا من يغفر الذنب وإن جل

لست أقفو إثر قوم غيرهم في العقد والحل

عجل الفوز بهم لي وعلى أرواحهم صل

وكانت تذهب أيامي وتمضي أعوامي، حتى هدرت الحمامة، وصاح الديك، ونعق الغراب، ونشرت أجنحة الطاووس، وغارت النجوم، وزالت الهموم، وانشق الفجر وطلع الصبح، فقلت: يا نفس حتى متى وإلى متى تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة، وتعدني ترك الجفاء ولا أجد منك الوفاء.

فقالت مجيبة: لا تأس على ما فات وتشمر لما هو آت، فإن بقية عمر المرء لا ثمن لها يدرك بها ما فات ويحيي بها ما أمات. فقدمت على المطلوب أشد إقدام، وقمت على الساق والأقدام، فشرعت في قراءة كتب القوم والنظر في علومهم، فلم أزل أجمع من هنا ومن هنا، وآخذ من هذا ومن هذا، فلم أجد من علومهم إلّا رسومًا ولا من رسومهم إلّا همومًا، ونظرت في أخبار أهل العصمة عليهم السلام فوجدتهم يقولون: (إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان)، وسمعت الله سبحانه يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، ويقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويقول: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾، وسمعت منهم عليهم السلام يقولون: (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله) أو (لكفره) على اختلاف الروايتين (ولقد آخا بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله).

ويقولون: (إن أمرنا هو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، وهو الحق وحق الحق).

و(إن أمرنا هو السر وسر السر، وسر المستسر وسر مقنع بالسر).

وسمعت هذه الأبيات المنسوبة إلى مولانا سيد الساجدين عليه السلام:

إنـي لأكـتـم مـن سـري جـواهـره
كـي لا يـرى الـحق ذو جـهـل فـيفـتـنـنـا
لـقـد تـقـدم فـي هـذا أبـو حـسـن
إلـى الـحسـين ووصـى قـبـلـه الـحسـنـا
ورب جـوهـر عـلـم لـو أبـوح بـه
لـقـيـل لـي أنـت مـمـن يـعـبـد الـوثـنـا
ولاسـتـحـل رجـال مـسـلـمـون دمـي
يـرون أقـبـح مـا يـأتـونـه حـسـنـا

وسمعت أمير المؤمنين عليه السلام عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأكمل التحيات يقول: (انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ أبوح[1] بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَة في طوىً بعيدة).

ويقول عليه السلام لكميل بن زياد النخعي قال: (كُنْتُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ وَقَدْ صَلَيْنَا عِشَاءَ الْآخِرَةَ فَأَخَذَ بِيَدِي حَتى خَرَجْنَا مِنَ الْمَسْجِدِ فَمَشَى حَتى خَرَجَ إِلَى ظَهْرِ الْكُوفَةِ لَا يُكَلمُنِي بِكَلِمَةٍ فَلَما أَصْحَرَ تَنَفسَ الصعداء ثُم قَالَ: يَا كُمَيْلُ إِن هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا احْفَظْ عَني مَا أَقُولُ لك الناسُ ثَلَاثَةٌ عَالِمٌ رَبانِيٌ وَمُتَعَلمٌ عَلَى سَبِيلِ النَجَاةِ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُل نَاعِقٍ

(١) هكذا أورده المصنف قدس سره، وفي الأصل: (بُحْتُ).

يَمِيلُونَ مَعَ كُل رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النفقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، يَا كُمَيْلُ العلم دين يُدَانَ اللهُ به وبِهِ يكسب الإنسان الطاعة في حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وفاته، يَا كُمَيْلُ مَاتَ خُزانُ الْأَمْوَالِ وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، آه آه إِن هَاهُنَا وَأَشَارَ عليه السلام بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَعِلْمًا جَمًا لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أُصِيبُ لَهُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدينِ فِي الدنْيَا، يَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَبِنِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ أَوْ مُنْقَادًا للحق لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ينقدح الشك فِي قَلْبِهِ بِأَولِ عَارض شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، أو مَنْهُومٌ بِاللذاتِ سَلِسُ الْقِيَادِ لِلشهَوَاتِ أَوْ مُغْرًى بِالْجَمْعِ وَالِادخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدينِ في شيء أَقْرَبُ شَبَهًا بهما الْأَنْعَامُ السائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللهُم بَلَى لَا تخلو الْأرض مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجةٍ ظَاهِرٍ أَوْ خائف مَغْمُورٍ لِئَلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِنَاتُهُ وأين أولئك، أولئك والله الْأَقَلونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ خَطَرًا بِهِمْ يَحْفَظُ اللهُ حُجَجَهُ وبيناته حَتى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ وبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وصَحِبُوا الدنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلقَةٌ بِالْمَحَل الْأَعْلَى أولئك خُلَفَاءُ اللهِ فِي أرضهِ وَالدعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ثُم نَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي وَقَالَ انْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ) انتهى.

وكنت أنظر في هذه الآيات والأخبار التي لا تهتدي العقول إليها سبيلًا، وإنما تدركها الأفئدة المستنيرة بنور ربها، وكنت أتدبر في

معانيها، وأسرح بريد فكري في مشارقها ومغاربها، وأقلب وجه قلبي في سماء مقاصدها ومطالبها، ونظر فؤادي في مطالع شموسها ومنازل بدورها وبروج كواكبها، لعل قلبي يستنير من أنوار نجومها ويتأثر من ضياء ثواقبها، فحفظت منها شيئًا وغابت عني الأشياء، ولم أهتد إليها سبيلًا، ولم أجد لنفسي مرشدًا ودليلًا، فقلت يا رب الأرباب ويا إله الآلهة ويا سيد السادات ويا ملك الملوك ويا جبار الجبابرة، أنا عبدك الحقير الفقير المسكين الضعيف عملًا، الجسيم أملًا، خرجت من يدي أسباب الوصلات إلّا وصلة رحمتك، وتقطعت عني عصم الآمال، إلّا ما أنا معتصم فيه من فضلك، وقد أتيتك بنفس خاشعة ورقبة خاضعة، وظهر مثقل من الخطايا، واقفًا بين الرغبة إليك والرهبة منك، وأنت أولى من رجاه وأحق من خشاه واتقاه، فأعطني يا رب ما رجوت، وآمني ما حذرت، وعد علي بعائدة رحمتك، بحق سيدي محمد حبيبك وعلي وليك وفاطمة حبيبتك والحسن والحسين والأئمة من ولده أولياؤك وحججك على جميع خلقك صلواتك عليهم أجمعين، إنك أكرم المسؤولين وخير المأمولين)[1].

لقاؤه بالشيخ الأوحد الأحسائي:

بعد أن توسل الشيخ أبو الحسن لله تعالى أن يرشده إلى عالم يثق به، ويكون قادرًا على حل مشكلات الأخبار، وبيان أسرار كلمات محمد وآله الأطهار، استجاب الله دعوته، فحضر عند الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي، فوجد فيه ضالته المنشودة، فحط برحله، واستفاد من معينه، وكان يجله غاية الاجلال.

---

(١) جوامع التفسير (مخطوط)، ص٣١ ـ ٣٦.

يقول رحمه الله في شأن ذلك: (فالله سبحانه آمال سحاب رحمته نحو دار العبادة، وأنال أهلها شرف السعادة، وأحيى قلوبهم بماء الحياة، ووصل بهم إلى طريق النجاة).

واعتبر وصوله للشيخ الأوحد إجابة لتوسله في إرشاده إلى الطريق، فيقول: (فأول من أعطاه الله سبحانه مفتاح الوصول، وشرفه بخدمة كافل أيتام الرسول ﷺ،... وأعني بذلك المفتاح الذي به الفلاح والنجاح، ذا القابلية العظيمة، والدرة المكنونة اليتيمة، والمرآة الصافية الكريمة، الكامل في ظاهر التفسير والتنزيل، والراسخ في علم الباطن والتأويل، إحدى القرى الظاهرة، الواسطة بيننا وبين القرى المباركة التي أمرنا أن نسير فيها ليالي وأيامًا آمنين، مشيد دعائم الإسلام والدين، والحجة علينا من الحجة على الخلق أجمعين، سمي خيرة رب العالمين، الشيخ أحمد بن المقدس المطهر الشيخ زين الدين الأحسائي أعلى الله مقامه وأعظم في دار كرامته إكرامه، وأجزل عليه إنعامه، وبلغه ما يتمناه، ومكنه في الآخرة لما يشاء، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير آمين يا رب العالمين.

فلما وصلت إلى خدمته وتشرفت بحضرته وفزت ببعض معرفته، صار الخبر لي عيانًا، والغيبة شهودًا، والمطلوب حاصلًا، والمأمول محصولًا، والمنقول معقولًا، فقلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

ثم يسترسل في ذكر ممادح أستاذه، واصفًا له بأنه: (كان أويس عصره، وسلمان دهره، ووحيد أيامه، وفريد أعوامه، أزهد الزهاد،

---

(١) المصدر السابق.

وفخر العباد، ومفتاح النجاة، وعين الحياة، مؤسس أساس الحكمة، وماحي أوهام الفلاسفة، جامع مكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الآداب، وصاحب الأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، شريف النسب، وكريم الحسب، ويعسوب قبائل العرب)[١].

ويختم وصفه له بأبيات شعرية يكتبها في حقه:

(يا سائلي عن وصف شيخي سيدي وإمامي
قد حار في وصفه عقلي وأوهامي
لو جئته لرأيت الناس في رجل
قد ضل فيه عقول الخاص والعام
كل فقيه وكل ذي حكمة
وكل ذي علم عنده كعوام
من بعد فكرته وهم وسفسطة
وباطل كل أفكار وأفهام
وكل فقه ورأي وكل معرفة
وكل علم وحكمة وكل كلام
وكل قول وتعبير وتفسير
من بعده تأويله أضغاث أحلام
طوبى لأيامنا كنا نسير
إلى إحدى القرى في ليال وأيام
لا عيش بعد وجوده في دهرنا
تهنأ كما لا خير في الأعوام

---

(١) المصدر السابق.

ذم الـدهـور وأهـلـهـا ومـتـاعـهـا
والـعـيـش بـعـد أولـئـك الأيـام
يـا عـيـن جـودي بـالـبـكـاء لـفـقـد مـن
تـهـريـق عـبـرتـهـا عـيـون أنـام
والـلّـه كـنـت لـنـا أبًـا فـهـجـرتـنـا
وحـشـرتـنـا فـي زمـرة الأيـتـام
قـد كـان فـيـك شـفـاؤنـا فـتـركـتـنـا
مـع جـمـلـة الأمـراض والأسـقـام
يـا لـيـت شـيـخـي يـرى نـحـيـبـي وعـبـرتـي
أو بـلـغ الله عـنـي تـحـيـتـي وسـلامـي

والحاصل أنه أعلى الله مقامه كان شأنه التجافي عن دار الغرور، وحاله الإنابة إلى دار السرور، وشغله الاستعداد للموت حتى نزل به، وإذا سكت كان سكوته فكرًا، وإذا نطق كان نطقه حكمة، وإذا نظر كان نظره عبرة، وكان بدنه الشريف معنا، وقلبه الفارغ معلقًا بالملأ الأعلى)[1].

كما أنه لم يغفل ذكر شيخه في كتابه (جوامع التفسير)، فكان يعتمد على بياناته، ويحكم قوله عند اختلاف الآراء.

أسفاره:

صاحب شيخنا اليزدي أستاذه حضرًا وسفرًا، ورافقه في حج سنة **١٢٣٢**هـ، وكان برفقتهم أيضًا الشيخ عبد الله بن الشيخ الأوحد،

---

(١) المصدر السابق.

والملا مشهد التبريزي، والحاج عبد الله بن إبراهيم آل عيثان، والحاج نظر علي الدزفولي[١].

مؤلفاته:

لم نجد من مؤلفاته في وقت إعداد الترجمة إلّا كتابًا واحدًا يقع في جزءين وهو ما أسماه بـ(جوامع التفسير).

تعرض الشيخ أبو الحسن في (جوامع التفسير)، إلى تفسير سورة الفاتحة في جزءه الأول، وفي جزءه الثاني تعرض لتفسير سورة البقرة، لكنه لم يتمه، كما أنه كتب مقدمة مطولة مرتبطة بالتفسير والأخلاق، وبيان خلق العوالم، والتكليف الإلهي.

وفي ختام الجزء الأول لخص الشيخ أبو الحسن مطالبه التي طرحها في كتابه فقال: (وقد جمعت فيه ما تحتاج إليه من علم السلوك والتقوى، وبينت كيفية تهذيب الأخلاق، وأوضحت لك سبيل معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وتوحيده والإخلاص في عبادته، ومعرفة أنبيائه ورسله عليهم السلام، وأشرت إلى حقيقة الملك والشيطان ومصدر كل واحد منهما، وأشرت إلى المقامات السبعة التي فيها معرفة الله ومعرفة المعاني والأبواب والإمام والأركان والنقباء والنجباء، ومعرفة النفس التي من عرفها فقد عرف ربه، وأشرت إلى كثير من المذاهب الباطلة ومقامات التوحيد الحق ومراتب التوحيد الباطل، وذكرت أصول المعاملات وما يجب عليك من أداء كل ذي حق حقه ومعرفة كل ذي فضل فضله، وبينت كيفية الموت الإرادي والاختياري المستلزم للخروج عن الشهوات النفسانية والتجنب عن رذائل الصفات

---

(١) شمس هجر، ص١١٧.

الحيوانية البهيمية والأحوال الشيطانية والتخلق بالأخلاق الروحانية، وغير ذلك مما يطول بيانه وقد حواه مكانه، ولقد ذكرت من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأولاده الطيبين الطاهرين المعصومين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وأشرت إلى بعض أسرارهم عليهم السلام ما تشمئز منه القلوب وتقشعر منه الجلود ولا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام وأخرجه من ظلمات الجهل والشك والإنكار وأرجعه منها إليهم بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، فكم من لآلئ فضائلهم عليهم السلام ودرر مناقبهم نثروها على رؤوس عرائس عباراتهم وفرقوها في أذيال إشاراتهم، جمعتها ونظمتها في سلك التحرير والتقرير، وكم من جواهر الأسرار وخباياها المكتومة عن الأغيار وجدتها في بطون الآيات والأخبار، فأخرجتها ووضعتها في زوايا كتابنا هذا (جوامع التفسير)، ملتمسًا ممن نقص جوهره عن العيار وليس له مطهر إلّا النار أن لا يبادر إلى الإنكار، فكيف ينكر فضيلة من كتم فضائلهم أعداؤهم حسدًا وكتم مناقبهم أولياؤهم خوفًا فظهر بين الكتمين ما ملأ الخافقين، ومن اقشعر جلده مما ذكرناه واشمأز قلبه مما أسمعناه فليعلم أنه بعيد عن الإيمان قريب من الشيطان، لأن عليًا وآله عليهم السلام هم المحك وحبهم إيمان وبغضهم كفر بلا شك، فمن تخالجه الشك فيه وفي بينه أو تداخله الريب مما ورد من الفضائل فيهم وفيه، وما نقلنا عنه وعنهم وعن أخيه صلى الله عليهم فليسأل أمه عن أبيه)[1].

---

(١) جوامع التفسير (مخطوط)، ص٢٦٦.

وهذا الكتاب ينبئ عن مؤلفه، وعن تبحره في العلوم والمعارف العقائدية والفقهية والتفسيرية، حتى وصف بأنه: (طويل النفس فيما يكتب ويؤلف)[١].

مميزات كتاب (جوامع التفسير):

لا يمكن أن نعد هذا التفسير تفسيرًا تقليديًا، بل حوى الكثير من اللفتات المهمة، وإذا قرأنا بتمعن هذا التفسير نجد أنه تميز بالتالي:

١ ـ مقدمة مهمة تحتوي على الكثير من المعارف الحكمية والأخلاقية.

٢ ـ شرح أنواع التفسير من الظاهر والباطن والتأويل.

٣ ـ تفسير موسع لسورة الفاتحة، خصوصًا في بيان الصراط المستقيم، حيث فتح بحوثًا في بيان أسرار الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

٤ ـ الاعتماد على روايات أهل البيت عليهم السلام في التفسير، خصوصًا تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

٥ ـ يحتوي التفسير على بحوث موسعة في معرفة أهل البيت النورانية، ومقاماتهم، وخطبهم الدالة على ذلك.

٦ ـ تعرض المصنف لمناقشة بعض المفسرين في آرائهم، وبين وجهة نظره.

٧ ـ طرح بحثًا موسعًا حول الفرق بين الإسلام والإيمان، يعد من أهم ما كتب في هذا المجال وفي الجمع بين الروايات الواردة في هذا الشأن.

---

(١) تراجم الرجال، ج١ ص٤٥.

٨ ـ كان غالبًا ما يبين معاني الكلمات للروايات التي يستشهد بها.

٩ ـ من المباحث الجميلة التي تعرض لها هو بيانه للحديث القدسي الذي يقسم سورة الفاتحة بين الخالق والمخلوق، فعرض وجوهًا حكمية عديدة في بيانه، وقال أنه من مختصات تفسيره الذي كتبه.

١٠ ـ أثبت إحاطته الواسعة في روايات أهل البيت عليهم السلام.

١١ ـ رد فيه على الكثير من الأقوال الباطلة والمذاهب الفاسدة خصوصًا أقوال الصوفية، ونقل آرائهم وزيفها، وأبان خطلها.

١٢ ـ كان يشيد بشيخه الشيخ الأوحد الأحسائي كثيرًا، وينقل بعض عباراته، وتعرض للجمع بين كلماته والروايات الشريفة.

وفاته:

لا يوجد في كتب التراجم أي إشارة إلى تاريخ وفاته، إلّا أنه عاش بعد أستاذه الشيخ الأوحد، حيث كان يترحم عليه في تفسيره، كما أنه لا يوجد تاريخ انتهاء لتفسيره إلّا ما كتبه الناسخ من أنه فرغ من نسخ الجزء الأول سنة ١٢٥٧هـ، فالمظنون أنه توفي خلال هذه الفترة، والله أعلم.

هذا ما مكننا جمعه للتعريف بهذا العالم الجليل.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

مصادر الترجمة

١ ـ تراجم الرجال.

٢ ـ جوامع التفسير.

٣ ـ شمس هجر.

٤ ـ طبقات أعلام الشيعة.

جوامع التفسير

تأليف

الحكيم الإلهي الشيخ

أبو الحسن بن إبراهيم اليزدي

تحقيق

الشيخ حسين بن علي المطوع

المجلد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان حدوث العالم وإثبات الواجب وذكر صفاته تعالى

الحمد لله المستشهد بحدوث خلقه على قدمه، وبما أراهم من آياته على وجوده، وبما وسمهم به من الفقر على وجوبه، وبما اضطرهم إليه من الفناء على دوامه، وبما أظهر فيهم من العجز على قدرته، وبما صدر عنه من الأفعال المحكمة على علمه، وبما أودع في الأشياء من عجائب الصنع على حكمته، وبما عرّف خلقه من غنائه المطلق على عدله، وبما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة على كمال جوده، الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن ربوبيته النواظر، وحسرت عن إدراكه المشاعر[1]، ولا تحجبه عن خلقه السواتر، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره، سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنو فلا

(١) مقتبس من دعاء لإمامنا زين العابدين إذا ابتدأ بالدعاء بدأ بالتحميد لله عز وجل والثناء عليه، الصحيفة السجادية؛ ص٢٨ وهو قوله عليه السلام: (الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين).

شيء أقرب منه، ظهر في عظم نوره فلا شيء أظهر منه، وخفي لشدة ظهوره فلا شيء أبطن منه، حير عقول عباده بما أظهر لهم من عجائب كتابه، وتجلى لقلوبهم بما أراهم في محكم خطابه، لا تدركه الأفهام، ولا تحيط به الأوهام، بل تجلى لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها[1]، ما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال، بل أحاط بالأشياء علمًا وهي في أمكنة وجودها، وأحصاها عددًا وهي في أزمنة حدودها، استوى على العرش برحمانيته فأعطى كل ذي حق حقه من بريته، خرت لعظمته جباه المتواضعين، ونطقت بتوحيده شفاه الخلق أجمعين، رقيب كل ناطق يسمع، ويرى وحبيب كل قلب، أضحك وأبكى، ومع كل ذي روح أمات وأحيى، وفوق كل شيء أهلك وأفنى، من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه، أمسك سماءه وأرضه بقوته، وأحاط بكل شيء بقدرته، ولا يمكن الفرار من حكومته، العدل الذي لا يجور، والأكرم الذي ترجع إليه الأمور، كل موجود موسوم بثنائه، وكل مشهود يسبح بحمده، وكل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به، سبحانه ما أعظم ما ترى من آياته، وما أصغر عظيمها في جنب قدرته، تاهت في عظمته طامحات العقول، وحارت في كبريائه لطائف الأوهام، وهو الله الواحد الأحد الصمد والفرد الذي لم يلد ولم يولد ليس كمثله شيء، وخالق كل نور وفيء، لم يزل حيًا به حياة كل شيء، ولا يزال قيومًا بيده ملكوت كل شيء، قائمًا دائمًا كنزًا مخفيًا، لم يكن معه شيء.

---

(١) مقتبس من كلام لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة، ص٢٦٩ وهو قوله عليه السلام: (لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها).

بيان علة الإيجاد

فأحب أن يتعرف لخلقه بما يمكن في حقهم من معرفته، ويصف نفسه لهم فيعرفوه بما وصف لهم من صفته، ليجعل ذلك التعريف والتعرف موجبًا لمحبته، ومحبته سببًا لطاعته وعبادته، فتكون عبادته غاية لإيجاد خلقه، وموجبة لفواضل كرمه وجزائل نعمه، وموصلة إلى جنته ودار كرامته، فلم يحجب خلقه بحكمته عن واجب معرفته، وجعل لمن قبل منه نصيبًا من محبته، فكما أنه سبحانه لا من شيء كان فلا من شيء خلق ما كان، فتكلم بنفس مشيته بكلمة انزجر لها العمق الأكبر، وبدت قدرته في العالم الأكبر والأصغر، فأمكن بها الإمكان بالعلم والقدرة، وأنشأ بها الأشياء بلا فكر ولا روية، ثم قدرها بعد ما أرادها بلا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور، ثم قضاها وأودع فيها من الأسرار والغيوب، وأمضاها مشروح العلل وما مسه من لغوب، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون[1]، فسبحان الله وتعالى عما يصفون.

بيان خلق نور المحمدي ﷺ

ومن أعجب ما ابتدعه من تلك العجائب، وأكمل ما أودع فيها من الغرائب، هو نور الأنوار وسر الأسرار، المتكلم بلسان الجامعية الكبرى، وصاحب مقام قاب قوسين أو أدنى، وخلاصة الصورة والمعنى، وجامع الحقيقة للأسماء الحسنى، وقطب رحى الموحدين ومحيط مركز المقربين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا أحمد وسيدنا

---

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ سورة يس آية ٨٢.

محمد ﷺ أجمعين، اخترعه من نور ذاته، وفوض إليه أمور عباده، استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس، وانتجبه آمرًا وناهيًا عنه، أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه، إذ كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار لا إله إلّا هو الملك الجبار، قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته، واختصه من تكرمته بما لم يلحقه أحد من بريته، فهو أهل ذلك بخاصته وخلته، إذ لا يختص من يشوبه التغيير، ولا يختار من يلحقه التظنين وأمر بالصلاة عليه مزيدًا في تكرمته وطريقًا للداعي إلى إجابته فصلى الله عليه وكرم وشرف وعظم مزيدًا لا يلحقه التنفيد ولا ينقطع على التأبيد، فهو المخاطب بقوله سبحانه: (لولاك لما خلقت الأفلاك)[1] و(خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك)[2]، فهو ﷺ سر المعبود، ونقطة دائرة الوجود، وروح كل موجود.

بيان خلق أنوار الأئمة عليهم السلام

ثم إن الله سبحانه اختص لنفسه بعد نبيه ﷺ من بريته خاصة، علاهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته، وجعلهم الدعاة بالحق عليه والأدلاء بالإرشاد عليه، لقرن قرن وزمن زمن، أنشأهم في القدم قبل كل مذروء ومبروء، أنوارًا أنطقها بتحميده وألهمها شكره وتمجيده،

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦ ص٤٠٦.

(٢) مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، ص٢٨٣، ولكن ورد بهذه العبارة: (عبدي خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وهبتك الدنيا بالإحسان والآخرة بالإيمان).

وجعلها الحجج له على كل معترف له بملكة الربوبية وسلطان العبودية، واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بخوعًا له بأنه فاطر الأرضين والسماوات، وأشهدهم خلقه وولاهم ما شاء من أمره، وجعلهم تراجم مشيته وألسن إرادته، عبادًا لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون[1]، وهم صلوات الله عليهم أئمتنا وساداتنا في دنيانا وآخرتنا، الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى معادن لكلماته، وأركانًا لتوحيده، وآياته ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، لا فرق بينه وبينها إلّا أنهم عباده وخلقه، فتقها ورتقها بيده، بدؤها منه وعودها إليه، أعضاد وأشهاد ومناة وأذواد وحفظة ورواد، فبهم ملأ الله سبحانه سماءه وأرضه، حتى ظهر ألا إله إلّا هو[2]، وهم نفس نبيه صلى الله عليه وآله التي بين جنبيه، نورهم نور واحد وطينتهم طينة واحدة، وهم منه صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء، وهم الأعراف الذين لا يعرف الله

---

(١) هذا وما سبقه في ذكر النبي صلى الله عليه وآله مقتبس من خطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة والغدير رواها شيخ الطائفة الطوسي رحمه الله في مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢ ص٧٥٣ / خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير، ورواها السيد ابن طاووس في إقبال الأعمال الحسنة، ج٢ ص٢٥٥ فصل (٥) فيما نذكره من فضل عيد الغدير عند أهل العقول من طريق المنقول. كما رواها غيرهما من علماء الطائفة المحقة أعلى الله كلمتهم.

(٢) مقتبس من دعاء مولانا الحجة عليه السلام في كل يوم من رجب كما جاء في كتاب إقبال الأعمال، ج٢ ص٦٤٦: (اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك..... فجعلتهم معادن لكلماتك وأركانا لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودها إليك أعضاد وأشهاد ومناة وأزواد وحفظة ورواد فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر لا إله إلّا أنت.....إلخ).

إلّا بسبيل معرفتهم[١]، ولولاهم ما عرف الله[٢]، فمن عرفهم فقد عرف الله ومن جهلهم فقد جهل الله، ومن أحبهم فقد أحب الله، ومن أبغضهم فقد أبغض الله، ومن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، ومن كفر بهم فبالله كفر، ومن أشرك بهم فوالله بالله أشرك، لأنهم صلوات الله عليهم ظاهره فينا، ووجهه الذي يتقلب بين أظهرنا، وهم أسماؤه الحسنى، وأمثاله العليا، ونعمه التي لا تحصى، وخزائنه التي لا تفنى، وأمره الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له كن

---

(١) مقتبس من حديث عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام روي في بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم؛ عن الهيثم بن واقد عن مقرن قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ) فقال: نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عز وجل إلّا على الصراط فلا يدخل الجنة إلّا من عرفناه ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه إن الله لو شاء لعرف العباد نفسه ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا فإنهم عن الصراط لناكبون ولا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء من ذهب حيث ذهب الناس ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض وذهب من ذهب إلينا إلى عين صافية تجري بأمور لا نفاد لها ولا انقطاع) بصائر الدرجات، ج١ ص٤٩٦.

(٢) في بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم؛ ج١ ص٦١ عن عبد الرحمن بن كثير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله وأهل دين الله وعلينا نزل كتاب الله وبنا عبد الله ولولانا ما عرف الله ونحن ورثة نبي الله وعترته). وفيه، ج١ ص١٠٥ عن علي بن جعفر عن أخيه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: (إن الله خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا فأحسن صورنا فجعلنا خزانه في سماواته وأرضه ولولانا ما عرف الله). وعن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: (نحن خزان الله في الدنيا والآخرة وشيعتنا خزاننا ولولانا ما عرف الله).

فيكون، ومقامه الذي يرجع الأمر كله، بهم أنطق الله سبحانه بحمده ما نطق، ولهم خلق الله سبحانه ما خلق، وجعل إياب خلقه إليهم وحسابهم عليهم، فهم ملوك الدنيا والآخرة، من دخل في ولايتهم فقد دخل في مقعد صدق عند مليك مقتدر[١]، ومن خرج عنها فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق[٢]، فلنقبض العنان وللحيطان[٣] آذان.

بيان خلقة الملائكة وأرواح الأنبياء وغيرهم من الخلق

ثم أراد سبحانه أن يتعرف بهم صلى الله عليهم أجمعين لمن دونهم من الملائكة المقربين، وأرواح الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصالحين، وسائر الخلق أجمعين، فتجلى سبحانه بهم لها بها فأشرقت، وطالعها فتلألأت، فألقى في هويتها مثاله وأظهر عنها أفعاله[٤]، فخلق من فاضل أنوارهم نفوس الأفلاك الدائرة، وحقيقة الثوابت والسائرة، وجعل الشمس سراجًا مستطيرًا جاريًا في فلك التدبير، والقمر نورًا منيرًا مترددًا في منازل التقدير، وكلاهما دائبان

---

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ القمر، الآيتان ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج ٣١.

(٣) في المخطوطة: (وللحيتان) والظاهر أنه سهو من الناسخ.

(٤) سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن العالم العلوي فقال: (صور عارية عن المواد، خالية عن القوة والاستعداد، تجلى لها فأشرقت، وطالعها بنوره فتلألأت، وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله، وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد) عيون الحكم والمواعظ ص٣٠٤.

في الذهاب والأياب لتعلموا عدد السنين والحساب، وهما آيتان من آيات قدرته، وعلامتان من علامات سلطانه، جعل إحداهما ممحوة واخراهما مبصرة لتبتغوا من فضله ولتشكروا نعمته، وخلق الأرض في يومين، وألقى عليها رواسي من فوقها لتكون للأرض أوتادًا ولأهلها اعتمادًا، وبارك فيها من أقسام الفلزات وألوان النباتات وأنواع الحيوانات وسائر المشتهيات، وقدر فيها من المذكورات في أربعة أيام مستويات، إجابة للسائلين المضطرين، ورحمة للفقراء والمساكين، ثم استوى بوجه مشيئته إلى السماء وهي دخان مستعدة للإتيان منتظرة لأمر السلطان: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1] وجعل فيهن من السبع السيارات وأوحى في كل سماء أمرها وما يأتي منها مما أراد بها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح من أنوار الكواكب وضياء الثواقب، وحفظًا لرجم الشيطان الرجيم ذلك تقدير العزيز العليم.

بيان خلقة النبات والأشجار

ثم إنه سبحانه فتق السماء والأرض بعد أن كانتا رتقًا، فصب الماء من سحاب رحمته صبًا، ثم شق الأرض بالنبات شقًا، فأنبت فيها حبًا من إلقاء محبته في قلوب المشتاقين، وعنبًا من سكر معرفته لأفئدة العارفين، وقضبًا من ظواهر الأحكام لأهل الشريعة، وزيتونًا من تهذيب الأخلاق وعلم تزكية النفس وتصفية الروح لأهل الطريقة، ونخلًا من معرفة هياكل التوحيد لأهل الحقيقة، وحدائق غلبًا من سائر العلوم الحقيقية لأهل الحكمة الإلهية، وأبًّا من قشور العلوم للعوام،

---

(١) فصلت ١١ ـ ١٢.

متاعًا للعباد والأنعام السائمة، وبعضها معلوفة، وزينة للبلاد المعمورة والصحاري المنظورة.

بيان خلق آدم عليه السلام

ثم أراد سبحانه خلق أبينا آدم عليه السلام، فجمع من حزن[١] الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنّها بالماء حتى خلصت، ولاطها[٢] بالبلة حتى لزبت[٣]، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود وأجل معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فمثّلت إنسانًا ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يختدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الأذواق والمشام والألوان والأجناس، معجونًا بطينة الألوان المختلفة والأشياء المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة، وركب فيه جوهر عقل يدعوه إلى طاعة ربه وتحميده، وفطره على فطرة تلجؤه إلى معرفته وتوحيده، وعلمه الأسماء كلها، وبه كرمه تكريمًا وشرفه تشريفًا وفضله على كثير ممن خلقه تفضيلًا.

---

(١) الحزن: الغلظ من الأرض، مثل الحزم سواء. وقد فصل قوم فزعموا أن الحزن أغلظ من الحزم، وليس بالمعروف؛ والجمع حزون.(جمهرة اللغة؛ ج١؛ ص٥٢٩).

(٢) لاط فلان في هذا الأمر لوطًا شديدًا، أي: ألح. واللوط: مدر الحوض، يعمدون إلى الطين الحر، فيحفرون له ممدرة إلى جنب الحوض، فإذا أراد أن يملأ الحوض، وهو جاف، تقول: مدرته ولطته لئلّا ينشف الماء. والتاط حوضًا، أي: لاطه لنفسه (كتاب العين؛ ج٧؛ ص٤٥١).

(٣) لزب: اللزب: الأزبة. والأزب: الشدة والصلابة. ولزب لزوبًا، أي: لزق، والطين اللازب منه (كتاب العين؛ ج٧؛ ص٣٦٩).

ذكر إبليس وقبيله

بعد أن كان سبحانه قد أخبر ملائكته بتشريفه، وأبان فضله عليهم بتكريمه وتفضيله، وأوصاهم بالسجود له بعد تسويته، فاستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخضوع لديه، فقال اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس وقبيله، أغترّتهم الحمية وغلبت عليهم الشقوة، وتعززوا بخلقة النار واستوهنوا خلق الصلصال، ووضعوا أساس العصبية ونازعوا الله رداء الجبرية[1]، غافلين عن أن لو أراد الله سبحانه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رداؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزا بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم.

ذكر آدم عليه السلام وحواء وعدوهما إبليس ووسوسته لهما في الجنة

ثم إن الله سبحانه أعطى إبليس وقبيله النظرة المطلوبة لأهل الغفلة في الدنيا الدنية، استحقاقًا للسخطة واستتمامًا للبلية وإنجازًا للعدّة، فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[2]، ثم قال الله سبحانه لآدم عليه السلام بعد أن خلق له من نفسه زوجها حواء عليها السلام: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، وحذرهما إبليس وعداوته، فاغترهما عدوهما نفاسة

---

(١) هكذا ذكرت في المخطوطة التي بين أيدينا والأصح الجبارية والله العالم.

(٢) الحجر ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) البقرة ٣٥.

عليهما بدار القرار ومرافقة الأبرار: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

بيان خلق بني آدم عليه السلام

ثم بسط الله سبحانه لآدم عليه السلام في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المرد إلى جنته، فأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية، فخلق سبحانه من آدم ذريته من سلالة من طين، بإرسال الرياح المبشرات إلى قطع الأرض المتجاورات، فتثير من لطيف ما أخذت من الترب المختلفة والأبخرة المتصاعدة مما خلق الله سبحانه منه إيّاهم آدم عليه السلام من قبل ولم يك شيئًا، سحابًا متراكمًا، بعد أن كان مزجى ثقالًا، بعد أن كان متراكمًا، فساقه إلى بلد ميت فعصره وأخرج منه ماء نازلًا إليه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَٰنٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وعروق الأشجار، وما يخرج منها من الأثمار فجعله رزقهم الذي قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[3] فأطعمهم من طيبات ما كسبوا ومما أخرج لهم من الأرض، وبعضهم تيمم الخبيث منه في مكاسبه، فجمعه وأغمض في مطالبه، وأخذ من مصرحاته ومشتبهاته ولم يعلم أن الله غني حميد،

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) سورة يونس ٢٤.

(٣) سورة الذاريات ٢٢.

وأنه على كل شيء شهيد، وأنه لا يعمل شيئًا إلّا لديه رقيب عتيد، فأدخل سبحانه ما أطعمهم بمعونة ريق الفم ورطوبة ماء اللسان ودق الأسنان، وجذب الدبور عن ممر النحور في الليالي والأيام إلى أطراف الأجواف وأوساط الحمّام، فأمر الجنوب بتعفينه وتحليله، والدبور بتصفيته وتحليله، والصبا بإلقاء غريبه، والشمال بإمساك عقيدته، حتى جعله كيلوسًا[١]، ثم أمر الله سبحانه بلطيف حكمته وحسن صنيعته الملائكة المدبرات بتدبير شأنه وإتمام أمره، فلطفته وأجرته من مجاري العروق ومساري الأنهار إلى أرض الأكباد، فسلمته إلى أشباههن وأمثالهن من الملائكة الساكنة في تلك البلاد المأمورة بتعميرها وإصلاح أهلها، فتلقته وعملت فيه أعمالهن، وصنعت فيه ما صنعت أشباههن وأمثالهن حتى جعلته كيموسًا[٢]، وهكذا كان بين حل وعقد وتكوير وتدوير، يجري عليه حكم التقدير وحسن التدبير، حتى تمت كوراته وانتهت دوراته وسلت عنه الغرائب، خرج ماء دافقًا من بين الصلب والترائب، فلينظر الإنسان مم خلق، ثم لينظر الإنسان فيم دفق، ثم لينظر الإنسان كيف خلق، إنما خلقه سبحانه من سلالة من طين ثم خلقه من ماء مهين، ثم جعله في قرار

---

(١) الكيلوس: المواد الغذائية التي تتجمع على شكل كتلة عجينية في المعدة قبل أن تدخل الأمعاء الدقيقة، وقيل أنه أحد السوائل الجسمية، سائل لونه حليبي والذي ينزح من الأمعاء الدقيقة إلى الجهاز اللمفاوي خلال فترة الهضم.

(٢) الكيموس: الخلاصة الغذائية وهي مادة لبنية بيضاء صالحة للامتصاص تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها، وقيل هي المادة السائلة الموجودة في المعدة قبل أن تمر عبر صمام البواب ودخول الاثني عشر، حيث تقوم المعدة بسحق الطعام ومزجه بالعصارة المعدية والتي يتم إفرازها من خلايا خاصة في جدارها فيتحول إلى كتلة كثيفة القوام، وتتحرك ببطء خارج المعدة نحو الأمعاء الدقيقة.

مكين إلى قدر معلوم، فقدّرناه فنعم القادرون، والقرار المكين أرض الأرحام التي حرث فيها بذر الأنام ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1] فلما ورد على أرض الجرز[2] توجه إليه الزارعون، وتناوب عليه الساقون، وحدى له الحاديان، وكر عليه الجديدان في أربعين يومًا في ظلمات ثلاث، وكانت نطفة في قرار مكين، ثم خلق الله النطفة علقة بعد إتمام العشر والثلاثين، فخلق العلقة مضغة كذلك، فخلق المضغة عظامًا فكسا العظام لحمًا، ثم أنشأناه خلقًا آخر إبداعيًا، هو مجمع صور العالمين، فتبارك الله أحسن الخالقين، فصورة الإنسانية هي أحسن صورة خلقها الله، لأنه سبحانه خلقها على صورته وهيئة مشيئته، وهي كتابه الذي كتبه بيده، وهيكل توحيده الذي بناه بحكمته، وهي أكبر حجة الله على خلقه، وهي شاهدة على كل غائب، وأعجوبة من أعجب العجائب، وهي المختصرة من اللوح المحفوظ، والنسخة من الكتاب المسطور[3].

دواؤك فيك ولا تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين ... الذي بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك احتوى العالم الأكبر

---

(١) سورة الواقعة ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) أرض جرز، وجرزت جرزًا أي لم يبق عليها من النبت شيء إلّا مأكولًا، وأرض مجروزة، وأرض أجراز ويجمعون على سعة الأرض (كتاب العين؛ ج٦؛ ص٦٤).

(٣) عن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (اعلم أنّ الصورة الإنسانية هي أكبر حجّة الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشّاهد على كل غائب، وهي الحجّة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنار) تفسير المحيط الأعظم، ج١ ص٢٥٤.

فيا سبحان الله ما أعظم قدرته وأكمل صنعته وأحسن صنيعته، فقد كرم آدم عليه السلام وذريته تكريمًا، وفضلهم تفضيلًا، وخلقهم برحمته وغمرهم في نعمته، وأسكنهم في وسط عالمه وبحبوحة أرضه.

بيان خلق العلويات

وجعل السماء فوقهم سقفًا محفوظًا، مرفوعًا بغير عمد يدعمها، ولا دسار[1] ينظمها، وجعل الأرض تحتهم بساطًا موضوعًا، أثبتها بالرواسي أن تميد بأهلها، وزين سماء دنياهم بزينة الكواكب، ونور عالمهم بضياء الثواقب، وأدار عليهم الشمس والقمر، ورتب عليهم بروج اثني عشر، يكور عليهم الليل والنهار، وكل شيء عنده بمقدار، فكم أثبت في كل سنة من آثار الكمال، وأظهر في كل شهر من بدر وهلال، وفي كل يوم من أنوار الجمال، وفي كل ساعة من آيات الجلال، وفي كل شخص من أطوار وأحوال، وفي كل شيء من فناء وزوال، فسبحان الذي لم يزل ولا يزال، ولا يتحول من حال إلى حال، الذي رفع السماء ووضع الميزان وقال لخلقه لا تطغوا في الميزان، وهو الرحمن الذي علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان، فتلا عليه من بديع المعاني، وأعطاه بكرمه السبع المثاني، وفتح له الأبواب إلى جنات النعيم، وهداه بالقرآن إلى صراط مستقيم، وكل شيء أحصاه في إمام مبين، ورفع أركان العلم والأعلام، وأرشده إلى النجباء والنقباء الكرام، فخلق الإنسان بإقباله في أحسن تقويم، ورده بإدباره إلى أسفل السافلين، فسبحانه ما أرفع شأنه وما أعظم سلطانه، وما أتم كرمه وما أجزل وأكثر نعمه.

---

(١) في هامش المخطوطة: بمعنى وتد.

بيان خلق النباتات والأشجار

خلق خلقه أطوارًا، وأرسل السماء عليهم مدرارًا، وجعل ماء تفجرت به الينابيع وأجرى به أنهارًا، وجعل لهم الأرض قطعًا متجاورات، وجنات معروشات وغير معروشات، وأخرج لهم من كل الثمرات، وأنبت لهم أقسام الزروع وأصناف الحبوب وأنواع النبات، وأسكنهم في مساكن ذات رفعة، وأشرفهم على بساتين ذات بهجة، وأراهم من ألوان الرياحين بما لا تسع ذكره الدفاتر والدواوين، وجعل لهم لكل داء دواء، وأخرج لهم من بطون النحل شفاء، ونصب لكل أمر دليلًا، واختار لكل شخص خليلًا، وأعد لكل نفس طبيبًا، وجعل على كل شيء رقيبًا، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[١].

ذكر خلق المعادن

ثم وهب لهم ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين[٢] والعقيان[٣]، ونثارة الدر وحصيد المرجان، وغير ذلك مما لا يسعه البيان، وعجز عن نعته اللسان، وكل ذلك مذكور في القرآن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤].

ذكر خلقة الحيوانات

وخلق الله سبحانه ذلك لأفراد الإنسان ليتوسلوا بها إلى مقاصدهم

---

(١) سورة النساء آية ٦.

(٢) اللجين: الفضة (جمهرة اللغة؛ ج١؛ ص٤٩٢).

(٣) العقيان: ذهب ينبت نباتًا وليس مما يستذاب من الحجارة (المحيط في اللغة؛ ج٢؛ ص٨٥).

(٤) سورة الرحمن.

ومآربهم، وينتفعوا بها في متاجرهم ومكاسبهم، ثم إنه سبحانه برأفته وعجيب حكمته وصنعته خلق لهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[١]، وجعل فيها منافع ومشارب لعلهم يشكرون[٢]، وجعل ما تحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس إنه بهم لرؤوف رحيم[٣]، وجعلها ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين ومن الإبل اثنين، فلا الذكرين حرم عليهم ولا الأنثيين، ولا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين[٤]، وحملهم في البر والبحر تكريمًا، ورزقهم من الطيبات تفضيلًا[٥]، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا[٦]، وجعل بعضهم محتاجًا إلى بعض ليتعاونوا، وقسّم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، وفضل بعضهم على بعض في الكمالات ليتنافسوا في الدرجات ويتسابقوا إلى الخيرات، وليعلموا أن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، وآتاهم

---

(١) سورة يس ٧١ ـ ٧٢.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يس ٧٣.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ النحل ٧.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الأنعام ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء ٧٠.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ١٣.

من كل ما سألوه بألسنة فقرهم وسمة فاقتهم، ولم يكلفهم على تحصيل ما هو دون وسعهم وفوق طاقتهم.

بيان وجوب التكليف

ثم إنه سبحانه لو ترك الناس أمة واحدة يتصرفون في مننه التي لا تعد، ويتوسعون في نعمه التي لا تحصى، ولم يعرفوا قدر المنعم ولم يؤدوا شكر النعمة يخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، وهذا خلاف ما أراد بهم في خلقهم، فوجب في الحكمة تكليفهم وتعريفهم، ولزم عليه تأديبهم وتأنيبهم، وحق عليه ترغيبهم وترهيبهم.

بيان التكليف في عالم الذر

فأخذ سبحانه ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2]، فسألهم في المشهد الأعلى حين سألوه أن يسألهم، فقال بالنبي ولسانه العلي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومحمد صلى الله عليه وآله نبيكم، وعلي وليكم وأولى بكم من أنفسكم في جميع أمور دنياكم وآخرتكم، والأئمة من ولده خلفائي عليكم، قالوا بأجمعهم: (بَلَى) إلّا أنهم كانوا مختلفين في العقيدة.

فمنهم من شهدوا بالحق وهم يعلمون.

ومنهم من أظهروا الشهادة وقلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

---

(١) سورة الفرقان ٤٤.

(٢) سورة الأعراف ١٧٢ ـ ١٧٣.

فالأولون أجابوا بالإجابة الحسنى، والآخرون أهل الإجابة السوأى.

ووقف قوم بين الإجابتين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا حتى استنطق الله سبحانه طبيعتهم واستخبر سريرتهم، ويسّر لكل ما خلق له وعمل كل بعمله، وأقر من أقر فيلحقهم بالسابقين، فأنكر من أنكر فيلصقهم بالمستكبرين، فأوجدهم بقوابلهم وبما هم علمه على ما علم منهم أنهم إليه صائرون ولم يتبع أهواءهم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1]، ثم نقلهم من ذلك المشهد الأعلى، وأنزلهم إلى المشهد الأدنى وهذه الدنيا، وجعل لكل روح منهم قوتًا معلومًا مقسومًا من رزقه، لا ينقص من زاده ناقص ولا يزيد من نقص منهم زائد، وخلق الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، وأتم عقلا وأعلى معرفة، فضرب لهم في الحياة أجلًا موقوتًا، ونصب لهم أمدًا محدودًا، يتخطأون إليه بأيّام عمرهم ويرهقونه بأعوام دهرهم حتى إذا بلغوا أقصى أثرهم واستوعبوا حساب عمرهم قبضهم إلى ما ندبهم إليه من موفور ثوابه أو محذور عقابه، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا في الحياة الدنيا ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى[2]، عدلًا منه تقدست أسماؤه وتظاهرت آلاؤه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3].

---

(١) المؤمنون ٧١.

(٢) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ النجم ٣١.

(٣) الأنبياء ٢٣.

فلما استقروا في دار البلية، وسكنوا في الدنيا الدنية، وتفرقوا في طلب الآمال، واختلفوا في الأهواء والأقوال، وبنيت المدائن والبلاد، وكثرت فيها بالتناسل والتوالد من الإماء والعباد، واشتغلوا بالمكاسبة والمعاملة، وظهرت فيهم علامة المنازعة والمكالمة، واحتاجوا إلى سائس يسوسهم بالرئاسة، ورئيس تقوم به السياسة.

بيان بعث الأنبياء واحتياج الناس إليهم

فاختار الصانع الحكيم المتعالي عن مشاهدة الأبصار وملامسة الأبشار من ولد آدم عليه السلام أنبياء ومرسلين، وجعلهم مبشرين ومنذرين، وأيدهم بالآيات الظاهرات والمعجزات الباهرات، وجعل معهم علمًا يدل على صدق مقالتهم وجواز عدالتهم، ولما كان الناس عادتهم تغيير الخلقة وتبديل الفطرة، وإنكار المنعم ونسيان النعمة، والإعراض عن الآيات والتعامي عن البينات، وقطع آذان الأنعام بأمر الشيطان، فبعث الله سبحانه أنبياءه إليهم ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويمنعوهم عن تغيير خلقته، ويذكروهم حق المنعم ومنسي نعمته، ويروهم آيات المقدرة، ويبصروهم علامة القدرة، ويسمعوهم مواعظ البالغة، ويحتجوا عليهم ببالغ الحجة؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1].

بيان أن الأرض لا تخلو من حجة

ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل يأمرهم بأمره، ويزجرهم عن ارتكاب نهيه، أو كتاب منزل يرغبهم في طاعته ويرهبهم عن معصيته، ويدعوهم إلى كريم داره ومحبوب جواره، أو حجة لازمة أو

---

(١) سورة الأنفال ٤٢.

محجة قائمة، لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سُمي له من بعده أو غابر عرفه من كان قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء.

بيان بعثة خاتم النبيين ﷺ

إلى أن تعلقت مشيئة الله سبحانه أن يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته الواسعة؛ لتثير لخلقه دفائن الغيوب، ويمطر عليهم من غمام رأفته الكاملة ما يحيي به موات القلوب، ويظهر من سره المدغم ما اقتضته مشيئته في ابتداء خلق العالم، ويبعث نبيًا يختم به الأنبياء من أولاد آدم، فاختار سبحانه من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء، وسرة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة، محمدًا ﷺ، منّ به علينا دون الأمم الماضية والقرون السالفة، بالقدرة التي لا يعجزها شيء، وجعله إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، طبيبًا دوارًا قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي لا يفقهون، وآذان صم لا يسمعون، وألسنة بكم لا ينطقون، والناس كانوا كالأنعام السائمة، وكانت قلوبهم كالصخور القاسية، ووجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، وكانوا أشباحًا بلا أرواح، ونسّاكًا بلا صلاح وتجارًا بلا أرباح، وكان ﷺ يتتبع بدوائه مواضع الغفلة، ويصل بمراهمه مواطن الحيرة، ويلين بإرفاقه القلوب القاسية، ويصلح بتدبيره البطون الفاسدة، فكم من أمراض مزمنة عالجها بحذاقته، وأغراض مهلكة نزعها من مكامنها بحكمته، وكان ﷺ يشرح بهدايته من الصدور ما كان ضيقًا حرجًا، ويستقيم بتعديله من الأمزجة ما كان مائلًا عوجًا، يحيي بإذن الله من

كانوا في قبور طبيعتهم موتى، ويبرئ من خرج من بطن أمه أكمه وأعمى، ويخبرهم بما كانوا يدخرون في بيوتهم من جواهر الصدق والوفاق أو ذخائر الكفر والنفاق، وأيده سبحانه بالملك الأعظم الذي يعبر عنه بالروح الذي هو من أمر الله وروح القدس الأعلى تارة، وبالعقل الكلي وعقل الكل والروح المحمدي أخرى.

بيان معجزات النبي ﷺ

وجعل له سبحانه من الآيات الباهرات أكملها، والمعجزات الظاهرات أظهرها وأتمها، فجعله سبحانه نفسه وما له وفيه وعنه وبه ومنه وإليه كلها معجزته وآية نبوته، من عظيم الخلق وكريم الخُلق، والقدرة على الرسالة التي أداها، والقوة في العبادة التي اجتهد فيها، وتحمل المحنة التي صبر عليها، والسبق إلى المغفرة التي دعا إليها، وإكمال الديانة التي حض عليها.

ومن محامد السيرة ومحاسن الصورة واستقامة القريحة التي ليس لها اعوجاج، وعدالة الطبيعة وتعديل المزاج، وتناسب آلات البسط وأدوات القبض، وتوافق جوارح الأعمال ومصادر الأفعال.

ومن أقواله الحكيمة، وأفعاله الكريمة، ومقاماته المشهودة، وساعاته المعدودة، ومعجزاته الظاهرة، وحججه البالغة، التي صدرت عنه ﷺ في زمان بعثته وتبليغ رسالته في ظاهر نبوته، وآياته التي أراها الله في الآفاق وفي أنفس الخلق في أول ما ابتدأ به الخلق إلى انقضاء الدهر في باطن ولايته.

وبما بدأ الله به خلقه ويختم به أمره في جميع عالمه، ومما أمكن ما أمكن من علمه الإمكاني، وكوّن ما كوّن في كتابه التكويني

والتدويني، كل ذلك منه مبدؤه وإليه معاده، وكل حسب فاخر، أو نسب عالٍ، أو كريم لقب، أو حسن أدب، أو شريعة دائمة، أو سنة قائمة، أو استقامة طريقته، أو كشف حقيقته، أو أحكام واضحة، أو أعلام نيرة، أو نحو فصاحته في كلمة، أو نهج بلاغة في كلام، أو تصريف جوامع كلم، أو بيان بديع معان، أو إعراب كلمة تامة طيبة، أو هدم بناء كلمة خبيثة، أو كسر صنم معبود من دون الله، أو ضم قلم جار في طاعة الله، أو فتح باب للتحميد، أو نصب دليل للتوحيد، أو رفع علم للهداية، أو خفض راية رفعت في الضلالة، أو تحريك قلب له وقف في الغفلة، أو تسكين نفس لها ميل إلى المعصية، أو إبطال قول الفلاسفة، أو تأسيس قواعد الحكمة، أو بيان القوانين في الأصول، أو تشييد بناء المنقول والمعقول، أو تفسير الجفر والجامعة، أو إنزال المصحف لفاطمة عليها السلام، وكذلك كل ما أجراه سبحانه بحكمته في الخلق إلى يوم القيامة، وما بعدها من الأزمنة والدهور التي لا انقطاع لها، ولا تتناهى في الإمكان من أحكام المعاد ومحاسبة العباد، وإعطاء كل ذي فضل فضله في الجنة، وإيصال كل ذي حق حقه في النار، وكذا كل ما أوحي إلى نبي مرسل، أو أعطي من كتاب منزل، أو أجرى الله سبحانه على يديه من معجزة وآية من لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه وآله، كل ذلك منسوب إليه ومن آية نبوّته ومنشور ولايته صلى الله عليه وآله.

بيان أكبر معجزات النبي صلى الله عليه وآله وهو القرآن

ومن أكبر آياته، وأعظم معجزاته الذي خلّفه فينا بعد ما اختار الله سبحانه له صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده، فأكرمه عن دار الدنيا وقبضه

إليه كريمًا، وورد على ربه ﷺ سليمًا، هو ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١) وهذا القرآن الذي فيه ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) وهو الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٣) وهو الذي جعله سبحانه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد(٤)، وهو الكتاب المبارك الطيب الذي ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾(٥) ولا يشهده إلّا المقربون، وهي الصحيفة الكاملة التي لا تجد في الصحف الأولى لها نظيرًا، والنسخة الجامعة التي لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها لا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا(٦)، وهو القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله(٧)، وهو الذي ضرب الله فيه سبحانه للناس من كل مثل وما يعقلها إلّا العالمون(٨)، وهو فضل الله العظيم الذي قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ

---

(١) سورة البقرة ٢.

(٢) سورة الإسراء ٨٢.

(٣) سورة فصلت ٤٢.

(٤) اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق ٣٧.

(٥) سورة الواقعة ٧٩.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء ٨٨.

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر ١٣.

(٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ الروم ٥٨ وإلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٣.

عَظِيمًا﴾[١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢] من حطام الدنيا ومطامعها، وهي أرض الله الواسعة التي قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، وهو القرآن العجيب الذي لما استمعه الجن فقالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[٥]، وهو تبيان كل شيء، وبيان كل نور وفيء، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٦] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٧] فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن تركه وراء ظهره ساقه إلى النار.

الإشارة إلى تسمية هذا الكتاب بجوامع التفسير

وكلما سمعت من وصف ذلك الكتاب الكريم ونعت هذا القرآن العظيم مجملًا، وما ستعرفه من صفته الكاملة وفضيلته الشاملة وفي تفسيرنا هذا الذي سميناه (جوامع التفسير)، لجمعه من التفاسير والمعاني واللطائف والحقائق، والوجوه الكريمة، والبطون الحكيمة، والتأويلات العجيبات، ما لم يجمعه كتاب ولا يحويه خطاب إن شاء الله تعالى مفصلًا.

---

(١) سورة النساء ١١٣.
(٢) سورة يونس ٥٨.
(٣) سورة النساء ٩٧.
(٤) سورة العنكبوت ٢٠.
(٥) سورة الجن ١ ـ ٢.
(٦) سورة الأنعام ٥٩.
(٧) سورة يس ١٢.

[بيان بعض خصائص القرآن الكريم]

فهو في الحقيقة وصف من أوصاف نبينا ﷺ، وفضيلة من فضائله، وآية من آيات نبوته، ومعجزة من معجزاته، فسبحان الذي جعل محمدًا ﷺ عبده ورسوله، وجعل ما شاء من علمه علمه، وما أمكن في الإمكان عنده، وما كُون في الكون فعله، وما أنزله من القرآن قوله، وما أراه في الآفاق والأنفس آياته، وما قررته ضياء الثواقب، وجررته أنوار الكواكب، وكتب في صحيفة أوراق الأشجار، وأثبت في صفحة أذواق الثمار، وسطره قلم أعمال العباد، ونشر في أطراف الأرض والبلاد، وما أشرقت عليه الشمس والقمر، وما نطق به النجم والشجر، وما سمع من تسبيح الحجر والمدر، وما وصل إلينا من فضائل الأنبياء، وتليت علينا من مناقب الأوصياء، وما جاءنا من أحوال الماضين، ويأتينا من أوصاف المستقبلين، وما فعل الله سبحانه بالأولين والآخرين، ويفعل بعباده إلى يوم الدين، جعل ذلك كله محامده وممادحه، وإن الله سبحانه جعل هذا الكتاب الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، معجزه الباقي إلى فناء الدنيا، وهو الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى نورًا، وجعله مهيمنًا على كل كتاب أنزله، وفضله على كل حديث قصصه، وفرقانًا فرق به بين حلاله وحرامه، وقرآنًا أعرب به عن شرائع أحكامه، وكتابًا فصله لعباده تفصيلًا، فقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، ووحيًا أنزله على نبيه محمد ﷺ تنزيلًا، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ

(١) سورة هود ١.

حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[١] وجعله نورًا نهتدي به من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه، وتذكرة لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه، فقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣] والقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٤]، وجعله ميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، فقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[٥]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[٦]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[٧]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٨]، وجعله علم نجاة لا يضل من أَم قصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[٩]، وسهل حواشي ألسنة من قرأه بحسن عبارته، وعسر على من كذب بآياته ولم يرعه حق رعايته، فقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن

---

(١) سورة النمل ٧.
(٢) سورة إبراهيم ١.
(٣) الحاقة ٤٨.
(٤) ق ٣٧.
(٥) الإسراء ١٠٥.
(٦) الرحمن ٧.
(٧) الحديد ٢٥.
(٨) النساء ١٧٤.
(٩) النساء ١٧٥.

مُّدَّكِرٍ﴾[١] ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٢] وجعل سبحانه هذا القرآن وسيلة لعباده إلى أشرف منازل الكرامة، وسلمًا يعرجون فيه إلى محل السلامة، وداعيًا يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا يخافوا لومة لائم، والمواساة بين الإخوان، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار السرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

وغير ذلك من الآداب الحسنة والصفات الجميلة والأفعال الكريمة، مما نطق به لسان النبوة، وصدر عن معدن الفتوة والمروة، وورد عن أهل العصمة والطهارة، فإن أجابوا داعي الله بالإجابة الحسنى جعلهم من الأبرار الذين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[٣]، فإذا شربوا بها شربة تُذكرهم ما أخذ الله عليهم حين خلقهم، وأشهدهم على أنفسهم من ميثاق فطرته وعهد ربوبيته، والإقرار بما جاء به محمد ﷺ من الحق من ربهم، وأمره ﷺ أن يقول لهم بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[٤] فيتذكرون و﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[٥] فيقول لهم: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٦] فـ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٧] فيقول لهم: ﴿لَا

---

(١) القمر ٤٠.
(٢) القمر ٤٢.
(٣) الإنسان ٥ ـ ٦.
(٤) الكهف ٢٩.
(٥) الإنسان ٧.
(٦) آل عمران ٩٢.
(٧) الإنسان ٨.

﴿تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[١] ولا تريدوا بها غرضًا فاسدًا في هذه الدنيا، ولا عوضًا من عرض هذا الأدنى، فيستمعون قوله ويتبعون أحسنه ويقولون: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٢]، ويقول لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣]، فيصبرون في هذه الدنيا قليلًا ويذكرون هادم اللذات كثيرًا، ويتعبون أنفسهم في طلب الآخرة ونعيم الجنة، ويختارون خشونة الملبس وجشوبة المطعم ليجزيهم الله بما صبروا جنة وحريرًا، وناصحًا يخلص لهم النصح بأن يقول لهم تغربوا عن الأوطان في طلب العلى وسيروًا في أرض كرب وبلاء، وتحملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق، وحرارة الصيف وبرودة الشتاء، في طريق الجهاد في سبيل الله، ولا تمدوا أعينكم إلى ما متع به أزواج من الناس زهرة الحياة الدنيا للفتنة والاختبار، ورزق ربكم بما يكفيكم خير لكم مما يجمعه أهل الغفلة والأوزار، لتكونوا من المتكئين في الجنة على الأرائك ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[٤]، ودليلًا يرشدهم إلى التقرب إلى معبودهم بالنوافل، والتوصل إلى محبوبهم بالوسائل، حتى دنت عليهم ظلالها ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[٥]، وناقدًا يبصرهم في تصريف الدنانير المهلكة في تعديل أمزجتهم المعدولة، وهدم بناء عاداتهم القديمة، ودواعي إنياتهم العديمة، وكسر حلي شهوات نفوسهم الأمارة التي

---

(١) البقرة ٢٦٤.
(٢) الإنسان ٩.
(٣) آل عمران ١٤٢.
(٤) الإنسان ١٣.
(٥) الإنسان ١٤.

حملتها من زينة القوم الذين كانوا يسجدون معها للشمس من دون الله، وتعميرها على هيئة أخرى تكون مقتضية للتحميد والتمجيد، وسيرتها الأولى التي كانت مفطورة على التوحيد، حتى لا تسجد بعد للشمس والقمر ولا كوكب آخر، بل وجهت وجهها للذي فطر السموات والأرض، وجعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وصوغها على صيغة صحيحة محكمة لا تحتمل الفساد، خالصة غير مشوبة لا تشتهي إلّا ما أراد الله منها، وصرف الدراهم المعدودة في المواساة مع إخوانهم، وحل عقد مكارههم، وعقد ما يفثأ به حد شدائدهم، وبذلها في تسوية مشكاة نفوسهم، وتصفية زجاجة أرواحهم، وتقديرها على قدر ما يشاءون أن ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[1]، وطبيبًا يحميهم عن اللذات العاجلة الفانية، ويأمرهم بالصوم الشرعي الحقيقي الذي هو الكف عن الشهوات النفسانية، وقطع الهمة عن متابعة الخطوات الشيطانية، وإنزال النفس منزلة المرضى لا تشتهي طعامًا إلّا في إناء العلم، ولا شرابًا إلّا من كأس المعرفة، متوقعة في كل لحظة شفاهًا من مرض الذنوب، وطهارتها من كل كدر وغفلة، وظلمة جهالة، وحيرة تقطعها عن معنى الإخلاص لوجه الله تبارك، وصورة العبودية له تعالى قد تخففت، وتلحقت بالسابقين، واعتدل مزاجها، وفارقت الأضداد واستقامت طبيعتها، وقويت بنيتها وسكنت أعضاؤها وجوارحها، بإذاقتها مرارة الصبر عن المعصية، وذوقها حلاوة الإقبال على الطاعة، واستقرت بعد ما كانت أمارة، فألهمت فجورها وتقواها، فتكون لوامة تلوم صاحبها على ما فات منها، حتى صارت

---

(١) الإنسان ١٥ ـ ١٦.

مطمئنة في وقارها، راجعة إلى ربها بعد فرارها، راضية بقضائها وقدرها، مرضية عند مولاها لاستكمالها، كاملة بالتسليم لأمر سيدها، فإذا أكملت أيام صومها في الدنيا وجاء يوم عيدها ووقت وجوب إفطارها في الآخرة، فيهيؤ لهم ربهم مأدبة مطعمًا ومشربًا وأنهارًا وقصورًا، وأشجارًا وثمارًا، وأزواجًا وخدمًا، ويرسل إليهم ملائكة بنجب من نور، فيركبونها إلى الجنة على هيئة الملوك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ﴾ لهم ﴿أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1]، فيدخلون فيها مسرورين وفي الغرفات آمنين ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[2]، فحينئذ يُنَزل عليهم ربهم من سماء رحمته مائدة تكون لهم عيدًا لأولهم وآخرهم، ويأمر الملائكة بإفطارهم فـ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[3]، ورائدًا يريهم ماء الحياة الذي نزله الله سبحانه من باطن القرآن، وهو العلم الكشفي العياني اللدني، الذي إذا شربت منه شربة لا تظمأ بعدها أبدًا، ويدلهم على طريق النجاة الذي هو العمل الصالح الحقيقي الذي يرفعه الله إليه ويقبله، لأنه له سبحانه لم يرد به عامله إلّا وجهه الكريم، وهو في الحقيقة متابعة أهل العصمة الذين هم خير البرية، ورجال لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الأعمال الصالحة التي يعملونها ويقدمونها ليوم فاقتهم ومعادهم، لئلّا يقول أحدهم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[4] و﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ

---

(١) الزمر ٧٣.

(٢) الرعد ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) الإنسان ١٧.

(٤) الفجر ٢٤.

وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، ومجانبة طريق أعدائهم الكفرة الفجرة الذين ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٢] فهو معهم أينما كانوا لا يفارقهم ويهديهم للتي هي أقوم، ويصل بمن اتبع رضوانه سبل السلام ويدخلهم الجنة ويوردهم على عين ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[٣]، ومؤذنًا يؤذن في الناس بأعلى صوته ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾[٤] حتى يأتوا بيته الحرام، ومشاعره العظام، ومقام إبراهيم عليه السلام ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[٥] يهزون مناكبهم ذليلين ويدورون حوله مهزولين شعثًا غبرًا، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، بعد أن طهروا بيت الله الحرام الذي وضع للناس في أول الوجود للطائفين والقائمين والركع السجود، وقضوا تفثهم لخدمة المعبود، يطوفون عليه مشتاقين، ويلوذون برب البيت قائلين: لبيك اللهم لبيك، عبدك وابن عبديك، واقف بين يديك، لا ملجأ ولا محيص إلّا إليك، راجين بأن يصل بهم ربهم دار كرامته ويأمر أن ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[٦]، وأن يغمرهم في نعمة سابغة، ويدخلهم في مملكة واسعة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[٧]، وشافعًا مشفعًا يشفع لهم بأن يفتح عليهم بابًا إلى

---

(١) النور ٣٨.
(٢) النور ٣٩.
(٣) الإنسان ١٨.
(٤) آل عمران ٩٧.
(٥) الحج ٢٧.
(٦) الإنسان ١٩.
(٧) الإنسان ٢٠.

العفو والرحمة الذي سماه الله التوبة فقال سبحانه: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[١]، ويأمرهم أن يدخلوا باب الحطة، ويخصفوا من ورق الجنة التي وعد المتقين ليواري سوأتهم، ويلبسوا لباس التقوى الذي يستر عيوبهم وهو خير لهم، ويأمرهم أن يؤثروا المحبوب على ما سواه ليطهر قلوبهم فيبعثهم المقام المحمود، ويوردهم حوض الكرم والجود، فيشفع لهم عند ربهم أن يتجلى لجبل إنيتهم فيجعله دكًا، ويظهر لهم بهم بانجلاء ضياء المعرفة في فؤادهم فيخر كليم عقلهم صعقًا، ثم أفاقهم ويلبسهم بشفاعته من نوره الأخضر ثياب سندس خضرًا، وإستبرق من نور البراق صفرًا، ويحليهم أساور من فضة نوره الأبيض، ويسقيهم شرابًا طهورًا يذهب عن قلوبهم رجس محبة ما سواه ويطهرهم تطهيرًا، ويقول لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾[٢]، لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

فأنت يا أخي ممن نزل الله القرآن على نبيه ﷺ لهدايتهم تنزيلًا، ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا * وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ الأعلى ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾[٣] إن هذه تذكرة لمثلك فاتخذها إلى ربك سبيلًا وعلى معرفته دليلا، وكن من عباد الله ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾[٤]، ولا تكن من الذين هم ﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾[٥]

---

(١) التحريم ٨.
(٢) الإنسان ٢٢.
(٣) الإنسان ٢٤ ـ ٢٧.
(٤) الزمر ١٨.
(٥) الشعراء ٢١٢.

وهم عن التذكرة معرضون ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾(١)، الذين لا يتدبرون القرآن بل على قلوب أقفالها، بل ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾(٢) وفي سكرتهم يعمهون، وفي أمرهم متحيرون، وفي كل واد يهيمون، وعما يراد بهم غافلون، همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بأنوار علم القرآن الباهرة، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق من التمسك بالعترة الطاهرة، الذين قرنهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالكتاب الكريم والقرآن العظيم، وهم صلوات الله عليهم والقرآن أخوان مؤتلفان وصديقان مصطحبان لا يتفارقان حتى يردا عليه صلى الله عليه وآله حوضه الكوثر، ويسقيان منه من اتبعهما وتمسك بهما من أفراد الجن والبشر، مثلهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾(٣).

ورتل يا أخي آيات القرآن ترتيلًا؛ ليدخلك في رحمته ويخرجك من الدنيا إلى دار السلام سليما، ولا يذرك في الظالمين الذين أعد لهم عذابا أليمًا، وهم الذين لما نسوا بما ذكروا به فتح الله عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من متاع الحياة الدنيا الدنية والعلوم الظاهرية القشرية، ونسجوا بالأوتار العنكبوتية لباس التزوير، واكتسبوا به نار السعير، ونعقوا في سوق الجهلاء بالتدبير، وأخذوا قلوب الحمقاء بالتسخير، ورفعوا أصواتهم على ما نسجوه للتسعير، و﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٤)، أخذهم الله سبحانه

---

(١) المدثر ٥٠ ـ ٥١.
(٢) التوبة ٤٥.
(٣) العنكبوت ٤١.
(٤) لقمان ١٩.

بغتة، وجعل الأغلال في أعناقهم، وختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، وأراهم أعمالهم عليهم حسرة ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، وينادون في الآخرة وهم في طبقات النار محبوسون، ومن شجرة الزقوم ليأكلون، ومن الماء الحميم لشاربون، أصحاب الجنة وهم في الغرفات آمنون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون، ومما سمعت في هل أتى يشربون، ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ولا تكن من الذين وصفهم الله سبحانه في محكم كتابه ومبرم خطابه، وسوى بينهم وبين الأنعام السائمة وبعضها معلوفة، وأخرجهم عن حدود الإنسانية إلى حد البهيمية، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثم لم يرضَ بالتسوية فقال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3]، وهذه رتبة النبات المر، وتلك مرتبة المسوخ والبهمية، ثم وسمهم بأقبح السمات، ووصفهم بأخبث الصفات فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[4] وهذه رتبة الجماد الذي لا يهتدي ظاهرًا إلى المبدأ والمعاد، ثم بالغ في ذمهم وعذل في وصفهم فقال في موضع آخر: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ ثم عظم أمرهم وصغر عند عباده قدرهم فقال: ﴿أَوْ

---

(١) الكهف ١٠٤.
(٢) الأعراف ٥٠ ـ ٥٢.
(٣) الفرقان ٤٤.
(٤) الاعراف ١٧٩.

أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وهذا تفصيل بعد إجمال لا استدراك بعد سؤال، ولهذا بين سبحانه هذا الإجمال بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1] وهذه مرتبة ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[2]، ثم وصف نفسه بأحسن توصيف وعرفه بأعلى تعريف فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3] على عكس ما نسب إلى أولئك الغافلين الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ولا أن يغفر ذنوبهم كما قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5] وهم: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[6].

فتدبر يا أخي فيما سمعت مني من بعض الآيات ومن بعض المعاني الذي أشرت إليه من باب التبصير، ولا تكن أيضًا من الذين هداهم الله تعالى بإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتب عليهم فاستحبوا العمى على الهدى، وهم الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، بل في قلوبهم أمراض وفي نفوسهم أغراض، فزادهم الله أمراضهم وأظهر للمؤمنين أغراضهم فـ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ

---

(١) البقرة ٧٤.
(٢) الإسراء ٥٠.
(٣) البقرة ٧٤.
(٤) المنافقون ٦.
(٥) البقرة ٦.
(٦) النحل ٢١.

مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ إنياتهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ * (صُم) لا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، (بُكْمٌ) لا ينطقون بالعلم فيتبع ما هو أمتنه، ﴿عُمْىٌ﴾ لا يبصرون عجيب الصنع فيهتدون إلى الصانع بما هو أتقنه، (فَهُمْ) لشدة انهماكهم في متاع الدنيا وتمادي غفلتهم عن نعيم الآخرة ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾[1] عن الغفلة إلى اليقظة فيتداركون ما فات عنهم، ولا من الضلالة إلى الهدى فيحيون ما أماتوا منهم، ولا عن المعصية إلى التوبة فيغفر الله سبحانه لهم، فهؤلاء هم الذين لا ﴿يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[2]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[4]، هذه حالهم في الدنيا ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[5]، فإذا جاء يوم القيامة الطامة، ويوم الحسرة والندامة ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[6] وكان الناس فريقين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[7]، فأهل اليقظة ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[8]، وأهل الغفلة التي كانت بدنياها راضية تقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ

---

(١) البقرة ١٤ ـ ١٦.
(٢) الأنبياء ٢.
(٣) يوسف ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٤) الأنفال ٢٣.
(٥) الإسراء ٧٢.
(٦) الشعراء ٩٠ ـ ٩١.
(٧) الشورى ٧.
(٨) الحاقة ٢١ ـ ٢٤.

ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[1]، فهم في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، لا يظعن مقيمها ولا يفادى أسيرها، لا مدة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى، فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم شدة ما أحاط بهم من سرادق النار وحسرة ما فات عنهم من نعيم دار القرار، نزل بهم ما كانوا في الدنيا يجهلون، وجاءهم من أنواع العذاب ما كانوا يوعدون، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، وهم يصطرخون فيها ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[2] فيقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3]، أولم نعمركم في الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير والكتاب المنير، فذوقوا من عذاب السعير فما للظالمين من نصير، ولو رددناكم إلى الدنيا لعدتم لما كنتم عنه تزجرون، وإنكم في دعواكم هذه لكاذبون، كلما جاءكم نذير ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[4]، وكنتم في الدنيا تعرفون نعمة الله ثم تنكرونها، وتجحدون بآيات الله بعدما استيقنتها أنفسكم ظلمًا وعلوًا على الخلق وفسادًا في الأرض، وكنا نقول لكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وقلنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ

---

(١) الحاقة ٢٧ ـ ٣٢.

(٢) فاطر ٣٧.

(٣) المؤمنون ١٠٨.

(٤) البقرة ٨٧.

(٥) القصص ٨٣.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١).

وقلنا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٢).

وقلنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(٣).

وقلنا: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(٤).

وقلنا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(٥) أي حجارة الكبريت.

وقلنا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٦).

وقلنا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٧).

---

(١) الحج ١ ـ ٢.
(٢) الزلزلة ١ ـ ٨.
(٣) لقمان ٣٣.
(٤) الحج ١٩ ـ ٢٢.
(٥) البقرة ٢٣ ـ ٢٤.
(٦) آل عمران ١٨٥.
(٧) النساء ٧٨.

وقلنا : ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

وقلنا : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٢).

وقلنا : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾(٣).

وقلنا : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤).

وقلنا : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾(٥).

وقلنا : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٦).

وقلنا : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾(٧).

وقلنا : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾(٨).

---

(١) التوبة ٨٢.
(٢) الأنبياء ٤٧.
(٣) الكهف ٤٩.
(٤) المجادلة ٦.
(٥) آل عمران ٣٠.
(٦) الإسراء ١٣ ـ ١٤.
(٧) المؤمنون ١٠١ ـ ١٠٣.
(٨) النساء ١٢٣.

وقلنا: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

وقلنا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾(٢).

وقلنا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾(٣).

وقلنا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾(٤).

وقلنا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٥).

وقلنا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٦).

وقلنا: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٧).

وأنتم أيها الغافلون كنتم تسمعون أمثال تلك الآيات البينات المحكمات التي تكاد السموات يتفطرن من صلابتها وتنشق الأرض

---

(١) إبراهيم ٤٥.
(٢) هود١١٣.
(٣) الإسراء ١٨.
(٤) الكهف ٧ ـ ٨.
(٥) الرحمن ٢٦ ـ ٢٧.
(٦) الزمر ٦٨.
(٧) التوبة ٢٤.

وتخر الجبال هدا وتلعبون بها، فليس لكم رجوع إلى الدنيا ولم يبق لكم عندنا نصيب من الآخرة من نعيم الجنة لقد ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(١).

اعلم أني أطلقت عنان القلم في هذا الميدان، وأطنبت في الكلام بذكر آيات القرآن، لينتفع بها أهل اليقظة والتقوى، ولعل من سمعها من غيرهم يتذكر أو يخشى.

[الشكوى من حال الزمان]

ثم اعلم يا أخي أنا أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد كنود، يعد فيه المحسن مسيئًا، ويزداد الظالم فيه عتوًا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا، ما بقي من الإسلام إلّا اسمه، ولا من الإيمان إلّا رسمه، ولا من القرآن إلّا درسه، وكتاب الله الكريم فينا وليس فينا، وأكثر أهل زماننا ضلوا عن الطريق وغرقوا في بحر عميق، وهوت بهم الريح في مكان سحيق، تركوا من جعلهم الله لمعرفته وأحكام دينه أبوابًا، واتخذوا من دون الله أربابًا، وجازوا عن عين صافية تجري بأمر الله، وذهبوا إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، قد حملوا الكتاب على آرائهم، وعطفوا الحق على أهوائهم، يهونون كبير الجرائم، يرخصون في ارتكاب العظائم، يقولون نقف عند الشبهات وفيها وقعوا، ويقولون نعتزل البدع وفيها اضطجعوا، أراهم ينكرون ما لا يعرفون، وإن أكثر الحق

---

(١) الأحقاف ٢٠.

فيما ينكرون، يزعمون أن علومهم مستنبطة من الكتاب والسنة وهم أخذوها من أفواه أشباه الأمة، يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منه إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بِعُرىً وثيقات وأسباب محكمات، لا يقتصون بأثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي، ويزعمون أن الاعتقادات أمور عقلية لا يجوز فيها التقليد وإنما يجوز في الأحكام الشرعية الفرعية، بل لهم في تلك الأحكام أيضًا أصول وقواعد وقوانين استنبطوها بمقتضى عقولهم المتباينة وآرائهم المتخالفة وقلوبهم المتشابهة، ولأجل ذلك ترى أقوالهم كثيرة كآرائهم، وآراؤهم متخالفة كعقولهم، وعقولهم متباينةكعقائدهم، وعقائدهم فاسدة كأعمالهم، لأن بواطنهم ونفوسهم وطبائعهم مختلفة كظواهرهم وصورهم وأفعالهم، وكل واحد منهم له تحقيقات وتدقيقات واعتراضات وإشكالات ترد عليه من مفاهيم الألفاظ والعبارات، لأنهم يدورون على الألفاظ والمفاهيم، ويتوهمون أنهم تعمقوا في المعنى المقصود، غافلين من أن المفاهيم لا تصل بهم إلّا إلى عالم الصور أو المعاني دون الحقائق المقصودة، حتى أنهم ربما ذكروا في مسألة واحدة نحو عشرين قولًا ورأيًا أو أقل أو أكثر، ومعلوم أن كل ذي رأي وقول يعتقد أن قوله حق ورأيه صواب وصدق، وأنه مستنبط من براهين عقلية وقياسات يقينية مسلمة وأصول محكمة مضبوطة، ولا شك أن تلك الأقوال والآراء ليست كلها بحق وصواب، ولو كان فيها حق فهو واحد منها لا غير، مع أنهم يقولون أن الاعتقادات أمور عقلية لا يجوز فيها التقليد كما قلنا سابقًا، ومن

هنا وجب أن يختلفوا وأن لا يتفقوا، لأن عقولهم متباينة وبواطنهم مختلفة كظواهرهم، فلا يزال هؤلاء مختلفين في آرائهم وأقوالهم وعقائدهم إلّا من رحم ربك ولذلك خلقهم، مع أن إلاههم إله واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، وأمرهم سبحانه أن يدخلوا في السلم كافة، وأمرهم نبيهم ﷺ أن يتمسكوا بالثقلين الذين خلفهما فيهم وهما كتاب الله سبحانه وعترة نبيه ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، فهم صلوات الله عليهم معصومون لا يخطئون، وعالمون لا يجهلون، وذاكرون لا ينسون، وأمناء لا يغشون، وصادقون لا يكذبون، وأمرهم الله سبحانه أن يكونوا مع الصادقين في جميع المواطن.

فيا سبحان الله أأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله دينًا ناقصًا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا بما فيه أهواؤهم وعليه أن يرضى به، أم أنزل الله سبحانه دينًا تامًا فقصر رسوله ﷺ عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] وفيه تبيان كل شيء، وذكر أن الكتاب لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ

---

(١) النعام ٣٨.
(٢) النساء ٨٢.
(٣) التوبة ١٢٨.
(٤) النور ٥٤.

تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(٢) وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣)، فالقرآن فيه نبأ ما قبلهم، وخبر ما بعدهم، وحكم ما بينهم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، ظاهره حكم وباطنه علم، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلّا به، فأين يذهبون وأنى يؤفكون، ما لهم كيف يحكمون، أم لهم كتاب فيه يدرسون، بل هم قوم خصمون، فإن يروا كل آية لا يؤمنون، فـ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٤)، و﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٥)، فهؤلاء حالهم كحال شاة وقعت في أرض خضراء يرتعون ولا يرفعون رؤوسهم إلى السماء فينظرون إلى ما كتب الله سبحانه في صحيفة الآفاق، فيقرأون آياته حتى يتبين لهم الحق، ولا يرجعون إلى الآيات التي أثبتها في الأرض للموقنين، وما كتبها في ألواح نفوسهم للمبصرين، ولا يتدبرون القرآن الذي أنزله الله سبحانه عليهم ليحكم بينهم فيما كانوا فيه مختلفين، ولا يدخلون في القرى التي بارك الله فيها للسائلين المحتاجين، ولا يأخذون من القرى الظاهرة التي جعلها الله سبحانه بينهم وبين القرى المباركة وأمرهم أن يسيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟

---

(١) الحاقة ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) النجم ٣ ـ ٤.

(٣) الجمعة ٢.

(٤) الحجر ٣.

(٥) الأنعام ٩١.

أَنفُسَهُمْ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النجباء المسلمين، ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[1]، ومن عجيب أحوالهم أنهم إذا ضرب لهم مثل ضربه الله سبحانه في القرآن لأجل البيان، أو استشهد عليهم بآية من الآيات البينات المحكمات التي أراهم الله في الآفاق أو في أنفسهم، أو استدل عليهم بحديث صحيح ورد عن أهل العصمة عليهم السلام، يستهزأون به ويضحكون، ويطلبون البراهين الفلسفية والقوانين المنطقية والأفكار الشيطانية والأوتار العنكبوتية، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] ويقول: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وأعجب من ذلك أنهم مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وهؤلاء كما عرفت لا يزالون مختلفين في الدنيا في أقوالهم وآرائهم واعتقاداتهم، يبطل كل لاحق قول سابق، ويعترض كل شاهد على غائب، ويرد بعضهم على بعض، وفي الآخرة يلعن بعضهم بعضًا ويقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[3].

بخلاف أهل التصديق والتسليم الذين يأخذون عقائد دينهم واعتقاداتهم ومعارفهم وعلومهم من الكتاب والسنة فيعتقدون، ومقتضى فطرتهم بما يفهمونه من شيء واحد لا اختلاف فيه، بأن يكون كل واحد منهم طالبًا لمراد ذلك الشيء الواحد، فإنهم لا يختلفون لاجتماعهم عليه، فبنوا اعتقادهم على ما علمهم الله سبحانه

---

(١) سبأ ١٩ ـ ٢١.
(٢) البقرة ١٥.
(٣) الزخرف ٣٨.

من لدنه وأراهم من آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وعلى ما عرفهم في كتابه ووصف لهم من نفسه وأخبرهم [على] لسان نبيه وأوصيائه صلى الله عليه وعليهم أجمعين، ومن بنى اعتقاده على ما ذكرنا فقد بناه على شيء واحد لا اختلاف فيه كما أشرنا إليه، وهو بناء محكم أسس على تقوى من الله ورضوان، وكلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأولئك على هدى من ربهم وعلى طريقة واحدة وأمر جامع، لأن كلام الله سبحانه وسنة نبيه وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم يجمعهم على طريق واحد وعقيدة واحدة ونقطة علم كثرها الجهال، وأولئك هم المفلحون، بخلاف الذين كان بناء اعتقادهم على ما يخطر على خواطرهم من غير أمر جامع ترجع تلك الخواطر إليه، فإنهم ليسوا على طريق واحد وعقيدة واحدة، بل طرقهم كثيرة وعقائدهم مختلفة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1]، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وعلة ذلك كله أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وتركوا أحاديث أهل بيت نبيهم ﷺ، وذهبوا إلى عيون كدرة، وأخذوا علومهم واعتقاداتهم من أفواه أشباه الناس وآراء أهل البدع والقياس، فوقعوا في اشتباه والتباس، وضلوا عن طريق الهدى ولم يعرفوا دليلًا، وأضلوا كثيرًا من الناس، ولم يتخذوا مع الرسول سبيلًا، مع أن الرسول ﷺ أوصى لهم بالكتاب والتمسك به كما رواه محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه في الكافي بإسناده عن الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَيهَا الناسُ إِنكُمْ فِي دَارِ هُدْنَةٍ، وَأَنْتُمْ عَلَى ظَهْرِ سَفَرٍ، وَالسيْرُ بِكُمْ سَرِيعٌ،

---

(١) الحشر ١٤.

(٢) التوبة ١١٠.

وَقَدْ رَأَيْتُمُ الليْلَ وَالنهَارَ وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ يُبْلِيَانِ كُل جَدِيدٍ، وَيُقَرِبَانِ كُل بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُل مَوْعُودٍ، فَأَعِدوا الْجَهَازَ[١] لِبُعْدِ الْمَجَازِ.

قَالَ فَقَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا دَارُ الْهُدْنَةِ؟

قَالَ: دَارُ بَلَاغٍ وانْقِطَاعٍ، فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ الليْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنهُ شَافِعٌ مُشَفعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدقٌ، وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النارِ، وَهُوَ الدلِيلُ يَدُل عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ، وَهُوَ الْفَصْلُ [و][٢] لَيْسَ بِالْهَزْلِ، وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ، ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، له تخوم وعلى تخومه تخوم[٣]، لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ فِيهِ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَمَنَارُ الحكمة وَدَلِيلٌ عَلَى الْمَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصفَةَ فَلْيَجْلُ جَالٍ بَصَرَهُ وَلْيُبْلِغِ الصفَةَ نَظَرَهُ يَنْجُ مِنْ عَطَبٍ وَيَتَخَلصْ مِنْ نَشَبٍ فَإِن التفكرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظلُمَاتِ بِالنورِ فَعَلَيْكُمْ بِحُسْنِ التخَلصِ وَقِلةِ الترَبصِ)[٤].

أقول: ماحل: أي يمحل بصاحبه إذا لم يتبع ما فيه، أعني يسعى به إلى الله تعالى، وقيل معناه خصم مجادل.

والأنيق: الحسن المعجب.

---

(١) وأما جهاز العروس وجهاز السفر فيفتح ويكسر (منه قدس الله نفسه).

(٢) لا توجد في نسختنا من الكافي.

(٣) هكذا أوردها المصنف قدس سره، وفي الأصل: (لَهُ نُجُومٌ وَعَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ).

(٤) الكافي، ج٢ ص٥٩٨ كتاب فضل القرآن. الوافي ج٩ ص١٧٠١. تفسير الصافي ج١ ص١٥ المقدمة الأولى في نبذ مما جاء في الوصية بالتمسك بالقرآن وفي فضله.

والتخوم: بالمثناة الفوقانية والمعجمة، جمع تخم بالفتح وهو منتهى الشيء.

لمن عرف الصفة: أي صفة التعرف والتعريف وكيفية الاستنباط.

والعطب: الهلاك.

والنشب: الوقوع فيما لا مخلص منه.

بيان كيفية السلوك
[وذكر لقائه مع أستاذه الشيخ الأوحد الأحسائي]

أما بعد، فاعلم يا أخي أني كنت في ريعان الشباب وصفو عيش من الأحباب، طالبًا لصحبة الكرام ومحبًا للعلماء الأعلام، وكان العلم وأهله في عيني عظيمين، والجهل وأهله عندي حقيرين، وكنت إذا رأيت شخصًا كانت الدنيا في عينه حقيرة يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكانت نفسي مشتاقة إلى رياض الحكمة والشرب من حياض المعرفة، فخدمت العلماء وطلبت علومهم، ونظرت في كتبهم فرأيت رسومهم، ثم حال بيني وبين مطلوبي طلب الدنيا وأعراضها، وابتليت بأغراضها وأمراضها، فطلبت الميسور وتركت المعذور وجربت الأمور، وباشرت الأشغال وصحبت الرجال وضيعت عمري في طلب الآمال، وذقت مرارة الأشياء وحلاوتها، فما زلت أفكر في العواقب وأسير في المراتب حتى رأيت العجائب، فما رأيت شيئًا أسرع ذهابًا وأعجل زوالًا من العمر والدنيا، وما رأيت شيئًا أقرب من الموت والآخرة، ورأيت خير الدنيا والآخرة في الحياة الطيبة وهي القناعة، ورأيت شر الدنيا والآخرة في الميتة الخبيثة وهي الغفلة،

ورأيت أقصر الناس عمرًا من ضيع أوقاته بليت ولعل وسوف، وكنت أداوم على قراءة هذه الأبيات لبعض أجلاء السادات رحمة الله عليه:

يا حليمًا ذا أناة واقتدار ليس يعجل
عبدك المذنب مما قد جناه يتنصل
كاد أن يقنط لولا سعة الرحمة يأمل
باء بالخسران عبد مهل المولى فأهمل
إن في ذلك لسرًا من يخاف الفوت يعجل
ملت التوبة من سوف ومن ليت ومن عل
تهت في بيداء تقصيري وهل يرشد من ضل
أدخلتني النفس لكن منهج المخرج أشكل
كلما أقبل عام أتمنى عام أول
فإذا أقبل عام كان مما فات أخمل
ليتني أجهل علمي أو بما أعلم أعمل
فعلى عفوك لا الأعمال يا رب المعول
فعسى جرح ذنوبي بمسيح العفو يدمل
لو برضوى بعض ما بي لتداعى وتزلزل
غير أني بالنبي المصطفى أشرف مرسل
وعلي وبنيه يا إلهي أتوسل
وبهم يا واسع الرحمة ثبت قد ما زل
وامنح الغفران يا من يغفر الذنب وإن جل
لست أقفو إثر قوم غيرهم في العقد والحل
عجل الفوز بهم لي وعلى أرواحهم صل

وكانت تذهب أيامي وتمضي أعوامي، حتى هدرت الحمامة، وصاح الديك، ونعق الغراب، ونشرت أجنحة الطاووس، وغارت النجوم، وزالت الهموم، وانشق الفجر وطلع الصبح، فقلت: يا نفس حتى متى وإلى متى تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة، وتعدني ترك الجفاء ولا أجد منك الوفاء.

فقالت مجيبة: لا تأس على ما فات وتشمر لما هو آت، فإن بقية عمر المرء لا ثمن لها يدرك بها ما فات ويحيي بها ما أمات. فقدمت على المطلوب أشد إقدام، وقمت على الساق والأقدام، فشرعت في قراءة كتب القوم والنظر في علومهم، فلم أزل أجمع من هنا ومن هنا، وآخذ من هذا ومن هذا، فلم أجد من علومهم إلّا رسومًا ولا من رسومهم إلّا همومًا، ونظرت في أخبار أهل العصمة عليهم السلام فوجدتهم يقولون: (إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان)[1]، وسمعت الله سبحانه يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[2]، ويقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3]، ويقول: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[4]، وسمعت منهم عليهم السلام يقولون: (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله) أو (لكفره) على اختلاف الروايتين (ولقد آخا بينهمارسول الله صلى الله عليه وآله)[5].

---

(١) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٢٢ باب ١١ في أئمة آل محمد ع حديثهم صعب مستصعب.

(٢) الأنعام ٩١.

(٣) محمد ١٩.

(٤) الزخرف ٤٥.

(٥) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٢٥ باب ١١ في=

ويقولون: (إن أمرنا هو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، وهو الحق وحق الحق).

و(إن أمرنا هو السر وسر السر، وسر المستسر وسر مقنع بالسر).

وسمعت هذه الأبيات المنسوبة إلى مولانا سيد الساجدين عليه السلام:

إنـي لأكـتـم مـن سـري جـواهـره
كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا
لـقـد تـقـدم فـي هـذا أبـو حـسـن
إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
ورب جـوهـر عـلـم لـو أبـوح بـه
لـقـيـل لـي أنـت مـمـن يـعـبـد الـوثـنـا
ولاسـتـحـل رجـال مـسـلـمـون دمـي
يـرون أقـبـح مـا يـأتـونـه حـسـنـا

وسمعت أمير المؤمنين عليه السلام عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأكمل التحيات يقول: (انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ أبوح[1] بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَة في طوىً بعيدة)[2].

ويقول عليه السلام لكميل بن زياد النخعي قال: (كُنْتُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ وَقَدْ صَلَيْنَا عِشَاءَ الْآخِرَةَ فَأَخَذَ بِيَدِي حَتى خَرَجْنَا مِنَ الْمَسْجِدِ فَمَشَى حَتى خَرَجَ إِلَى ظَهْرِ الْكُوفَةِ

=أئمة آل محمد عليهم السلام حديثهم صعب مستصعب. الكافي، ج١ص ٤٠١ باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب.

(١) هكذا أورده المصنف قدس سره، وفي الأصل: (بُحْتُ).

(٢) نهج البلاغة، ص٥٢ / خلقه وعلمه. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ص٥٦

لَا يُكَلمُنِي بِكَلِمَةٍ فَلَما أَصْحَرَ تَنفسَ الصعداء ثُم قَالَ: يَا كُمَيْلُ إِن هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا احْفَظْ عَني مَا أَقُولُ لك الناسُ ثَلَاثَةٌ عَالِمٌ رَبانِيٌ وَمُتَعَلمٌ عَلَى سَبِيلِ النَجَاةِ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُل نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُل رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، يَا كُمَيْلُ العلم دين يُدَانَ اللهُ به وبِهِ يكسب الإنسان الطاعة في حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وفاته، يَا كُمَيْلُ مَاتَ خُزانُ الْأَمْوَالِ وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، آه آه إِن هَاهُنَا وَأَشَارَ عليه السلام بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَعِلْمًا جَمًا لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أُصِيبُ لَهُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدينِ فِي الدنْيَا، يَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَبِنِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ أَوْ مُنْقَادًا للحق لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ينقدح الشك فِي قَلْبِهِ بِأَولِ عَارض شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، أو مَنْهُومٌ بِاللذاتِ سَلِسُ الْقِيَادِ لِلشهَوَاتِ أَوْ مُغْرًى بِالْجَمْعِ وَالِادخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدينِ في شيء أَقْرَبُ شَبَهًا بهما الْأَنْعَامُ السائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللهُم بَلَى لَا تخلو الْأرض مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجةٍ ظَاهِرٍ أَوْ خائف مَغْمُورٍ لِئَلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَينَاتُهُ وأين أولئك، أولئك والله الْأَقَلونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ خَطَرًا بِهِمْ يَحْفَظُ اللهُ حُجَجَهُ وبيناته حَتى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ وبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وصَحِبُوا الدنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلقَةٌ بِالْمَحَل الْأَعْلَى أولئك خُلَفَاءُ اللهِ فِي أرضهِ وَالدعَاةُ إِلَى

دِينِهِ، آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ثُم نَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي وَقَالَ انْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ)[١] انتهى.

وكنت أنظر في هذه الآيات والأخبار التي لا تهتدي العقول إليها سبيلًا، وإنما تدركها الأفئدة المستنيرة بنور ربها، وكنت أتدبر في معانيها، وأسرح بريد فكري في مشارقها ومغاربها، وأقلب وجه قلبي في سماء مقاصدها ومطالبها، ونظر فؤادي في مطالع شموسها ومنازل بدورها وبروج كواكبها، لعل قلبي يستنير من أنوار نجومها ويتأثر من ضياء ثواقبها، فحفظت منها شيئًا وغابت عني الأشياء، ولم أهتد إليها سبيلًا، ولم أجد لنفسي مرشدًا ودليلًا، فقلت يا رب الأرباب ويا إله الآلهة ويا سيد السادات ويا ملك الملوك ويا جبار الجبابرة، أنا عبدك الحقير الفقير المسكين الضعيف عملًا، الجسيم أملًا، خرجت من يدي أسباب الوصلات إلّا وصلة رحمتك، وتقطعت عني عصم الآمال، إلّا ما أنا معتصم فيه من فضلك، وقد أتيتك بنفس خاشعة ورقبة خاضعة، وظهر مثقل من الخطايا، واقفًا بين الرغبة إليك والرهبة منك، وأنت أولى من رجاه وأحق من خشاه واتقاه، فأعطني يا رب ما رجوت، وآمني ما حذرت، وعد علي بعائدة رحمتك، بحق سيدي محمد حبيبك وعلي وليك وفاطمة حبيبتك والحسن والحسين والأئمة من ولده أولياؤك وحججك على جميع خلقك صلواتك عليهم أجمعين، إنك أكرم المسؤولين وخير المأمولين[٢].

---

(١) الخصال، ج١ ص١٨٦ الناس ثلاثة.

(٢) اقتباس من دعاء مولانا وإمامنا زين العابدين بعد صلاة الليل الذي أوله (اللهم يا ذا الملك المتأبد) إلى أن يقول عليه السلام: (و هذا مقام من استحيا لنفسه منك وسخط عليها ورضي عنك فتلقاك بنفس خاشعة ورقبة خاضعة وظهر مثقل من الخطايا واقفا بين=

فالله سبحانه آمال سحاب رحمته نحو دار العبادة، وأنال أهلها شرف السعادة، وأحيى قلوبهم بماء الحياة، ووصل بهم إلى طريق النجاة، فأول من أعطاه الله سبحانه مفتاح الوصول، وشرفه بخدمة كافل أيتام الرسول ﷺ، هذا العبد المبتلى بالبلايا والمحن، المسمى بأبي الحسن غفر الله ذنوبه وستر عليه في الدنيا والآخرة عيوبه، وعصمه من زلل التعبير، ووفقه لإتمام هذا التفسير، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وأعني بذلك المفتاح الذي به الفلاح والنجاح، ذا القابلية العظيمة، والدرة المكنونة اليتيمة، والمرآة الصافية الكريمة، الكامل في ظاهر التفسير والتنزيل، والراسخ في علم الباطن والتأويل، إحدى القرى الظاهرة، الواسطة بيننا وبين القرى المباركة التي أمرنا أن نسير فيها ليالي وأيامًا آمنين، مشيد دعائم الإسلام والدين، والحجة علينا من الحجة على الخلق أجمعين، سمي خيرة رب العالمين، الشيخ أحمد بن المقدس المطهر الشيخ زين الدين الأحسائي أعلى الله مقامه وأعظم في دار كرامته إكرامه، وأجزل عليه إنعامه، وبلغه ما يتمناه، ومكنه في الآخرة لما يشاء، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير آمين يا رب العالمين.

فلما وصلت إلى خدمته وتشرفت بحضرته وفزت ببعض معرفته، صار الخبر لي عيانًا، والغيبة شهودًا، والمطلوب حاصلًا، والمأمول محصولًا، والمنقول معقولًا، فقلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(١).

=الرغبة إليك والرهبة منك وأنت أولى من وثق به من رجاه وأمن من خشيه واتقاه فأعطني يا رب ما رجوت وآمني مما حذرت وعد علي بعائدة رحمتك إنك أكرم المسؤولين) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد؛ ج١ ص١٨٩.

(١) الأعراف ٤٣.

ثم اعلم يا أخي أنه أعلى الله مقامه كان أويس عصره، وسلمان دهره، ووحيد أيامه، وفريد أعوامه، أزهد الزهاد، وفخر العباد، ومفتاح النجاة، وعين الحياة، مؤسس أساس الحكمة، وماحي أوهام الفلاسفة، جامع مكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الآداب، وصاحب الأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، شريف النسب، وكريم الحسب، ويعسوب قبائل العرب.

يا سائلي عن وصف شيخي سيدي وإمامي
قد حار في وصفه عقلي وأوهامي
لو جئته لرأيت الناس في رجل
قد ضل فيه عقول الخاص والعام
كل فقيه وكل ذي حكمة
وكل ذي علم عنده كعوام
من بعد فكرته وهم وسفسطة
وباطل كل أفكار وأفهام
وكل فقه ورأي وكل معرفة
وكل علم وحكمة وكل كلام
وكل قول وتعبير وتفسير
من بعده تأويله أضغاث أحلام
طوبى لأيامنا كنا نسير
إلى إحدى القرى في ليال وأيام
لا عيش بعد وجوده في دهرنا
تهنأ كما لا خير في الأعوام

ذم الـدهـور وأهـلـهـا ومـتـاعـهـا
والـعـيـش بـعـد أولـئـك الأيـام
يـا عـيـن جـودي بـالـبـكـاء لـفـقـد مـن
تـهـريـق عـبـرتـهـا عـيـون أنـام
والـلّـه كـنـت لـنـا أبًـا فـهـجـرتـنـا
وحـشـرتـنـا فـي زمـرة الأيـتـام
قـد كـان فـيـك شـفـاؤنـا فـتـركـتـنـا
مـع جـمـلـة الأمـراض والأسـقـام
يـا لـيـت شـيـخـي يـرى نـحـيـبـي وعـبـرتـي
أو بـلـغ الله عـنـي تـحـيـتـي وسـلامـي

والحاصل أنه أعلى الله مقامه كان شأنه التجافي عن دار الغرور، وحاله الإنابة إلى دار السرور، وشغله الاستعداد للموت حتى نزل به، وإذا سكت كان سكوته فكرًا، وإذا نطق كان نطقه حكمة، وإذا نظر كان نظره عبرة، وكان بدنه الشريف معنا، وقلبه الفارغ معلقًا بالملأ الأعلى، بلى

لـلـه تـحـت قـبـاب الأرض طـائـفـة
أخـفـاهـم عـن عـيـون الـنـاس إجـلالا
هـم الـسـلاطـيـن فـي أطـمـار مـسـكـنـة
جـروا عـلـى فـلـك الـدوار أذيـالا
هـذي الـمـكـارم لا ثـوبـان مـن عـدن
خـيـطـا قـمـيـصـا فـعـادا بـعـد أسـمـالا
هـذي الـمـكـارم لاقـعـبـان مـن لـبـن
شـيـبـا فـعـادا بـعـد أبـوالًا

بيان أصول المعاملات

فإذا عرفت هذا فاعلم أنك إذا أردت أن تعرف معاني الكتاب ولطائفه، وتصل إلى دقائق الخطاب وحقائقه، فلا يمكن لك الوصول إلى ذلك إلّا أن تزهد في الدنيا وتبيع متاعها الفانية بالمدينة الحصينة، وهو القلب المجتمع، ولا يحصل لك هذا إلّا أن يكون همك همًا واحدًا، وهو أن تطلب تجارة لن تبور، وتعرف أصول المعاملات، وتصرف رأس مالك الذي هو عمرك فيها، وهي أعني أصول المعاملات عشرة، ونحن نذكرها لك على سبيل الاقتصار والاختصار لتكون على بصيرة في أمرك، فنقول:

الأول: معاملتك مع ربك الذي خلقك.

والثاني: معاملتك مع نبيك الذي أدبك وسواك.

والثالث: معاملتك مع أئمتك الذين هم أولياؤك وساداتك.

والرابع: معاملتك مع كتابك، وهو كتاب الله الذي أنزله سبحانه على نبيك صلى الله عليه وآله لهدايتك.

والخامس: معاملتك مع دينك الذي هو عصمة أمرك.

والسادس: معاملتك مع نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك وأعزها عليك.

والسابع: معاملتك مع أبويك وأهلك وأقاربك.

والثامن: معاملتك مع إخوانك في الدين وسائر أهل مذهبك.

والتاسع: معاملتك مع دنياك التي هي دار بليتك واختبارك.

والعاشر: معاملتك مع آخرتك التي هي دار قرارك وعاقبة أمرك.

بيان المعاملة مع الرب عز وجل

أما معاملتك مع ربك سبحانه فأن تعلم أنه لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار، ولا يلحق أحد وصفه من معاينة، ولا يجد أحد كيف هو من سر وعلانية إلّا بما دل عز وجل على نفسه، وبما وصف نفسه به في كتابه التكويني والتدويني، فانظر يا أخي فما تبين لك مما كتب الله سبحانه في كتاب الآفاق وفي ألواح وجودك وحروف نفسك، ووجدت له شاهدًا في القرآن العظيم والكتاب الحكيم، فائتم به واستضئ بنور هدايته، فإنه يهدي للتي هي أقوم، ويوصلك إلى صراط مستقيم، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك.

واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علمًا، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخًا، فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين، هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطر الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت معرفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا

تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته، فاقتصر يا أخي على ما أراد الله منك من معرفته، وبما وصف به نفسه لك بك، وبينه في كتابه بلسان نبيه وأوليائه صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وجاهد في سبيل معرفة الله وتوحيده في مراتبه الأربعة: توحيده في ذاته، وتوحيده في صفاته، وتوحيده في أفعاله، وتوحيده في عبادته، فـ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له، لأنه لو كان له شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته.

ثم اعلم أنه سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، فلا ترى في خلقه نورًا إلّا نوره، ولا تسمع فيه صوتًا إلّا صوته، ولا تجد فيه ذاتًا ولا صفة إلّا صفاته وآثار صفاته، وهذا هو توحيده في صفاته.

وأما توحيده في أفعاله فاعلم أنه خالق كل شيء، وما أمره إلّا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب، وما خلقنا ولا بعثنا إلّا كنفس واحدة، وما ترى من أفعال خلقه فهي أفعاله بهم، لأنه سبحانه ألقى في هوية خلقه مثاله فأظهر عنهم أفعاله، والخلق كلهم رقود وهو سبحانه يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا، وهو سبحانه وحده ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾[1].

وأما توحيده في عبادته سبحانه فإن كنت ترجو لقاء ربك فلتعمل عملًا صالحًا ولا تشرك بعبادة ربك أحدًا، ولا تكن من الذين أخبر الله عنهم في كتابه فقال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[2].

---

(١) القصص ١٥.

(٢) يوسف ١٠٦.

فإذا عرفت ربك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره، وقلة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربه في طلب طاعته، والرهبة من عقوبته، والشفقة من سخطه، فإنه لم يأمرك إلّا بحسن، ولم ينهك إلّا عن قبيح، فلا تصفه بغير ما وصف به نفسه، ولا تظن به إلّا الظن الحسن، فإنه عند ظن عبده به إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ولا تكره شيئًا من قدره وقضائه.

واعلم أن ما يقدره لك وأجراه عليك هو الذي فيه صلاحك في دنياك وآخرتك، فاتق الله فيما بينك وبينه، فلا تعتمد على غير الله في شيء قل أو جل، وارفع همتك عن الاعتماد على شيء سوى الله، فإن ما سوى الله ليس شيئًا إلّا بالله، فاتق الله أن ترى لغير الله شيئية في كل حال وفي كل لحاظ إلّا به، لأنه هو الشيء بحقيقة الشيئية وكل ما سواه فشيئيته إنما هي بمشيئته، إذ كان الشيء من مشيئته.

واعلم أن أكرم العباد عند الله أتقاهم، وليس بينه وبين أحد قرابة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾(١)، فلا تصرف عمرك إلّا في عبادته وطلب معرفته فإنه يقول: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾(٢)، فاعلم أن وعده حق وقوله صدق، فاسكن إلى وعده، وارض بقوله، واشتغل بما له عليك عما لك عليه، ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ من شبابك وعمرك وحياتك وصحتك وقوتك ونشاطك وجميع ما أنعم الله به عليك ﴿مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ

---

(١) الطلاق ٢ ـ ٣.

(٢) الذاريات ٥٦ ـ ٥٨.

وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[١]، وجاهد في سبيل ربك فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

بيان المعاملة مع النبي ﷺ

وأما معاملتك مع نبيك ﷺ أن تعلم أنه رسول كريم، وأنه بك وبجميع المؤمنين رؤوف رحيم، وأن أحدًا لم ينبئ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه نبيك ﷺ، فارض به رائدًا، وإلى النجاة قائدًا، وأن الله سبحانه انتجبه آمرًا وناهيًا، أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[٣].

واعلم أنه ﷺ لم يدع لك نصيحة، وأنك لم تبلغ في النظر لنفسك وإن اجتهدت مبلغ نظره لك، فما أمرك بشيء إلّا ما فيه نجاتك، وما نهاك عن شيء إلّا ما منه هلاكك، فائتمر بما أمرك به، وانته عما نهاك عنه.

واعلم أن الله سبحانه جعل مبدأك منه، ومعادك إليه، وحسابك عليه، وثوابك عنده، وإنما خلقك له، فأوجب على نفسك طاعته، وألزم قلبك محبته، ووال من والاه، وعاد من عاداه، واعتقد أنه أشرف الموجودات، وعلة الممكنات، وسيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وأن الله سبحانه ختم بنبوته نبوة كل نبي، وقطع بشريعته شريعة كل رسول، وجعل حلاله حلالًا إلى يوم القيامة، وحرامه حرامًا إلى يوم القيامة، وجعل له طريقة مستقيمة، لو استقام

---

(١) القصص ٧٧.
(٢) العنكبوت ٦٩.
(٣) الحشر ٧.

عليها أحد لأسقاه الله ماء غدقًا، ففي شريعته جميع محاسن الآداب، وصوالح الأعمال والأفعال، وفي طريقته جملة مكارم الأخلاق ومحامد الخصال، فما أعظم منة الله تعالى عندنا حين أنعم به علينا سلفًا نتبعه، وقائدًا نطأ عقبه، فتأس بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله في جميع أخلاقك وأعمالك وأفعالك، فإن هذا صراط ربك مستقيمًا فاتبعه، ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله، وفوض جميع أمورك إلى ربك، فإنه بك بصير ولا ينبؤك مثل خبير.

بيان المعاملة مع الأئمة عليهم السلام

وأما معاملتك مع أئمتك عليهم السلام أن تعلم أنهم أمناء الله سبحانه بعد نبيه صلى الله عليه وآله في ملكه، وحججه على خلقه، وخلفاؤه في أرضه، وساسة عباده، وأركان بلاده، وأبواب فيضه، وتراجمة وحيه، ومعاني أفعاله، ومعادن كلماته، وألسن إرادته، ومحال مشيئته، وخزان علمه، وهياكل توحيده، وآيات معرفته، ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، والأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتهم، وإنهم الذين ما اجتبى الله سبحانه آدم عليه السلام بعد قبول توبته، وما أنجى نوحًا ومن معه في سفينته، وما استحكم لإبراهيم عليه السلام نبأ خلته، وما ألبس حلة الاصطفاء كليمه موسى بن عمران، وما جعل عيسى ناطقًا في المهد ومباركًا أين ما كان، وما بعث النبيين مبشرين ومنذرين في كل زمان، وما نصرهم على أعدائهم في كل أوان، إلّا بقبول ولايتهم، والذين خلق الله لهم سائر بريته، وفرض طاعتهم على جميع خلقه، وجعل مودتهم أجر رسالة نبيه صلى الله عليه وآله، فاتخذهم إلى ربك سبيلًا، وعلى معرفته دليلًا، وفي جميع أمورك وكيلًا.

واعلم أن الله سبحانه لا يقبل عمل عامل وإن اجتهد في عبادته إلّا بولايتهم والبراءة من أعدائهم، وأنهم شهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، وأن إياب الخلق إليهم وحسابهم عليهم، وأنهم ملوك الدنيا والآخرة، وقسيموا النار والجنة.

بيان المعاملة مع كتاب الله سبحانه وتعالى

وأما معاملتك مع كتاب الله سبحانه فأن تجعله إمامًا تقتدي به في الاعتقادات، ونورًا تمشي به في الظلمات، ودليلًا تستدل به على جميع آرائك وأقوالك، وميزانًا تزن به سائر أعمالك وأفعالك، وأمينًا تعتمد عليه في جميع أمورك، وسفينة تنجيك عن ورطة غرورك، وقرآنًا تعرف به شرائع الأحكام، وفرقانًا تفرق به بين الحلال والحرام، وقائدًا يجوز بك عن أليم نار الله، ورائدًا يوردك إلى كريم جوار الله، وشفاء تستشفي به من مرض الذنوب، وطبيبًا تلتمس به سلامتك عن العيوب، وكريمًا يهب لك حسن شمائل الأبرار، ونديمًا تستأنس به آناء الليل وأطراف النهار، وماء يطهرك عند الموت عن دنس الخطايا والوسخ، ومصباحًا ينور في قبرك وتمشي به في ظلمات البرزخ، وسببًا تجزى به النجاة في عرصة القيامة، ووسيلة تقدم بها على نعيم دار المقامة، وسلمًا تعرج به إلى درجات المقربين، وتزاحم به الأنبياء والمرسلين، وشفيعًا يدخلك في جوار أئمتك الطيبين الطاهرين، ومن جملة معاملتك معه أن تقرأه وتنظر في المصحف، لأن النظر فيه عباده، وأن ترتله ترتيلًا، ولا تقرأه هذرمة، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسأل الله سبحانه الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله

من النار، وأن تبينه تبيينًا ولا تهذه هذ[١] الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن فزع قلبك القاسي بالآيات القارعة، ولا تكن همك آخر السورة، لأنه الذي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢] لكان هذا القرآن.

واعتبر بكل ما ذكره الله سبحانه أو أشار إليه في ظاهره وباطنه وتأويله من أحوال الماضين وأعمالهم التي صدرت من أخيارهم أو أشرارهم، وما فعل الله بهم من اختبارهم.

ثم اعلم أن سنة الله تعالى في الأولين والآخرين واحد، ولا تجد لسنة الله تبديلًا.

وحسن بالقرآن صوتك، لأن لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن.

واقرأ القرآن بألحان العرب، وإياك ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، الذين يرجعون القرآن بترجيع الغناء والنوح والرهبانية، وهؤلاء قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم، وزين القرآن بصوتك.

واعلم أن القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأته فابك، فإن لم تكن من الباكين فكن من المتباكين، وعليك بالخضوع عند القرآن، وترقيق قلبك، وأنشيء الحزن في ظاهرك وباطنك، والخوف والوجل في سرك، وزيادة الإيمان في قلبك ولسانك وجميع جوارحك، لأن من

---

(١) هذذ: استعمل من معكوسه: هذ الشيء يهذه هذا، إذا قطعه قطعا سريعا. ومنه هذ القرآن يهذه، إذا أسرع قراءته.(جمهرة اللغة؛ ج١؛ ص١١٩).

(٢) الرعد ٣١.

قرأ القرآن ولم يفعل ما ذكرنا فقد استهان بعظم شأن الله تعالى، وخسر خسرانًا مبينًا.

وأنت يا أخي تحتاج في قراءة القرآن إلى ثلاثة أشياء.

قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال.

فإذا خشع الله قلبك فر منك الشيطان الرجيم، وإذا تفرغ نفسك من الأسباب الشاغلة تجرد قلبك للقراءة فلا يعرضك عارض فيحرمك نور القرآن وفوائده، وإذا اتخذت مجلسًا خاليًا من الأغيار بعد أن أتيت بالخصلتين الأولتين استأنس روحك وسرك بالله ووجدت حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين، وعلمت لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته وبدائع إشاراته، فإذا شربت كأسًا من هذا المشرب وسقيت شربة من ماء الكوثر فحينئذ لا تختار على ذلك الحال حالًا، ولا على ذلك الوقت وقتًا، بل تؤثره على كل شغل، بل على كل طاعة وعبادة، لأن فيه المناجاة مع الرب سبحانه بلا واسطة، لأن الله عز وجل تجلى لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون، فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره وزواجره، وكيف تمثل حدوده، فإنه كتاب عزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، وتذكرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2]، فرتله ترتيلًا وقف عند وعده ووعيده وترغيبه وترهيبه، وتفكر في أمثاله ومواعظه، لأنه كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير، الذي هو بعباده خبير بصير، ولا ينبؤك مثل خبير.

واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعتك حدوده.

---

(١) فصلت ٤٢.

(٢) ق ٣٧.

[آداب التلاوة الظاهرة والباطنة]

واعلم أن للتلاوة آداب ظاهرة وباطنة:

أما الظاهرة فكالطهارة لأنه ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[1]، والاستعاذة بالله من الشيطان، لأنه مما استعاذ منه عباده الصالحون، والاستعانة باسمه العظيم للتقرب فإنه لا يشهده إلّا المقربون، والدعاء أولًا وآخرًا[2] لأنه مفتاح الوصول، والتعظيم للقرآن لأنه سبب الحصول.

وأما الباطنة فكحضور القلب والتدبر والتفهم والتذكر والتعمق، وتخصيص نفسك بكل خطاب، والترقي بقلبك إلى أن تسمع الكلام من الله الملك العلام، وغير ذلك مما لا يسعه المقام، وعليك يا أخي بالتدبر والتعمق والتحقيق والله سبحانه ولي التوفيق.

---

(١) الواقعة ٧٩.

(٢) كأن تدعو بهذا الدعاء الذي كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (إذا قرأ القرآن قال قبل أن يقرأ حين يأخذ المصحف اللهم إني أشهد أن هذا كتابك المنزل من عندك على رسولك محمد بن عبد الله وكلامك الناطق على لسان نبيك جعلته هاديا منك إلى خلقك وحبلًا متصلًا فيما بينك وبين عبادك اللهم إني نشرت عهدك وكتابك اللهم فاجعل نظري فيه عبادة وقراءتي فيه فكرًا وفكري فيه اعتبارًا واجعلني ممن اتعظ ببيان مواعظك فيه واجتنب معاصيك ولا تطبع عند قراءتي على سمعي ولا تجعل على بصري غشاوة ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبر فيها بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامه آخذا بشرائع دينك ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هذرا إنك أنت الرءوف الرحيم. وعند الفراغ من قراءة القرآن اللهم إني قد قرأت ما قضيت من كتابك الذي أنزلت فيه على نبيك الصادق عليه السلام فلك الحمد ربنا اللهم اجعلني ممن يحل حلاله ويحرم حرامه ويؤمن بمحكمه ومتشابهه واجعله لي أنسًا في قبري وأنسا في حشري واجعلني ممن ترقيه بكل آية قرأها درجة في أعلى عليين آمين رب العالمين) إقبال الأعمال، ص٢٣٢.

بيان المعاملة مع الدين

وأما معاملتك مع دينك فأن تعلم أولًا ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[١] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢]، وهو دين متين سهل الشرايع للواردين، وعزيز الأركان على الغالبين، ومن دخله كان من الآمنين، وهو برهان للمتكلمين ونجاة للصامتين ونور للمستوحشين، وفهم للعاقلين، ولب للمتدبرين، وآية للمتوسمين، وتبصرة للمتفطنين، وتذكرة للمتقين، وعبرة للناظرين، وراحة للمسلمين، وجُنة للصابرين، وجَنة للعاملين، وأمان للمسلمين، وزينة للمؤمنين، وسيع المضمار، رفيع المنار، عظيم الغاية، كريم النهاية، والموت غايته، والسعادة نهايته، والشقاوة مباينته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته، وهو دين الإسلام، والإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء، إن المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ولكن أتاه من ربه فأخذه، إن المؤمن يرى يقينه في عمله والكافر يرى إنكاره في عمله[٣]، وهو لباس من خلعه ذل في دهره وزمانه، ومن لبسه ينبغي

---

(١) آل عمران ١٩.

(٢) آل عمران ٨٥.

(٣) إشارة إلى ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: (لأنسبن الإسلام نسبة لا ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلّا بمثل ذلك إن الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار والإقرار هو العمل والعمل هو الأداء ـ إن المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكن أتاه من ربه فأخذه إن المؤمن يرى يقينه في عمله والكافر يرى إنكاره في عمله فو الذي نفسي بيده ما عرفوا أمرهم فاعتبروا إنكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة) الكافي، ج٢ ص٤٥.

أن يسلم المسلمون من يده ولسانه، ومن تزين به فهو مؤمن، ومن تلبس به فهو منافق، ومن استنكف عنه فهو كافر، وهو رجل ظاهره ظاهر نظيف، وباطنه طيب عفيف، والمكارم أخلاقه، والمعارف أذواقه، والمحامد أفعاله، والصالحات أعماله والواضحات أعلامه، والنيرات أحكامه، والمحاسن آدابه، والبصيرة أسبابه، والعلم حياته، والصمت نجاته، والتقية دينه، والعافية قرينه، والاستقامة طريقته، والإخلاص حقيقته، والشريعة جادته، والإحسان عادته، والمواساة همته، والعمل مطيته، والتقوى زاده، والتوفيق رفيقه، والكتاب دليله، والسنة سبيله، والآخرة السفرة، والجنة مقصده ومنزله، وإلى الله وإلى مدينة العلم هجرته، وعلى الله أجره وثوابه، وعند رسوله ذخيرته.

بيان المعاملة مع النفس

وأما معاملتك مع نفسك أن تعلم أن النفس لأمارة بالسوء، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوة بالغفلة والسهو، تسرع بصاحبها إلى الحوبة، وتسوفه بالتوبة، كثيرة العلل طويلة الأمل عظيمة الزلل، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، مبادرة إلى الخطيئة مولعة بالمعصية، خداعة مكارة مناعة كفارة، لا تقنع بقسمها ولا تشبع، ولا تخضع لربها ولا تخشع، لا تريد إلّا العاجلة، ولها ناصبة عاملة، حتى تصلى نارًا حامية، وتسقى من عين آنية، وتطعم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع.

فلا تتركها يا أخي وهواها لعلها تلهم فجورها وتقواها، فتكون لوامة تلومك على المعاصي فاتركها، وربما تلومك على بعض الطاعات فلا تطعها حتى تكون مطمئنة فنجوت من شرها، راجعة إلى ربها راضية بما قدر لها وقضي عليها فتصير مرضية عند مولاها،

مفوضة إليه أمور دنياها وآخرتها، وهي حينئذ كاملة، وليس وراء عبادان قرية، ومن جملة معاملتك معها أن توقفها على حدود الله، ولا ترخصها في معاصي الله ولا تحرمها حظها من معرفته سبحانه وسعادتها من طاعته عز وجل، وتوقفها بالمجاهدة على إقامة السنة القائمة التي هي الشريعة الدائمة، والطهارة الظاهرة، وعلى الفريضة العادلة التي هي الطريقة المستقيمة، والطهارة الباطنة التي لا إفراط فيها ولا تفريط، فتكون شجاعًا مثلًا لا جبانًا ولا متهورًا، وتكون كريمًا لا بخيلًا ولا مبذرًا مسرفًا، وتكون ذكيًا لا بليدًا ولا مجربزًا[1]، وهكذا في جميع أحوالك، تسلك الحالة الوسطى المعتدلة في جميع شئونك فإن خير الأمور أوسطها، وعلى مشاهدة الآية المحكمة التي هي الحقيقة، وكشف سبحات الجلال من غير إشارة التي هي معرفة النفس التي هي معرفة الرب، والنظر إليه بعين الفؤاد التي هي عين الله المعارة، ولا تحرمها حظها من العلم النافع والعمل الصالح، فاذكر أولًا كلام سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن إمرءٍ لم يحيى بالعلم ميت
وليس له حتى النشور نشور[2]

---

(١) جَرْبَزَ الرجُلُ: ذَهَبَ أَو انْقَبَضَ وقال الصاغانيّ: جَرْبَزَ: سَقَطَ. قلتُ: وكَأَنَّه لغةٌ في جَرْمَزَ، بالميم. والجُرْبُزُ، بالضّمّ، أَي كقُنْفُذ: الخَبُّ الخَبِيثُ من الرِّجَال، وهو دَخِيلٌ، مُعَرَّب كُرْبُز، ويقال القُرْبُز أَيضًا. والمَصْدَرُ الجَرْبَزَةُ، يقال: رَجُلٌ جُرْبُزٌ بَيِّنُ الجَرْبَزَةِ، أَي خَبٌّ خَبِيثٌ.(تاج العروس؛ ج٨؛ ص٢٥).

(٢) ديوان أمير المؤمنين ١٧٩.

وقول مولانا علي بن الحسين عليه السلام:

لقاء الخلق ليس يفيد شيئًا
سوى الهذيان من قيلٍ وقالٍ
فلا تصحب مع الإنسان إلا
لأجل العلم أو إصلاح حال

ولله در القائل حيث يقول:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم فينا كأموات[1]

ثم اعلم أن العلم ليس بكثرة التعلم ولا في السماء فينزل عليك ولا في الأرض فيصعد إليك ولكنه مجبول في قلبك تخلق بأخلاق الروحانيين وتلبس بشعار الصالحين يظهر لك.

والعلم نور يقع في قلب من يريد الله أن يهديه، فإن أردت التعلم فاطلب أولًا في نفسك حقيقة العبودية وهي ثلاثة أشياء:

الأول: أن لا ترى لنفسك فيما خولك الله ملكًا، لأنك عبد والعبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، فضع أنت مالك حيث أمرت واصرف جميع ما أنعم الله عليك فيما خلق لأجله.

والثاني: أن لا تدبر لنفسك تدبيرًا بل تفوض تدبير نفسك إلى مدبرها لأنه أعلم بها وبما يصلحها ويفسدها ويهلكها.

والثالث: أن تشتغل بما له عليك من أداء حق الربوبية عما لك عليه من إيصال وظيفة العبودية.

---

(١) القائل هو مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كما في ديوان أمير المؤمنين ١٢٣.

فإذا اجتمعت لك هذه الأمور الثلاثة يهب الله لك مدينة حصينة؛ أي قلبًا فارغًا مجتمعًا سليمًا، فإذا أتيت الله بقلب سليم يجعلك عالمًا حافظًا ذاكرًا فطنًا فهمًا تعلم بذلك كيف ولم وحيث، وتعرف من نصحك ومن غشك، وتعرف مجراك وموصولك ومفصولك، وتخلص الوحدانية لله سبحانه والإقرار بالطاعة، وتكون مستدركًا لما فات ووارِدًا لما هو آت، وتعرف ما أنت فيه ولأي شيء أنت هاهنا، ومن أين يأتيك وإلى ما أنت صائر، وهذا تمام الأمر.

وعليك بأربعة عشرة خصلة، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، وأربعة منها في صرف الأوقات، وواحدة في تحصيل مفتاح النجاة.

أما الثلاثة التي في الرياضة فإياك أن تأكل ما تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله، بل تمنعها عن الأكل وقد بقيت لها شهوة وميل، ولا تأكل إلّا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالًا واذكر اسم الله عليه، واذكر قول الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] وحديث رسول الله ﷺ: (ما ملأ آدمي وعاءا شرًا من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه) وقال ﷺ: (المعدة بيت الداء والحمية دواء من كل داء وأعط المعدة ما عودته)[2].

وأما الثلاثة التي في الحلم فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرًا فقل له إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له إن

---

(١) الأعراف ٣١.

(٢) قال النبي ﷺ: (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كل بدن ما عودته) عوالي اللئالي، ج٢ ص٣٠.

كنت صادقًا فيما تقول فاسأل الله أن يغفرها لي، وإن كنت كاذبًا فيما تقول فأسأل الله أن يغفرها لك، ومن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة.

وأما الثلاثة التي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تجربة وأن تكثر عليهم السؤال، وإياك أن تعمل برأيك شيئًا، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلًا، واهرب من الفُتيا هربك من الأسد[1].

وأما الأربعة التي في صرف الأوقات فينبغي أن تجعل أوقاتك أربع ساعات، ساعة تناجي فيها ربك، وساعة تحاسب فيها نفسك، وساعة تتفكر فيما أراك الله من آياته في الآفاق وفي نفسك وفيما صنع

---

(١) في حديث طويل عن عنوان البصري وكان شيخًا كبيرًا قد أتى عليه أربع وتسعون سنة كان يسأل إمامنا الصادق عليه السلام إلى أن قال قلت: يا أبا عبد الله أوصني قال: (أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى والله أسأل أن يوفقك لاستعماله ثلاثة منها في رياضة النفس وثلاثة منها في الحلم وثلاثة منها في العلم فاحفظها وإياك والتهاون بها قال عنوان ففرغت قلبي له فقال أما اللواتي في الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله ولا تأكل إلّا عند الجوع وإذا أكلت فكل حلالا وسم الله واذكر حديث الرسول صما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وأما اللواتي في الحلم فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرا فقل إن قلت عشرا لم تسمع واحدة ومن شتمك فقل له إن كنت صادقا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي وإن كنت كاذبا فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك ومن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والرعاء وأما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة وإياك أن تعمل برأيك شيئًا وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا واهرب من الفتيا هربك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسرا قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد علي وردي فإني امرؤ ضنين بنفسي والسلام على من اتبع الهدى) بحار الأنوار ج١ ص٢٢٤.

الله بك وبغيرك، لأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وساعة تخلو فيها بحظ نفسك من الحلال، فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات واستجمام للقلوب وتوديع لها.

وأما الواحدة التي في تحصيل مفتاح النجاة فيجب عليك أن تطلب مواخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض وإن أفنيت عمرك في طلبهم، فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض أفضل منهم بعد النبيين عليهم السلام، وما أنعم الله على العبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم، قال الله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] فاطلب لنفسك صديقًا ناصحًا يذكرك إذا كنت ناسيًا، ويعينك إذا كنت ذاكرًا، ودليلًا يدلك على خير سبيل، ومرشدًا يهديك إلى طريق النجاة، فإن ظفرت به فملكه قلبك وأعره سمعك وفوض إليه أمرك.

واعدم وجودك لا تشهد له أثرًا
ودعه يهدمه طورًا ويبنيه

فاسلك معه بسنة الأحباب في سنن المحاب، واغتنم الفرصة فإنها تمر مر السحاب، وكن معه كالحبيب مع الحبيب بحيث لا يطلع عليكما الرقيب.

بين المحبين سر ليس يفشيه
قول ولا قلم للخلق يحكيه

وعليك أن تكون بصيرًا بأهل زمانك، مقبلًا على شأنك، حافظًا للسانك، فإن من صمت نجا، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه

---

(١) الزخرف ٦٧.

إلّا فيما يعنيه، وكن طالبًا لثلاث مرمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو تلذذ في غير محرم.

ثم اعلم يا أخي المؤمن أن المؤمن عزيز عند الله ورسوله ﷺ فلا تذل نفسك بالطمع فيما في أيدي الناس، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ﴾ ما متع الله ﴿بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليفتنهم ﴿فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾ والله يرزقك ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]، واجعل فقرك إلى الله خاصة، فإن هذا الفقر شعارك وفخرك وتفتخر به على غيرك، ولا تجعل فقرك إلى الله وإلى الخلق معًا فإن هذا الفقر كاد أن يكون كفرًا، وإن جعلت فقرك إلى الخلق خاصة فهذا الفقر سواد الوجه في الدارين، وسمة الجهل في النشأتين، وانظر إلى كلام مولانا علي بن الحسين صلوات الله عليهما حيث يقول:

لضرب ألفٍ وجدع أنفٍ وقطع كف وقلع ضرسٍ
وسخط بين وثقل دين وقلع عين وقرع نفس
وخوض بحر وجوع شهر ودق ظهر وطول حبس
وحمل عار ولذع نارٍ وبيع دارٍ بربع فلس
وقود قردٍ وحول بردٍ ودبغ جلدٍ بغير شمس
أهون من وقفة ببابٍ تراك حجابه بعبس

واذكر قول القائل ونعم ما قال:

إن حزت علمًا فاتخذ حرفة
تصون ماء الوجه لا يبذل
ولا تهنهُ أن ترى سائلًا
فشأن أهل العلم أن يسأل

---

(١) طه ـ ١٣١ ـ ١٣٢.

ومن جملة معاملتك معها أن تخرق سفينتها على يد خضر العقل وكليم المناجاة، وتقتل غلام شهوتك، وتبني جدار طاعة الله لتستخرج كنز معرفته، قال بعض العارفين (من خرق سفينة عجبه، وقتل غلام تكبره، وبنى جدار زهده، كشف له عن سر معرفته بربه)، وقال: (النفس بلقيس والدنيا عرشها، والقلب السليمان والآخرة ملكه، والعقل الهدهد، فسلط يا أخي هدهد العقل بمرسوم النقل على بلقيس النفس، وهددها بجنود الحق ولا تقبل منها هدية الخداع، وأرسل عليها عفريت الخوف، ونكر لها عرش شهوتها، وأمرها بالدخول إلى صرح التسليم، فإذا قامت عليها الحجة وشهدته صرحًا ممردًا بعد ما كان لجة فعند ذلك ترجع إلى ربها راضية مرضية، وتسعد بالسعادة الأبدية، وتعترف بالتقصير، وتقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]).

[أقسام الطهارة]

ثم اعلم أن الطهارة على ثلاثة أقسام:

طهارة الشريعة بالماء والتراب، فكن متطهرًا في جميع أوقاتك، فأسبغ الوضوء وتقرأ عنده الأدعية المأثورة وسورة القدر في أثنائه وبعد الفراغ تقرأها ثلاثًا[2]، وطهر بدنك وثيابك ونظفها في سائر

---

(١) النمل ٤٤.

(٢) هذا بعض ما روي عن أهل العصمة عليهم السلام في مستحبات الوضوء:
علي بن إبراهيم عن أبيه عن قاسم الخزاز عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (بينا أمير المؤمنين عليه السلام قاعد ومعه ابنه محمد إذ قال: يا محمد ائتني بإناء من ماء فأتاه به فصبه بيده اليمنى على يده اليسرى ثم قال: الحمد لله الذي جعل الماء طهورًا ولم يجعله نجسًا، ثم استنجى فقال: اللهم حصن فرجي وأعفه واستر عورتي وحرمها على=

أحوالك، والبس ثياب التجمل عند أحبابك، وخذ زينتك عند كل مسجد ولا تكن عبدًا قاذورة[١]، ونسمة بالنجاسة والكثافة مشهورة.

وطهارة الطريقة بالتوبة عن السيئات، والتجنب عن ذمائم الأخلاق، ورذائل الصفات.

وطهارة الحقيقة بعدم رؤية الحسنات، وكشف جميع السبحات.

فإذات تطهرت فأقبل بقلبك على عبادة ربك بالنية الصادقة، وأقم الصلاة صلاة مودع ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[٢]، ولتكن صلاتك معراجًا، واجعل قلبك منبرًا للملائكة، ولا تجعله

=النار، ثم استنشق فقال: اللهم لا تحرم عليَّ ريح الجنة واجعلني ممن يشم ريحها وطيبها وريحانها، ثم تمضمض فقال: اللهم أنطق لساني بذكرك واجعلني ممن ترضى عنه، ثم غسل وجهه فقال: اللهم بيض وجهي يوم تسود فيه الوجوه ولا تسود وجهي يوم تبيض فيه الوجوه، ثم غسل يمينه فقال: اللهم أعطني كتابي بيميني والخلد بيساري ثم غسل شماله فقال: اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي وأعوذ بك من مقطعات النيران، ثم مسح رأسه فقال: اللهم غشني برحمتك وبركاتك وعفوك، ثم مسح على رجليه فقال: اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل فيه الأقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني، ثم التفت إلى محمد فقال: يا محمد من توضأ بمثل ما توضأت وقال مثل ما قلت خلق الله له من كل قطرة ملكًا يقدسه ويسبحه ويكبره ويهلله ويكتب له ثواب ذلك) الكافي، ج٣ ص٧٠.

وفي بحار الأنوار ج٧٧ ص٣١ قال الرضا عليه السلام: (أيما مؤمن قرأ في وضوئه إنا أنزلناه في ليلة القدر خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

وفي بحار الأنوار ج٧٧ ص٣١٧ قال الباقر عليه السلام: (من قرأ على أثر وضوئه آية الكرسي مرة أعطاه الله ثواب أربعين عامًا ورفع له أربعين درجة وزوجه الله أربعين حوراء).

(١) في الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام؛ ص٣٥٤ (وَأَرْوِي أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الْجَمَالَ وَالتَّجَمُّلَ وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ مِنَ الرِّجَالِ الْقَاذُورَةَ وَأَنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يُرَى أَثَرُ تِلْكَ النِّعْمَةِ).

(٢) النساء ١٠٣.

مربطًا لحيوانات الشهوات، ولا تحقر شيئًا من طاعة الله فعسى أن يكون فيه رضى الله، ولا شيئًا من معاصي الله فعسى أن يكون فيه سخط الله، وكن دائم النظر في خلق الله نظر اعتبار وتدبر، وأحيي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلله بذكر هادم اللذات، وقرره بالفناء وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وسرعة تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا، فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلوا ديار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم، فأصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف في حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال، ومر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وقلبك، وباين من فعله بجهدك، وجاهد في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخض الغمرات إلى الحق حيث كان، وتفقه في الدين، وعود نفسك الصبر على المكروه، فنعم الخلق التصبر في الخلق، وألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك، فإنك تلجؤها إلى كهف حريز ومانع عزيز، وأخلص في المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة، وعليك بقراءة القرآن بتدبر وتفكر، فإنه مفاتيح خزائن الغيب، واطلب العلم فإن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وخذ الحكمة حيثما تجد فإنها ضالة المؤمن حيثما وجدها أخذها[1].

---

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجد أحدكم ضالته فليأخذها) الكافي، ج٨ ص١٦٧.

واعلم أنه لا خير في علم ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر[١]، بل لا علم إلّا بعمل، ولا علم ولا عمل إلّا بنية، ولا علم ولا عمل ولا نية إلّا بإصابة السنة[٢]، فإن كنت شابًا حدث السن فبادر بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك، ويسبق إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور، وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته.

ثم اعلم يا أخي أنك وإن لم تكن مع الأولين وما عمرت عمر من كان قبلك من الماضين، ولكن إن نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم عدت كأحدهم، بل كأنك بما ينتهي إليك من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فتعرف حينئذ صفو ذلك

---

(١) في الكافي ج١ ص٣٦ عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقي عن إسماعيل بن مهران عن أبي سعيد القماط عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكر وفي رواية أخرى ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها ألا لا خير في نسك لا ورع فيه).

(٢) في الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام؛ ص٣٧٨ (وَ سَأَلْتُ الْعَالِمَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ قُوَّةُ الْأَبْدَانِ أَمْ قُوَّةُ الْقَلْبِ، فَقَالَ: جَمِيعًا، وَقَالَ: لَا قَوْلَ إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِالنِّيَّةِ وَلَا نِيَّةَ إِلَّا بِإِصَابَةِ السُّنَّةِ).
وفي المحاسن؛ ج١ ص١٩٨عَنِ الْحَسَنِ الصَّيْقَلِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: (لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلًا إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ وَلَا مَعْرِفَةَ إِلَّا بِعَمَلٍ وَمَنْ يَعْمَلْ دَلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ عَلَى الْعَمَلِ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلَا مَعْرِفَةَ لَهُ إِنَّمَا الْإِيمَانُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْض).
وفي المحاسن؛ ج١ ص٢٢٢قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: (لَا قَوْلَ إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا قَوْلَ وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِنِيَّةٍ وَلَا قَوْلَ وَلَا عَمَلَ وَلَا نِيَّةَ إِلَّا بِإِصَابَةِ السُّنَّة).

من كدره، ونفعه من ضرره، وتعرف من نجا بما نجا ومن هلك بما هلك، وتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤنة الطلب وعوفيت من علاج التجربة[1]، وقد أتتك من الوصية والنصيحة والموعظة ما يكفينك إن شاء الله تعالى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

بيان المعاملة مع الأبوين والأهل والأقارب

وأما معاملتك مع أبويك وأهلك وأقاربك، فاعلم أن لك أبوا عقل وروح ظاهرين أو باطنين، وأبوا جهل ونفس كذلك، وأبوا جسم وبدن مؤمنين أو كافرين، وأبوا سعادة وشقاوة، فهذه ستة آباء وست أمهات، ولكل واحد منهم حقوق يجب عليك أداؤها بعد معرفتهم ومعرفة الحقوق.

فأما أبوا عقلك وروحك الظاهران فهما النبي والولي صلى الله عليهما وعلى آلهما، لأنهما أبوا هذه الأمة، فأبوك النور وأمك

---

(١) في تحف العقول، ص٧٠ كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابنه الحسن عليه السلام: (وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ وَاسْتَبَانَ لَكَ مِنْهُ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا فِيهِ أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرِّهِ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلٌ بَيْنَ ذِي النَّقِيَّةِ وَالنِّيَّةِ).

الرحمة، لأن الله سبحانه خلقك من نوره الذي هو نور نبيك، وصبغك في رحمته التي هي ولاية وليك، قال الصادق عليه السلام: (إن اللهَ خَلَقَ المؤمن مِنْ نُورِهِ وَصَبَغَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ لَنَا بِالْوَلَايَةِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ يَوْمَ عَرفَهُمْ نَفْسَهُ فَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ لِأَبِيهِ وَأُمهِ أَبُوهُ النورُ وَأُمهُ الرحْمة)[1].

والمراد بالنور هو الوجود الذي خلقك الله منه، والمراد بالرحمة هي هيئة الولاية التي هي الصورة الإنسانية وهيكل التوحيد، فبهما صلى الله عليهما وآلهما قام ركنا وجودك التكويني والتشريعي، وهما الأبوان اللذان ربياك صغيرًا، حيث كنت معلومًا مذكورًا في علم الله السابق الإمكاني، غير مكون في الوجود الكوني، وحيث كنت ماء نازلًا من سماء المشيئة ونباتًا مختلطا في أرض القابلية، ونطفة معنوية[2] تحت النور الأبيض، وعلقة روحية تحت النور الأصفر،

---

(١) المحاسن، ج١ ص١٣١ باب ما خلق الله تبارك وتعالى المؤمن من نوره. بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٨٠ باب ما أخذ الله ميثاق المؤمنين لأئمة آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين بالولاية وخلقهم من نوره وأصبغهم من رحمته وينظرون بنور الله. مع بعض الاختلافات في بعض المصادر وفي بعضها زيادة ونقيصة.

(٢) قال شيخنا لأجل الأوحد رضوان الله عليه (فمن النِّعم في الغيب خلقه للشخص مثلًا في مراتبه ونقله من مرتبة إلى مرتبة من أصل الماء الأول إلى أن وصل به إلى رتبة البشر في الشهادة كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾. فوضعه في كلّ مرتبة وتربيته وتغذيته ولطفه بتدبيره وإمداده بما يصلحه ودفع ما يضرّه ويفسده، فإذا بلغ فيها تمامه فيها نقله إلى طور آخر كما أشار سبحانه بقوله: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾، فخلقه نطفة معنوية، ثم نطفة ظلية، ثم نطفة صورية، ثم نطفة طبيعية، ثم نطفة مادية، ثم مثالية فهذه ستة أطوار، ثم إلى الملائكة، ثم إلى=

ومضغة صورية تحت النور الأخضر، وكيفية طبيعية تحت النور

=الريح، ثم إلى السحاب، ثم إلى الماء، ثم إلى الأرض ثم إلى النبات من الفواكه والبقول وما أشبه ذلك، فهذه ستة أطوار، ثم إلى النطفة، ثم إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم إلى العظام، ثم إلى تمام الخلقة، ثم إلى الحياة فهذه ستة أطوار، فخلقه سبحانه في ظلمات ثلاث كلّ ظلمة في ستة أطوار فهذه ثمانية عشر عالمًا في الغيب والشهادة، فهذه كلها نِعمٌ من الله لا تُحصى خلقهم عليهم السلام وأقامهم أعضادًا لخلقه وحججًا على بريته وجعل إليهم إيصال ما يريد أن يصل من جوده وكرمه وإحسانه، ونِعمه إلى من يشاء من خلقه، لأن الخلق بدونهم لا يقدرون على القبول منه بغير الواسطة، كما أشار علي عليه السلام في خطبة الغدير في ذكر النبي البشير النذير صلى الله عليه وآله قال: (وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسولهُ استخلصه في القِدم على سائر الأُمم على علم منه، انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرًا وناهيًا عنه، أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار) تراث الشيخ الأوحد ج٣ ص١٢٨ ـ ١٢٩.

وقال أعلى الله مقامه في مقام آخر: (فاعلم أن السلالة هي النطفة، والنطفة مؤلفة من نطفة معنوية ملكوتية ونطفة هيولانية جسمانية.

أما النطفة المعنوية الملكوتية فإنها تنزل قطرة من شجرة المزن كما مرّ في الحديث، وهي قطرة من درة الوجود لحظها بعين إرادته سبحانه فذابت ماء من خشيته وهي نور ذائب، يعني معنى تنزّل من معاني العقل إلى رقيقة من رقائق الروح، ثم منها إلى صورة من صور اللوح المكتوبة فيه، ثم أذابها حتى مزجها بذرة من ذرات الهباء الجوهري، ثم حملها الأملاك وأجروها في قوى الأفلاك وسلّمتها إلى الرياح وتقبّلتها من السحاب كلّ دلاّح، وألقتها في الأمطار حتى سرت في البقول والثمار، وجرت في الطعام، وخالطت غذاء الأنام، وخلصت من أثفال الكيلوس وشعور الكيموس حتى جاوزت النفوس، ثم نزلت نطفة من منيٍّ يُمنى فصار ما فيها بالقوة من المادة بالفعل وما فيها بالفعل بالحياة والإحساس بالقوة، فإذا كرّت عليها الملائكة الأربعة بالرياح الأربع تنقّلت من طور النطفة إلى العلقة، ومنها إلى المضغة، ومنها إلى العظام، ثم يكسى لحمًا، فإذا تمّت خلقته كان ما فيه بالقوة من الحياة والشعور بالفعل) تراث الشيخ الأوحد،ج٣ صفحة ١٠٩ ـ ١١٠.

الأحمر، ومادة جسمانية في جواهر الهباء، وصورة مثالية وأبدانًا نورانية في عالم المقدار، وجسمًا نازلًا في الفلك الدوار، وهكذا ربياك في كل أكوار وأدوار وفي كل أحوال وأطوار حتى أخرجك الله سبحانه بهما من بين صلب أبيك وترائب أمك المعروفين، نطفة ثم علقة وهكذا إلى أن أتما بإذن الله خلقك وصورتك، وأنشأك الله تعالى بهما خلقا آخر فتبارك إسما ربك ذي الجلال والإكرام، حتى إذا احتجت إلى رزق ربك، ولم تستغن عن غياث فضله، جعلا لك بإذنه قوتًا من فضل طعام وشراب أجرياه لأمتهما التي أسكناك جوفها، وأودعاك قرار رحمها، ولو كلآك في تلك الحالات إلى حولك، واضطراك إلى قوتك، لكان الحول عنك معتزلًا، ولكانت القوة منك بعيدة، فغذواك بفضلهما غذاء البر اللطيف، يفعلان ذلك بك تطولًا عليك إلى غايتك هذه، لا تعدم برهما ولا يبطئ بك حسن صنيعهما، ولا تتأكد مع ذلك ثقتك فتتفرغ لما هو أحظى لك عندهما، وهكذا أنعما عليك وأحسنا إليك مرة بعد أخرى، حتى أسبغا عليك نعمهما ظاهرة وباطنة في الدنيا والآخرة، ما لو أنك منذ بدع الله تعالى فطرتك من أول الدهر أطعتهما، ونطقت بحمدهما وثنائهما دوام خلود ربوبية ربك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين لكنت مقصرًا في بلوغ أداء شكر خفي نعمة من نعمهما عليك، أو جلي إحسان من إحسانهما إليك، لأن حقهما عليك عظيم، وإحسانهما إليك قديم، فكيف تطيق حمدهما أم متى تؤدي شكر إحسانهما لا متى، ونعم ما قال القائل في هذه المقام:

كلما قلت أعتق الشكر رقي

جعلتني لك المكارم عبدًا

أيــن مــهــل الــزمــان حــتــى أؤدي

شــكــر إحــســانــك الــذي لا يــؤدى

اللهم إلّا أن يقال اعترافك بالعجز عن أداء حقهما وشكر إحسانهما أداء حقهما وشكر إحسانهما، فكلما ذكرت اسمهما أو سمعت ذكرهما قل رب صل على محمد وعلي وآلهما كما ربياني صغيرًا، فإن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1] وقال عز وجل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[2] فعليك بطاعتهما وحبهما، وحب من يحبهما، وحب كل ما يوصلك إلى حبهما، وعليك بالبراءة من أعدائهما وبغض من يبغضهما ويحب أعداءهما، صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آلهما أجمعين.

وأما أبوا عقلك وروحك الباطنان، فهما عقلك الداعي إلى ربك، والناصح الذي لا يغشك في شيء من أمر دنياك وآخرتك أبدا، ونفسك المطمئنة التي هي كفؤ أبيك وصاحبته الأليفة في دين الله، التي يستأنس بها عقلك، وهي عصاه التي يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى.

أما أبوك هذا فاعلم أنه أشد الأشياء صداقة ونصحًا لك فلا تظلمه ما يستحقه من طاعتك له وامتثال أمره، وما يريد منك مما هو خير لك في دنياك وآخرتك، وأما أمك هذه فلا تدع تدبير أمرها وإصلاح شأنها حتى تجعلها طائعة لأمر سيدها وزوجها، راضية بما قدر لها،

---

(١) سورة الأحزاب ٥٦.

(٢) سورة الأعلى ١٤ ـ ١٥.

قانعة بما أنفق عليها، تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه في نفسها وماله إذا غاب عنها، حتى تكون مرضية عند ربها وسيدها.

وأما أبوا جهلك ونفسك الظاهران فهما الأول والثاني اللذين أسسا أساس الظلم والجور على أبويك ظاهرًا وباطنًا، وعلى أهل البيت سرًا وعلانية، وقتلاهما لعنهما الله، وأيتماك وحشراك في اليتامى، وغصبا حقهما وحق أولادهما، وقسما بينهما إرثهما، وأهلكا حرثهما ونسلهما، وأفسدا على جميع الأمة وبقية الذرية إلى يوم القيامة دينهم ودنياهم، ففي الحقيقة حقهما عليك وعلى جميع خلق الله عظيم، وإحسانهما إليك وإليهم عميم، ومن جملة حقهما عليك أن لا تدع لعنهما في آناء ليلك وأطراف نهارك بل في جميع أوقاتك، فكلما ذكرت اسمهما أو سمعت وصفهما فقل: اللهم العنها لعنًا وبيلًا، ولا تغفر لهما، وعذبهما عذابًا أليمًا، ولا ترحمهما كما أيتماني صغيرًا.

وأما أبوا جهلك ونفسك الباطنان فهما جهلك الداعي إلى مخالفة عقلك ومعصية ربك، والنفس الأمارة التي لا تزال تأمرك بالسوء والفحشاء والعصيان، وتنهى عن المعروف والعدل والإحسان، فحقهما عليك أن لا تطيعهما ولا تتركهما وهواهما فيهلكان، بل توقفهما على حدود الله، وتمنعهما عن معصية الله، وتذكرهما شديد عقاب الله وأليم عذابه، وقل لهما يا أبواي اعلما أنه ليس لكما صبر على النار فارحما نفوسكما فإنكما قد جربتماها في مصائب الدنيا، فرأيتما جزع أحدكما من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه، وعلمتما ضعفكما عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها وما يجري فيها من المكاره على أهلها، على أن ذلك بلاء ومكروه، قليل

مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، فكيف احتمالكما لبلاء الآخرة، وحلول وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدته، ويدوم بقاؤه، ولا يخفف عن أهله، لأنه لا يكون عن غضب الله وسخطه، وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض، فكيف إذا كنتما بين طبقات النيران، مرة على جبل سكران ضجيعا حجر، وأخرى في وادي غضبان قرينا شيطان، ومدة في جب قامته مائة عام تقيدان بأغلال الآثام، ومرة تجران بسلاسل الانتقام من مقام إلى مقام، من لظى إلى الحطمة، ومن الجحيم إلى الهاوية، تلبسان سرابيل القطران ومقطعات النيران، وتشربان ماء الحميم، وتأكلان طعام الأثيم، قد أصابكما كل مكروه وفاتكما كل مطلوب وفقدتما كل محبوب، وحيل بينكما وبين ما تشتهيان، وليس لكما شيئًا مما تدعيان، ومن أعظم ما فاتكما وألذ ما غاب عنكما نعيم لقاء الله المستمر، والكون عند مليك مقتدر، قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: (فَلَئِنْ صَيرْتَنِي في العقوبات مَعَ أَعْدَائِكَ وَجَمَعْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِ بَلَائِكَ وَفَرقْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبائِكَ وَأَوْلِيَائِكَ فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَسَيدِي وَمَوْلَايَ وَرَبي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى حَر نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النظَرِ إِلَى كَرَامَتِك) إلى أن قال عليه السلام: (وَلَأَبْكِيَن عَلَيْكَ بُكَاءً الْفَاقِدِينَ وَلَأُنَادِيَنكَ أَيْنَ كُنْتَ يَا وَلِي الْمُؤْمِنِينَ يَا غَايَةَ آمَالِ الْعَارِفِينَ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ يَا حَبِيبَ قُلُوبِ الصادِقِينَ)[1] فلا تزال تبشرهما بالجنة ودار الكرامة، وتنذرهما من النار وفراق الأحبة حتى أسلما ودخلا في عباد الله الصالحين.

---

(١) دعاء كميل بن زياد.

وأما أبوا جسمك وبدنك فهما أبواك المعروفان، فإن كانا مُؤمِنَين فاعلم أن حقهما عليك عظيم جدًا، فآثر هواهما على هواك، ورضاهما على رضاك، واخفض لهما صوتك، وأطب لهما كلامك، وأعطف عليهما قلبك، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تدعوهما باسمهما، ولا تمشي بين يديهما وقدامهما، ولا تجلس قبلهما، ولا تستسب لهما، وأحسن صحبتهما، ولا تكلفهما أن يسألاك شيئًا وإن كانا مستغنيين، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وإن أضجراك ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وإن ضرباك ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وكن بهما رفيقًا وعليهما شفيقًا ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[1] لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما وقل رب اغفر لهما وارحمهما كما ربياني صغيرًا، ولا تملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برحمة ورقة، ولا تزال تهابهما هيبة السلطان العسوف، وتبرهما بر الأم الرؤوف، وما تعديا عليك فيه من قول أو أسرفا عليك فيه من فعل أو ضيعاه لك من حق أو قصرا بك عنه من واجب فهب لهما وجد به عليهما وارغب إلى الله في وضع تبعته عنهما، ولا تتهمهما على نفسك، ولا تكره ما توليانه من أمرك، لأنهما أوجب حقًا عليك، وأقدم إحسانًا إليك، وأعظم منة لديك من أن تقاصهما بعدل أو تجازيهما على مثل، أين طول شغلهما بتربيك؟، وأين شدة تعبهما في حراستك؟، وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليك؟، هيهات ما يستوفيان منك حقهما ولا تدرك ما يجب عليك لهما، فلا تنس ذكرهما وفي أدبار صلواتك وآناء ليلك وأطراف نهارك

---

(١) الإسراء ٢٣ ـ ٢٤.

وساعات أوقاتك[١]، فقل: (اللهُم وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفعْهُمَا فِي، وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لِي فَشَفعْنِي فِيهِمَا حَتى نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحَل مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، إِنكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْمَن الْقَدِيمِ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الراحِمِينَ)[٢].

وأما إن كانا كافرين مشركين فلا تدع نصيحتهما وقل لهما قولًا لينًا لعلهما يتذكران، وقل لهما يا أبواي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتكما فاتبعاني أهدكما صراطًا سويًا[٣]، فإن لم يقبلا منك وجاهداك على أن تشرك بالله ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾[٤].

وأما أبوا سعادتك وشقاوتك فهما أبوا مادتك وصورتك، فاعلم أن الله سبحانه جعل لخلقه أبًا واحدًا ومادة صالحة لقبول الخير والشر، قابلة للسعادة والشقاوة والصورة الحسنة والقبيحة، وكان الناس فيها أمة واحدة، وجعل لهم أُمًّا سَعَدَ في بطنها من سعد وشقي في بطنها من شقي، ويخلق الناس في بطنها على هيئة مختلفة ويتصورون فيه على صور كثيرة، حسنة أو قبيحة، سعيدة أو شقية، مؤمنة أو كافرة، منافقة أو مشركة، صالحة أو طالحة، كريمة أو لئيمة، زاهدة في الدنيا أو راغبة، وغير ذلك مما يقتضي بدو شأنهم في علم الغيب وقبلوه بأعمالهم وأفعالهم الاختيارية، والناس في بطن

---

(١) راجع دعاء الوالدين في الصحيفة السجادية؛ ص١١٦

(٢) الصحيفة السجادية؛ ص١١٨.

(٣) اقتباس من قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مريم، ٤٣.

(٤) لقمان ١٥.

هذه الأم مقيمون بين حل وعقد وكسر وصوغ لا يخرجون منه أبدًا إلى أن يموتوا، وظهرت حين الموت خاتمتهم التي هي نتيجة سابقتهم، ثم يكونون فيه قد حملتهم الأرض حتى ألقت ما فيها وتخلت ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾[١] ثم يكونون فيه مستقرين إلى ما لا نهاية له، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ مع أمهم ﴿وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[٢]، ينعمون ويعذبون بما تقتضي أمهم وصورتهم من النعيم المقيم أو العذاب الأليم، وبيان هذه الأمور كما ينبغي لا يسعها المقام وستعرفها في محله من تفسيرنا هذا إن شاء الله تعالى وتقدس.

وأما أهلك وعيالك وأقاربك، فاعلم أن لكل واحد منهم حقوق لازمة عليك مبينة في كتاب الله سبحانه ومذكورة في سنة نبيه ﷺ إذا أردتها وجدتها فيهما.

ثم اعلم أن لك أهلًا وعيالًا وأقارب في الباطن وهم رعيتك، قال النبي ﷺ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

أما الأهل فهم أهل الكهف التأويلي عقلك وروحك ونفسك وطبيعتك ومادتك ومثالك وجسمك.

وأما العيال في الباطن فهي حواسك الظاهرة والباطنة[٣].

وأما الأقارب فهي آلات بسطك وأدوات قبضك وجوارح أعمالك وأفعالك، فاعطِ كل ذي حق منها حقها ولا تمنعها حظها بصرفها في

---

(١) الحج ٢.

(٢) الشورى ٧.

(٣) للزيادة حول موضوع الحواس الظاهرة والباطنة راجع تراث الشيخ الأوحد ج١٦ ص٢٨٦ ـ ٢٩٩. مخازن جواهر أسرار التنزيل، ص١٥٧ ـ ١٥٩. كشف السبحات، ص٦٦.

ما خلقت لأجلها، فإنك مسؤول عنها ومجزي بها إن أعطيت حقها، ومعاقب عليها إن ظلمتها ومنعتها عن حظها ونصيبها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١].

بيان المعاملة مع الإخوان وسائر الناس

وأما معاملتك مع إخوانك في الدين وسائر الناس من أهل مذهبك، فاعلم أن الإخوان صنفان كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله: (إخوان الثقة وإخوان المكاشرة.

فأما إخوان الثقة فهم الكهف والجناح والأهل والمال، فإذا كنت من أخيك على حد الثقة فابذل له حالك وبدنك، وصافِ من صافاه وعادِ من عاداه واكتم سره وعيبه وأظهر منه الحسن، واعلم أنهم أقل من الكبريت الأحمر.

وأما إخوان المكاشرة فإنك تصيب لذتك منهم فلا تقطعن ذلك منهم ولا تطلبن ما وراء ذلك عن ضميرهم وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان)[٢].

واعلم أن أقرب الناس من رسول الله ﷺ مجلسًا يوم القيامة أحسنهم أخلاقًا، الذين يألفون ويؤلفون، قال ﷺ في باب مراعاة الألفة: (المؤمن إلفٌ مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف)[٣].

---

(١) الإسراء ٣٦.

(٢) الكافي، ج٢ ص٢٤٨ باب في أن المؤمن صنفان.

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج١٠ ص٣٩ فصل في العزلة والاجتماع وما قيل فيهما.

وقال ﷺ في باب المواخاة في الدين: (من أراد الله به خيرًا رزقه خليلًا صالحًا، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه)[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به)[٢].

وقال الباقر عليه السلام: (إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرًا فانظر إلى قلبك فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك)[٣].

وقال الصادق عليه السلام: (ثلاثة أشياء في كل زمان عزيزة، وهي الأخ في الله، والزوجة الصالحة الأليفة في دين الله، والولد الرشيد، ومن أصاب أحد الثلاثة فقد أصاب خير الدارين والحظ الأوفر في الدنيا، واحذر أن تواخي من أرادك بطمع أو خوف أو ميل أو أكل أو شرب)[٤].

وقال عليه السلام: (كل من لم يحب في الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له)[٥].

---

(١) في كتاب نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ص١٦ طرف من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله فى آدابه، ومواعظه، وأمثاله، وحكمه قَالَ ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَوَلَّى أَمْرًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ مَعَهُ قَرِينًا صَالِحًا، إِنْ نَسِيَ ذَكَرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِنْ هَمَّ بِشَرٍّ كَفَّهُ، وَزَجَرَه).

(٢) نهج البلاغة، ص: ٤٧٠.

(٣) المحاسن، ج١ ص٢٦٢ باب الحب والبغض في الله.

(٤) بحار الأنوار، ج٧١ ص٢٨٢ / باب ١٩ علة حب المؤمنين بعضهم بعضًا وأنواع الإخوان ص٢٨١.

(٥) الكافي، ج٢ ص١٢٧.

وروي: (أن الله أوحى إلى نبي من الأنبياء أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت فيَّ عدوًا أو واليت فيَّ وليًا)[١].

وقال عيسى عليه السلام: (تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا إرضاء الله بسخطهم.

قالوا: يا روح الله من نجالس.

قال: جالسوا من يذكركم الله رؤيته، ومن يزيد في علمكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله)[٢].

ثم اعلم يا أخي أنه ليس المراد بهذا الأخ الشفيق وذلك الصديق الرفيق من يعينك على تجارتك، أو ينفعك في زراعتك، أو يصاحبك في حضرك، أو يرافقك في سفرك، أو يظاهرك على هواك ومطالب دنياك، بل المراد به من يعاونك على البر والتقوى ويسقيك من الكأس الأوفى، ويرشدك إلى الطريق الأقوم ويعلمك ما لم تكن تعلم، ويوصلك إلى مرضاة ربك الكريم، ويهديك إلى صراط مستقيم،

---

(١) في الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص٣٧٢ باب التواضع والزهد، وفي بحار الأنوار، ج٢٧ ص٥١١ وجوب موالاة أوليائهم ومعاداة أعدائهم وروي أن الله أوحى إلى بعض عباد بني إسرائيل وقد دخل قلبه شيء: (أما عبادتك لي فقد تعززت بي وأما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة فهل واليت لي وليًا أو عاديت لي عدوًا ثم أمر به إلى النار نعوذ بالله منها).

(٢) بحار الأنوار، ص١٣٧ باب ٧ ما جمع من مفردات كلمات الرسول صلى الله وجوامع كلمه قال صلى الله عليه وآله: (قال عيسى ابن مريم للحواريين: تحببوا إلى الله وتقربوا إليه، قالوا: يا روح الله بماذا نتحبب إلى الله ونتقرب؟ قال: ببغض أهل المعاصي، والتمسوا رضا الله بسخطهم. قالوا: يا روح الله فمن نجالس إذًا؟ قال: من يذكركم الله رؤيته ويزيد في عملكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله).

ويدخل بمصاحبته في جنات النعيم، وأين مثل هذا الرفيق، وأظن من طلب في زماننا هذا صديقًا لا عيب فيه بقي بلا صديق، إلّا أن الأرض لا تخلو من أحدهم ولا يوجد مثل هذا إلّا في الأتقياء، وإن وجد فهو من النقباء النجباء، أولئك والله الأقلون عددًا الأعظمون قدرًا، فإن ظفرت بأحدهم فإياك أن تضيع صحبته أو تترك خلته فبقيت لك حسرته وندامته.

واعلم أن هذا الصديق لم يزل مستورًا ولم يكن مشهورًا، وهو أهل الاعتبار وصاحب الأسرار، إذا سكت فهو بحر عميق، وإذا نطق فهو بحر مواج، عظم الخالق في نفسه فصغر ما دونه في عينه، يطلب ملكًا لا يزول، ويرجو تجارة لن تبور، حزنه في قلبه، وبشره في وجهه، نفسه عفيف، وجسده نحيف، وحاجته في الدنيا خفيف، لا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، منطقه الصواب وملبسه الاقتصاد.

لـلّـه تـحـت قـبـاب الأرض طـائـفـة
أخـفـاهـم عـن عـيـون الـنـاس إجـلالا
هـم الـسـلاطـيـن فـي أطـمـار مـسـكـنـة
جـروا عـلـى فـلـك الـدوار أذيـالا

وأما معاملتك مع سائر الناس فاجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل لهم ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك، ولا تمشِ معهم في أرض عاداتهم المخالفة

للشرع والعقل، واترك آراءهم الموافقة للبدع والجهل ومجالسة أهل الغفلة والمعاصي، وجالس من يذكرك الله رؤيته، ويزيد في علمك ويقينك ومعرفتك منطقه، ويرغبك في الآخرة حاله وفعله وعمله، وعليك بالحلم والعفو والتواضع والسخاء والشفقة والنصح والعدل والإنصاف مع جميع الخلق، وإذا لقيت من فيه ثلاث خصال فاغتنم صحبته ولقاءه ومجالسته ولو ساعة، فإن ذلك يؤثر في دينك وقلبك وعبادتك بركاته، قول لا يجاوز فعله، وفعل لا يجاوز صدقه، وصدق لا ينازع ربه[1].

وكن رؤوفًا رحيمًا بالناس، فارحم صغيرهم، ووقر كبيرهم، وجالس مساكينهم وفقراءهم، ولا تنسَ ضعفاءهم وأسراءهم، وكن أبًا لليتامى، وبعلًا للأرامل، وعاشر الخلق ولا تعاشرهم لنصيبك من الدنيا ولطلب الجاه والرياء، ولا تخرج عن حدود الشريعة من باب المماثلة والمتابعة والشهرة، فإنهم لا يغنون عنك شيئًا وتفوتك الآخرة بلا فائدة، واجعل من هو أكبر منك بمنزلة الأب، والأصغر بمنزلة الولد، والمثل بمنزلة الأخ، ولا تدع ما تعلمه يقينًا من نفسك بما تشك فيه من غيرك، وكن رفيقًا في أمرك بالمعروف وشفيقًا في نهيك عن المنكر، ولا تدع النصيحة في كل حال، قال الله سبحانه: ﴿وَقُولُواْ

---

(١) في مصباح الشريعة؛ ص١٦١ عن مولانا وإمامنا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في حديث طويل إلى أن قال عليه السلام: (فإذا لقيت من فيه ثلاث خصال فاغتنم رؤيته ولقاءه ومجالسته ولو كان ساعة فإن ذلك يؤثر في دينك وقلبك وعبادتك بركاته فمن كان كلامه لا يجاوز فعله وفعله لا يجاوز صدقه وصدقه لا ينازع ربه فجالسه بالحرمة وانتظر الرحمة والبركة واحذر لزوم الحجة عليك وراع وقته كيلا تلومه فتخسر وانظر إليه بعين فضل الله عليه وتخصيصه له وكرامته إياه).

لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١]، واقطع عن من ينسيك وصلته ذكر الله، ويشغلك ألفته عن طاعة الله، فإن ذلك من أولياء الشيطان وأعوانه وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٢].

وعليك باختيار العزلة وأنت تحتاج فيها إلى عشر خصال، علم الحق في الباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد في الدنيا، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود، وترك الإعجاب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فإن الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وفُر من الناس كفرارك من الأسد، ولا تكن معهم إلّا بما لا بد منه، فإن الناس كانوا دواء وصاروا اليوم داء.

واعلم أن في العزلة صيانة الجوارح، وفراغ القلب، وسلامة العيش، وكسر سلاح الشيطان، والمجانبة من كل سوء، وراحة القلب، وما من نبي ولا وصي إلّا وقد اختارها في زمانه، إما في ابتدائه أو في انتهائه[٣].

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) فاطر ٦.

(٣) في مصباح الشريعة؛ ص٩٩ قال الصادق عليه السلام: (صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى ومتحرس بحراسته فيا طوبى لمن تفرد به سرًا وعلانية وهو يحتاج إلى عشرة خصال علم الحق والباطل وتحبب الفقر واختيار الشدة والزهد واغتنام الخلوة والنظر في العواقب ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود وترك العجب وكثرة الذكر بلا غفلة فإن الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب وخلوة البيت عما لا يحتاج إليه في الوقت قال عيسى ابن مريم عليه السلام أحرز لسانك لعمارة قلبك وليسعك بيتك واحذر من الرياء وفضول معاشك واستح من ربك وابك على خطيئتك وفر من الناس فرارك من الأسد والأفعى فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم=

بيان المعاملة مع الدنيا

وأما معاملتك مع دنياك فاعلم أن الدنيا دار خداعة وعجوز مكارة، وعليها من كل زينة، تنكح كل يوم أهلًا، وتقتل كل يوم بعلًا، لذاتها مشوقة، وشهواتها ممزوجة، وآفاتها كثيرة، ومدتها قصيرة، جمع شبابها الهرم، وصحتها السقم، وغناؤها الفقر وفراغها الشغل، وحياتها الموت، ليس في جموعها إلّا الشتات، وفي ربوعها إلّا فلان قد مات، فاغتنم شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك[1]، وهي دار محدودة بحدود أربعة:

الحد الأول منها ينتهي إلى الآفات.

والحد الثاني ينتهي إلى العاهات.

والحد الثالث ينتهي إلى المصيبات.

والحد الرابع منها ينتهي إلى هادم اللذات وقاطع الشهوات.

=داء ثم الق الله تعالى متى شئت قال ربيع بن خيثم إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ففي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش وكسر سلاح الشيطان ومجانبة من كل سوء وراحة القلب وما من نبي ولا وصي إلّا واختار العزلة في زمانه إما في ابتدائه وإما في انتهائه).

(١) قال رسول الله ﷺ في حديث طويل: (يَا أَبَا ذَرٍّ، اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) الأمالي (للطوسي) ص٥٢٦ مجلس يوم الجمعة الرابع من المحرم سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

وَ عَنِ الْعَالِمِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (خُذْ مِنْ سِتَّةٍ قَبْلَ سِتَّةٍ خُذْ مِنْ شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَمِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَمِنْ قُوَّتِكَ قَبْلَ ضَعْفِكَ وَمِنْ غِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَمِنْ فَرَاغِكَ قَبْلَ شُغُلِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) معدن الجواهر ورياضة الخواطر ص٥٥ باب ذكر ما جاء في ستة.

وهي دار ملعونة، ملعون ما فيها إلّا ما كان لله وفي الله وإلى الله، وهي بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك.

فاعلم أنها دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته، ومثل الدنيا كماء أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله عز وجل فجعلها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس[1]، فاعتبر بما مضى من الدنيا هل تبقي على أحد، وهل باق فيها من الشريف والوضيع والغني والفقير والمولى والعبد، وكذلك ما لم يأتِ منها بما مضى أشبه من الماء بالماء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (كفى بالموت واعظًا، وبالعقل دليلًا، وبالتقوى زادًا، وبالعبادة شغلًا، وبالله مؤنسًا، وبالقرآن بيانًا) وقال صلى الله عليه وآله: (لم يبقَ من الدنيا إلّا بلاء وفتنة وما نجى من نجى إلّا بصدق الإلتجاء)[2].

فخذ يا أخي من دنياك لآخرتك، فدع فيها الإسراف مقتصدًا، واذكر في اليوم غدًا، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل

---

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٨ ص٣٢٨.

ليوم حاجتك، فإن المرئ مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم، والدنيا دار سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن، إلفتها مقرونة بالشقاق، ووصلها متصل بالفراق، وهي شجرة أصلها البلية، وفرعها المحنة، وأغصانها أنواع المرارة، وأوراقها أصناف الكدورة وثمرتها فراق الأحبة.

واعلم يا أخي أن كل شيء من الدنيا سماعه فليكفك من العيان السماع، ومن الغيب الخبر، واعلم أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر، إن الذي أمرت به أوسع من الذي نهيت عنه، وما أحل لك أكثر مما حرم عليك، فذر ما قل لما كثر وما ضاق لما اتسع، قد ضمن لك بالرزق وأمرت بالعمل، فلا يكونن المضمون لك طلبه أولى بك من المفروض عليك عمله، مع أنه والله قد اعترض الشك ودخل اليقين حتى كأن الذي ضمن لك قد فرض عليك، وكأن الذي فرض عليك قد وضع عنك، فبادر العمل، وخف بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق، فإن ما فات اليوم من الرزق رجي غدًا زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته، الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي.

واعلم يا أخي أن من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها من قلبه آثرها على الله فانقطع إليها وصار عبدًا لها ولمن كان في يده شيء منها، حيث ما زالت زال إليها وحيث ما أقبلت أقبل عليها، لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ وَدَلِيلٌ لك عَلَى ذَم الدنْيَا وَعَيْبِهَا وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا وَوُطئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ ثَنيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ إِذْ يَقُولُ رَب إِني لِما أَنْزَلْتَ إِلَي مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إِلا خُبْزًا يَأْكُلُهُ لِأَنهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ وَتَشَذبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلثْتُ بِدَاوُدَ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنةِ فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ مِنْ سَفَائِفِ الْخُوصِ بِيَدِهِ وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ أَيكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ ويأكل الجشب وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِالليْلِ الْقَمَرَ وَظِلَالُهُ فِي الشتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ وَلَا طَمَعٌ يُذِلهُ دَابتُهُ رِجْلَاهُ وَخَادِمُهُ يَدَاهُ.

فَتَأَس بِنَبِيكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ صلى الله عليه وآله فَإِن فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسى وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزى وَأَحَب الْعِبَادِ إِلَى اللهِ تعالى الْمُتَأَسي بِنَبِيهِ وَالْمُقْتَص لِأَثَرِهِ [قَضَمَ الدنْيَا قَضْمًا وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفًا أَهْضَمُ أَهْلِ الدنْيَا كَشْحًا وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدنْيَا بَطْنًا] عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا وَعَلِمَ أَن اللهَ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ وَحَقرَ شَيْئًا فَحَقرَهُ وَصَغرَ شَيْئًا فَصَغرَهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلا حُبنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ [ورسوله] وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغرَ اللهُ [ورسوله] لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلهِ تعالى وَمُحَادةً عَنْ أَمْرِ اللهِ تعالى وَلَقَدْ كَانَ النبي محمد صلى الله عليه وآله يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ وَيَكُونُ السترُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ [تَكُونُ] فِيهِ التصَاوِيرُ، فَيَقُولُ يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى

أَزْوَاجِهِ غَيبِيهِ عَني فَإِني إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنْيَا وَزَخَارِفَهَا فَأَعْرَضَ عَنِ الدنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَحب أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ لِكَيْلَا يَتخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَامًا فَأَخْرَجَهَا مِنَ النفْسِ وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَغَيبَهَا عَنِ الْبَصَرِ وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَدُلُكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدنْيَا وَعُيُوبِهَا إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصتِهِ وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ أَأَكْرَمَ اللهُ بِذَلِكَ مُحَمدًا أَمْ أَهَانَهُ فَإِنْ قَالَ أَهَانَهُ فَقَدْ كَذَبَ وَاللهِ الْعَظِيمِ وَأَتَى بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ وَإِنْ قَالَ أَكْرَمَهُ فَلْيَعْلَمْ أَن اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدنْيَا لَهُ وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ الناسِ مِنْهُ فَإِنْ تَأَسى مُتَأَس بِنَبِيهِ وَاقْتَص أَثَرَهُ وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ وَإِلا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ فَإِن اللهَ جَعَلَ مُحَمدًا ﷺ عَلَمًا لِلساعَةِ وَمُبَشرًا بِالْجَنةِ وَمُنْذِرًا بِالْعُقُوبَةِ خَرَجَ مِنَ الدنْيَا خَمِيصًا وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا لَمْ يَضَعْ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ حَتى مَضَى لِسَبِيلِهِ وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبهِ فَمَا أَعْظَمَ مِنةَ اللهِ [تعالى] عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتبِعُهُ وَقَائِدًا نَطَأُ عَقِبَهُ وَاللهِ لَقَدْ رَقعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلَا تَنْبِذُهَا فَقُلْتُ [له] اغْرُبْ عَني فَعِنْدَ الصبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السرَى)[1] انتهى كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

واعلم يا أخي أنك وما أنت فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلك، ممن كان أطول منك أعمارًا وأعمر ديارًا وأبعد آثارًا، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق

(١) نهج البلاغة ٢٢٦. وما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط.

الممهدة الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة، قد بني على الخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار، فكن يا أخي في الدنيا كقوم صيح بهم فانتبهوا، فعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، إنما مثل من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، وأن الدنيا دار بلاغ وانقطاع وأن الآخرة هي دار القرار، كمثل قوم مسافر كانوا في منزل جديب فأموا منزلًا خصيبًا وجنابًا مريعًا، فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم، ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم، فليس يجدون لشيء من ذلك ألمًا، ولا يرون نفقة مغرمًا، ولا شيء أحب إليهم مما قربهم من منزلهم وأدناهم من محلهم.

ومثل من اغتر بها واطمأن إليها كمثل قوم كأنهم بمنزل خصيب فبنا بهم إلى منزل جديب فليس شيء أكره إليهم ولا أقطع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه[1].

ثم اعلم أن الدنيا والآخرة بمنزلة المشرق والمغرب كلما قربت

---

(١) مقتبس من قول أمير المؤمنين عليه السلام: (إنما مثل من أبصر الدنيا كمثل قوم سفر نبا بهم منزل جدب فأموا منزلًا خصيبًا وجنابا مريعا فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق وخشونة السفر في الطعام والمنام ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم فليس يجدون لشيء من ذلك ألما ولا يرون نفقة مغرما ولا شيئًا أحب إليهم مما قربهم من منزلهم ومثل من اغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصب فنبا بهم إلى منزل جدب فليس شيء أكره إليهم ولا أهول لديهم من مفارقة ما هم فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه) نهج البلاغة ٣٩٧.

من أحدهما بعدت عن الآخر، وبمنزلة ضرتان كلما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى[١].

والدنيا دنياءان، دنيا بلاغ ودنيا ملعونة، فعليك بمعرفة الدنيا والآخرة، وبمعرفة الدنيا البلاغ والدنيا الملعونة.

فنقول: دنياك وآخرتك عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك مع ما يصدر بأمره عن جوارحك، والقريب الداني منهما يسمى دنيا، وهي كل ما كان لك وفيك ومنك وإليك وعنك قبل الموت، والمتراخي المتأخر منهما يسمى آخرة، وهي كل ما كان لك أو يجري عليك من مقتضى أعمالك وأحوالك وعقائدك، وأول منزل من منازل آخرتك وآخر منزل من منازل دنياك هو قبرك، وهو برزخ بين الدنيا والآخرة، وأحكامه، وما يجري لك أو عليك أيضًا برزخية، فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلّا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم، وذلك لأن ما يصحبك في الدنيا وتزرعه فيها وتتزود منها لآخرتك وتبقى معك ثمرته بعد الموت، وهو [الـ]علم النافع والعمل والصالح والأخلاق الحميدة والعقائد الصحيحة، فهو من الآخرة في الحقيقة، وإنما يسمى بالدنيا باعتبار دنوه، وهي الدنيا البلاغ التي هي مزرعة الآخرة.

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد رئي عليه إزار خلق مرقوع فقيل له في ذلك فقال: (يخشع له القلب وتذل به النفس ويقتدي به المؤمنون إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر وهما بعد ضرتان) نهج البلاغة ص٤٨٦.

وكلما يتوقف هذه الأمور عليها من أمور الدنيا من تكسب أو تجارة أو زراعة أو معاشرة مع الناس، أو تحصيل مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومنكح، أو غير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان، إذا كانت مقرونة بالحكمة موافقة للشريعة والكتاب والسنة، فهو أيضًا من الآخرة ومن الدنيا البلاغ المحمودة.

وكذلك ما يحصل لك في الدنيا من بصيرة وعبرة ومعرفة، ولهذا قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه حين سمع رجلًا ذم الدنيا: (أَيهَا الذامُ لِلدنْيَا الْمُغْتَر بِغُرُورِهَا [الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا] بم تَذُمهَا أَنْتَ الْمُتَجَرمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرمَةُ عَلَيْكَ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرتْكَ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمهَاتِكَ تَحْتَ الثرَى كَمْ عَللْتَ بِكَفيْكَ وَكَمْ مَرضْتَ بِيَدَيْكَ تَبْتَغِي لَهُمُ الشفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِباءَ [غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ] لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوتِكَ قَدْ مَثلَتْ لَكَ بِهِ الدنْيَا نَفْسَكَ وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ إِن الدنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَودَ مِنْهَا وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتعَظَ بِهَا مَسْجِدُ أَحِباءِ اللهِ وَمُصَلى مَلَائِكَةِ اللهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنةَ فَمَنْ ذَا يَذُمهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا فَمَثلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ وَشَوقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السرُورِ رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا فَذَمهَا رِجَالٌ غَدَاةَ الندَامَةِ وَحَمِدَهَا آخَرُونَ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ذَكرَتْهُمُ الدنْيَا فَذَكرُوا وَحَدثَتْهُمْ [فَصَدقُوا] وَعَظَتْهُمْ فَاتعَظُوا)[1].

---

(١) نهج البلاغة ٤٩٣. وما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط

وقال عليه السلام: (إِن لِلهِ مَلَكًا يُنَادِي فِي كُل يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ)[١].

وَقَالَ عليه السلام: (الدنْيَا دَارُ مَمَر لَا دَارُ مَقَر والناسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ [فِيهَا] نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا)[٢].

وأما الدنيا الملعونة فهي شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، مشربها من الماء الأجاج الحميم، ومنبتها أصل الجحيم، وغارسها دواعي الإنيات، ومغرسها أرض العادات والشهوات، وأصلها فيما تحت الثرى، وأغصانها في الثرى وأوراقها في سجين، وطلعها كأنه رؤوس الشياطين، ونموها من متابعة الهوى، وخضرتها من المعاصي والخطايا، وثمرتها طعام الأثيم، وخاصيتها الإصرار على الحنث العظيم، وبروزها في المحشر وغايتها الهلاك الأكبر.

وطالب هذه الدنيا رجل حقيقته الظلمة، وقلبه الغفلة، وعقله النكراء والشيطنة، ونفسه بالسوء أمارة، وطبيعته السخيمة، وفطانته مكر وخديعة، ومعرفته الإنكار، وعلمه الجحود، وخياله العاجلة، وفكره الرئاسة الباطلة، وفهيمه الغباوة، وقريحته الحماقة، وسجيته البخل ورأسه الكبر، وعينه الحسد وأذنه الطمع ولسانه الرياء، ويده الحرص ورجله العجب، ومشيه النميمة وخلقه الذميمة، وعادته المعصية وفعله الفاحشة، وأحواله كلها عجيبة، وأعماله كسراب بقيعة، وطبعه الجفاء ولونه الفناء، ومركبه الضلالة ومنزله الشقاوة، وظاهره النفاق وباطنه الكفر والشقاق.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وأما أصل هذه الشجرة ومشربها في الباطن هي ولاية الأول والثاني، وفرعها جميع الشرور والقبائح والمعاصي والأخلاق الرذيلة والأفعال الخبيثة، والاعتقادات الفاسدة والعلوم الباطلة المخالفة لطريقة أهل العصمة عليهم السلام، ومن شرب من هذا المشرب فليس منهم عليهم السلام، ومن لم يطعمه فهو منهم إلّا من اغترف غرفة وقلبه مطمئن بالإيمان وكاره لشربه، فطينته ملطخة قذرة تفثة[1] تحتاج إلى التطهير، إما في الدنيا أو في البرزخ أو في الآخرة على حسب قلة اللطخ وكثرته، ومآله إلى الجنة إن شاء الله.

إذا عرفت هذا فكن يا أخي من الذين قال مولانا الكاظم عليه السلام في

---

(١) التفث) الوسخ والشعث. ومنه: رجل (تفث) أي مغبر شعث لم يدهن ولم يستحد أي لم يحلق شعر عانته، عن ابن شميل. و(قضاء التفث) قضاء إزالته بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، وقولهم: «التفث نسك من مناسك الحج» تدريس، والتحقيق ما ذكرت وهو اختيار الأزهري. (المغرب، ج١، ص: ١٠٥).
في الحديث: فتفثت الدماء مكانه.أي لطخته، وهو مأخوذ منه. وقال ابن شميل: التفث النسك، من مناسك الحج. ورجل تفث أي متغير شعث، لم يدهن، ولم يستحد. قال أبو منصور: لم يفسر أحد من اللغويين التفث، كما فسره ابن شميل؛ جعل التفث التشعث، وجعل إذهاب الشعث بالحلق قضاء (لسان العرب؛ ج٢ ص١٢٠).
تفث: (تفثا) فهو (تفث) مثل تعب تعبًا فهو تعب إذا ترك الادهان والاستحداد فعلاه الوسخ وقوله تعالى: (ثم ليقضوا تفثهم) قيل هو استباحة ما حرم عليهم بالإحرام بعد التحلل (المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير ج١ ص٧٥)
التفث، محركة في المناسك: الشعث، وما كان من نحو قص الأظفار والشارب، وحلق العانة وغير ذلك. وككتف: الشعث، والمغبر. (القاموس المحيط؛ ج١؛ ص٢٢٠).
التفث، كسبب: الشعث، والوسخ، والدرن، وكل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه إزالتها. ورجل تفث، ككتف: شعث مغبر. وقد تفث تفثا ـ كتعب ـ إذا ترك الادهان والتنظف فعلاه الوسخ.(الطراز الأول؛ ج٣ ص٣٥٠).

حقهم: (يَا هِشَامُ إِنَ الْعُقَلَاءَ زَهِدُوا فِي الدنْيَا وَرَغِبُوا فِي الْآخِرَةِ لِأَنهُمْ عَلِمُوا أَن الدنْيَا طَالِبَةٌ ومَطْلُوبَةٌ وَأن الْآخِرَةَ طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ فَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدنْيَا حَتى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الدنْيَا طَلَبَتْهُ الْآخِرَةُ فَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَه)[١].

وقال عليه السلام: (إِنَ الْعَاقِلَ نَظَرَ إِلَى الدنْيَا وَإِلَى أَهْلِهَا فَعَلِمَ أن الدنيا لَا تُنَالُ إِلا بِالْمَشَقةِ وَنَظَرَ إِلَى الْآخِرَةِ فَعَلِمَ أن الآخرة[٢] لَا تُنَالُ إِلا بِالْمَشَقةِ فَطَلَبَ بِالْمَشَقةِ أَبْقَاهُمَا)[٣].

ولا تكن من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[٤] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[٦] وقال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[٧].

فبادر بالعمل قبل حلول الأجل، وعليك بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار السرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، واعلم أن

---

(١) الكافي، ج١ ص١٨.
(٢) في المصدر: أنها.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البقرة ٢٠٠.
(٥) هود ١٥ ـ ١٦.
(٦) الإسراء ١٨.
(٧) الأحقاف ٢٠.

وعد الله حق فلا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، واذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[١] وقوله عز وجل: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[٣] وقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ * كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾[٥].

فاجعل دنياك مزرعة لآخرتك، واعلم أنك في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيرًا يوشك أن يحصد خيرًا، ومن يزرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع.

بيان المعاملة مع الآخرة

وأما معاملتك مع الآخرة فاعلم أن الآخرة كما عرفت هي حالتك بعد الموت، وأمرها عظيم وخطبها جليل، وهو نبأ عظيم والناس عنه غافلون، وهو يوم القيامة، ويوم الطامة، ويوم الزلزلة، ويوم الحسرة والندامة، ويوم الفصل، ويوم التغابن، ويوم الدين، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوم بدا للناس من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[٦] وهو يوم عسر،

---

(١) الإنشقاق ٦.
(٢) الإسراء ٧.
(٣) النساء ١٢٣.
(٤) فصلت ٤٦.
(٥) المعارج ٣٨ ـ ٣٩.
(٦) الزمر ٥٠.

ويوم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، وهو يوم الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة، وهو يوم القارعة، ويوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وهو يوم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ﴾ فيه ﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[1]، وهو يوم ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[2]، وينبأ كل امرئ بما قدم وأخر، وهو ﴿يَوْمَ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3]، وهو يوم ترى الشمس فيه مكورة، والنجوم منكدرة، والجبال مسيرة، والعشار معطلة، والوحوش محشورة، والبحار مسجرة، والنفوس مزوجة، والقلوب منقطعة، والأحوال منقلبة، والأعمال مجسمة، والظواهر منكَّرة، والبواطن ظاهرة، والمخفيات حاضرة، والقبائح مكشوفة منظورة، والعورات غير مستورة، والموازين منصوبة، والدواوين منشورة، والخلائق حيارى، والناس سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[4]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[5]، وهو ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[6]، وهو ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[7]، وهو ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ

---

(١) المعارج ١٠ ـ ١٤.
(٢) القيامة ٧ ـ ١٠.
(٣) المرسلات ٣٥ ـ ٣٦.
(٤) الحج ٢.
(٥) ق ٢١ ـ ٢٢.
(٦) الشعراء ٨٨ ـ ٨٩.
(٧) القلم ٤٢ ـ ٤٣.

مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[١]، وهو يوم لا ﴿أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٢]، وهو يوم سيرت به الجبال فيه وكانت سرابًا، وكانت جهنم مرصادًا ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾[٣]، ويقول بعضهم: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[٤]، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٥].

وبالجملة هو يوم كان عسيرًا، و﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[٦] ولا ترى فيه إلّا كئيبًا، ولا ينفع حبيبٌ حبيبًا، ويوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[٧].

ثم اعلم يا أخي أن للآخرة عقبات كئود لا بد لك من اقتحامها، وأول عقبة منها هي عقبة الموت، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٨] وقال النبي صلى الله عليه وآله: (أكثروا ذكر

---

(١) عبس ٣٤ ـ ٣٧.
(٢) المؤمنون ١٠٢ ـ ١١١.
(٣) النبأ ٢٢ ـ ٢٤.
(٤) الفجر ٢٤.
(٥) النبأ ٤٠.
(٦) الإنسان ٧.
(٧) المزمل ١٧.
(٨) آل عمران ١٨٥.

هادم اللذات. قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلّا ضاقت عليه الدنيا ولا في شدة إلّا اتسعت عليه)[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (ما أنزل الموت حق منزلته من عد غدًا من أجله)[٢].

وقيل للباقر عليه السلام: حدثني ما أنتفع به؟ قال: (أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره الإنسان إلّا زهد في الدنيا)[٣].

وقال مولانا الصادق عليه السلام: (إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول و[٤] كأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل فانظر ماذا تستأنف، ثم قال: عجبًا لقوم جلس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون)[٥].

---

(١) وجدنا بهذا المضمون حديثين أحدهما قال فيه صلى الله عليه وآله: (أكثروا من ذكر هادم اللذات، فقيل: يا رسول الله فما هادم اللذات؟ قال: الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرًا للموت وأشدهم له استعدادًا) بحار الأنوار ج٧٩ ص١٦٧.
وفي الآخر قال صلى الله عليه وآله: (أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنكم إن كنتم في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فأثبتم وإن كنتم في غنى بغضه إليكم فجدتم به فأجرتم ألا إن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال وأن المرء عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما قدم وقلة غنى ما خلف ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه) إرشاد القلوب؛ ج١ ص٤٨.

(٢) الزهد ص٨١ باب ذكر الموت والقبر.

(٣) عن أبي عبيدة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام حدثني ما أنتفع به فقال: (يا أبا عبيدة أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلّا زهد في الدنيا) الكافي، ج٣ ص٢٥٥.

(٤) في المصدر: أو.

(٥) الزهد ص٧٧ باب ١٤ ذكر الموت والقبر.

وقال عليه السلام: (ما خلق الله يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)[١].

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: (ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفي نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي صلى الله عليه وآله: فكرة ساعة خير من عبادة سنة، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة ولا تسكن نزول الرحمة على ذكر الموت بهذه الصفة ومن لا يعتبر بالموت وقلة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر وتحيره في القيامة فلا خير فيه)، إلى أن قال عليه السلام: (والموت أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بني آدم، وهو يعده أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين، وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي صلى الله عليه وآله: من أحب لقاء الله تعالى أحب الله تعالى لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[٢].

[أقسام الناس في ذكر الموت]

اعلم أن الناس في ذكر الموت على أربعة أقسام:

إما منهمك في الدنيا مكب على غرورها ومتاعها، محب لشهواتها

---

(١) تحف العقول ٣٦٤. من لا يحضره الفقيه، ج١ ص١٩٤ باب النوادر.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٧١ الباب الواحد والثمانون في ذكر الموت. بحار الأنوار، ج٦ ص١٣٣ باب ٤. حب لقاء الله وذم الفرار من الموت.

ولذاتها، فهذا لا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره ليتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ويفر منه كفراره من الأسد، وهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وذكر الموت على هذه الصفة لا يزيد صاحبه من الله إلّا بعدًا إلّا من رحمه الله، فيستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا، والزهد فيها، والرغبة في الآخرة.

وإما تائب قد تنبه فعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال، ودار بلية واختبار، وأن الآخرة هي دار القرار، فهو يذكر الموت كثيرًا لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله عليه السلام: (من كره لقاء الله تعالى كره الله لقاءه)، لأن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله تعالى لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهًا للقائه، وعلامة هذا التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار السرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، وحبه لبقية عمره واغتنامه الفرصة فيها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (بَقِيةُ عُمُرِ الْمَرْءِ لَا ثمن لَهُ يُدْرِكُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ وَيُحْيِي بها مَا أَمَاتَ)[2].

---

(١) الجمعة ٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: (بقية عمر المرء لا قيمة له، يدرك بها ما قد فات، ويحيي ما مات) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج٢ ص٣٩٤ مجلس في ذكر الأوقات وما يتعلق بها. مجموعة ورام، ج١ ص٣٦ باب السفر والسير والفراق والقدوم والوداع. بحار الأنوار، ج٦ ص١٣٨ باب ٤ حب لقاء الله وذم الفرار من الموت.

وإما عارف بعيوب الدنيا، زاهد في لذاتها، قد أعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها من نفسه، فالدنيا عنده بمنزلة الجيفة إذا اضطر إليها أكل منها، وصارت الدنيا سجنه، وضاق بكونه فيها صدره، فهو يذكر الموت دائمًا ويتمناه، لأنه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، قال تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، وهذا غالب الأمر يستبطئ تأخر الموت، ويحب مجيئه، ليتخلص من السجن ودار الغافلين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، قال الصادق عليه السلام: (فَانْظُرْ أَيهَا الْمُؤْمِنُ فَإِنْ كَانَتْ حَالَتُكَ حَالَةً تَرْضَاهَا لِحُلُولِ الْمَوْتِ فَاشْكُرِ اللهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ وَإِنْ تكن الأُخْرَى فَانْتَقِلْ عَنْهَا بصحة الْعَزِيمَةِ وَانْدَمْ عَلَى مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ عُمُرِكَ فِي الْغَفْلَةِ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى تَطْهِيرِ الظاهِرِ مِنَ الذنُوبِ وَتَنْظِيفِ الْبَاطِنِ مِنَ الْعُيُوبِ وَاقْطَعْ رِبَاطَ الْغَفْلَةِ عَنْ قَلْبِكَ وَأَطْفِئْ نَارَ الشهْوَةِ مِنْ نَفْسِك)[2] انتهى.

وإما بصير كامل مقبل على شأنه متوجه بمجامع قلبه إلى ربه، مشتغل بعبادته، ظنين بأوقاته، قد فوض أمره إلى الله عز وجل، فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضا.

اعلم أن الموت أمر عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا، فلا يؤثر ذكر الموت في قلبه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) الجمعة ٦.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٢٠ الباب السادس والخمسون في البيان. بحار الأنوار، ج٦٧ ص٢٣ باب ٤٣ حب الله تعالى. بتفاوت يسير

(أكثروا ذكر[١] هَادِمَ اللذاتِ قِيلَ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ ﷺ : الْمَوْتُ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي سَعَةٍ إِلا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدنْيَا وَلَا فِي شِدةٍ إِلا اتسَعَتْ عَلَيْه)[٢].

وطريق ذكره على الحقيقة أن يعلم أن الله سبحانه لم يخلقه عبثًا، ولا يتركه سدى، وما بينه وبين الجنة أو النار إلّا الموت أن ينزل به، لأن من مات فقد قامت قيامته، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمه الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبًا يحدوه الجديد من الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادمًا يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فيتزود في الدنيا من الدنيا ما يحوز به نفسه غدًا، ويتقي ربه، ويصح نفسه، ويقدم توبته، ويغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى يهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، فيورثه حسرة لا نهاية لها، وندامة لا تدارك فيها، وأن يتفكر في أحوال أمثاله وأقرانه الذين ماتوا قبله، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم وتغيرت ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجًا، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على كمال من عقله وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره، ويتذكر أموالًا جمعها، أغمض

---

(١) في المصدر: اذْكُرُوا.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٧٢ الباب الواحد والثمانون في ذكر الموت. بحار الأنوار، ج٦ ص١٣٣ باب ٤ حب لقاء الله وذم الفرار من الموت.

في مطالبها، وأخذها من محرماتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره واللعب على ظهره، فهو يعض يده ندامة على ما أظهر له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويجمعه في أعوام دهره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالغ في جسده، حتى خالط سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطًا به فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكيًا ولا يجيب داعيًا، ثم حملوه إلى مخط في الأرض، فأسلموه فيه إلى عمله وتركوه في دار غربته ومحل وحشته وبيت وحدته، فاستبدل بسعة الدار ضيق الملحد، وبلين الوسادة خشونة المسند، وبمؤانسة الأقارب مخالطة العقارب، وبذوق الطيبات أنياب الحيات، وبضياء الشموع ظلمة الربوع، وبمكالمة الصديق بلا نظير مساءلة منكر ونكير، وبلذة لقاء المحبوب المشهور رؤية رومان فتان القبور، فهو يتزلزل في دار البلى، ويتغلغل بين أطباق الثرى، حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها، وأدج الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودل بعضها بعضًا من هيبة جلالته ومخوف سطوته، وأخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم، وجمعهم بعد تفريقهم، ثم ميزهم لما يريد من مساءلتهم من خفايا الأعمال وجنايا الأفعال، وجعلهم فريقين، أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء.

فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم في داره، حيث لا يظعن النزال، ولا يتغير بهم الحال، ولا تنوبهم الأفزاع، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار، ولا تشخصهم الأسفار.

وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار وأسوأ قرار، وغل الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى.

فعلى العاقل أن يفرغ قلبه عن كل شيء إلّا عن ذكر الموت الذي بين يديه، وأوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقرانه وأمثاله الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم وتضرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم وأحوالهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ومدارسهم، وانقطعت آثارهم، وأوحشت ديارهم، فلا يزال يذكر شخصًا بعد شخص، ورجلًا بعد رجل، وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته، وكثرة سروره ونشاطه، وشدة حرصه وطول أمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت والفناء، وانخداعه باجتماع الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، واعتماده على صحة أعضاءه السوية، وشدة أركانه القوية، وغفلته عن قوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]، ويذكر أنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وأنه كيف كان يدبر لنفسه وأهله وعياله، ويجمع لذخيرته بطول آماله ما لا

---

(١) النساء ٧٨.

يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلّا سنة أو شهر أو يوم أو ساعة أو دقيقة لحظة، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت بغتة، فأفسد عليه دنياه وآخرته، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، والسعيد من وعظ بغيره، فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة أحوال المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت ويؤثر في القلب، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه.

بيان ذكر الموت على الحقيقة والموت بالإرادة

ثم اعلم أن ذكر الموت على الحقيقة مبني على الموت بالإرادة، قال رسول الله ﷺ: (موتوا قبل أن تموتوا) وهو الموت الاختياري، ولا يتم إلّا بأمور هي أصول وأركان للموت المراد الذي لا يحصل إلّا لقليل من العباد.

بيان التوبة

الأول: التوبة، وهي رجوع العبد إلى ربه، وإلى القرب بعد بعده، وبعبارة أخرى هي الخروج عن الاستنكاف إلى العبودية، ومن النار إلى الجنة، وعن المعصية إلى الطاعة، وعن طاعة الشيطان إلى عبادة الرحمن، كما أن الموت رجوع إليه سبحانه، إلّا أن التوبة هي الرجوع بالإرادة والاختيار، والموت هو الرجوع بالقهر والاضطرار، قال الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

(١) الفجر ٢٧ ـ ٣٠.

وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

واعلم أن الله سبحانه فتح برأفته ورحمته لعباده بابًا إلى عفوه وسماه التوبة، وجعل على ذلك الباب دليلًا من وحيه، لئلّا يضلوا عنه، فقال تبارك اسمه: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[2]، فما عذر من أغفل دخول ذلك المنزل بعد فتح الباب وإقامة الدليل[3]، فالتوبة فريضة على كل مؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4]، وهي فرض على كل حال على سبيل الفور، لأن العبد لا يخلو من تقصير في كل حال وفي كل وقت، ومعنى النصوح الخالص لله خاليًا عن الشوائب، كمرآة إنسان أو خوف من سلطان، أو عدم أسباب المعصية أو اضطرار إلى الطاعة، أو غير ذلك مما

---

(١) الزمر ٥٣ ـ ٥٩.

(٢) التحريم ٨.

(٣) في الصحيفة السجادية، ص١٩٤ وكان من دعائه عليه السلام في وداع شهر رمضان: (أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَابًا إِلَى عَفْوِكَ، وَسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلًا مِنْ وَحْيِكَ لِئَلاَّ يَضِلُّوا عَنْهُ، فَقُلْتَ ـ تَبَارَكَ اسْمُكَ ـ: تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا، وَاغْفِرْ لَنا، إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ).

(٤) النور ٣١.

ينافي إخلاص العبد للتوبة، وهي ترك الغفلة والمعاصي في الحال، والعزم على تركهما في الاستقبال، وتطهير الظاهر من الذنوب، وتنظيف الباطن من العيوب، وتدارك ما فات من الطاعات وما سبق من التقصيرات، وهي تجري على الجنان والأركان واللسان، قال مولانا سيد الساجدين عليه السلام: (اللهم إن يكن الندم توبة إليك فأنا أندم النادمين)، وهو فرض الجنان (وإن يكن الترك لمعصيتك إنابة فأنا أول المنيبين) وهذا واجب على الجنان والأركان واللسان، قال عليه السلام: (وإن يكن الاستغفار حطة للذنوب فإني لك من المستغفرين)[1]، وهذا مختص باللسان، وأعظم الذنوب وأكبرها الذي وجب عليك التوبة عنه رؤية الوجود، فلا ترى لنفسك ولا لغيرك وجودًا إلّا بالله ومن الله وإلى الله، كما قيل:

أقول وما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

باب الصبر

والثاني: الصبر، وهو الخروج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابدة، وحبسها في سجن الدنيا ودار الغرور كما هي محبوسة بالموت في سجن القبور إلى يوم النشور، فجاهد نفسك بالتحمل على مشقة الطاعة وبالكف عن المعصية وبالصبر على البلاء والمصيبة، إلى أن تخرج من سجن الدنيا سالمًا إلى دار السلام وجنة المقام وروضة الكرام، فلا يصل إليك بعد مكروه ولا تعب، ولا يمسك فيها لغوب ولا نصب، والصبر على أربع شعب، على الشوق والإشفاق والزهد والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من

---

(١) الصحيفة السجادية، ص١٤٦ من دعائه عليه السلام في ذكر التوبة وطلبها.

النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن راقب الموت سارع إلى الخيرات[١]، والجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر في الدنيا صبر أيامًا قليلة ثم دخل الجنة فوجد فيها راحة طويلة، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون[٢]، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[٣]، والنار محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها في الدنيا تمتع فيها قليلًا ثم دخل النار، فوجد فيها جميع المكاره وأنواع المصايب، وحيل بينه وبين ما تشتهيه نفسه ويتمناه قلبه.

اعلم أن ما يلقى العبد في هذه الدنيا لا يخلو من نوعين.

إما أن يكون ما يلقاه موافقًا لهواه، مخالفًا لما أراد منه مولاه.

وإما أن يكون مخالفًا لهواه، موافقًا لما أراد الله منه ويرضاه.

وهو في كل واحد منهما محتاج إلى الصبر لا يستغني عنه أبدًا، فالعبد واقف بين صبرين، صبره عما يوافق هواه، وصبره على ما أراد منه سيده ومولاه، ولقد وصف الله تعالى رجالًا كانوا جبالًا لا تحركهم العواصف ولا تزلزلهم النوائب، بل كانوا عند الزلازل وقورًا، وعند النوائب صبورًا، بأوصاف حميدة ووعدهم بأجور

---

(١) من حديث طويل لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام في الكافي، ج٢ ص٥٠ باب صفة الإيمان، إلى أن قال عليه السلام: (فَالصَّبْرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى الشَّوْقِ وَالْإِشْفَاقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ وَمَنْ رَاقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ).

(٢) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف ٧١.

(٣) يس ٥٦.

كريمة، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١] وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢] وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣] وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[٤] وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥] ووعد الصابرين بأنه معهم فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦] ولا شيء أعلى منه وشَرَطَ محبته لهم فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٧] ولا فخر أعظم منه، وجعل جزاء صبرهم جنته فقال: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٨] وجعل دخول أعداء الصابرين في النار جزاء لصبرهم فقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٩] ثم اختصهم بجميع البشارات والكرامات وأجمل القول في بشارتهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[١٠].

وفي الكافي في بيان درجات الصبر عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الصبر ثلاثة، صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها

---

(١) السجدة ٢٤.
(٢) الأعراف ١٣٧.
(٣) النحل ٩٦.
(٤) القصص٥٤.
(٥) الزمر ١٠.
(٦) الأنفال ٤٦.
(٧) آل عمران ١٤٦.
(٨) الإنسان ١٢.
(٩) المؤمنون ١١١.
(١٠) البقرة ١٥٥.

بحسن عزاها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش)[١].

وبالجملة لا إيمان لمن لا صبر له، فاصبر صبرًا جميلًا لا شكوى فيه إلى أحد غير الله، حتى جعل الله لك المخرج فإن الصبر مفتاح الفرج.

باب الزهد

والثالث: الزهد، وهو الخروج عن متاع الدنيا وشهواتها ولذاتها قليلها وكثيرها ومالها وجاهها، وترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه اختيارًا، كما أنك بالموت تخرج عنها وتتركها قهرًا واضطرارًا، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (الزهد بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا﴾، فمن لم ييأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه)[٢].

وفي الكافي عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: (جعل [الله] الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

---

(١) الكافي، ج٢ ص٩١ باب الصبر. جامع الأخبار(للشعيري)، ص١١٦ الفصل الحادي والسبعون في الصبر.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٦ ص١٩ باب ٦٣ استحباب ترك ما زاد عن قدر الضرورة من الدنيا.

ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يجد الرجل حلاوة الإيمان [في قلبه] حتى لا يبالي من أكل الدنيا، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا)[١].

وفيه عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال علي بن الحسين عليه السلام: (إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، ألا إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطًا، والتراب فراشًا، والماء طيبًا، وقرضوا من الدنيا تقريضًا)[٢] الحديث.

وفيه عن الوشا قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: (قال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين: يا بني إسرائيل لا تأسوا على ما فاتكم من الدنيا كما لا يأسى أهل الدنيا على ما فاتهم من دينهم إذا أصابوا دنياهم)[٣].

اعلم أنهم عليهم السلام أرادوا من شيعتهم الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم لمعرفة الله.

---

(١) الكافي، ج٢ ص١٢٨ باب ذم الدنيا والزهد فيها. وسائل الشيعة ج١٦ ص١٢ باب ٦٢ استحباب الزهد في الدنيا وحد الزهد. بحار الأنوار، ج٧٠ ص٤٩ باب ١٢٢ حب الدنيا وذمها وبيان فنائها وغدرها بأهلها وختل الدنيا بالدين. وما بين المعكوفين لم نجده في المصدر وإنما في المخطوط فقط.

(٢) الكافي، ج٢ ص١٣٢ باب ذم الدنيا والزهد فيها. بحار الأنوار، ج٧٠ ص٤٣ باب ١٢٢ حب الدنيا وذمها وبيان فنائها وغدرها بأهلها وختل الدنيا بالدين.

(٣) الكافي، ج٢ ص١٣٧ باب ذم الدنيا والزهد فيها. بحار الأنوار، ج٧٠ ص٨٠ باب ١٢٢ حب الدنيا وذمها وبيان فنائها وغدرها بأهلها وختل الدنيا بالدين.

وحقيقة الزهد أن تزهد في الدنيا والآخرة قال رسول الله ﷺ: (الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما [معًا] حرامان على أهل الله)[١].

والمراد أن أهل الدنيا همتهم مصروفة على تحصيل متاع الدنيا ولذتها، ولا يبالون ما فاتهم من نعيم الآخرة.

وأهل الآخرة همتهم مقصورة على تحصيل نعيم الآخرة ولا يبالون ما فاتهم من متاع الدنيا ولذتها.

وأما أهل الله فهمتهم مقصورة على الله وتحصيل معرفته ولذة لقائه، لا ينظرون إلى متاع الدنيا، وليس مقصودهم نعيم الآخرة، بل يكون مقصودهم في الدنيا والآخرة طلب معرفته، ولذتهم في كأس محبته وإدراك لقائه، كما أشار إليه سيد الساجدين وإمام الزاهدين في مناجاته: (قد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا سواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، [ورضاك بغيتي]، ورؤيتك [حاجتي]، وجوارك طلبتي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وأكشف كربتي) إلى أن قال: (لا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمي وجنتي، ويا دنياي وآخرتي)[٢] وقد ذكرنا

---

(١) عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، ج٤ ص١١٩ الجملة الثانية في الأحاديث المتعلقة بالعلم وأهله وحامليه.

(٢) بحار الأنوار، ج٩١ ص١٤٨ باب ٣٢ أدعية المناجاة. وما بين المعكوفتين من المصدر.

في باب معاملة الدنيا من خساستها وحقارتها ما يوجب الزهد فيها ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾(١).

باب القناعة

والرابع: القناعة وهي الخروج عن الشهوات النفسانية والتمتعات الحيوانية، والتجرد عن زينة الدنيا وترك فضولها، والاكتفاء في المطعم بما يسد جَوعَتَهُ، والاقتصاد في اللبس بما يواري عورته اختيارًا، كما هو بالموت اضطرارًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾(٢) ولقد فسر أمير المؤمنين عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾(٣) بالقناعة(٤)، وقال عليه السلام: (القناعة كنز لا ينفد)(٥)، والقانع هو الذي يقنع بما يجد ولا يطلب ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد.

ففي الكافي عن عمرو بن هلال قال: قال أبو جعفر عليه السلام: (إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَا تَعۡجَبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ وقال ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش

---

(١) ق ٣٧.
(٢) الأنعام ٩٤.
(٣) النحل ٩٧.
(٤) في بحار الأنوار، ج٦٨ ص٣٤٥ عن كتاب نهج البلاغة، ج٢ ص١٩٥. وَسُئِلَ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ فَقَالَ: (هِيَ الْقَنَاعَةُ).
(٥) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج٢ ص٤٥٤ مجلس في ذكر فضل الفقر والقوت وما أشبه ذلك.

رسول الله ﷺ فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده)[١].

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله منه باليسير من العمل)[٢].

وعنه عليه السلام قال: (كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك)[٣].

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ (من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله)[٤].

فينبغي للعاقل أن يتعزز بعز القناعة ويلاحظ قولهم عليهم السلام: (عز من قنع وذل من طمع)[٥] ولا يمد يده إلى طعام السلاطين فإنه عجن بدموع المساكين، ويرضى بقسم الله عز وجل حيث يقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٦].

---

(١) الكافي، ج٢ ص١٣٧ باب القناعة. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص١٣٠ الفصل السابع في القناعة. بحار الأنوار ج٧٠ ص١٧٢ باب ١٢٩ الطمع والتذلل لأهل الدنيا طلبا لما في أيديهم وفضل القناعة.

(٢) الكافي، ج٢ ص١٣٨ باب القناعة. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص٣٦٥ باب القناعة.

(٣) الكافي، ج٢ ص١٣٨. وسائل الشيعة، ج٢١ ص٥٣١ باب استحباب القناعة بالقليل والاستغناء به عن الناس.

(٤) الكافي، ج٢ ص١٣٨ باب القناعة.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٤ ص١١٤.

(٦) الزخرف ٣٢.

باب العزلة

والخامس: العزلة وهي الرجوع إلى الله عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع، والمهاجرة إليه سبحانه بالتغرب عن الأوطان، وإخراج محبة الأهل والأولاد عن الجنان اختيارًا، كما أن الموت رجوع إليه سبحانه وانقطاع عما سواه اضطرارًا، إلّا عن خدمة شيخ واصل ومرشد كامل الذي هو كالغسال للميت، فينبغي أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغسال يتصرف فيه كما يشاء ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال، ويحوله من حال إلى حال ويخرجه من نقص إلى كمال، فيطهر بأشنان[1] التوبة ظاهره من أوساخ المعصية، وينظف بخليط سدر العلم باطنه من أخباث الجهالة، وينقي بمزج كافور اليقين والطمأنينة قلبه من أحداث الشك والريبة، ويغسل بماء قراح المعرفة والولاية فؤاده من جنابة محبة الأجنبية، ثم يكفنه بثلاثة أثواب كان يأمره بإعدادها قبل الموت من لباس التقوى والمغفرة، وكان هو يخصف عليه من ورق الجنة وكان ذلك خيرًا وأحسن تأويلًا، لأن الثوب الأول يواري عورته الظاهرة، والثاني يغطي سوأته الباطنة، والثالث يستر جميع عيوبه، وجعل عاليها سافلة لأنها شملة كاملة وقطعة شاملة، ثم يرفع جنازته على أكتاف أقربائه الذين هم ملائكة أربعة، حتى إذا وصل به إلى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام فاتخذه مصلى وصلى عليه بالتكبيرات الخمس، فبالأولى كبر في عينه من آثار الكبرياء ما ظهر في عالم الملك والشهادة، وبالثانية أدخل في

---

(١) الأشنان: شجر من الفصيلة الرمرامية ينبت في الأرض الرملية يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي (المعجم الوسيط ص١٩).

حسه المشترك ما في عالم المقدار والبرزخ من أشباح العظمة، وبالثالثة عظم في نفسه ما ظهر من نور العظمة في عالم الملكوت، وبالرابعة أراه في قلبه ما أشرق من صبح الأزل من نور الجمال في عالم الجبروت، وبالخامسة صغر في عين فؤاده ما كان كبره وعظمه من العوالم في جنب ما تجلى له من نور الجلال في عالم اللاهوت، ثم يرفعه ثانيًا حتى أتى به إلى دار السلام ومهوى الأفئدة، فيدفنه في روضة من رياض الجنة، ثم يلقنه كلمة التوحيد والنبوة والولاية، ويذكره ميثاق الفطرة وعهد الربوبية، وهو في ذلك المدفن عند ربه حيًا يأتيه رزقه بكرة وعشيا، حتى إذا نقر في ناقور قلبه وسمع بأذن فؤاده لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فأجاب بالله أو أجاب الله به ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، وذلك لأنه مات في الدنيا بالاختيار والإرادة، وخرج من قبر طبيعته إلى عرصة القيامة، ورأى في الدنيا ما سيراه في الآخرة أهل الغفلة والندامة.

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

وأصل العزلة عن الحواس عن التصرف في المحسوسات، فإن كل آفة وفتنة وبلاء ابتلي بها القلب، وكل شهوة ملعونة ولذة ممنوعة تميل إليها النفس المولعة، وكانت تقويتها وتربية صفاتها بها، دخلت على الناس من روزنة[1] الحواس، وبها استولت النفس على القلب الذي هو العقل، فجرته باستتباعه إلى أسفل السافلين ومقر الهالكين، فبالخلوة وعزل الحواس ينقطع مدد النفس الأمارة ويضعف كيد

(١) الروزنة: هي الكوة غير النافذة (المعجم الوسيط ص٣٤٣).

الشيطان بإعانة الأهوية والشهوة، فيرجى حينئذ خلاصها من ورطة الغفلة ونجاتها من موارد الهلكة.

[باب التوكل]

والسادس: التوكل على الله عز وجل وهو الخروج عن الحول والقوة، وعن الوثوق بالمال والإرث والنسب والحسب، وعن الاعتماد على شيء من الأشياء، بأن تعلم أن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وأن لا ترجو أو لا تخاف مع الله شيئًا قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢] كما أن بالموت تخرج عما ذكرناه وليس لك اعتماد إلّا على الله ولا ترجو إلّا إياه ولا تخاف إلّا منه، ولا يصحبك مال ولا إرث ولا ينفعك، نسب ولا حسب، قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣] وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: (من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤمنته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)[٥].

---

(١) إبراهيم ١٢.
(٢) الطلاق ٣.
(٣) الشعراء ٨٨ ـ ٨٩.
(٤) المؤمنون ١٠١.
(٥) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين ج٢ ص٤٢٦ مجلس في ذكر التوكل. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٨ الفصل الرابع في التوكل على الله والتفويض إليه والتسليم له.

وقال: (من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه مما في يده)[١].

وعن الصادق عليه السلام: (أَوْحَى اللهُ تعالى إِلى دَاوُدَ عليه السلام: مَا اعْتَصَمَ بِي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي دُونَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عَرَفْتُ ذلِكَ مِنْ نِيتِهِ، ثُم تَكِيدُهُ السمَاوَاتُ وَالْأرض وَمَنْ فِيهِن، إلا جَعَلْتُ لَهُ الْمَخْرَجَ مِنْ بَيْنِهِن؛ وَمَا اعْتَصَمَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عَرَفْتُ ذلِكَ مِنْ نِيتِهِ، إلا قَطَعْتُ أَسْبَابَ السمَاوَاتِ مِنْ يَدَيْهِ، وَأَسَخْتُ الْأرض مِنْ تَحْتِهِ، وَلَمْ أُبَالِ بِأَي وَادٍ هَلَك)[٢].

وعنه عليه السلام: (أَنهُ قَرَأَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: وَعِزتِي وَجَلَالِي وَمَجْدِي وَارْتِفَاعِي عَلَى عَرْشِي لَأَقْطَعَن أَمَلَ كُل مُؤَملٍ غَيْرِي بِالْيَأْسِ وَلَأَكْسُوَنهُ ثَوْبَ الْمَذَلَةِ عِنْدَ الناسِ وَلَأُنَحيَنهُ مِنْ قُرْبِي وَلَأُبَعدَنهُ مِنْ وصلي[٣] أَيُؤَملُ غَيْرِي فِي الشدَائِدِ [وَالشدَائِدُ بِيَدِي][٤] وَيَرْجُو غَيْرِي وَيَقْرَعُ بِالْفِكْرِ بَابَ غَيْرِي وَبِيَدِي مَفَاتِيحُ الْأَبْوَابِ وَهِيَ مُغْلَقَةٌ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي فَمَنْ ذَا الذِي أَملَنِي لِنَوَائِبِهِ فَقَطَعْتُهُ دُونَهَا وَمَنْ ذَا الذِي رَجَانِي لِعَظِيمَةٍ فَقَطَعْتُ رَجَاءَهُ مِني جَعَلْتُ آمَالَ عِبَادِي عِنْدِي مَحْفُوظَةً فَلَمْ يَرْضَوْا بِحِفْظِي وَمَلَأْتُ سَمَاوَاتِي مِمنْ لَا يَمَل مِنْ تَسْبِيحِي وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ لَا يُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي فَلَمْ يَثِقُوا

---

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج٢ ص٤٢٦ مجلس في ذكر التوكل. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٨ الفصل الرابع في التوكل على الله والتفويض إليه والتسليم له.

(٢) الكافي ج٢ ص٦٣ باب التفويض إلى الله والتوكل عليه. وسائل الشيعة ج١٥ ص٢١١ باب وجوب الاعتصام بالله.

(٣) في المصدر: فَضْلِي.

(٤) من المصدر.

بِقَوْلِي أَلَمْ يَعْلَمْ مَنْ طَرَقَتْهُ نَائِبَةٌ مِنْ نَوَائِبِي أَنهُ لَا يَمْلِكُ كَشْفَهَا أَحَدٌ غَيْرِي[إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِي، فَمَا لِي أَرَاهُ لَاهِيًا عَني أَعْطَيْتُهُ بِجُودِي مَا لَمْ يَسْأَلْنِي ثُم انْتَزَعْتُهُ عَنْهُ فَلَمْ يَسْأَلْنِي رَدهُ وَسَأَلَ غَيْرِي][1] أَفَيَرَانِي أَبْدَأُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ ثُم أُسْأَلُ فَلَا أُجِيبُ سَائِلِي أَبَخِيلٌ أَنَا فَيُبَخلُنِي عَبْدِي أَوَ لَيْسَ الْجُودُ وَالْكَرَمُ لِي أَوَ لَيْسَ الْعَفْوُ وَالرحْمَةُ بِيَدِي أَوَ لست[2] أَنَا مَحَل الْآمَالِ فَمَنْ يَقْطَعُهَا دُونِي أَفَلَا يَخْشَى الْمُؤَملُونَ أَنْ يُؤَملُوا غَيْرِي فَلَوْ أَن أَهْلَ سَمَاوَاتِي وَأَهْلَ أرضي أَملُوا جَمِيعًا ثُم أَعْطَيْتُ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا أَملَ الْجَمِيعُ مَا انْتَقَصَ مِنْ مُلْكِي مِثْلَ عُضْوِ ذَرةٍ وَكَيْفَ يَنْقُصُ مُلْكٌ أَنَا قَيمُهُ فَيَا بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَلَمْ يُرَاقِبْنِي)[3].

وقال عليه السلام: (إذا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَكلًا لَا مُتَعَللًا فَكَبرْ عَلَى رُوحِكَ خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ فودع[4] أَمَانِيكَ كُلهَا تَوْدِيعَ الْمَوْتِ لِلْحَيَاة)[5]، وهذا تمام في معنى التوكل، فتوكل على الله إن كنت من المؤمنين، وفوض جميع أمورك إليه إن كنت من الموقنين.

باب الذكر

والسابع: الذكر الكثير، قال الله عز وجل ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ

---

(١) من المصدر وساقط من المخطوط.

(٢) في المصدر: لَيْسَ.

(٣) الكافي ج٢ ص٦٧ باب التفويض إلى الله والتوكل عليه. وسائل الشيعة ج١٥ ص٢١٥ باب عدم جواز تعلق الرجاء والأمل بغير الله.

(٤) في المصدر: وَوَدعْ.

(٥) مصباح الشريعة، ص١٦٥ الباب الثامن والسبعون في التوكل.

ٱلْقُلُوبُ﴾[١] وقال ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[٢] وهو أن تذكر الله عند الطاعة فتفعلها، وتذكره عند المعصية فتتركها.

وحقيقة الذكر هي الخروج عن ذكر ما سوى الله تعالى قال الله سبحانه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[٣] أي إذا نسيت غير الله كما هو بالموت.

وأحسن الأذكار باللسان كلمة لا إله إلّا الله وهي كلمة الإخلاص وكلمة طيبة، من قالها مخلصًا دخل الجنة، وهذه الكلمة الطيبة معجونة مركبة من النفي والإثبات، جامعة لجميع مراتب التوحيد الأربع.

توحيد الذات قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٤].

وتوحيد الصفات قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٥].

وتوحيد الأفعال قال تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٦] وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧].

وتوحيد العبادة قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٨].

---

(١) الرعد ٢٨.
(٢) الأحزاب ٣٥.
(٣) الكهف ٢٤.
(٤) النحل ٥١.
(٥) الشورى ١١.
(٦) فاطر ٤٠.
(٧) الروم ٤٠.
(٨) الكهف ١١٠.

فبالنفي يزيل الموحد عن قلبه المواد الفاسدة التي تولد منها مرض الشك في التوحيد، وغيور النفس، وعيوب الظاهر والباطن التي هي الأخلاق الذميمة النفسانية والصفات الحيوانية والتعلقات الكونية، التي تنافي حقيقة الإخلاص والتجريد.

وبالإثبات تحصل صحة القلب وسلامته عن ذكر ما سوى الله عز وجل، وسكون الأركان والجوارح عن الحركات المخالفة للشريعة، واستقامة المزاج الأصلي على الطريقة، واستواء فطرة الله على التوحيد والحقيقة، فحينئذ انفطرت سماء عقله وتنورت، وتبدلت أرض نفسه وأشرقت بنور ربها، وزالت عنها ظلمات إنياتها وكدورات شهواتها، وانتثرت كواكب الكثرة عن سماء خيالها، وطلعت شمس الحقيقة من أفق حالها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

ومن أعظم نعم الله سبحانه على عباده إذنه لهم في ذكره، وإلا لكان يجب عليهم أن ينزهوه عن ذكرهم إياه، قال مولانا سيد الساجدين عليه السلام في مناجاته: (إِلَهِي لَوْلَا الْوَاجِبُ مِنْ قَبُولِ أَمْرِكَ لَنَزهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إِياكَ عَلَى أَن ذِكْرِي لَكَ بِقَدْرِي لَا بِقَدْرِكَ وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدَارِي حَتى أُجْعَلَ مَحَلا لِتَقْدِيسِكَ وَمِنْ أَعْظَمِ النعَمِ عَلَيْنَا جَرَيَانُ ذِكْرِكَ عَلَى أَلْسِنَتِنَا وَإِذْنُكَ لَنَا بِدُعَائِكَ وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ إِلَهِي فَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ فِي الْخَلأ وَالْمَلأ وَالليْلِ وَالنهَارِ وَالْإِعْلَانِ وَالْاسرار وَفِي السراءِ وَالضراءِ وَآنِسْنَا بِالذكْرِ الْخَفِي وَاسْتَعْمِلْنَا بِالْعَمَلِ الزكِي وَالسعْيِ الْمَرْضِي وَجَازِنَا بِالْمِيزَانِ الْوَفِي إِلَهِي بِكَ هَامَتِ الْقُلُوبُ الْوَالِهَةُ وَعَلَى

(١) إبراهيم ٤٨.

مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُقُولُ الْمُتَبَايِنَةُ فَلَا تَطْمَئِن الْقُلُوبُ إلا بِذِكْرَاكَ وَلَا تَسْكُنُ النفُوسُ إلا عِنْدَ رُؤْيَاكَ أَنْتَ الْمُسَبحُ فِي كُل مَكَانٍ وَالْمَعْبُودُ فِي كُل زَمَانٍ وَالْمَوْجُودُ فِي كُل أَوَانٍ وَالْمَدْعُو بِكُل لِسَانٍ وَالْمُعَظمُ فِي كُل جَنَانٍ وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُل لَذةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ وَمِنْ كُل رَاحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ وَمِنْ كُل سُرُورٍ بِغَيْرِ قُرْبِكَ وَمِنْ كُل شُغُلٍ بِغَيْرِ طَاعَتِكَ إِلَهِي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُ يا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَقُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ فَأَمَرْتَنَا بِذِكْرِكَ وَوَعَدْتَنَا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنَا تَشْرِيفًا لَنَا (وإكراما) وَتَفْخِيمًا وَإِعْظَامًا وَهَا نَحْنُ ذَاكِرُوكَ كَمَا أَمَرْتَنَا فَأَنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا يَا ذَاكِرَ الذاكِرِينَ وَيَا أَرْحَمَ الراحِمِين)[١].

ثم اعلم أن لله تعالى ذكرًا كثيرًا في الباطن والتأويل وهو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٢]، والنبي ﷺ ذكر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا * رَّسُولٗا﴾[٣]، وهو الذكر الأكبر، قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾، والصلاة عليه وآله هي الذكر الكثير في الباطن، لأن من صلى على محمد وآله ﷺ فقد سبحه وحمده وهلله ومجده وكبره، وهذا الذكر روح لذكر الله في الظاهر، وهذه الكلمة الطيبة أعني قولنا: اللهم صل على محمد وآل محمد روح لتلك الكلمة الطيبة أعني قولنا: لا إله إلّا الله، فكلمة الإخلاص جسد صورة، والصلاة على محمد وآله صلى الله على محمد وآله روح ومعنى، فكما أن

---

(١) بحار الأنوار ج٩١ ص١٥١.
(٢) الأحزاب ٥٦.
(٣) الطلاق ١٠ ـ ١١.

الجسد صورة لا حراك لها بدون الروح، والروح معنى لا يحس بدون الجسد، فكذلك كلمة التوحيد لا يتم إلّا بهما، فإذا اجتمعا صارا إنسانًا كاملًا خلق في أكرم صورة وأحسن تقويم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[١].

وقولنا: اللهم صل على محمد وآل محمد أحسن الأذكار في الباطن، كما أن قولنا: لا إله إلّا الله أحسن الأذكار في الظاهر، فصل على محمد وآله تذكر الله ذكرًا كثيرًا وتسبحه بكرة وأصيلًا، واتخذ ذكره بضاعة وكن من الشاكرين، وافهم الإشارة وكن من المبشرين المستبشرين، واذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[٢]، ففي الكافي عن مولانا الرضا عليه السلام قال لرجل: (مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى وَذَكَرَ اسْمَ رَبهِ فَصَلى قُلْتُ كُلمَا ذَكَرَ اسْمَ رَبهِ قَامَ فَصَلى فَقَالَ لِي لَقَدْ كَلفَ اللهُ عز وَجَل هَذَا شَطَطًا فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ هُوَ فَقَالَ كُلمَا ذَكَرَ اسْمَ رَبهِ صَلى عَلَى مُحَمدٍ وَآلِهِ)[٣].

(يَا مَنِ اسْمُهُ دَوَاءٌ وَذِكْرُهُ شِفَاءٌ وَطَاعَتُهُ غِنًى ارْحَمْ مَنْ رَأْسُ مَالِهِ الرجَاءُ وَسِلَاحُهُ الْبُكَاءُ يَا سَابغَ النعَمِ يَا دَافِعَ النقَمِ يَا نُورَ الْمُسْتَوْحِشِينَ فِي الظلَمِ يَا عَالِمًا لَا يُعَلمُ صَل عَلَى مُحَمدٍ وَآلِ مُحَمدٍ وَافْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَصَلى اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَالْأَئِمةِ الْمَيَامِينِ مِنْ آلِهِ وَسَلمَ تَسْلِيمًا)[٤]. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الحجر ٢٩.

(٢) الأعلى ١٤ ـ ١٥.

(٣) الكافي ج٢؛ ص٤٩٤.

(٤) فقرات من دعاء كميل بن زياد النخعي.

باب التوجه

والثامن: التوجه إلى الله سبحانه بكلية وجوده، ومجامع قلبه، ووجه ظاهره وباطنه، وهو الخروج عن كل داع يدعو إلى غير الله تعالى والإعراض عن كل معبود يعبد من دون الله عز وجل، وفي الدعاء (وأَشْهَدُ أَن كُل مَعْبُودٍ مِما دُونَ عَرْشِكَ إِلَى قَرَارِ أرضكَ السابِعَةِ السفْلَى بَاطِلٌ مُضْمَحِل مَا عدا وَجْهَكَ الْكَرِيم)[1]، فإنه أعز وأكرم وأجل وأعظم من أن يصف الواصفون كنه جلاله، أو تهتدي القلوب إلى كنه عظمته، والإعراض عن كل سبب من الأسباب والتوجه إلى مسبب الأسباب ورب الأرباب كما هو بالموت.

واذكر كيفية سلوك إبراهيم خليل الله عليه السلام، قال الله سبحانه في بيان كيفية سلوكه وتوجهه وانقطاعه إلى الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي نظر في سواد عالم الكثرة وترتب الأسباب الظاهرة على مسباتها ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أي سببًا من الأسباب العلوية له مدخل ظاهرًا في تدبير هذا العالم، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ على سبيل الإنكار وعلى زعم من يعبد الكواكب، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ وظهر أنه مدبر ومسخَر بأمر من هو أعلى منه ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي سببًا أقوى منه تأثيرًا وأسرع ذهابًا وإيابًا في فلك التدبير، وأكثر ترددًا وأدأب سيرًا في منازل التقدير ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ كذلك ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ فعلم أنه أيضًا مدبر مخلوق مثل ما رأى أولًا إلّا أنه أكثر منه نورًا وأقوى سببًا ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأنه علم أن في كتاب الآفاق والتكوين آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات كما هي في كتاب التدوين، والخروج عن مسلك الضالين الذين في قلوبهم زيغ

---

(١) راجع كامل الدعاء في مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج١ ص٢٢٠.

فيتبعون ما تشابه منه أمر صعب عظيم يحتاج إلى هداية الله تعالى، فالتجأ إليه سبحانه ليهديه إلى صراط مستقيم ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي سببًا أقوى تدبيرًا وعلة أتم تأثيرًا منهما ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي لو كان سبب يمكن أن يكون مدبِرًا، أو يجوز أن يكون مؤثرًا بالاستقلال في هذا العالم لكان هذا السبب، لأنه أكبر الأسباب وأشبه الأرباب، وأتم المؤثرات وأكمل المدبرات، وأضوء النيرات في العالم العلوي، الذي به التأثير والتدبير في المركز السفلي ظاهرًا ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ وغربت بعدما كانت ظاهرة، وغابت بعدما كانت مبصرة، وظهر عجزها وأخبرت بعبوديتها، وبان أمرها بأنها مخلوقة مربوبة مدبرة بتدبير غيرها، مسخرة بأمر سيدها، تجري في فلكها المستقر لها، وتسير في مشارقها ومغاربها، لا تعدي لها فيها، ولا تستطيع أن تتخلف عنها، ليس لها شرك في السموات العلا، ولا تأثير بالذات في الأرضين السفلى، بل هي عبدة مطيعة لله وآية من آيات سلطنته الظاهرة، وعلامة من علامات قدرته القاهرة، فعلم إبراهيم حينئذ أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله رب العالمين وفاطر السموات والأرضين، فأعرض عن ملاحظة الأسباب وتوجه بوجه قلبه إلى رب الأرباب فـ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] هذه كيفية سلوك إبراهيم خليل الرحمن، وثمرة سلوكه التوجه التام إلى الله العلي، والتسليم لأمر الله الذي هو الولي وهو يحيي الموتى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فافهم الإشارات ولا تكن من الغافلين.

---

(١) الأنعام ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) البقرة ١٣١.

ولما كان الأنبياء عليهم السلام لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر، ومن جملة ما ورثوا العلم بكيفية السلوك فورثه ابنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، وسلك مسلك أبيه وولج مولجه، وتوجه بوجهه الكريم إلى ما توجه إليه أبوه إبراهيم، وهداه الله تعالى إلى صراط مستقيم والدين القويم فقال عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] وأشار سبحانه إلى ثمرة سلوكه التي هي التسليم المأمور في آخر أمره وغاية سيره فقال حكاية عنه: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] وهكذا كان الأنبياء يرث بعضهم بعضًا ويسلك كل لاحق مسلك السابق، حتى انتهى الأمر إلى يعاسيب[3] الدين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين، وانتقل الميراث إلى العلماء الأعلام الذين هم ورثة الأنبياء حقيقة فـ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ الذين في طريقهم عليهم السلام يسلكون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4] وهم

---

(١) يوسف ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) يوسف ١٠١.

(٣) جمع يعسوب: يقال هو يعسوب قومه: رئيسهم وكبيرهم ومقدمهم.(المعجم الوسيط ص٥٩٩). اليَعْسُوب: أَمير النَّحْلِ وذكَرُها، ثم كَثُر ذلك حتى سَمَّوْا كل رَئيسٍ يَعْسُوبا (لسان العرب؛ ج١ص٥٩٩).

(٤) النحل ٦٨ ـ ٦٩.

علماء شيعتهم الذين قال النبي صلى الله عليه وآله في حق كامليهم: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)، هذه ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، فاتبع أنت يا أخي ملته واذكر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١] اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

باب المراقبة والمحاسبة

والتاسع: المراقبة والمحاسبة، وحقيقة المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإن تزعم أنه لا يراك فقد كفرت، وإن تعلم أنه يراك ثم أبرزت إليه المعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[٢] وقال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٤]، وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٥] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٦]، قال مولانا الصادق عليه السلام: (من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)[٧].

---

(١) البقرة ١٣٠.
(٢) العلق ١٤.
(٣) طه ٤٦.
(٤) ق ١٦.
(٥) ق ١٨.
(٦) النازعات ٤٠ ـ ٤١.
(٧) الكافي ج٢ ص٧٠ باب الخوف والرجاء.

وقال سيد الشهداء صلوات الله عليه: (عميت عين لا تراك ولاتزال عليها رقيبًا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا).

وهذه الحالة أي حالة ترى الله سبحانه بقلبك وعين فؤادك فيها عليك رقيبًا، يسمع كلامك ويرى مكانك، ويعلم سرك وباطنك كما يعلم ظاهرك، وأن السريرة عنده علانية، هي المراقبة المطلوبة إذا عملت بمقتضاها، ولا تحصل تلك الحالة إلّا لرجلين، رجل مات بالاختيار والإرادة فرأى ما يراه المرء عند موته قهرًا واضطرارًا، ورجل مات بالموت المعروف فرأى ما يراه المرء عند موته اختيارًا، فعلم أن الله تعالى كان عليه رقيبًا وأن كل ما كان يعمله من خير أو شر حسن أو قبيح كان بعينه التي لا تنام قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ فينبغي للعبد أن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، ويلاحظها بالعين الراحمة، لأنها إن تركت اتخذت إلهًا هواها فهلكت، ثم يراقب الله تعالى في كل حركة وسكون بأن يعلم بأن الله تعالى مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وإن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] وقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

---

(١) طه ٧.

(٢) الملك ١٣ ـ ١٤.

حكي أن زليخا لما همت بيوسف عليه السلام فقامت فغطت صنمها، فقال يوسف عليه السلام: (مالك أتستحيين من مراقبة جماد، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار)[١].

وفي الحديث القدسي: (إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب).

وللمراقبة درجتان.

إحداهما: مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهي أن يصير القلب مشغولًا بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسرًا تحت الهيبة الإلهية، فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صار همه همًا واحدًا، وكفاه الله تعالى سائر الهموم.

والثانية: مراقبة أهل الورع من أصحاب اليمين، وهم قوم أشرق نور اليقين في قلوبهم، وعلموا بعلم اليقين اطلاع الله تعالى على ظواهرهم وبواطنهم، ولكن لم يدهشهم ملاحظة الجمال والجلال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للإلتفات إلى الأحوال والأعمال، والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يهجمون على الأعمال إلّا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به يوم القيامة، لأنهم ماتوا في الدنيا قبل موتهم، فقامت قيامتهم، فلا ينتظرون القيامة.

ثم اعلم أن العبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو

---

(١) مجموعة ورام ج١ ص٢٣٦ باب محاسبة النفس.

مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال، ومراعاة الآداب، وتحسين الأعمال وحراستها عن الآفات.

ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والإقلاع والحياء، والاشتغال بما يكفر معصيته، والتدارك لما فات، وإحياء لما أمات.

ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب في جميع الحركات والسكنات، بأن يقعد مثلًا مستقبل القبلة، وينام على اليد اليمنى مستقبلًا، وغير ذلك من الآداب التي ورد من الشرع حكمها، وعرف العقل حسنها، وبمشاهدة فضل المنعم، وعدم نسيان النعمة والشكر عليها، والصبر على البلاء، فإن لكل ذلك حدودًا لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[1].

ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بقلبه الوقوف بين يدي الملك الجبار للحساب، ويرى العمر وسرعة سيره وإنه يمر مر السحاب، ويتذكر قولهم عليهم السلام (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا بميزان الحساب قبل أن توزنوا)[2]، فإن للقيامة خمسين موقفًا، كل موقف مقام ألف سنة، فحينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعو، وفي غمراتها مسؤول، وفي مواقفها موقوف، وسره عند خالقه وعند جميع خلقه مكشوف، وهو

---

(١) الطلاق ١.

(٢) لم نجد هذه الرواية بعينها في المصادر التي بين أيدينا ولكن وجدنا ما يقرب منها لفظا ومعني ففي مصباح الشريعة ص٨٦ (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ بِمِيزَانِ الْحَيَاءِ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا)، وفي محاسبة النفس ص١٣ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الْمَشْهُورِ: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ).

لما فرط في جنب الله متحسر وملهوف قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾(٢).

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٣).

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٤).

وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾(٥).

وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾(٦).

فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله عز وجل لهم بالمرصاد، وإنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلّا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه

---

(١) الأنبياء ١٧.
(٢) الكهف ٤٩.
(٣) المجالة ٦.
(٤) الزلزلة ٦ ـ ٨.
(٥) آل عمران ٣٠.
(٦) البقرة ٢٣٥.

قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه وما به، ومن لم يحاسب نفسه في الدنيا دامت في الآخرة حسراته، وطالت في عرصات القيامة بلياته، وقادته إلى الخزي سيئاته، وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: (لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِسَابِ مَهُولَةٌ إِلا حَيَاءُ الْعَرْضِ عَلَى الله عزوجل وَفَضِيحَةُ هَتْكِ السترِ عَلَى الْمَخْفِيَاتِ يحق لِلْمَرْءِ أَنْ لَا يَهْبِطَ مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ وَلَا يَأْوِيَ إِلَى عُمْرَانٍ وَلَا يَأْكُلَ وَلَا يَشْرَبَ وَلَا يَنَامَ إِلا عَنِ اضْطِرَارٍ مُتصِلٍ بِالتلَفِ)[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

اعلم أن الله خلق شجرة كلية ذات أغصان وأوراق، وعلى تلك الأغصان والأوراق أوكار بعدد كل ذي نفس، ولكل إنسان طائر يطير بجناحيه من غيب القدر إلى وكره من ذلك الشجر، ثم ينزل منه إلى أرض الأركان والجوارح التي هي رتبة القضاء، وكتاب الأعمال التي هي محل الإمضاء، فإذا نزل ذلك الطائر بخير يرفع بخير إلى وكره، ويبقى أثر قدمه في تلك الأرض، ونقش منقاره في ذلك الكتاب، وإن نزل بشر يصعد بشر إلى وكره، ويبقى ذلك الأثر والنقش فيهما ثابتين، وذلك الطائر لم يزل يطير بجناحيه نازلا بخير أو بشر وصاعدا كذلك، من أول عمره إلى وقت موته، فإذا جاءت سكرة الموت بالحق لزم ذلك الطائر في عنقه إلى يوم القيامة، ويخرج الله له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا، إما في أرض عليين التي هي كتاب الأبرار، أو في صخرة سجين التي هي كتاب الفجار، فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ

---

(١) مصباح الشريعة؛ ص٨٥.

(٢) الإسراء ١٣ ـ ١٤.

ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾(١).

قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٢)، فطوبى لمن حاسب نفسه وكان غده خير يوميه، ففي الحديث: (من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شر يوميه فهو ملعون، ومن لم يتفقد في نفسه نقصانا فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له)(٣).

أقول: أشار عليه السلام في قوله: (فالموت خير له) مع أن الحياة أمر وجودي، والوجود خير كله، ولا شيء كنعمة الحياة، والموت أمر عدمي ظاهرًا إلى معنى ظاهر ومعنى باطن.

أما الظاهر فالمراد أن من كان دائمًا في نقصان إلى آخر عمره لم يتفقد في نفسه نقصانًا فيعالج نفسه فيخرجها من ظلمات النقصان إلى

---

(١) الإسراء ١٤ ـ ١٥.

(٢) لقمان ١٦.

(٣) في حديث طويل في كتاب الأمالي للشيخ الصدوق رضوان الله عليه معنعنًا عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عليهم السلام قال: (بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالس مع أصحابه يعبيهم للحرب إذ أتاه شيخ عليه شحبة السفر فقال: أين أمير المؤمنين عليه السلام فقيل هو ذا فسلم عليه ثم قال يا أمير المؤمنين إني أتيتك من ناحية الشام وأنا شيخ كبير قد سمعت فيك من الفضل ما لا أحصي وإني أظنك ستغتال فعلمني مما علمك الله قال نعم يا شيخ من اعتدل يوماه فهو مغبون ومن كانت الدنيا همته اشتدت حسرته عند فراقها ومن كان غده شر يوميه فمحروم ومن لم يبال بما رزئ من آخرته إذا سلمت له دنياه فهو هالك ومن لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى ومن كان في نقص فالموت خير له) أمالي الصدوق ص٣٩٣.

نور الكمال، فالموت المعروف خير له قبل تراكم المعصية، واستحكام الطبع والرين على قلبه، والختم على سمعه، والغشاوة على بصره، فإن مثل هذا يرجى له النجاة بالتطهير عند سكرة الموت، أو في البرزخ، بأن يعذب بما يطهره من أوساخ المعصية ويخرجه من النقص إلى كمال الفطرة، أو في القيامة بما يرى من أهوالها وشدائدها، ثم يدخل الجنة بشفاعة الشافعين، بخلاف من تراكم أوساخ المعاصي على ظاهره وثيابه التي أمر بتطهيرها بقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1]، واستحكم الطبع والرين على باطنه بكفره، وبما كسبت يداه في أيام عمره، وختم الله على قلبه بإقباله إلى الدنيا بعد العلم بفنائها، وإنكاره النعمة بعد معرفتها، وجحده الآيات بعدما استيقنتها نفسه ظلمًا وعلوًا على غيرها، وختم على سمعه بإعراضه عن استماع آياته التي إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون، وعلى بصره غشاوة عظيمة تمنعه عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء فيكون من الموقنين، لأنه أعرض عن الآيات واستحب العمى على الهدى، فصار قلبه معكوسًا، وغطت نكتة السوداء مجامع قلبه فصار من الذين قال الله عز وجل في حقهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2] عما يراد منهم.

وأما في الباطن فالمراد أن من غير خلقته بأمر الشيطان، وبدل فطرته في الجملة بمتابعة خطواته وشهوات نفسه، وبتك[3] أذن حمار

---

(١) المدثر ٤.

(٢) الأعراف ١٧٩.

(٣) البتك: القطع.

نفسه الأمارة بإعراضه عن التذكرة، حتى صار كأنه من الحمر المستنفرة فرت من قسورة، فكلما مر على آية في السموات والأرض أعرض عنها وتعامى كأنه لم يسمعها ولم يرها، ولم ينظر إليها نظر اعتبار، حتى صارت نفسه ناقصة فوجدها دائمًا في نقصان، لا يعرف كيف الوصول إلى روح الفرج ولا يهتدي إلى المخرج، فالموت الاختياري بإلقاء نفسها وإماتة شهواتها، والخروج عن دواعي إنياتها، خير له من إبقائها على حياتها بإحياء دواعيها وإقامة شهواتها، وتربية صفاتها، وتقوية قواها الحيوانية، وتعمير أرض عاداتها النفسانية، وتنمية بذر أفكارها الشيطانية، وسقي زرع معاصيها الجسدانية، لأنها إذا حييت بعد إماتتها بالحياة الأخرى، وعادت إلى فطرتها وسيرتها الأولى، صارت حية تسعى إلى ما أراد الله منه ويرضى، وتعلم أن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وتسلك في الطريقة المثلى، فهذا الموت خير له من الدنيا وما فيها، لأنه حياة لا موت بعدها، ومن شرب من كأس هذا الموت شربة لم يظمأ بعدها أبدا ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وأما كيفية المحاسبة في الجملة على سبيل الاختصار والاقتصار، أن يتدارك المرء ببقية عمره التي لا ثمن لها ما لم يكن يفعل ويعمل في الحال بما ينبغي لمثله أن يعمل، ويستقبل فيما يأتي إلى ما أراد الله عز وجل، وخير الكلام ما قل ودل.

باب اليقين

والعاشر: اليقين والطمأنينة، وحقيقة اليقين هي الخروج عن

---

(١) البقرة ٩٤.

الغطاء الجسماني المانع عن معاينة ما في عالم الغيب، ومشاهدة الفضل، الموجبة للرجاء الباعث على الطلب، الذي إذا وفقت له وجدت المطلوب إلى عالم البروز والكشف الروحاني، الموجب للاطلاع على حقيقة الأمر، كما أن روحك تخرج عند موتك من الجسد الظلماني إلى عالم الأرواح النوراني فتشاهد هناك ما كنت من قبله لمن الغافلين، قال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا) وقال مولانا الصادق عليه السلام: (وَإِذَا أَشْرَقَ نُورُ الْيَقِينِ فِي الْقَلْبِ شَاهَدَ الْفَضْلَ وَإِذَا تَمَكنَ مِنْ رُؤْيَةِ الْفَضْلِ رَجَا وَإِذَا وَجَدَ حَلَاوَةَ الرجَاءِ طَلَبَ وَإِذَا وُفقَ لِلطلَبِ وَجَدَ)[2]. الحديث.

وقال عليه السلام: (الْيَقِينُ يُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى كُل حَالٍ سَنِي وَمَقَامٍ عَجِيبٍ كَذَلِكَ أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَنْ عِظَمِ شَأْنِ الْيَقِينِ حِينَ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَن عِيسَى بن مريم عليه السلام كَانَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: لَوْ زَادَ يَقِينُهُ لَمَشَى عَلَى الْهَوَاءِ، فَدَل بِهَذَا عَلَى أَن الْأَنْبِيَاءَ مَعَ جَلَالَةِ مَحَلهِمْ مِنَ اللهِ كَانَتْ تَتَفَاضَلُ عَلَى حَقِيقَةِ الْيَقِينِ لَا غَيْرُ وَلَا نِهَايَةَ بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ عَلَى الْأَبَدِ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِي قُوةِ الْيَقِينِ وَضَعْفِهِ فَمَنْ قَوِيَ مِنْهُمْ يَقِينُهُ فَعَلَامَتُهُ التبَري مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوةِ إِلا بِاللهِ، وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَى أَمْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا قَدِ اسْتَوَتْ عِنْدَهُ حَالَتَا الْعَدَمِ وَالْوُجُودِ وَالزِيَادَةِ وَالنقْصَانِ وَالْمَدْحِ وَالذم وَالْعِز وَالذل لِأَنهُ يَرَى كُلهَا مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ وَمَنْ ضَعُفَ يَقِينُهُ تَعلقَ بِالْأَسْبَابِ وَرَخصَ لِنَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاتبَعَ

---

(١) ق٢٢.

(٢) مصباح الشريعة؛ ص١١٩.

الْعَادَاتِ وَأَقَاوِيلَ الناسِ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ وَالسعْيَ فِي أَمْرِ الدنْيَا وَجَمْعِهَا وَإِمْسَاكِهَا مُقِرًا بِاللسَانِ أَنهُ لَا مَانِعَ وَلَا مُعْطِيَ إِلا اللهُ وَأَن الْعَبْدَ لَا يُصِيبُ إِلا مَا رُزِقَ وَقُسِمَ لَهُ وَالْجَهْدَ لَا يَزِيدُ فِي الرزْقِ وَيُنْكِرُ ذَلِكَ بِفِعْلِهِ وَقَلْبِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ وَإِنمَا عَطَفَ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ حَيْثُ أَذِنَ لَهُمْ فِي الْكَسْبِ وَالْحَرَكَاتِ فِي بَابِ الْعَيْشِ مَا لَمْ يَتَعَدوْا حُدُودَ اللهِ وَلَمْ يَتْرُكُوا فَرَائِضَهُ وَسُنَنَ نَبِيهِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَلَا يَعْدِلُوا عَنْ مَحَجةِ التوَكلِ وَلَا يَقِفُوا فِي مَيْدَانِ الْحِرْصِ فَأَما إِذَا نَسُوا ذَلِكَ وَارْتَبَطُوا بِخِلَافِ مَا حَد لَهُمْ كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ الذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ فِي الْحَاصِلِ إِلا الدعَاوِي الْكَاذِبَةُ وَكُل مُكْتَسِبٍ لَا يَكُونُ مُتَوَكلًا فَلَا يَسْتَجْلِبُ مِنْ كَسْبِهِ إِلَى نَفْسِهِ إِلا حَرَامًا وَشُبْهَةً وَعَلَامَتُهُ أَنْ يُؤْثِرَ مَا يَحْصُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَيَجُوعَ وَيُنْفِقَ فِي سَبِيلِ الدنْيَا وَلَا يُمْسِكَ وَالْمَأْذُونُ بِالْكَسْبِ مَنْ كَانَ بِنَفْسِهِ مُكْتَسِبًا وَبِقَلْبِهِ مُتَوَكلًا وَإِنْ كَثُرَ الْمَالُ عِنْدَهُ قَامَ فِيهِ كَالْأَمِينِ عالما بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَالُ وَفَوْتُهُ سَوَاءً وَإِنْ أَمْسَكَ أَمْسَكَ لِلهِ وَإِنْ أَنْفَقَ أَنْفَقَ فِيمَا أَمَرَهُ اللهُ عَز وَجَل وَيَكُونُ مَنْعُهُ وَإِعْطَاؤُهُ فِي اللهِ تَعَالَى)[1] كذا في مصباح الشريعة.

وفي الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (لَيْسَ شَيْءٌ إِلا وَلَهُ حَد قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا حَد التوَكلِ قَالَ الْيَقِينُ قُلْتُ فَمَا حَد الْيَقِينِ قَالَ أَلا تَخَافَ مَعَ اللهِ شَيْئًا)[2].

وفيه عنه عليه السلام قال: (مِنْ صِحةِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُرْضِيَ

---

(١) مصباح الشريعة؛ ص١٧٧.

(٢) الكافي ج٢ ص٥٧ باب فضل اليقين. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٣ الفصل الثالث في اليقين.

الناسَ بِسَخَطِ اللهِ وَلَا يَلُومَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ فَإِن الرزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ وَلَا يَرُدهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ وَلَوْ أَن أَحَدَكُمْ فَر مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَفِر مِنَ الْمَوْتِ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ ثُم قَالَ إِن اللهَ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الروْحَ وَالراحَةَ فِي الْيَقِينِ وَالرضَا وَجَعَلَ الْهَم وَالْحَزَنَ فِي الشك وَالسخَطِ)[١].

وعنه عليه السلام قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وآله عَلَى الْمِنْبَرِ: (حَتى يَعْلَمَ أَن مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)[٢].

وفيه عَنْ صَفْوَانَ الْجَمالِ قَالَ: (سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عز وجل ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ فَقَالَ أَمَا إِنهُ مَا كَانَ ذَهَبًا وَلَا فِضةً وَإِنمَا كَانَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا مَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ لَمْ يَضْحَكْ سِنهُ ومَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ لَمْ يَفْرَحْ قَلْبُهُ وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ لَمْ يَخْشَ إِلا اللهَ)[٣].

والحاصل أن الله عز وجل ذكر في أول كتابه المتقين ثم مدحهم بأشرف صفاتهم وأحسن سماتهم فقال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤] وقال

---

(١) الكافي ج٢ ص٥٧ باب فضل اليقين. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٢ الفصل الثالث في اليقين. وسائل الشيعة ج١٥ ص٢٠١ باب ٧ وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضر.

(٢) الكافي ج٢ ص٥٨ باب فضل اليقين. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٣ الفصل الثالث في اليقين.

(٣) الكافي ج٢ ص٥٨ باب فضل اليقين. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص١٣ الفصل الثالث في اليقين. وسائل الشيعة ج١٥ ص٢٠٢ باب ٧ وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضر.

(٤) البقرة ٤ ـ ٥.

النبي ﷺ: (اليقين الإيمان كله)[١] وقال لقمان لابنه: (يا بني لا يستطاع العمل إلّا باليقين ولا يعمل المرء إلّا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه)[٢].

اعلم يا أخي أن اليقين أقل شيء قسمه الله بين عباده، فمن أخذ منه شيئًا فقد أخذ حظًا وافرًا ونصيبًا كاملًا، قال الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾[٣] الآية، فأنت إذا أردت أن ترى ملكوت السموات والأرض فتكون من الموقنين وتصل إلى درجة اليقين على قدرك ومقامك بما سبق لك من عناية الله في حقك ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ ديك شهوة نفسك، وغراب حرصها وطاووس زينة دنياها ونسر عجبها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ومزقهن بهدم بناء إنياتهن بعد ذبحهن بمخالفة شهواتهن ونزع أرشيتهن بالمنع عن طيرانهن في جو سماء أهويتهن، ودققهن بسياط الرياضة والتكليف الشديد وضرب مقامع المجاهدة من حديد، ثم اجعل ما دققته عشرة أجزاء بعدد الجبال العشرة التي ألقاها الله تعالى على أطراف كونك وجعلها أوتادا لأرض وجودك.

الأول: جبل قلبك الذي هو محدد جهاتك وصاقورة جنانك.

والثاني: جبل صدرك الذي هو الكرسي الواسع لسموات باطنك وأرض ظاهرك.

---

(١) مجموعة ورام، ج١ ص٤٠ باب الصبر وحفظ النفس. إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١ ص١٢٧ الباب الثامن والثلاثون في الصبر.

(٢) المحجة البيضاء، ج١ ص١٥١.

(٣) البقرة ٢٦٠.

والثالث: جبل ظهور نور عقلك الذي هو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان.

والرابع: جبل خزانة الحلم ووعاء الحكم ومظهر العلم وحجاب الزبرجد وفلك الكوكب الأسعد.

والخامس: جبل السطوة ومظهر القهر والحجاب الأحمر.

والسادس: جبل الهيولي الثانية وبحر الجود الفضفاض ومنبع الوجود الفياض.

والسابع: جبل الأكوان الملكوتية المحفوظة في الخزائن الإلهية.

والثامن: جبل الهياكل الرقمية التي ما تنزل إلّا بقدر معلوم.

والتاسع: جبل الحياة التي حييت بظلة الحيوانات.

والعاشر: جبل الطور الشديد والقاف المذكور في القرآن المجيد.

وعاشر الجبال حاملها ظاهرًا وأولها حاملها باطنًا، ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾، وهو نصيب كل جبل من الجبال العشرة من الطيور الأربعة، فاعط كل ذي حق حقه ونصيبه، وأوف الكيل والميزان ولا تبخس الناس أشياءهم، وزن بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلًا ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ أي حيات ساعيات إلى إجابتك في طاعة ربك، كلما دعوتهن بمقتضى فطرتهن الأولى وسيرتهن الأخرى فلا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يجمعن ما لا يأكلن منها، ولا يبنين ما لا يسكن فيها، ولا يعجبن بأنفسهن، ولا يبدين زينتهن من جواهر العلوم إلّا لأزواجهن وأمثالهن من المؤتمنين على السر المكتوم، ولا ينظرن إلى زينة الحياة الدنيا، ولا يعصينك بعد في معروف أبدًا، فإذا علمتهن مما علمك الله فكل

ما أمسكن عليك حلالًا طيبًا وكن من الشاكرين، ولا تسرف فإن الله لا يحب المسرفين، وانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها وإلى ربك كيف يحيي الموتى، واعلم بعلم اليقين أنه على كل شيء قدير.

باب المحبة والأنس

والحادي عشر: المحبة والأنس بالله سبحانه وهي الخروج عن كل محبوب سوى الله، والإعراض عن كل مطلوب سوى ما طلب منك عن مشاهدة آثار جلاله ومطالعة أنوار جماله، كما أن كل محبوب يفارقه حبيبه عند الموت إلّا معرفته بالله ومحبته لله وما يوصله إلى معرفته ومحبته من العمل الصالح، فاصرف همتك إلى ما لا يفارقك عند الموت وهو العمل، سواء كان عملًا قلبيًا كالمعرفة والمحبة، أو عملًا نفسانيًا كالأخلاق الرغيبة، أو عملًا بدنيا كالأعمال الصالحة والأفعال الكريمة.

وفي المجالس عن قيس بن عاصم قال وفدت مع جماعة من بني تميم إلى النبي ﷺ فدخلت وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت: يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها فإنا قوم نعير في البرية فقال ﷺ: (يا قيس إن مع العز ذلًا، وإن مع الحياة موتًا، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء حسيبًا، وعلى كل شيء رقيبًا، وإن لكل حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا، ولكل أجل كتابًا، وأنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريمًا أكرمك، وإن كان لئيمًا أسلمك، ثم لا يحشر إلّا معك، ولا تبعث إلّا معه، ولا تسئل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحًا فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلّا منه وهو فعلك.

فقال: يا نبي الله أحب أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر بها على من يلينا من العرب وندخره.

فأمر النبي ﷺ من يأته بحسان.

قال قيس: فأقبلت أفكر فيما أشبه هذه العضة من الشعر فاستبان لي القول قبل مجيء حسان، فقلت: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما تريد.

فقال النبي ﷺ: قل يا قيس.

فقال:

تخير خليطًا من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
فإن كنت مشغولًا بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولا بد بعد الموت من أن تعده ... ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
فلن يصحب الإنسان بعد موته ... ومن قبله إلّا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلًا بينهم ثم يرحل)[1]

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بالبصرة فقال بعد ما حمد الله عز وجل وأثنى عليه وصلى على النبي وآله: (المدة وإن طالت قصيرة والماضي للمقيم عبرة والميت للحي عظة، وليس لأمس إن مضى عودة، ولا المؤمن من غد على ثقة الأول للأوسط رائد، والأوسط للآخر قائد، وكل لكل مفارق، وكل بكل لاحق، والموت لكل غالب، واليوم الهائل لكل آزف، وهو اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم).

---

(١) الخصال ج١ ص١١٤ للمرء المسلم ثلاثة أخلاء، معاني الأخبار ص٢٣٣ باب معنى القرين الذي يدفن مع الإنسان وهو حي والإنسان ميت.

ثم قال عليه السلام: (معاشر شيعتي اصبروا على عمل لا غنى بكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه، إنا وجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله عز وجل، اعملوا إنكم في أجل محدود وأمد ممدود، ونفس معدود، ولا بد للأجل أن يتناهى، وللأمد أن يطوى، وللنفس أن يحصى، ثم دمعت عيناه وقرأ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

والمراد بالقلب السليم هو القلب الذي سلم من حب الدنيا كما روي في المجمع عن مولانا الصادق عليه السلام، وفي الكافي عنه عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: (القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه.

قال: وكل قلب فيه شرك وشك فهو ساقط، وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة)[2].

إذا عرفت هذا فاعلم أنه لا يبقى مع العبد عند الموت وما بعده إلّا ثلاث خصال، صفاء القلب وسلامته عن حب الدنيا وطهارته من أدناسها، وأنسه بالله وذكره وحبه لله وفكره، والأنس لا يحصل إلّا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلّا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلّا بدوام الفكر والنظر في آيات الله، ولا يحصل ذلك إلّا بالصمت الحقيقي الذي هو سكوت القلب وإعراضه عن ذكر ما سوى المحبوب، ولا يحصل هذا إلّا بالخروج عن كل محبوب ومطلوب سوى الله، ولا يمكن الخروج إلّا بالزهد في الدنيا وترك ما

---

(١) الأمالي (للصدوق) ص١٠٨ المجلس الثالث والعشرون، وأيضا بحار الأنوار ج٧٤ ص٣٨٠ باب ١٥ مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه أيضا وحكمه.

(٢) الكافي ج٢ ص١٦ باب الإخلاص.

فيها وإلقاء شهوات النفس وأهويتها بالرياضة والمجاهدة في الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

وفي الخبر: (أن نبيًا من أنبياء الله قال: يا رب كيف الوصول إليك قال الله تعالى: ألق نفس وتعال إليَّ)، والمحبة فرع المعرفة، قال الصادق عليه السلام: (وإذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس في ظلال المحبوب، وآثر المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره واجتنب نواهيه، واختارهما على كل شيء غيرهما، فإذا استقام على بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره وصل إلى روح المناجاة والقرب)(٢).

اعلم أن الحب عبارة عن الميل القلبي إلى الشيء الملذ، وإنما يحصل بعد معرفته بذلك الشيء وإدراكه إما بالحواس أو بالقلب، وكل ما كانت المعرفة به أقوى واللذة أشد وأكثر كان الحب أقوى، والبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكًا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فيكون لا محالة لذة القلوب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، والناس في ذلك على قسمين، منهم من يحب الدنيا وميل قلبه معروف في شهواتها ولذاتها، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ

---

(١) العنكبوت ٦٩.

(٢) مصباح الشريعة ص١١٩ الباب السادس والخمسون في البيان.

مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1] وهم في درجات ذلك الميل متفاوتون، وفي مراتبه مختلفون، فميل أحدهم إلى الرئاسة العامة الباطلة، وميل الآخر إلى سلطنة في مملكة أو حكومة في بلدة، أو رئاسة في محلة، أو دراسة في مدرسة، أو إمامة في مسجد، أو أذان في إعلام، أو إقامة في صلاة، أو جلوس في أول صف في جماعة، أو في صدر مجلس، أو أمر ونهي في سوق، أو بناء دار، أو تعمير مزرعة، أو جمع مال، أو تحصيل أسباب مفاخرة، أو مطعم ومشرب، أو منكح وملبس، أو حرفة غريبة، أو صنعة عجيبة، أو إنشاء شعر مليح، أو تكميل خط صحيح، أو حفظ قول باطل، أو تحصيل علم بلا طائل، أو تربية حيوان كحبس طير، أو تسمين شاة، أو إمساك كلب وسبع، أو قود قرد، وغير ذلك مما تميل إليه القلوب الفاسدة والنفوس الضعيفة.

ومنهم من يحب الآخرة وميل قلبه معروف في تحصيل نعيمها ولذاتها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهم أيضًا متفاوتون في الدرجات مختلفون في المراتب، فمنهم من يعبد الله طمعًا في الجنة فتلك عبادة الأجراء، ومنهم من يعبد الله خوفًا من النار فتلك عبادة العبيد، ومنهم من يعبد الله حبًا له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة[2].

فأهل الدنيا يعملون للدنيا ولذتهم فيها، وأهل الآخرة يعملون

---

(١) آل عمران ١٤.

(٢) عَنْ هَارُونَ بْنِ خَارِجَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: (إِنَّ الْعُبَّادَ ثَلَاثَةٌ قَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثَّوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأُجَرَاءِ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبًّا لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ وَهِيَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ) الكافي، ج٢ ص٨٤ باب العبادة.

للآخرة ولذتهم فيها، و﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[١] و﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢] وقيمة كل إمريء ما يحسنه.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، إلّا درجة الرضا والتسليم التي يأتي ذكرها بعد هذا الباب إن شاء الله تعالى، والمقامات المتقدمة كالصبر والزهد والقناعة مثلًا فهي مقدمة من مقدماتها، وبعض أهل العلم ينكر إمكان المحبة بالنسبة إلى الله تعالى، وقال لا معنى لها إلّا المواظبة على طاعته سبحانه، وأما حقيقة المحبة فمحال إلّا مع الجنس والمثل، ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم المحبة، مع أن ما في القرآن والحديث وحكايات المحبين الذين ذاقوا حلاوة المحبة وشربوا من كأس المعرفة ما هو ناص على ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٥]، وقال النبي ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَب إِلَيْهِ مِما سِوَاهُمَا)[٦]، وقال ﷺ في دعائه: (اللهم

---

(١) الإسراء ٨٤.
(٢) المؤمنون ٥٣.
(٣) المائدة ٥٤.
(٤) البقرة ١٦٥.
(٥) التوبة ٢٤.
(٦) مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد؛ ص١٧.

ارزقني حبك، وحب من يحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إليَّ من الماء البارد)، وفي الخبر المشهور أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذا جاءه يقبض روحه: (هل رأيت خليلًا يميت خليله، فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيبًا يكره لقاء حبيبه، فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض)[١].

وفي علل الشرائع عن نبينا صلى الله عليه وآله: (أن شعيبًا عليه السلام بَكَى حَتى عَمِيَ فَرَد اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، ثُم بَكَى حَتى عَمِيَ فَرَد اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، ثُم بَكَى حَتى عَمِيَ فَرَد اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، فَلَما كَانَتِ الرابِعَةُ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ يَا شُعَيْبُ إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا أَبَدًا مِنْكَ إِنْ يَكُنْ هَذَا خَوْفًا مِنَ النارِ فَقَدْ أَجَرْتُكَ، وَإِنْ يَكُنْ شَوْقًا إِلَى الْجَنةِ فَقَدْ أَبَحْتُكَ، فقَالَ: إِلَهِي وَسَيدِي أَنْتَ تَعْلَمُ أَني مَا بَكَيْتُ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ وَلَا شَوْقًا إِلَى جَنتِكَ وَلَكِنْ عَقَدَ حُبكَ عَلَى قَلْبِي، فَلَسْتُ أَصْبِرُ أَوْ أَرَاكَ، فَأَوْحَى اللهُ تعالى إِلَيْهِ أَما إِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَمِنْ أَجْلِ هَذَا سَأُخْدِمُكَ كَلِيمِي مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ)[٢].

وقال سيد الشهداء في دعاء يوم عرفة: (أَنْتَ الذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبائِكَ حَتى لَمْ يُحِبوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى غَيْرِك).

وقال عليه السلام: (عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبكَ نَصِيبًا)[٣].

وقال سيد الساجدين: (إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الذِينَ تَرسخت أَشْجَارُ

---

(١) علل الشرائع ج١ ص٣٧ باب العلة التي من أجلها اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلًا. قريب منه

(٢) علل الشرائع ج١ ص٥٧ باب العلة التي من أجلها جعل الله عز وجل موسى خادمًا لشعيب عليه السلام.

(٣) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

الشوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ، وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الْأَفْكَارِ يَأْوُونَ، وَفِي رِيَاضِ الْقُرْبِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُون)[١].

ثم اعلم أن أكمل اللذات وأجلها وأعلاها معرفة الله تعالى التي هي سبب محبته ولذة لقائه والنظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢]، وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلّا من حرم هذه اللذة، قال سيد الساجدين عليه السلام: (إِلَهِي مَنْ ذَا الذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا وَمَنْ ذَا الذِي أَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حِوَلا)[٣]، وذلك لأن اللذات متفاوتة في الدرجات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولكل شخص طبع غالب ولذته بمقتضى طبعه، فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذة صاحبها في الغلبة والانتقام، وشهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذة صاحبها في نيل الغذاء، وهكذا سائر الغرائز.

وفي القلب غريزة تسمى بالبصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، يعلم بها حقائق الأمور، أي معانيها المجردة عن المادة والصورة، ومقتضى هذه الغريزة علم اليقين، والعلم من أخص الصفات الربوبية وأشرف الخصال الإنسانية ومنتهى الكمالات النفسانية، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء والبصيرة والعلم، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه فيعجب بنفسه

---

(١) الصحيفة السجادية المناجاة الثانية عشرة: مناجاة العارفين.

(٢) القيامة ٢٢/٢٣.

(٣) بحار الأنوار ج٩١ ص١٤٨ باب ٣٢ أدعية المناجاة.

ويتلذذ به، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والتجارة والخياطة كلذة العلم بسياسة المدن والملك، ولا لذة العلم بالنحو والصرف والشعر كلذة العلم بكيفية الأعمال والأحكام الذي يسمى بعلم الشريعة، ولا لذة ذلك كلذة العلم بتعديل الأحوال وتهذيب الأخلاق الذي يسمى بعلم الطريقة، ولا لذة لما ذكر كله كلذة معرفة الله ومعرفة صفاته وآياته ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفه بها من عرفه لا فرق بينه وبينها إلّا أنهم عباده وخلقه التي تسمى بعلم الحقيقة ومعرفة البيان، التي تحصل بكشف سبحات الجلال من غير إشارة، وبمحو الموهوم وصحو المعلوم، وبهتك الستر لغلبة السر، وبمعرفة حقيقة النفس العليا التي من عرفها فقد عرف ربه.

فإذا عرفت أن اللذات تابعة للإدراكات، ومعلوم أن أشرف الإدراكات تابع لشرف المدركات والمعلومات، فإذا كان في المدركات والمعلومات مدرك ومعلوم هو الأجل والأشرف والأكمل والأعظم، فالإدراك به ألذ الإدراكات وأشرفها وأطيبها، وليس في الوجود شيء أجمل وأعلى وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها ومكملها ومربيها ومدبرها كما دلتنا عليه آياته التي أرانا في الآفاق وفي أنفسنا، فلذة معرفته وإدراك لقائه أقوى وألذ من سائر اللذات لمن كان له غريزة المعرفة والبصيرة، وكانت له عين معارة كما قيل:

إذا رام عاشقها نظرة فمن لطفها

أعارته طرفًا يراها به فكان البصير بها طرفها

فإذا تجلى ضياء المعرفة في فؤاد عبد أراد الله أن يعرفه نفسه، هاج له ريح المحبة فآثر المحبوب على ما سواه، ووجد المطلوب قريبًا والمحبوب حبيبًا، يرفع حجاب المحبة لأنها حجاب بين الحبيب

والمحبوب، فصار همه همًا واحدًا قد غلب عليه الشوق، فلم ينتفع بعيش الدنيا كما أشار إليه زكريا عليه السلام بقوله لأم يحيى عليه السلام حين تعلقت به ومنعته عما يريد: (يا أم يحيى دعيه فإن ولدي قد كشف له عن قناع قلبه ولم ينتفع بالعيش)[١].

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: (الْمُشْتَاقُ لَا يَشْتَهِي طَعَامًا وَلَا يَلْتَذ شَرَابًا وَلَا يَسْتَطِيبُ رُقَادًا وَلَا يَأْنَسُ حَمِيمًا وَلَا يَأْوِي دَارًا وَلَا يَسْكُنُ عُمْرَانًا وَلَا يَلْبَسُ ثِيَابًا لَينَةً وَلَا يَقِر قَرَارًا وَيَعْبُدُ اللهَ لَيْلًا وَنَهَارًا رَاجِيًا بِأَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَشْتَاقُ إِلَيْهِ وَيُنَاجِيَهُ بِلِسَانِ الشوْقِ مُعَبرًا عَما فِي سَرِيرَتِهِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى بن عمران عليه السلام فِي مِيعَادِ رَبهِ بقوله وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَب لِتَرْضى وَفَسرَ النبِي صلى الله عليه وآله عَنْ حَالِهِ أَنهُ مَا أَكَلَ وَلَا شَرِبَ وَلَا نَامَ وَلَا اشْتَهَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي ذَهَابِهِ وَمَجِيئِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا شَوْقًا إِلَى رَبهِ)[٢]. الحديث.

والشوق لا يسكن قط، ولا سيما فيما يرى فوقه درجات كثيرة لم يصل إليها يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا، وفي الدعاء: (تدلج بين يدي المدلج من خلقك)[٣] وفي الحديث القدسي قال تعالى: (كلما وضعت لهم علمًا رفعت لهم حلمًا وليس لمحبتي غاية ولا نهاية)[٤] فليس شيء من اللذات كلذة معرفة

---

(١) الأمالي(للصدوق) ص٣٠ المجلس الثامن.

(٢) مصباح الشريعة ص١٩٦ الباب الرابع والتسعون في الشوق.

(٣) الكافي، ج٣ ص٤٤٥ باب صلاة النوافل.

(٤) ما وجدناه في إرشاد القلوب والجواهر السنية وبحار الأنوار هو هذا: (لَيْسَ لِمَحَبَّتِي عِلْمٌ وَلَا غَايَةٌ وَلَا نِهَايَةٌ وَكُلَّمَا رَفَعْتُ لَهُمْ عِلْمًا وَضَعْتُ لَهُمْ عِلْما) إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١ ص١٩٩ الباب الرابع والخمسون فيما سأل رسول الله صربه ليلة المعراج.الجواهر السنية ص٣٨٢. بحار الأنوار ج٧٤ ص٢١ باب ٢.

الله تبارك وتعالى التي ترجع حقيقة إلى معرفة أوليائه عليهم السلام، لأن من عرفهم فقد عرف الله ومن جهلهم فقد جهل الله، ومحبة الله التي هي ثمرة معرفته أيضًا ترجع في الحقيقة إلى محبتهم عليهم السلام، لأن من أحبهم فقد أحب الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله، فمن أدرك لذة معرفتهم ووصل إلى محبتهم عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة كلها سواء كانت لأهل الدنيا أم لأهل الآخرة منطوية تحت هذه اللذة، بل ليست باللذات حقيقة، كما قيل:

كان لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... فصرت مولى الورى إذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... مشتغلًا بذكرك يا ديني ودنياي

فالأنس بالله عز وجل بدوام الذكر والفكر، والحب لله تعالى بإعراض القلب عن كل محبوب سوى الله، لأن حبه تعالى لا يجتمع مع حب غيره في قلب، لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يوصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة، ويدخلانه في رياض المعرفة والمكاشفة، فيرى الله سبحانه ظاهرًا في كل شيء، قد جعله دكًا ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[1]، ويقلب خلقه ذات اليمين وذات الشمال، فإذا اطلع على حقيقتهم بأنه لا شيئية لهم لولى منهم فرارًا إلى من هو الشيء بحقيقة الشيئية فَيُؤثِرُه على ما سواه وأخلص المحبة له، فيقول كما قال سيد الشهداء صلوات الله عليه: (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت

(١) القصص ١٥.

عين لا تراك ولا تزال عليها رقيبًا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا)[١].

وهذه السعادة أعني لذة اللقاء والمشاهدة كانت للعبد ما دام في الدنيا، وتتعجل عقيب الموت فيصير القبر له روضة من رياض الجنة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة ولم يكن له إلّا محبوب واحد، فكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة أنوار جماله، فارتفعت العوائق وخرج من سجن الدنيا وخلى بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسرورًا سالمًا من الموانع آمنًا من الفراق، وكيف لا يكون من همه الدنيا ولم يكن له محبوب ومطلوب سواها، وكان منهمكًا في شهواتها ولذاتها عند الموت معذبًا، وكيف لا يكون قبره حفرة من حفر النيران وقد غصب منه ما كان يحبه وحيل بينه وبين ما تشتهيه نفسه، وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه، وليس الموت عدمًا، وإنما العبد ينقل بالموت من دار إلى دار.

فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ويؤديه أيامه إلى شقوة ويأتيه الموت بغتة فيفسد عليه دنياه وآخرته، فتطول حسرته وندامته، وفقنا الله وإياك للتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار السرور والاستعداد للموت بالموت الإختياري قبل نزوله التي هي سبب حصول معرفة الله ومحبته ومفتاح الوصول إلى مشاهدته ولذة لقائه.

باب الرضا والتسليم

الثاني عشر: الرضا والتسليم، أما الرضا فهو شعاع نور المعرفة وعلامة الصدق في المحبة، وهو خروج العبد عن جميع اختياره وفنائه

---

(١) دعاء الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

في إرادة سيده، وفيما اختار الله له بالتسليم لحكم علمه السابق والتفويض إلى تدبير حكمه اللاحق اختيارًا كما هو بالموت اضطرارًا، والرضا اسم يجتمع فيه معاني العبودية والعبادة، لأن العبادة هي فعل ما يرضى به المعبود، والعبودية هي الرضا بما يفعل به السيد كما قيل:

هواي له فرض تعطف أو جفى ... ومنهله عذب تكدر أو صفى
وكلت إلى المحبوب أمري جميعه ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

فمن أمات نفسه بالخروج عن ظلمات إنياتها أحياه الله بنور عنايته كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1] والعجب ممن يدعي العبودية لله وهو ينازعه فيما أجرى عليه من أحكام قدره، ولم يصبر على ما أمضى من أحتام قضائه، ولم يرضَ بما حكم له مما قسمه بين عباده، مع أنه يدعي تصديق قول إمامه الصادق عليه السلام حيث يقول: (عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلّا كان خيرًا له إن قرض بالمقاريض كان له وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيرًا له)[2].

وسئل عليه السلام بأي شيء علم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: (بالتسليم والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط)[3].

وقال عليه السلام: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لشيء قد مضى لو كان غير هذا)[4].

---

(١) الأنعام١٢٢.
(٢) الكافي ج٢ ص٦٢ / باب الرضا بالقضاء.
(٣) المحاسن، ج٢ ص٣٢٨ كتاب العلل.
(٤) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام ص٣٥٩ باب ٩٦ التوكل على الله والرجاء=

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (لو كشف الغطاء ما اخترتم إلّا الواقع).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله)[١].

وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض أسفاره إذ لقيته ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: ما أنتم، فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله.

قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: علماء حلماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون)[٢].

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: (الإيمان له أركان أربعة: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عز وجل)[٣].

وأما التسليم فهو الإنقياد لأمر الله وتفويض العبد أموره كلها إلى الله العليم الحكيم الذي لا يسأل عما يفعل بلا إعراض ولا اعتراض، قال الصادق عليه السلام: (المفوض أمره إلى الله تعالى في راحة الأبد

=من الله والتفويض إلى الله وأن كل ما صنعه الله للمؤمن فهو خير له وأنه من أعطي الدين فقد أعطي الدنيا. الكافي، ج٢ ص٦٣ باب الرضا بالقضاء.

(١) الكافي، ج٢ ص٦٠ باب الرضا بالقضاء.

(٢) الوافي ج٤ ص١٤٧.

(٣) الكافي ج٢ ص٤٧ باب خصال المؤمن.

والعيش الدائم الرغد)[١] والمفوض حقًا هو العالي عن كل همة دون الله كقول أمير المؤمنين عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

وقال الله عز وجل في المؤمن من آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾[٢].

والتفويض خمسة أحرف لكل حرف منها حكم، فمن أتى بأحكامه فقد أتى بالتفويض.

التاء من تركه التدبير والدنيا.

والفاء من فناء كل همة من غير الله.

والواو من وفاء العهد وتصديق الوعد.

والياء اليأس من نفسك واليقين بربك.

والضاد من الضمير الصافي لله والضرورة إليه.

والمفوض لا يصبح إلّا سالمًا من جميع الآفات ولا يمسي إلّا معافى بدينه.

اعلم أن المراد بالتسليم لأمر الله هو التسليم لأمر أوليائه عليهم السلام، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٣] ففي حسنة

---

(١) مصباح الشريعة ص١٧٥ الباب الثالث والثمانون في التفويض.
(٢) غافر٤٤ ـ ٤٥.
(٣) النساء٦٥.

الكاهلي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (لو أن قومًا عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه النبي صلى الله عليه وآله ألا صنع خلاف الذي صنع أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: فعليك بالتسليم)[١].

وفي رواية الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له إن عندنا رجلًا يقال له كليب، فلا يجيء عنكم شيء إلّا قال: أنا أسلم، فسميناه كليب تسليم.

قال: فترحم عليه ثم قال: أتدرون ما التسليم.

فسكتنا، فقال: هو والله الإخبات، يقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾[٢].

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل فيه: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ قال جابر: فقلت له: يابن رسول الله وكيف لا يُسأل عما يفعل قال: لأنه لا يفعل إلّا ما كان حكمة وصوابًا، وهو المتكبر الجبار، والواحد القهار، فمن وجد في نفسه حرجًا في شيء مما قضى كفر ومن أنكر شيئًا من أفعاله جحد)[٣] الحديث.

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إنكم لا تكونوا صالحين حتى تعرفوا، ولا تعرفوا حتى تصدقوا، ولا تصدقوا ولا تسلموا أبوابًا

---

(١) المحاسن ج١ ص٢٧١ باب تصديق رسول الله صلى الله عليه وآله والتسليم له. الكافي ج١ ص٣٩٠ باب التسليم وفضل المسلمين.

(٢) الكافي ج١ ص٣٩١ باب التسليم وفضل المسلمين.

(٣) التوحيد (للصدوق) ص٣٩٧ باب الأطفال وعدل الله عز وجل فيهم.

أربعة، لا يصلح أولها إلّا بآخرها، ضل أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهًا بعيدًا وخسروا خسرانًا مبينًا)[١] الحديث.

فجعل عليه السلام التسليم نهاية أبواب الإيمان وهو روحها وبه قوامها، فالصلاح بلا معرفة هو إيمان الثالث الذي يكون في صلاحه خائنًا وإيمان من تبعه، والمعرفة بلا تصديق إيمان الثاني الذي يكون بعد معرفته نعمة الله مُنكِرًا وإيمان من سلك مسلكه، والتصديق بلا تسليم هو إيمان الأول الذي سمي نفاقًا من باب المبالغة، وأن لا يكون بسلطانه مؤمنًا وبقلبه منافقًا، وإيمان من قال بلسانه ما ليس في قلبه، فعدد الأول نفاق وهو مائتان وواحد وثلاثون، وعدد الثاني مُنكَر وهو ثلاثمائة وعشرة، وعدد الثالث خائن وهو ستمائة وواحد وستون، والصلاح مع المعرفة المقرونة بالتصديق الجامع، التسليم هو إيمان شيعة الإيمان الذي حببه الله إليهم وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر أي كفر النفاق والفسوق، أي فسوق الإنكار والعصيان، أي عصيان الخيانة، أولئك هم الراشدون، أي الأربعة المذكورة كل واحد منهم يدعي إصابة الطريق المستوي والهداية إلى سبيل الرشاد، والأول منهم وهو الإيمان صادق ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[٢] وأصحاب الثلاثة الذين ضلوا وأضلوا كثيرًا وتاهوا تيهًا بعيدًا وخسروا خسرانًا مبينًا، كذبوا بشهادة الله، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣].

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا
إذا انبجس الدموع على الخدود ... تبين من بكى ممن تباكى

---

(١) الكافي، ج٢ ص٤٧ باب خصال المؤمن. الوافي ج٤ ص١٣٥.
(٢) الجن٢.
(٣) المنافقون١.

ويقول فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[١]، وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٢] وأنا أقول يا أخي: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[٣] إيمانًا مقرونًا بالصلاح والمعرفة والتصديق والتسليم ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[٥] في الكافي عن مولانا الباقر عليه السلام قال: (أتدري من هم قيل أنت أعلم قال ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المسلّمون إن المسلّمين هم النجباء)[٦].

والقمي عن مولانا الصادق عليه السلام: (لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي فقالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)[٧].

فقد دل قول الصادقين أن التسليم هو السبب للفلاح الذي هو الفوز بجميع المأمول، والنجاة من كل محذور، اللذان هما غاية آمال العارفين بشهادة الجنة للمؤمنين المُسَلّمِين الذين هم النجباء، ودل مفهوم الكلام على أن من لم يكن من أهل التسليم ليس بنجيب بل هو من أراذل الناس الذين لم يكونوا من أهل الأسرار، وسجيتهم الإنكار، وفي الدعاء المروي عنهم عليهم السلام: (اللهم إني أقر وأشهد وأعترف ولا أجحد وأسر وأظهر وأعلن وأبطن بأنك أنت الله الذي لا

---

(١) غافر٢٩.
(٢) غافر٣٨.
(٣) البقرة ٢٥٦.
(٤) البقرة٢٥٦.
(٥) المؤمنون١.
(٦) تفسير الصافي ج٣ ص٣٩٣ [سورة المؤمنون(٢٣): آية ١]. بحار الأنوار ج٦٤ ص٤١.
(٧) تفسير القمي ج٢ ص٨٨ [سورة المؤمنون(٢٣): الآيات ١ الى ٤].

إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك وأن عليًا أمير المؤمنين وسيد الوصيين ووارث علم النبيين وقاتل المشركين وإمام المتقين ومجاهد الناكثين والقاسطين والمارقين إمامي وحجتي وصراطي ودليلي ومحجتي ومن لا أثق بالأعمال وإن زكت ولا أراها منجية وإن صلحت إلّا بولايته والإئتمام به والإقرار بفضائله والقبول من حملتها والتسليم لرواتها اللهم وأقر بأوصيائه من أبنائه أئمة وحججًا وأدلة وسرجًا وأعلامًا ومنارًا وسادة أبرارا وأدين بسرهم وجهرهم وظاهرهم وباطنهم وحيهم وميتهم وشاهدهم وغائبهم لا شك في ذلك ولا ارتياب ولا تحول عنه ولا انقلاب)[1] الدعاء.

فدل قولهم هذا على أنه لا وثوق بالأعمال ولا اعتماد عليها وإن زكت وطهرت، ولم تكن منجية لعاملها وإن صلحت وطابت، إلّا بولايتهم التي هي ولاية الله الأزلية الأولية، والإقرار بجميع فضائلهم الظاهرة والباطنة، والقبول من حملتها العارفين الخصيصين المؤمنين الممتحنين الذين هم القرى الظاهرة بين الرعية وبين القرى المباركة، التي أمر الله الرعية أن يسروا فيها ليالي وأيام آمنين[2]، والتسليم

---

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات ص٢٥٤.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ سبأ ١٨، وفي كتاب الاحتجاج ما يفسر القرى الظاهرة بالعلماء الأعلام أعلى الله كلمتهم وهو ما روي عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ: أَتَى الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام فَقَالَ: جِئْتُكَ لِأَسْأَلَكَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: (أَلَسْتَ فَقِيهَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ؟ قَالَ قَدْ يُقَالُ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام هَلْ بِالْبَصْرَةِ أَحَدٌ تَأْخُذُ عَنْهُ؟ قَالَ لَا قَالَ فَجَمِيعُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَأْخُذُونَ عَنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ سُبْحَانَ اللَّهِ لَقَدْ تَقَلَّدْتَ عَظِيمًا مِنَ الْأَمْرِ ـ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ فَمَا أَدْرِي أَكَذَاكَ أَنْتَ أَمْ يُكْذَبُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ زَعَمُوا أَنَّكَ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعِبَادَ فَفَوَّضَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ قَالَ: فَسَكَتَ الْحَسَنُ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ مَنْ قَالَ اللَّهُ لَهُ فِي=

لرواتها الذين هم أوعية علومهم وحمولة أثقالهم ونقلة أسرارهم إلى محبيهم وشيعتهم التي لا يحتملها إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان بسرهم وظاهرهم وباطنهم، ومرنه مرة بعد أخرى لقبول الأسرار، وجربه للكتمان عن الأغيار، وهم الذين قد كشف الغطاء عن بصائرهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم في ضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعلت بسبق السعادة في الزهادة هممهم،

=كِتَابِهِ إِنَّكَ آمِنٌ هَلْ عَلَيْهِ خَوْفٌ بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُ؟ فَقَالَ الْحَسَنُ: لَا فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام إِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ آيَةً وَأُنْهِي إِلَيْكَ خِطَابًا وَلَا أَحْسَبُكَ إِلَّا وَقَدْ فَسَّرْتَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ فَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ فَقَالَ لَهُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ يَا حَسَنُ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَفْتَيْتَ النَّاسَ فَقُلْتَ هِيَ مَكَّةُ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: فَهَلْ يُقْطَعُ عَلَى مَنْ حَجَّ مَكَّةَ وَهَلْ يُخَافُ أَهْلُ مَكَّةَ وَهَلْ تَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَمَتَى يَكُونُونَ آمِنِينَ؟ بَلْ فِينَا ضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فِي الْقُرْآنِ فَنَحْنُ الْقُرَى الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَنْ أَقَرَّ بِفَضْلِنَا حَيْثُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شِيعَتِهِمُ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَالْقُرَى الظَّاهِرَةُ الرُّسُلُ وَالنَّقَلَةُ عَنَّا إِلَى شِيعَتِنَا وَفُقَهَاءُ شِيعَتِنَا إِلَى شِيعَتِنَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ فَالسَّيْرُ مَثَلٌ لِلْعِلْمِ سِيرَ بِهِ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا مَثَلٌ لِمَا يَسِيرُ مِنَ الْعِلْمِ فِي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ عَنَّا إِلَيْهِمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْفَرَائِضِ وَالْأَحْكَامِ آمِنِينَ فِيهَا إِذَا أَخَذُوا مِنْهُ آمِنِينَ مِنَ الشَّكِّ وَالضَّلَالِ وَالنُّقْلَةِ مِنَ الْحَرَامِ إِلَى الْحَلَالِ لِأَنَّهُمْ أَخَذُوا الْعِلْمَ مِمَّنْ وَجَبَ لَهُمْ أَخْذُهُمْ إِيَّاهُ عَنْهُمْ بِالْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ الْعِلْمِ مِنْ آدَمَ إِلَى حَيْثُ انْتَهَوْا ذُرِّيَّةٌ مُصْطَفَاةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ فَلَمْ يَنْتَهِ الِاصْطِفَاءُ إِلَيْكُمْ بَلْ إِلَيْنَا انْتَهَى وَنَحْنُ تِلْكَ الذُّرِّيَّةُ الْمُصْطَفَاةُ لَا أَنْتَ وَلَا أَشْبَاهُكَ يَا حَسَنُ فَلَوْ قُلْتُ لَكَ حِينَ ادَّعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ وَلَيْسَ إِلَيْكَ يَا جَاهِلَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ لَمْ أَقُلْ فِيكَ إِلَّا مَا عَلِمْتُهُ مِنْكَ وَظَهَرَ لِي عَنْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ بِالتَّفْوِيضِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُفَوِّضِ الْأَمْرَ إِلَى خَلْقِهِ وَهْنًا مِنْهُ وَضَعْفًا وَلَا أَجْبَرَهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِ ظُلْمًا). الإحتجاج على أهل اللجاج (للطبرسي) ج٢ ص٣٢٧ احتجاج أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في شيء مما يتعلق بالأصول والفروع.

وعذب من معين المعاملة شرابهم، وطاب في مجلس الأنس سرهم، وآمن في موطن المخافة سريرهم، واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم، وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقر بإدراك المسؤول ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم، وهم الذين رضي الله عنهم برضاهم عنه بما قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، وبتسليمهم لأمره فيما أمرهم من التسليم لأوليائه، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزاء لتسليمهم ورضاهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فعليك بالرضا والتسليم لأنهما صراط مستقيم، وجناحان للعبد يطير بهما إلى غاية الغايات ونهاية النهايات من كمال النفس.

واعلم أن النفس في بداية أمرها بالطبع أمارة بالسوء إلّا ما رحم ربك، فألهمها فجورها وتقواها، فكانت ملهمة تعلم خيرها وشرها، وتعرف ناصحها وغاشها، ثم تكون لوامة تلوم صاحبها بترك الخيرات وفعل الشرور، حتى صارت بالمداومة على الخيرات ورفض الشرور مطمئنة، ثم تكون راضية بالقدر والقضاء، فتصير مرضية عند ربها، ثم تكون كاملة بالتسليم في نهاية أمرها، فلما دخلت في صرح التسليم حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال لها سليمان العقل إنه صرح ممرد من قوارير، قالت: رب إني ظلمت نفسي بمتابعة شهواتها وتركها في ظلمات إنياتها، فالآن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وروي عن كميل بن زياد أنه قال: سَأَلْتُ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًا عليه السلام فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُ أَنْ تُعَرِفَنِي نَفْسِي.

[قَالَ] فقال: (يَا كُمَيْلُ وَأَيِ الْأَنْفُسِ تُرِيدُ أَنْ أُعَرِفَكَ؟.

قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ هَلْ هِيَ إِلا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ.

قَالَ: يَا كُمَيْلُ إِنمَا هِيَ أَرْبَعَةٌ، النامِيَةُ النبَاتِيةُ، وَالْحِسيةُ الْحَيَوَانِيةُ، وَالناطِقَةُ الْقُدْسِيةُ، وَالْكُليةُ الْإِلَهِيةُ، وَلِكُل وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ خَمْسُ قُوًى وَخَاصِيتَانِ.

فَالنامِيَةُ النبَاتِيةُ لَهَا خَمْسُ قُوًى، مَاسِكَةٌ وَجَاذِبَةٌ وَهَاضِمَةٌ وَدَافِعَةٌ وَمُرَبيَةٌ، وَلَهَا خَاصِيتَانِ الزيَادَةُ وَالنقْصَانُ، وَانْبِعَاثُهَا مِنَ الْكَبِدِ.

وَالْحِسيةُ الْحَيَوَانِيةُ لَهَا خَمْسُ قُوًى، سَمْعٌ وَبَصَرٌ وَشَم وَذَوْقٌ وَلَمْسٌ، وَلَهَا خَاصِيتَانِ الرضَا وَالْغَضَبُ، وَانْبِعَاثُهَا مِنَ الْقَلْبِ.

وَالناطِقَةُ الْقُدْسِيةُ لَهَا خَمْسُ، قُوًى فِكْرٌ وَذِكْرٌ وَعِلْمٌ وَحِلْمٌ وَنَبَاهَةٌ، وَلَيْسَ لَهَا انْبِعَاثٌ وَهِيَ أَشْبَهُ الْأشياء بِالنفُوسِ الملكية [الْفَلَكِيةِ]، وَلَهَا خَاصِيتَانِ النزَاهَةُ وَالحكمة.

وَالْكُليةُ الْإِلَهِيةُ لَهَا خَمْسُ قُوًى بقاء فِي فَنَاءٍ وَنَعِيمٌ فِي شَقَاءٍ وَعِز فِي ذُل وَفَقْرٌ فِي غَنَاءٍ وَصَبْرٌ فِي بَلَاءٍ، وَلَهَا خَاصِيتَانِ الرضَا وَالتسْلِيمُ، وَهَذِهِ التِي مَبْدَؤُهَا مِنَ اللهِ وَإِلَيْهِ تَعُودُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وَقَالَ تَعَالَى يا أَيتُهَا النفْسُ الْمُطْمَئِنةُ ارْجِعِي إِلى رَبكِ راضِيَةً مرضية وَالْعَقْلُ فِي وَسَطِ الْكُل)[1].

انظر في هذا الحديث الشريف كيف جعل أمير المؤمنين صلوات الله عليه الرضا والتسليم نهاية النفس الكلية الإلهية وغاية كمالها وجعلهما خاصيتان لها.

واعلم أن الكلام في الرضا والتسليم طويل، وذكرهما كما ينبغي في هذا المقام إطناب وتطويل.

فهذه اثنى عشر بابًا من أبواب الخير، كل باب منها ركن من أركان

---

(١) تفسير الصافي ج٣ ص١١١ [سورة الحجر(١٥): آية ٢٩].

الموت الاختياري بعدد البروج للشمس والقمر، وعدد الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، وعدد شهور السنة التامة، فهي بمنزلة الشهور في كمال سنة الصفات النفسانية، وبمنزلة الأئمة في الخصال الإنسانية، فإن أولها التوبة وهي الرجوع إلى العبودية، وآخرها الرضا والتسليم لأمر الربوبية، وما بينهما روضة من رياض الجنة، فمن سار بشمس حقيقته في تلك البروج الاثني عشر، ومات بالخروج عن شهوات نفسه بحيث لا يبقى لها أثر، تمت دورة سنة كمال نفسه، وأنجاه الله من الهلاك الأكبر، وأحياه بحياة طيبة لا موت فيها، فموتوا يا إخواني قبل أن تموتوا، وأخرجوا أنفسكم من الدنيا وشهواتها قبل أن تخرجوا، وكبروا على أرواحكم خمس تكبيرات، وودعوا أمانيكم كلها توديع الموت للحياة، وفقني الله وإياكم للتجافي عن دار الغرور بهذه الوفاة، وهدانا الله طريق النجاة بحق محمد وآله الهداة الولاة صلوات الله وسلامه عليهم.

واعلم أني ذكرت في صدر هذا الكتاب أشياء لم يذكرها أحد من المفسرين في أول كتابه، لأني وجدت أكثر أهل زماننا من الطلبة يطلبون بيوت العلم ولا يأتون البيوت من أبوابها، وينظرون إلى المسببات ولا يدرون من أين أسبابها، ولهذا لم يصلوا إلى معاني الأخبار والكتاب، ولم يهتدوا إلى لطائف الآثار والخطاب، ففتحت لهم تلك الأبواب ودللتهم على تلك الأسباب، ليأتوا البيوت من أبوابها ويأخذوا المسببات بأسبابها، وليعلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وهـــذا أوان الشروع في المقصود وافتتاح التفسير المعهود فأقول:

---

(١) الرعد ١١.

(٢) الأحقاف ١٠.

[ذكر أقسام التفسير]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي وعليه اعتمادي وبنبيه وآله صلى الله عليهم توسلي واستنادي، وأسأله سؤال عبد ذليل خاضع فقير بائس مسكين مستكين مستجير، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، أن يوفق عبده الضعيف لفهم معاني محكم كتابه، وبيان بديع مبرم خطابه، ودقائق عباراته، ولطائف إشاراته، وحقائق بشاراته، وأن يزيده تحيرًا في عجائب بطونه، وتدبرًا في غرائب سر مكنونه، وتصرفًا في وجوه تنزيله، ورسوخًا في علم تأويله، وتفكرًا في قصصه وحكاياته، وتعقلًا في أمثاله وكناياته، وبصيرة في حدوده وأحكامه، ومعرفة في حلاله وحرامه، فإن كتاب الله عز وجل له ظاهر، ولظاهره ظاهر، وله باطن ولباطنه باطن، وله تأويل وباطن تأويل، وفيه عبارة، وفي العبارة إشارات، وفيه حكاية، وفي الحكاية بشارات، وفيه أمثال وفي الأمثال كشف للأسرار، وفيه قصص وفي القصص عبرة لأولي الأبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار واستبشروا يا طالبي الأسرار.

وأتضرع إليه أن يرحمني بفضله ورحمته فيما يأتي كما رحمني فيما سبق، وأن يعصمني أن لا أقول في كتابه عليه إلّا الحق.

اعلم أن المراد بتفسير الظاهر هو ما ذكره المفسرون على ظاهر اللغة فهو معروف لا يحتاج إلى ذكرنا هنا.

[معنى تفسير ظاهر الظاهر]

وأما تفسير ظاهر الظاهر فأن تأخذ مادة الكلمة ـ أي من حروفها ـ وتتصرف بها فيما تريد إذا كنت تعلم المراد، وإن كان ما تأخذه وتتصرف بها فيما تريد مخالفًا لقاعدة أهل اللغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[1]، ففي تفسير الظاهر أن الجبال جمع جبل وهو معروف، وفي تفسير ظاهر الظاهر أن الجبال جمع جبلة وهي الطبيعة، وفي تفسير التأويل الجبال الأجساد الحيوانية من الإنسان وغيره.

والنحل في الظاهر معروف، وفي التأويل نفوس العلماء، وفي ظاهر الظاهر النفوس التي لها قدرة على الانتحال يعني الاختيار، أي اختيار الحسن كما في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[2].

ومن تفسير ظاهر الظاهر ما روي عن الصادق عليه السلام ما معناه في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[3] قال عليه السلام: (ميثاقًا هو العقد، وغليظًا هو المني)[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾[5] قال: هي الفروج.

---

(١) النحل ٦٨.

(٢) الزمر ١٨.

(٣) النساء ٢١.

(٤) عَنْ بُرَيْدٍ الْعِجْلِيِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قَالَ: (الْمِيثَاقُ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي عُقِدَ بِهَا النِّكَاحُ وَأَمَّا قَوْلُهُ غَلِيظًا فَهُوَ مَاءُ الرَّجُلِ يُفْضِيهِ إِلَى امْرَأَتِهِ) الكافي ج٥ ص٥٦١ باب نوادر.

(٥) الأحزاب ٢٧.

ومنه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[١] أي أغرقوا في ماء الخطايا وهو ماء أجاج.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[٢] قال عليه السلام: (تبقى الأرواح ساهرة لا تنام)[٣].

وأمثال ذلك مما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

[معنى التأويل وباطن التأويل]

وأما التأويل فالمراد به صرف بعض الكلام إلى معنى غير ما يدل عليه ظاهره، ولا يلاحظ فيه تمام الكلام اللغوي، كما قال عليه السلام في ذكر قيام القائم عليه السلام: (وما ينالون من أدركوه من العلم بحيث يستغني كل منهم عن علم الآخر)[٤]، قال عليه السلام: وهو تأويل قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[٥].

وأما باطن التأويل فكذلك، إلّا أنه تفسير باطن كما قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٦] قال عليه السلام ما معناه: هو الحسن بن علي عليهما السلام أمر بالكف عن القتال وصلح معاوية وحقن دماء المسلمين، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ

---

(١) نوح ٢٥.

(٢) النازعات ١٣ ـ ١٤.

(٣) بحار الأنوار ج٥٣ ص٤٥ باب ٢٩ الرجعة.

(٤) في حديث طويل في كتاب مختصر البصائر؛ ص٤٧٤: (وَيُقْذَفُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الْعِلْمَ، فَلَا يَحْتَاجُ مُؤْمِنٌ إِلَى مَا عِنْدَ أَخِيهِ مِنَ الْعِلْمِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه).

(٥) النساء ١٣٠.

(٦) النساء ٧٧.

عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾[١] قال: هو الحسين بن علي عليه السلام كتب عليه عليه السلام القتل والله لو برز معه أهل الأرض لقتلوا[٢].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٣] قال: الإنسان رسول الله صلى الله عليه وآله ووالديه الحسن والحسين عليهما السلام.

والتأويل وكذا باطن التأويل في كلامهم كثير.

[معنى تفسير الباطن وباطن الباطن]

وأما تفسير الباطن فكقوله تعالى: ﴿حم﴾[٤] وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو علي عليه السلام، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٥] وهي فاطمة عليها السلام، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٦] أي إمام حكيم بعد إمام حكيم[٧].

---

(١) النساء ٧٧.

(٢) علي بن أسباط عن ثعلبة بن ميمون عن الحسن بن زياد العطار قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: (نزلت فى الحسن بن علي عليه السلام أمره الله بالكف. قال قلت: (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ) قال: نزلت في الحسين بن علي عليه السلام كتب الله عليه وعلى أهل الأرض أن يقاتلوا معه) الأصول الستة عشر ص١٢٢ نوادر على بن أسباط.

(٣) العنكبوت ٨.

(٤) غافر ١.

(٥) الدخان ٣.

(٦) الدخان ٤.

(٧) من حديث طويل عن الإمام العالم موسى بن جعفر عليه السلام فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: (إِنِّي أَسْأَلُكَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَالَ سَلْ قَالَ أَخْبِرْنِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَنَطَقَ بِهِ ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ فَقَالَ: (حم) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ مَا تَفْسِيرُهَا فِي الْبَاطِنِ؟ فَقَالَ أَمَّا حم فَهُوَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وَهُوَ فِي كِتَابِ هُودٍ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَنْقُوصُ الْحُرُوفِ وَأَمَّا=

والأحاديث مشحونة بذلك، وهو أن تجري على طريقة اللغة بمعان باطنة غير ظاهرها.

وأما تفسير باطن الباطن فلا يجوز بيانه بل يجب كتمانه، لأنه إذا سمعه الناس فلم يقبلوا كفروا وكفَّروا قائله، فقد روي أن القائم عليه السلام إذا خرج نادى أصحابه نصف الليل، فيسمعونه أصحابه الثلاثمائة والثلاثة عشر، فلا يتم صوته إلّا وقد اجتمعوا عنده من مشرق الأرض ومغربها، منهم من تحمله السحاب، ومنهم من تنطوي له الأرض، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾[1] فيقولون له مد يدك لنبايعك، فقال لهم: تبايعوني على كذا وكذا، فينفرون منه ولم يثبت عنده إلّا المسيح وأحد عشر نقيبًا، فيجولون الأرض ولم يجدوا ملجأ فيرجعون إليه ويبايعونه، قال الصادق عليه السلام ما معناه: (والله إني لأعرف الكلمة التي قالها لهم فيكفرون)[2] فتلك الكلمة حرف من باطن الباطن، والقرآن وأحاديثهم مشحونة ببيان تفسير باطن الباطن، ولكن أكثر الناس لا يعرفونه، ولا يجوز بيانه بحيث يعرفه كل أحد؛ لأنه لا يحتمله أصحاب العلوم ولا أصحاب القلوب، وإنما

=الْكِتابُ الْمُبِينُ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام وَأَمَّا اللَّيْلَةُ فَفَاطِمَةُ عليها السلام وَأَمَّا قَوْلُهُ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ يَقُولُ يَخْرُجُ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ فَرَجُلٌ حَكِيمٌ وَرَجُلٌ حَكِيمٌ وَرَجُلٌ حَكِيم) الكافي ج١ ص٤٧٩ باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام.

(١) البقرة ١٤٨.

(٢) عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْقَائِمِ عليه السلام عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ وَحَوْلَهُ أَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا عِدَّةُ أَهْلِ بَدْرٍ وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَلْوِيَةِ وَهُمْ حُكَّامُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عَلَى خَلْقِهِ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْ قَبَائِهِ كِتَابًا مَخْتُومًا بِخَاتَمٍ مِنْ ذَهَبٍ عَهْدٌ مَعْهُودٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صفيُجْفِلُونَ عَنْهُ إِجْفَالَ الْغَنَمِ الْبُكْمِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ إِلَّا الْوَزِيرُ وَأَحَدَ عَشَرَ نَقِيبًا كَمَا بَقَوْا مَعَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام فَيَجُولُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهُ مَذْهَبًا فَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ الْكَلَامَ الَّذِي يَقُولُهُ لَهُمْ فَيَكْفُرُونَ بِهِ) كمال الدين وتمام النعمة ج٢ ص٦٧٣ باب ٥٨ في نوادر الكتاب.

يحتمله أصحاب الأفئدة المستنيرة بنور الله، وهذا هو الذي عناه عليه السلام في قوله: (لو يعلم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله)[١] وفي رواية: (لكفره) وقال عليه السلام: (ما أفشى أحد سرنا إلّا أذاقه الله حر الحديد)[٢] ولولا خوفي من إذاقة حر الحديد لأظهرته، ولكن انظر في تفسير الباطن كما ورد عنهم عليهم السلام، فخذ ذلك المعنى الباطن وقل به في تلك الآية بغير تغيير عن صورتها ولا مجاز، وقد أظهرت لك في الإشارة إن كنت من أهلها ما لا يجوز بيانه بصريح العبارة.

ومستخبر عن سر ليلى أجبته ... بعمياء من ليلى بلا تعيين
يقولون خبرنا فأنت أمينها ... وما أنا لو خبرتهم بأمين

ومنه سورة التوحيد بأجمعها ومعرفته والتصديق به هو الإيمان بالله العزيز الحميد حقيقة، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[٣] والناس يتلونها ولا يدرون بها، قال عليه السلام بعدما ذكر فضل معرفة الله ورغب فيه قال عليه السلام: (قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَوْمٌ يُقْتَلُونَ وَيُحْرَقُونَ وَيُنْشَرُونَ بِالْمَنَاشِيرِ وَتَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْأرض بِرُحْبِهَا فَمَا يَرُدهُمْ عَما هُمْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِما هُمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ تِرَةٍ وَتَرُوا مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ وَلَا أَذًى بَلْ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ فَاسْأَلُوا رَبكُمْ دَرَجَاتِهِمْ وَاصْبِرُوا عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِكُمْ تُدْرِكُوا سَعْيَهُمْ)[٤].

---

(١) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم ج١ ص٢٥ باب في أئمة آل محمد عليهم السلام حديثهم صعب مستصعب.
(٢) المناقب (للعلوي) الكتاب العتيق ص٥٨ معجزة أخرى [في حفظ أسرار أهل البيت عليهم السلام ومعرفة حقوق المؤمنين].
(٣) النمل ٨٢.
(٤) الكافي؛ ج٨ ص٢٤٧.

وعند أهل البيت عليهم السلام من علم القرآن تفاسير متعددة من ظاهر، وظاهر ظاهر إلى السبعة، ومن باطن وباطن باطن إلى السبعة، ومن تأويل وباطن تأويل إلى السبعة، وهي أحد وعشرون تفسيرًا، وما يراد منها من أمر ونهي ودعاء وترغيب وترهيب وبشارة وإنذار وأحكام وإحتام وحلال وحرام وقصص وأمثال وحد ومطلع وعبارة وإشارة ولطيفة وحقيقة وتلويح وتصريح، وإيماء ومجمل ومبين وإطلاق وتقييد، وعام وخاص، وناسخ ومنسوخ، وماض ومستقبل، وشيء لشيء، وشيء من شيء، وشيء إلى شيء، وشيء في شيء، وشيء بشيء، وشيء يدل شيء، وحقيقة ومجاز، وحقيقة بعد حقيقة، ومجاز بعد مجاز، ومجاز بعد حقيقة، وحقيقة بعد مجاز، ومحكم ومتشابه، ومرجوح ومتساو، وإبهام وإيهام، واختبار وتعمية، وفتنة ومخادعة، ودليل حكمة وموعظة حسنة ومجادلة بأحسن طريقة، وكناية وحساب جمل، وكيفية سلوك، وغير ذلك مما اشتملت عليه آيات الكتاب، وكلها عندهم عليهم السلام خرجت عنهم إلى غيرهم عند أجوبة السائلين المأمورين بالسؤال عنهم عليهم السلام، على حسب أفهامهم وعقولهم ومذاقهم ومقاماتهم ومراتبهم في الإدراك والتحمل لأسرارهم، لأنهم عليهم السلام كلموا الناس على قدر عقولهم، وهم أهل الذكر الذين قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

في الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: (مَا ادعَى أَحَدٌ مِنَ الناسِ أَنهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلهُ كَمَا أُنْزِلَ إِلا كَذابٌ وَمَا جَمَعَهُ وَحَفِظَهُ كَمَا أنزل اللهُ تَعَالَى إِلا عَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَالْأَئِمةُ مِنْ بَعْدِهِ عليهم السلام)[2].

---

(١) النحل ٤٣.

(٢) الكافي، ج١ ص٢٢٨.

وبإسناده عنه عليه السلام قال: (مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدعِيَ أَن عِنْدَهُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ كُلهِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ غَيْرُ الْأَوْصِيَاء)(١).

وبإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام فِي قَوْلِ اللهِ عَز وَجَل: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قَالَ هُمُ الْأَئِمةُ عليهم السلام)(٢).

وبإسناده عنه عليه السلام قال: (قَدْ وَلَدَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَنَا أَعْلَمُ كِتَابَ اللهِ وَفِيهِ بَدْءُ الْخَلْقِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفِيهِ خَبَرُ السمَاءِ وَخَبَرُ الْأرض [وَخَبَرُ الْجَنةِ وَخَبَرُ النارِ] وَخَبَرُ مَا كَانَ وَخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ أَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفي إِن اللهَ يَقُولُ فِيهِ تِبْيَانُ كُل شَيْءٍ)(٣).

وبإسناده عنه قال: (كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَفَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ، وَنَحْنُ نَعْلَمُه)(٤).

وقال عليه السلام: (نَحْنُ الراسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ)(٥).

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن، وبها نوهت الكتب ويستبين الإيمان، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقتدى بالقرآن وآل محمد صلى الله عليه وآله، وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها: إني تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر، والثقل

---

(١) الكافي، ج١ ص٢٢٨.
(٢) الكافي، ج١ ص٥٣١ باب أن الأئمة عليهم السلام قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم.
(٣) الكافي، ج١ ص٦١ باب الرد إلى الكتاب والسنة وأنه ليس شيء من الحلال والحرام وجميع ما يحتاج الناس إليه إلّا وقد جاء فيه كتاب أو سنة.
(٤) الكافي، ج١ ص١٥٦ باب الرد إلى الكتاب والسنة، وأنه ليس شيء من الحلال والحرام وجميع ما يحتاج الناس إليه إلّا وقد جاء فيه كتاب أو سنة.
(٥) الكافي، ج١ ص٢١٣ باب أن الراسخين في العلم هم الأئمة عليهم السلام.

الأصغر، فأما الأكبر فكتاب ربي، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما ـ فلن تضلوا ما تمسكتم بهما)[١].

أقول: أراد عليه السلام بقوله: (إن الله تعالى جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن....إلخ)، أن الله عز وجل جعل القرآن وما دل عليه من معانيه ووجوهه التي ذكرنا ستين وجهًا منها، ومن تفاسيره الأحد والعشرين المشتملة على بيان معرفة الله وتوحيده ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية، وذكر حقيقة الإيمان والإسلام، والاعتقادات وأحوال المبدأ والمعاد، وما يتعلق بها من الأمور التكليفية من الأوامر والنواهي والأحكام، وذكر الحلال والحرام، والقصص والأمثال، وغير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من تبيان كل شيء، وكذا سائر الكتب المنزلة على الأنبياء والرسل والأمم السالفة، وما أراد الله تعالى منهم وبينه في كتبهم، جعل الله سبحانه كل ذلك بيانا لولايتنا، وهي قطب لتلك الأمور، وهي تدور عليها، فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو تنويه أمر ولايتنا، وتشييد بناء سلطنتنا، ورفع أعلام حكومتنا، وإجراء أحكام شريعتنا، وإقامة حدود طريقتنا، وكشف أسرار حقيقتنا، وبيان سبيل معرفتنا، وإظهار محكمات آياتنا، وذكر وجوب طاعتنا، وفرض شكر نعمتنا.

فإن قلت: إن ما أشرت إليه من علو مقامهم ورفعة شأنهم، مع أنه ليس في الوجود بعد النبي صلى الله عليه وآله أعلى رتبة وأشرف منزلة منهم، كما يرشد إليه دليل العقل والنقل وأن القرآن علمهم، والعالم أعلى رتبة من علمه، لا يوافق قول النبي صلى الله عليه وآله حيث جعل القرآن الثقل الأكبر،

---

(١) تفسير العياشي، ج١ ص٥ في فضل القرآن.

وجعل العترة الثقل الأصغر، ولا شك أن المراد بالعترة هنا هم عليهم السلام، فكيف التوفيق.

أقول: إنه سئل عن هذه المسألة أستاذي وشيخي قطب العارفين وزين الموحدين الشيخ أحمد بن زين الدين أعلى الله مقامهما فأجاب عنها، فقال في بعض رسائله: (أقول: إنا قد قررنا في مباحثاتنا مرارًا متعددة في أماكن متفرقة أن لهم عليهم السلام ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة المعاني وهم في تلك المرتبة[1] الحجاب الأعلى الذي لا يظهر بالكلام ولا يدرك بالأفهام، وإنما الواجب على كل من دنا من تلك الطلول كمال الصمت وتمام الخمول وذلك أعلى المعاني (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا)، وتلك المنازل لا يمكن أن يحل بساحتها أحد إلّا من سكن فيها وخرج منها، وهي المعاني التي يسأل الأنبياء ربهم بها، والأولياء يدعونه بها، وهو قول الحجة عليه السلام في دعاء رجب: (اللهم إني أسالك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك المأمونون على سرك))[2] انتهى. وفي هذا المقام هم عليهم السلام أكبر من القرآن وكل شيء من خلق الله تعالى.

الثانية: مرتبة الأبواب وهم عليهم السلام فيها باب الله الذي يصدر منه الفيض إلى جميع ما في الوجود المقيد بعدهم، وهم عليهم السلام في هذه المرتبة مساوون للقرآن لأنهم عليهم السلام الآن في رتبة العقل الأول، والعقل الأول هو الملك الأعظم المسمى بالروح من أمر الله، وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش وهو القرآن في الباطن، وإنما افترقا من جهة الظهور، فالظهور في اللفظ قرآن، والظهور في الصورة

---

(١) في المخطوطة: الحال.

(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد ج٢ ص٨٠٣ أول يوم من رجب.

الملكية روح من أمر الله، وقد أشار إليه سبحانه في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] والروح من أمر الله هو الموحى إليه صلى الله عليه وآله، وهو الملك المسمى بروح القدس الأعلى، وهو المجعول نورًا يهدي به الله من يشاء من عباده وهو القرآن، ومن نظر بفؤاده في هذه الآية الشريفة عرف بدليل الحكمة أنه القرآن، وأنه الملك الأعظم، فإنه هو الذي يقذف الله الوحي في قلبه وهو معهم يسددهم فلا يعلمون شيئًا إلّا بواسطته وهذا هو القرآن، فإن الله أخبر في مواضع متعددة أنه صلى الله عليه وآله لا يعلم شيئًا قبل القرآن مثل قوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾[2] فهم عليهم السلام في مرتبة الأبواب مساوون للقرآن.

الثالثة: مرتبة الإمامة وهو هذا الآدمي الظاهر الذي فرض الله طاعته على عباده، وهم عليهم السلام في هذا المقام لا يعلمون شيئًا إلّا من القرآن وما نزل به جبرئيل والملائكة عليهم السلام عليه صلى الله عليه وآله في ليلة القدر وغيرها، إنما هو في بيان ما انطوى عليه القرآن من الخفايا ولهذا وصف الله عليًا عليه السلام بالعلم في غاية الوصف حيث قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]. فأخبر عن كتابه المجيد أنه تفصيل كل شيء، وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام سئل

---

(١) الشورى ٥٢.
(٢) هود ٤٩.
(٣) الرعد ٤٣.
(٤) يوسف ١١١.

هل عندكم من رسول الله شيء من الوحي سوى القرآن؟ قال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلّا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في كتابه).

وقد قال في كتابه إشارة إلى قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[1]. يعني القرآن.

وقال تعالى في قصة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2]، أي من قبل القرآن.

وقال في آخر سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[3].

وأمثال ذلك مما يدل على أن علمهم مستفاد من القرآن، وإن ما في الغابر والمزبور ومصحف فاطمة عليها السلام والجفر والجامعة وغير ذلك كله من القرآن، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[4].

ومن المعلوم عند العلماء مما لا يختلفون فيه أن الكتاب التدويني مطابق للكتاب التكويني، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير باء: بسم الله الرحمن الرحيم: (ولو شئت لأوقرت سبعين بغلا من تفسير باء بسم الله الرحمن الرحيم)[5]، وقال الباقر عليه السلام: (لو وجدت لعلمي

---

(١) هود ٤٩.
(٢) يوسف ٣.
(٣) يوسف ١٠٢.
(٤) يس ١٢.
(٥) عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية ج٤ ص١٠٢ الجملة الثانية في الأحاديث المتعلقة بالعلم وأهله وحامليه، ولكن (بعيرًا) بدلا من (بغلًا).

الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد)[١] الحديث.

وأمثال ذلك، فإذا عرفت المراد ظهر لك أن القرآن هو الثقل الأكبر في هذه المرتبة وهم الثقل الأصغر، لأن حكمهم تابع لحكم القرآن لا العكس، وهم حملته.

ومعنى الثقل محركًا الشيء النفيس المصون وسُميا بذلك لأن التمسك بهما ثقيل، وهذا المعنى في بيان كون القرآن الثقل الأكبر وهم عليهم السلام الثقل الأصغر الحقيقي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إني تارك فيكم أمرين أحدهما أطول من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيد الله وطرف بيد عترتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

فقلت لأبي سعيد: من عترته؟ قال: أهل بيته)[٢].

والعبارة عنه في الظاهر أن المراد أن القرآن بمنزلة العقل وهم عليهم السلام بدون العقل بمنزلة الجسم، ولا ريب أن العقل أكبر من الجسم، أما إذا اعتبرت العاقل فإنه أكبر من العقل، والعاقل هنا في هذا المثال هو المرتبة الأولى المعبر عنها بالمعاني.

وهنا جواب آخر لسائر الناس أن الحكيم لا يخاطب الناس إلّا بما يعرفون، والذي يعرفونه أنهم عليهم السلام إنما يأخذون من القرآن فيكون هو الثقل الأكبر، وهو صلى الله عليه وآله أراد بأهل بيته الذين هم الثقل الأصغر

---

(١) التوحيد (للصدوق)، ص٩٢ باب ٤ تفسير قل هو الله أحد إلى آخر.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٣ ص١٣١ فضائل أهل البيت عليهم السلام والنص عليهم جملة من خبر الثقلين والسفينة وباب حطة وغيرها.

ظاهرهم بين الناس، ويريد به مرتبتهم الثالثة كما قررنا فلاحظ)[١].
انتهى كلامه أعلى الله مقامه.

أقول: وعندي جواب ثالث وهو أنه ﷺ لما أراد في وصيته للأمة بتمسكهم بالقرآن أن يهديهم للتي هي أقوم وإلى صراط مستقيم من ولايتهم ومعرفتهم بالنورانية، ويرشدهم إلى فضائلهم الظاهرة التي صرح الله تعالى بها في ظاهر القرآن، وإلى مناقبهم الباطنة التي جعلها الله سبحانه لهم في باطنه، وإلى خصائصهم وأسرارهم التي أشار سبحانه إليها في باطن باطنه، لاحظ ﷺ كتاب الله عز وجل وعترته فجعلهم الثقل الأصغر بالنسبة إلى مرتبتهم الثالثة، وعظم أمر القرآن وكبره في أعين الناس وجعله الثقل الأكبر ترغيبًا لهم على التمسك به، لأنهم إن تمسكوا به دلهم على تلك الفضائل والمناقب والخصائص والأسرار المكتومة عن الأغيار المشار إليها لأهلها في باطن باطن القرآن، فحينئذ يعرفون مقام العترة الطاهرة وأنهم هم الذين آتاهم الله ما لم يؤت أحدًا من العالمين، وأنهم هم الثقل الأكبر، بل هم أكبر وأجل وأعظم من كل شيء خلقه الله في عالمه في باطن الباطن، بل هم أكبر وأجل وأعظم من أن يصف الواصفون كنه جلالهم أو تهتدي القلوب إلى كنه معرفتهم، وأنهم عليهم السلام مساوون للقرآن في الباطن، وإن كانوا عليهم السلام الثقل الأصغر في الظاهر بالنسبة إلى مقام إمامتهم ورتبة بشريتهم، فيحصل حينئذ مراد رسول الله ومقصوده من التمسك بالقرآن الذي جعله ﷺ الثقل الأكبر.

---

(١) تراث الشيخ الأوحد، ج٣٦ ص١٥٠ ـ ١٥٧ (الطبعة الثانية).

فصل
في بيان بعض وجوه الكتاب

في رواية العياشي بإسناده عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: (ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم)[١].

أقول: لهذا الحديث الشريف وجوه.

الأول: فالمراد بقوله عليه السلام: (ظهر القرآن الذين نزل فيهم) أن القرآن في الظاهر نزل في أشخاص مخصوصة بحسب حكم النزول سواء كانوا أخيارًا بما فعلوا من الخيرات، أو أشرارًا بما عملوا من الشرور، ولكن في الباطن يشمل حكمه الذين عملوا بمثل أعمالهم خيرًا كانت أعمالهم أو شرًا من أول التكليف إلى يوم القيامة، فعن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: (ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلّا وله حد ولكل حد مطلع) ما يعني بقوله ظهر وبطن قال: (ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء منه [شيء] وقع قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [نحن نعلمه])[٢].

أقول: الحد هو الحكم، والمطّلَع بتشديد الطاء وفتح اللام محل

---

(١) تفسير العياشي، ج١ ص١١ تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه.

(٢) تفسير العياشي ج١ ص١١ تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه. ومابين المعكوفتين من المصدر.

الاطلاع عن موضع عال، يعني مصعدًا يصعد إليه من علمه، ومعناه قريب من معنى التأويل.

والثاني: أن قوله عليه السلام: (ظهر القرآن... إلخ) يعني أن آيات القرآن التي نزلت في الأمم السابقة تنزيلها فيهم وتأويلها يجري في الذين عملوا بمثل أعمالهم من هذه الأمة، وهو أنه إذا ذكر الله سبحانه قوم شعيب أو قوم لوط مثلًا وأنهم عذبوا في هذه الدنيا بعذاب مخصوص بحسب أعمالهم، فإن قوم شعيب كانوا يبخسون المكيال، وقوم لوط كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويقطعون الطرق ويأتون في ناديهم المنكر، فعذب قوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وعذب قوم لوط بإمطار الله عليهم حجارة من سجيل، يريد بهم المطففين من هذه الأمة الذين إذا اكتالو على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، والظالمين منهم الذين يعملون بمثل أعمال قوم لوط، وأنهم يعذبون بعذابهما، وأن يشاهده أهل الدنيا لحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1] في الكافي عن الباقر عليه السلام: (وَما هِيَ مِنَ الظالِمِينَ بِبَعِيدٍ مِنْ ظَالِمِي أُمتِكَ إِنْ عَمِلُوا مَا عَمِلَ قَوْمُ لُوط)[2].

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: (من مات مصرًا على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجر من تلك الأحجار فيكون فيه ميتته ولايراه أحد)[3].

---

(١) طه ١٥.

(٢) الكافي ج١١ ص٢٥٦ باب اللواط. وسائل الشيعة ج٢٠ ص٣٣٠ ـ باب تحريم اللواط على الفاعل.

(٣) تفسير العياشي ج٢ ص١٥٨[سورة هود(١١): الآيات ٧٨ الى ٨٣].

والقمي عنه عليه السلام: (ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلّا رمى الله إليه من تلك الحجارة تكون ميتته فيها ولكن الخلق لا يرونه)[١]، وكذلك كل من عمل بمثل أعمال الأمم الماضية من هذه الأمة يجري عليه حكمهم ويعذب بمثل عذابهم إن لم يتب توبة نصوحًا.

والثالث: أن القرآن نزل في أشياء معروفة وجرى فيها حكم الله تعالى في الظاهر كما نزل ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] ثم في تحريم هذه الأشياء المذكورة، وفي الباطن يريد الله بها أشخاصًا عملوا بمثل أعمالها ونهى عن اتباعهم وأمر بالاجتناب عنهم، كالأول والثاني اللذين قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله حين سأله الناس عن حالهما وحكمهما كما حكى عنهم بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[٣] أما إثمهما الكبير فهو عملهما عمل الخمر والميسر، فإن الأول عمله إسكار الناس وإزالة عقولهم بإشرابه قلوبهم محبته التي هي الحياة الدنيا الملعونة وولايته الباطلة، قال الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[٤] أي الذي أخرجه سامري هذه الأمة لهم عجلًا جسدًا لا روح فيه له خوار بحسب إنيته، أي دعوى ربوبية باطلة، وولاية كاذبة، وهو اللهو الذي من اشتغل به يلهيه عن ذكر الله تعالى، قال الله عز وجل ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٥] وهي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام دار القرار لا زوال لها.

---

(١) تفسير القمي ج١ ص٣٣٦ [سورة هود(١١): الآيات ٧٨ الى ٨٣].
(٢) المائدة ٩٠.
(٣) البقرة ٢١٩.
(٤) البقرة ٩٣.
(٥) محمد ٣٦.

واللعب هو الثاني، وعمله أخذ مال الغير بغير وجه شرعي، كغصب الولاية وأخذ الفدك وجمع الغنائم وأخذ الخراج وغيرها مما ليس له فيه حق، كالميسر فإنه لعب وفيه أخذ مال الغير بدون وجه شرعي.

ومنافعهما معلومة لأن أشباه الناس من أتباعهما ينتفعون بهما في دنياهم، والمؤمنون من الناس ينتفعون ببغضهما والبراءة منهما في دنياهم وآخرتهم، ثم علل سبحانه أمره في تحريمهما ظاهرا وباطنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ لمحمد وأهل بيته عليه وعليهم السلام ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ محمدًا صلى الله عليه وآله ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ولاية علي عليه السلام ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[1] أيها الناس بعد تبيين حالهما وبيان حكمهما.

وكذلك أمر الثالث والرابع أي الأنصاب والأزلام، وهكذا كل موضع ذكر في القرآن من هذه الأشياء ونظائرها، كالفحشاء والمنكر والإثم والعدوان والكفر والفسوق والعصيان وغيرها، ففي الظاهر يراد بها هذه الأشياء المعروفة، وفي الباطن يراد بها الأشخاص المذكورة، وكذلك إذا ذكر في القرآن البر والتقوى والعدل والإحسان والمعروف والإيمان والصبر والصلاة وغيرها من الأشياء المرغوبة، فالمراد بها في الظاهر هذه الأمور المعروفة، وفي الباطن يراد بها ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

والرابع: أن الإمام عليه السلام أشار بقوله: (ظهر القرآن الذين نزل فيهم

---

(١) المائدة ٩١.

(٢) النور ٣٧.

وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم) إلى معنى لا يعرفه إلّا أولوا الأفئدة بدليل الحكمة، وهو أن حقيقة الأمم السابقة ظاهر هذه الأمة، أخيار أولئك ظاهر رؤسائهم وأتباعهم ظاهر أتباعهم، وصفات أولئك وأعمالهم ظاهر صفات هؤلاء وأعمالهم، لأن القرآن وجه فعل الله تعالى في مراتبه الخمسة، أعني المشيئة والإرادة والقدر والقضاء والإمضاء في إيجاد الأشياء، فإن القرآن باطنه كما عرفت روح من أمر الله الفعلي يخلق ما شاء من الأشياء الكونية، وظاهره أمر الله القولي الحامل لأمره الفعلي، يخلق بهما ما شاء من الوجودات الشرعية بحسب قوابل المكلفين وأعمالهم، فقوله عليه السلام: (ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم) معناه أن الله سبحانه خلق الأولين من الأمم والآخرين من هذه الأمة كلهم ذواتهم وصفاتهم وأمثالهم وأحوالهم وأعمالهم وأفعالهم بنفس قوابلهم لأثر القرآن، حيث كانت عنه مقبولاتهم، لأنه وجه الفعل ومقبولاتهم أثره، فالأولون ظهر القرآن أي ظاهر أثره، والآخرون بطنه أي باطن أثره، لأن الآخرين ذواتهم باطن ذوات الأولين في رتبة الوجود، وصفاتهم وأمثالهم وأحوالهم وأعمالهم وأفعالهم باطن صفات الأولين وباطن أمثالهم وأحوالهم وأعمالهم وأفعالهم، فإن الأولين قبلوا بنفس قوابلهم لأثر القرآن في جميع الأمور المذكورة بواسطة الآخرين، فالآخرون باطن وحقيقة وأصل للأولين، والأولون ظاهر ومجاز وفرع للآخرين في جميع وجوداتهم، فعيسى بن مريم عليه السلام تكلم في المهد فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[1] وهذا ظاهر القرآن،

(١) مريم ٣٠.

وهم عليهم السلام تكلموا في المهد وأقروا بالعبودية لله تعالى، وبأن الله جعلهم أئمة لخلقه وهذا بطن القرآن.

والسامري أخرج لبني إسرائيل عجلًا جسدًا له خوار قبيح وهذا ظهر القرآن، وأخرج الثاني لهذه الأمة عجلًا جسدًا له خوار أقبح وهذا بطن القرآن.

وهنا حرف آخر في باب ظهر القرآن وبطنه وهو قول علي عليه السلام: (أنا الذي تكلمت على لسان عيسى ابن مريم في المهد)[1]، فإنه قوله عليه السلام باطن قول عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فافهم قوله عليه السلام فإن ظاهره أنيق وباطنه عميق.

والخامس: أن إيجاد هذه الأمة باطن إيجاد الأولين ممن هو على سنتهم، أو أن ذكرهم باطن ذكر الأولين والآخرين كذلك، أو إن المقصود هؤلاء بالذات، وأولئك إنما قصدوا بالعرَض، أو أن تبيان القرآن لأحوال هذه الأمة باطن لتبيانه لأحوال الأولين، وغير ذلك من الوجوه التي يطول ذكرها.

[فضل حملة القرآن]

فإذا عرفت هذا فاعلم أن فضل حملة القرآن عظيم، وثواب من قرأ منه آية أو كلمة أو حرفًا أو استمع إليه عند الله جسيم، ففي تفسير الإمام عليه السلام: قال حدثني أبي علي بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه

---

(١) المناقب (للعلوي) الكتاب العتيق ص٧٤ ذكر معرفة أمير المؤمنين بالنورانية. مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام ص٢٥٧ فصل [معرفة الإمام بالنورانية].

جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي سيد الشهداء عن أبيه أمير المؤمنين سيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين فاروق الأمة وباب مدينة الحكمة ووصي رسول رب الرحمة علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين قال: عن رسول رب العالمين وسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين والمخصوص بأشرف الشفاعات في يوم الدين ﷺ أجمعين قال: (حملة القرآن المخصوصون برحمة الله، الملبسون نور الله المعلمون كلام الله المقربون من الله، من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عاد الله، يدفع الله عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، وعن قارئه بلوى الآخرة، والذي نفس محمد بيده لسامع آية من كتاب الله وهو معتقد أن المورد له عن الله محمد الصادق في كل أقواله، الحكيم في أفعاله، المودع ما أودعه الله عز وجل من علومه أمير المؤمنين عليًا عليه السلام، المعتقد للانقياد له في ما يأمر ويرسم، أعظم أجرًا من ثبير ذهب يتصدق به من لا يعتقد هذه الأمور بل صدقته وبال عليه، ولقارئ آية من كتاب الله معتقدًا لهذه الأمور أفضل مما دون العرش إلى أسفل التخوم، ويكون لمن لا يعتقد هذا الاعتقاد ويتصدق به، بل كل ذلك وبال على هذا المتصدق به).

ثم قال: (أتدرون متى يتوفر على هذا المستمع وهذا القارئ هذه المثوبات العظيمات، إذا لم يغل في القرآن ولم يجف عنه ولم يستأكل به ولم يراء به).

وقال رسول الله ﷺ: (عليكم بالقرآن فإنه الشفاء النافع والدواء المبارك وعصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، اتلوه

فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول (ألم) حرف ولكن الألف عشرًا واللام عشرًا والميم عشرًا).

ثم قال رسول الله ﷺ : (أتدرون من المتمسك به الذي له بتمسكه هذا الشرف العظيم، هو الذي أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت أو عن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين، فأما من قال في القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل في أخذه عن غير أهله، وكان كمن سلك طريقًا مسبَعًا من غير حفاظ يحفظونه وإن اتفقت له السلامة فهو لا يعدم من العقلاء والفضلاء الذم والتوبيخ، وإن اتفق له افتراس السبع فقد جمع إلى هلاكه سقوطه عند الخيرين الفاضلين، وعند العوام الجاهلين، وإن أخطأ القائل في القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، وكان مثله كمثل من ركب بحرًا هائجًا بلا ملاح ولا سفينة صحيحة، لا يسمع لهلاكه أحد إلّا قال هو أهل لما لحقه ومستحق لما أصابه).

وقال ﷺ : (ما أنعم الله عز وجل على عبد بعد الإيمان بالله أفضل من العلم بكتاب الله، والمعرفة لتأويله، ومن جعل الله له من ذلك حظًا ثم ظن أن أحدًا لم يفعل به ما فعل به وقد فضل عليه فقد حقر نعم الله عليه).

وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ : (فضل الله عز وجل علم القرآن والعلم بتأويله، ورحمته توفيقه لموالاة محمد وآله الطاهرين ومعاداة أعدائهم).

ثم قال رسول الله ﷺ : (وكيف لا يكون ذلك خيرا مما يجمعون

وهو ثمن الجنة ونعيمها، فإنه يكتسب بها رضوان الله الذي هو أفضل من الجنة، ويستحق بها الكون بحضرة محمد وآله الطاهرين الذي هو أفضل من الجنة، إن محمدا وآل محمد الطيبين أشرف زينة في الجنان).

ثم قال صلى الله عليه وآله: (يرفع الله بهذا القرآن والعلم بتأويله وبموالاتنا أهل البيت والتبري من أعدائنا أقوامًا فيجعلهم بالخير قادة تقتص آثارهم وتقتفى أعمالهم ويقتدى بفعالهم، ترغب الملائكة في خلتهم وتمسحها بأجنحتهم وفي صلواتها تستغفر لهم حتى كل رطب ويابس، ويستغفر لهم حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء بنجومها)[1].

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص١٦ [فضل العالم بتأويل القرآن والعالم برحمته].

تفسير الإستعاذة

قال الإمام عليه السلام: (أما قوله الذي ندبك الله إليه وأمرك به عند قراءة القرآن (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) فإن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن قوله (أعوذ بالله) أي أمتنع بالله، (السميع) لمقال الأخيار والأشرار ولكل المسموعات من الإعلان والإسرار، (العليم) بأفعال الفجار والأبرار وبكل شيء مما كان ومما يكون ومما لا يكون أن لو كان كيف يكون، (من الشيطان) البعيد من كل خير، (الرجيم) المرجوم باللعن المطرود من بقاع الخير)[1].

وفي المعاني عن عبدالعظيم بن عبد الله الحسني قال سمعت أبا الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام يقول: (معنى الرجيم أنه مرجوم باللعن مطرود من مواضع الخير لا يذكره مؤمن إلّا لعنه وإن في علم الله السابق أنه إذا خرج القائم لا يبقى مؤمن في زمانه إلّا رجمه بالحجارة كما كان قبل ذلك مرجوما باللعن)[2].

وفي تفسير الإمام: (والاستعاذة مما قد أمر الله به عباده عند قراءتهم القرآن فقال جل ذكره ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص١٦ [آداب قراءة القرآن].

(٢) معاني الأخبار، ص١٣٩ باب معنى الرجيم.

ٱلرَّحِيمِ ۞ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ من تأدب بأدب الله عز وجل أداه إلى الفلاح الدائم، ومن استوصى بوصية الله كان له خير الدارين)[١].

ذكر جنود العقل والجهل

وفي الكافي عن سماعة بن مهران قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مَوَالِيهِ فَجَرَى ذِكْرُ الْعَقْلِ وجنده وَالْجَهْلِ وجنده فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: (اعْرِفُوا الْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَالْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا.

قَالَ سَمَاعَةُ: فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ لَا نَعْرِفُ إِلا مَا عَرَّفْتَنَا.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: إِن اللهَ عز وَجَل خَلَقَ الْعَقْلَ وَهُوَ أَولُ خَلْقٍ مِنَ الروحَانِيينَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ مِنْ نُورِهِ فَقَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ثُم قَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ فَقَالَ [اللهُ][٢] تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقْتُكَ خَلْقًا عَظِيمًا وَكَرَّمْتُكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِي، قَالَ: ثُم خَلَقَ الْجَهْلَ مِنَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ ظُلْمَانِيًا فَقَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ثُم قَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَلَمْ يُقْبِلْ، فَقَالَ لَهُ اسْتَكْبَرْتَ فَلَعَنَهُ، ثُم جَعَلَ لِلْعَقْلِ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ جُنْدًا، فَلَما رَأَى الْجَهْلُ مَا أَكْرَمَ اللهُ بِهِ الْعَقْلَ وَمَا أَعْطَاهُ أَضْمَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ، فَقَالَ الْجَهْلُ: يَا رَب هَذَا الخلق مِثْلِي خَلَقْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ وَقَوَّيْتَهُ وَأَنَا ضِدهُ وَلَا قُوةَ لِي [بِهِ][٣]، فَأَعْطِنِي مِنَ الْجُنْدِ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُ، فَقَالَ: نَعَمْ فَإِنْ عَصَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْتُكَ

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص١٦ [آداب قراءة القرآن].

(٢) زيادة من المصدر.

(٣) زيادة من المصدر.

وَجُنْدَكَ مِنْ رَحْمَتِي، قَالَ: قَدْ رَضِيتُ، فَأَعْطَاهُ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ جُنْدًا، فَكَانَ مِما أَعْطَى الْعَقْلَ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسبْعِينَ الْجُنْدَ، الْخَيْرُ وَهُوَ وَزِيرُ الْعَقْلِ وَجَعَلَ ضِدهُ الشر وَهُوَ وَزِيرُ الْجَهْلِ، وَالْإِيمَانُ وَضِدهُ الْكُفْرَ، وَالتصْدِيقُ وَضِدهُ الْجُحُودَ، وَالرجَاءُ وَضِدهُ الْقُنُوطَ، وَالْعَدْلُ وَضِدهُ الْجَوْرَ، وَالرضَا وَضِدهُ السخْطَ، وَالشكْرُ وَضِدهُ الْكُفْرَانَ، وَالطمَعُ وَضِدهُ الْيَأْسَ، وَالتوَكلُ وَضِدهُ الْحِرْصَ، وَالرأْفَةُ وَضِدهَا الْقَسْوَةَ، وَالرحْمَةُ وَضِدهَا الْغَضَبَ، وَالْعِلْمُ وَضِدهُ الْجَهْلَ، وَالْفَهْمُ وَضِدهُ الْحُمْقَ، وَالْعِفةُ وَضِدهَا التهَتكَ، وَالزهْدُ وَضِدهُ الرغْبَةَ، وَالرفْقُ وَضِدهُ الْخُرْقَ، وَالرهْبَةُ وَضِدهُ[1] الْجُرْأَةَ، وَالتوَاضُعُ وَضِدهُ الْكِبْرَ، وَالتؤَدَةُ وَضِدهَا التسَرعَ، وَالْحِلْمُ وضده السفَهَ، وَالصمْتُ وَضِدهُ الْهَذَرَ، وَالِاسْتِسْلَامُ وَضِدهُ الِاسْتِكْبَارَ، وَالتسْلِيمُ وَضِدهُ الشك، وَالصبْرُ وَضِدهُ الْجَزَعَ، وَالصفْحُ وَضِدهُ الِانْتِقَامَ، وَالْغِنَى وَضِدهُ الْفَقْرَ، وَالتفكرُ وَضِدهُ السهْوَ، وَالْحِفْظُ وَضِدهُ النسْيَانَ، وَالتعَطفُ وَضِدهُ الْقَطِيعَةَ، وَالْقُنُوعُ وَضِدهُ الْحِرْصَ، وَالْمُؤَاسَاةُ وَضِدهَا الْمَنْعَ، وَالْمَوَدةُ وَضِدهَا الْعَدَاوَةَ، وَالْوَفَاءُ وَضِدهُا الْغَدْرَ، وَالطاعَةُ وَضِدهَا الْمَعْصِيَةَ، وَالْخُضُوعُ وَضِدهُ التطَاوُلَ، وَالسلَامَةُ وَضِدهَا الْبَلَاءَ، وَالْحُب وَضِدهُ الْبُغْضَ، وَالصدْقُ وَضِدهُ الْكَذِبَ، وَالْحَق وَضِدهُ الْبَاطِلَ، وَالْأَمَانَةُ وَضِدهَا الْخِيَانَةَ، وَالْإِخْلَاصُ وَضِدهُ الشوْبَ، وَالشهَامَةُ وَضِدهَا الْبَلَادَةَ، وَالْفَهْمُ وَضِدهُ الْغَبَاوَةَ، وَالْمَعْرِفَةُ وَضِدهَا الْإِنْكَارَ، وَالْمُدَارَاةُ وَضِدهَا الْمُكَاشَفَةَ، وَسَلَامَةُ الْغَيْبِ وَضِدهَا الْمُمَاكَرَةَ، وَالْكِتْمَانُ وَضِدهُ الْإِفْشَاءَ، وَالصلَاةُ وَضِدهَا الْإِضَاعَةَ، وَالصوْمُ وَضِدهُ الْإِفْطَارَ، وَالْجِهَادُ وَضِدهُ النكُولَ،

---

(١) في المصدر: ضدها.

وَالْحَج وَضِدهُ نَبْذَ الْمِيثَاقِ، وَصَوْنُ الْحَدِيثِ وَضِدهُ النمِيمَةَ، وَبِر الْوَالِدَيْنِ وَضِدهُ الْعُقُوقَ، وَالْحَقِيقَةُ وَضِدهَا الريَاءَ، وَالْمَعْرُوفُ وَضِدهُ الْمُنْكَرَ، وَالستْرُ وَضِدهُ التبَرجَ، وَالتقِيةُ وَضِدهَا الْإِذَاعَةَ، وَالْإِنْصَافُ وَضِدهُ الْحَمِيةَ، وَالتهْيِئَةُ وَضِدهَا الْبَغْيَ، وَالنظَافَةُ وَضِدهَا الْقَذَرَ، وَالْحَيَاءُ وَضِدهَا الْجَلَعَ، وَالْقَصْدُ وَضِدهُ الْعُدْوَانَ، وَالراحَةُ وَضِدهَا التعَبَ، وَالسهُولَةُ وَضِدهَا الصعُوبَةَ، وَالْبَرَكَةُ وَضِدهَا الْمَحْقَ، وَالْعَافِيَةُ وَضِدهَا الْبَلَاءَ، وَالْقَوَامُ وَضِدهُ الْمُكَاثَرَةَ، وَالحكمة وَضِدهَا الْهَوَاءَ، وَالْوَقَارُ وَضِدهُ الْخِفةَ، وَالسعَادَةُ وَضِدهَا الشقَاوَةَ، وَالتوْبَةُ وَضِدهَا الْإِصْرَارَ، وَالِاسْتِغْفَارُ وَضِدهُ الِاغْتِرَارَ، وَالْمُحَافَظَةُ وَضِدهَا التهَاوُنَ، وَالدعَاءُ وَضِدهُ الِاسْتِنْكَافَ، وَالنشَاطُ وَضِدهُ الْكَسَلَ، وَالْفَرَحُ وَضِدهُ الْحَزَنَ، وَالْأُلْفَةُ وَضِدهَا الْفُرْقَةَ، وَالسخَاءُ وَضِدهُ الْبُخْلَ.

[قال]: فَلَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الْخِصَالُ كُلهَا مِنْ أَجْنَادِ الْعَقْلِ إِلا فِي نَبِي أَوْ وَصِي نَبِي أَوْ مُؤْمِنٍ قَدِ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَأَما سَائِرُ ذَلِكَ مِنْ مَوَالِينَا فَإِن أَحَدَهُمْ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الْجُنُودِ حَتى يَسْتَكْمِلَ وَيَنْقَى مِنْ جُنُودِ الْجَهْلِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الدرَجَةِ الْعُلْيَا مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، وَإِنمَا يُدْرَكُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ الْعَقْلِ وَجُنُودِهِ وَبِمُجَانَبَةِ الْجَهْلِ وَجُنُودِهِ وَفقَنَا اللهُ وَإِياكُمْ لِطَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ)[1].

أقول: لا بد هنا من ذكر أشياء يعرف بها معنى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم الذي أشار الصادق عليه السلام في الحديث المذكور إلى حقيقته.

---

(١) المحاسن، ج١ ص١٩٦ باب العقل.الكافي ج١ ص٢١ كتاب العقل والجهل.

فصل
في بيان معرفة الوجود إما برسمه أو بحده أو بمعرفة عنوانه وآية معرفته

اعلم أن الذي يعبر عنه عند طلب معرفته بالوجود منحصر في ثلاثة أقسام، لأنه إما صانع، أو صنع، أو مصنوع.

الأول: الوجود الحق[1]، ونعني بالوجود الحق الوجود الواجب المقدس عن كل ما سواه، ومن جملة ما هو مقدس عنه إطلاق العبارة عليه أو نسبة الصفات إليه، فإذا أطلقت العبارة فإنما تقع على عنوانه، أعني آية وجوده ودليل معرفته، وهو ما أوجده الله تعالى من وصفه لعباده ليعرفوه به، وهو وصف ليس كمثله شيء، ولهذا يعرف به أنه

---

(١) قال شيخنا الأجل الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس الله نفسه الزكية: (الأول: الوجود الحق سبحانه وهو الذي لا يحتاج الخلق إلى معرفة ذاته، لأن جهة الحاجة فقر إلى ما تحتاج إليه وهو إضافة وربط بين المحتاج والمحتاج إليه وليس بين ذات الواجب من حيث هي وبين ذات المخلوق ربط أو إضافة بحال ما، وإنما الربط بين الخلق وبين فعله وإبداعه، فكما لا تسع الحاجة ذاته لغنائه عما سواه كذلك لا تسع الحاجة الخلق إلى معرفة ذاته بالكنه لاستلزامها الحاجة بالإدراك والإضافة والاقتران والربط والشبه وغير ذلك فهذه الجهة يجب أن تهجر تسميتها) تراث الشيخ الأوحد ج٣٨ ص٢٣٠ ـ ٢٣١.
وقال أعلى الله عليه مقامه في مورد آخر: (الأول: الوجود الحق وهو أحدي الذات لا يمكن فيه تصوّر كثرة أو تعدّد أو اختلاف في الذات أو الأحوال بما يزاد سبق أو انتقال لا في نفس الأمر ولا في الفرض والإمكان والاعتبار، ولا في العبارة والإشارة، بل هو بكلّ اعتبار أحدي المعنى مبرّأ عن كلّ ما سوى ذاته مطلقًا وهو الله سبحانه وتعالى، وليس شيء بحقيقة الشيئية سواه) تراث الشيخ الأوحد ج٤١ ص٣٣٧. وللزيادة راجع تراث الشيخ الأوحد ج١٢ ص١٩ ـ ٢٣.

ليس كمثله شيء، ولو كان لذلك الوصف مثل وهو يعرف به لكان يعرف الله تعالى بأن له مثل.

فإن قلت: لا شك أن (من عرف نفسه فقد عرف ربه) كما قال عليه السلام، وقال: (أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه)[١] فعلى هذا يلزم أن تكون النفس ليس كمثلها شيء، وهو خلاف المعروف من مذهب أهل الإسلام.

قلت: وإنما يعرف الله بمعرفة النفس إذا جُردت عن جميع السبحات حتى عن التجريد، كما قال عليه السلام: (كشف سبحات الجلال من غير إشارة)[٢] ولا شك أنها حينئذ ليس كمثلها شيء، لأنك تجردها عن كل شيء حتى عن المماثلة لشيء من الأشياء، وحينئذ تكون آية معرفته تعالى، فإذا عرفت الله بها عرفت أنه ليس كمثله شيء، فاذهب إلى ما ذهبنا إليه فإنه مذهب صحيح، ولا تذهب إلى ما ذهب إليه الصوفية من أن النفس إذا جردتها هكذا فهي الله تعالى، ولهذا يقول قائلهم: (أنا الله بلا أنا)، فإن هذا كفر صريح، ولكن إذا جردتها تكون آية الله وعلامة معرفته، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٣] ولم يقل سنريهم ذاتنا فافهم، أو اقتد بقول الشاعر حيث يقول:

فمن كان ذا فهم يشاهد ما قلنا ... وإن لم يكن فهم فيأخذه عنا
فما ثم إلّا ما ذكرناه فاعتمد ... عليه وكن في الحال فيه كما كنا
فمنه إلينا ما تلونا عليكم ... ومنا إليكم ما وهبناكم منا

---

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين ج١ ص٢٠ باب الكلام في النظر وما يؤدي إليه.
(٢) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٨١ باب ركود الشمس.
(٣) فصلت ٥٣.

فإذا عرفت أن هذا الوجود ليس كمثله شيء فلا يدرك بعموم ولا خصوص، ولا إطلاق ولا تقييد، ولا كل ولا جزء، ولا كلي ولا جزئي، ولا بمعنى ولا لفظ، ولا كم ولا كيف، ولا رتبة ولا جهة، ولا وضع ولا إضافة، ولا بسط ولا ارتباط، ولا في وقت ولا في مكان، ولا على شيء ولا في شيء، ولا فيه شيء ولا من شيء، ولا لشيء ولا كشيء ولا عن شيء، ولا بلطف ولا بغلظ، ولا استدارة ولا امتداد، ولا حركة ولا سكون، ولا استضاءة ولا ظلمة، ولا بانتقال ولا بمكث، ولا تغير ولا زوال، ولا يشبهه شيء، ولا يخالفه شيء، ولا يوافقه شيء، ولا يعادله شيء، ولا يبرز من شيء، ولا يبرز منه شيء، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وكل صفة أو جهة أو صورة أو مثال أو غير ذلك مما يمكن فرضه أو وجوده أو تمييزه أو إبهامه فهو غيره، ولا يدرك بشيء مما ذكر ولا بغيره من صفات الخلق، ولا يعرف بضد مقابل ولا بند مماثل، فليست له صفه تنال، ولا حد يضرب له فيه الأمثال، ولا طريق إلى معرفته بوجه لا بنفي ولا إثبات، إلّا بما وصف به نفسه، وهذا القسم يعبر عنه بالذات البحت، ومجهول النعت، وشمس الأزل، ومنقطع الإشارات، والكنز المخفي، والوجود الحق، واللا تعين، وغير ذلك من الأسماء التي يطلقونها على هذا القسم من الوجود عند التعبير والتفهيم، وكلها عبارات مخلوقة هي ومعانيها التي تدل هذه العبارات عليها، تقع على مقاماته وعلاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، وتلك المقامات موضع علم البيان والذي يبحث فيه عنه هو المعاني وهي أركان التوحيد[1].

---

(١) للزيادة راجع تراث الشيخ الأوحد ج١٢ ص٢٢١ ـ ٢٢٨.

والثاني: الوجود المطلق[١]، والتعين الأول، والرحمة الكلية، والمشيئة والإرادة والإبداع، والشجرة الكلية، والحقيقة المحمدية، والكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر، والولاية المطلقة، والأزلية الثانية، والمحبة الحقيقية، وعالم فأحببت أن أعرف، والاسم الذي استقر في ظله فلا يخرج منه إلى غيره، وهو المكنون المخزون عنده، وصبح الأزل، وفعل بنفسه، وعالم الأمر، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها هذا القسم من الوجود، وهذا هو الوجود الراجح والإمكان الراجح، وهو فعل الله وصنعه، وظهوره للكل بالكل، ولهذا الوجود في تزييل[٢] الفؤاد أربع مراتب:

الأولى: مرتبة الرحمة والنقطة والسر المجلل بالسر.

والثانية: الرياح، والنفَس الرحماني الأولي[٣] بفتح الفاء، أي

---

(١) قال شيخنا الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس الله نفسه الزكية: (الثاني: الوجود المطلق وهو فعل الله ومشيته وهذا الذي يحتاج إليه الخلق فيحتاجون إلى تسميته، وهذا هو الذي تطلق عليه تسمية الوجود اللفظي وهو جهة معرفة الله سبحانه، فيكون جانبه الأيسر مشاركًا لغيره في مطلق الهستيّة فتعرف جهة الوجوب التي هي جانبه الأيمن بمعرفته أي بجانبه الأيسر) تراث اشيخ الأوحد ج٣٨ ص٢٣١. وج٤١ ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) تزييل بمعنى تفريق (قاموس قرآن ج٣ ص١٩٥).

(٣) فمعنى النفس الرحماني بفتح الفاء أن هذا الوجود تقومت به الوجودات الكونية تقوّم صدور إذا أريد بالنفس الرحماني المعنى الأول أي المشيئة والإرادة والإبداع، كما تقومت الحروف بحركة المتكلم بشفتيه ولسانه وأسنانه ولهاته، وتقوم ركني إذا أريد به المعنى الثاني أي أول صادر عن المشيئة أعني الحقيقة المحمدية ﷺ كما تقومت الحروف بالصوت الممتد من جوف المتكلم إلى الفضاء، وإذا قيد بالأولى كما هو هاهنا احتمل أن يراد به المعنى الأول خاصة وأن يراد به الرتبة الثانية منه عند اعتبار تزييله كما يأتي إلّا أنه هنا يكون الأنسب أن يراد به المعنى الأول.

الساري في الأشياء بالقيومية الصدورية، المشار إليها بالانحلال الأول.

والثالثة: الحروف العاليات المشار إليها بالانعقاد الأول والسحاب المزجى.

والرابعة: الكلمة التامة والسحاب المتراكم.

وهذه المراتب إنما تعددت في مراتبها في نفسها بالقياس إلى هيئة تعلقاتها بمتعلقاتها لما بينها من المشابهة، كما بين حركة يدي الكاتب وبين الحروف من المشابهة في الهيئات، وذلك باعتبار كشف الفؤاد لا في أنفسها، فإنها في أنفسها في كمال البساطة الإمكانية، فهو شيء بسيط في نفسه ليس في الإمكان أبسط منه، خلقه الله بنفسه وأقامه بنفسه وأمسكه بظله، وقته السرمد ومكانه الإمكان، ولا أول له في الإمكان لأنه مستند إلى ما لا يتناهى فلا يصح الفصل بين الفعل والفاعل، ولا الوصل لئلّا يلزم المماثلة للزوم مماثلة المتصلين، إذ لا يصح شيء من الفعل من حيث هو أن يكون فاعلا، ولا شيء من الفاعل من حيث هو أن يكون فعلًا، ولا يلزم من سبق الفاعل عليه أن يكون متناهيًا إلّا بمعنى أن يكون مستندًا إليه وقائمًا به قيام صدور، لأنه سبحانه قبل ما لا يتناهى بما لا يتناهى، فلا يكون فعله متناهيًا وإن كان الأزل قد أحاط به، لأن الأزل لا يتناهى فإحاطته لا تتناهى، ولا يلزم منها التناهي إذ التناهي في الزمان والدهر على بعض الأحوال، ولأن الفعل صفة، وصفة الغير المتناهي لا تتناهى فافهم.

والثالث: الوجود المقيد[1] وهو مجموع قوس الحروف الكونية

---

(١) للزيادة راجع تراث الشيخ الأوحد ج٣٨ ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

الثمانية والعشرين، التي أولها العقل وهو الملك الأعظم وروح القدس الأعلى، وآخرها الجامع الذي هو العاقل ﷺ، فهو الأول والآخر.

بيان خلق العقل الأول

فقول الصادق عليه السلام: (إِن اللهَ عَز وَجَل خَلَقَ الْعَقْلَ وَهُوَ أَولُ خَلْقٍ مِنَ الروحَانِيينَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْش من نوره)، إشارة إلى هذا القسم من الوجود وهو الوجود المقيد، يعني أول ما خلق الله سبحانه من الوجود المقيد هو العقل، وهو أول خلق من الروحانيين، أي من الملائكة العالين الذين ما أمروا بالسجود لآدم عليه السلام من بين الملائكة، لأن السجود المأمور كان لهم ولهذا قال تعالى لإبليس حين أبى واستكبر عن السجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1].

وقوله عليه السلام: (عن يمين العرش) أي الركن الأيمن الأعلى من العرش، فإن أركان العرش أربعة، وهي الأنوار الأربعة التي أشرقت من صبح الأزل، النور الأبيض وهو هذا العقل، والنور الأصفر وهو الروح الكلية، والنور الأخضر وهي النفس الكلية، والنور الأحمر وهو الطبيعة الكلية.

وقوله عليه السلام: (من نوره) أي نور الأنوار الذي خلق الله عز وجل منه هذه الأنوار المذكورة، وهو الماء الإلهي الذي به حياة كل شيء، وهو الحقيقة المحمدية ورتبته من الوجودات الثلاثة برزخ بين الوجود المطلق والوجود المقيد.

---

(١) ص٧٥.

بيان إدبار العقل

وقوله عليه السلام: (فقال له أدبر فأدبر) أي أمره بالإدبار والتنزل من مقامه العالي لإيجاد الممكنات وتكميل الموجودات، فأطاع وأدبر وتنزل من عالم المعاني العقلية إلى عالم الرقائق الروحية، فخلق الله تعالى به الروح الكلية وبإشراقها الأرواح الجزئية، وهذا العالم برزخ بين عالم المعاني وبين الصور، وليس في عداد الحروف الكونية المشار إليها، وإنما ذكرناه استطرادًا.

ثم تنزل من عالم الرقائق إلى عالم الصور والعلوم الحقيقية، فخلق الله عز وجل به بواسطة الروح النفس الكلية وبإشراقها النفوس الجزئية.

ثم تنزل من عالم الصور إلى عالم الطبائع فخلق الله تعالى به بواسطة الروح والنفس الطبيعة الكلية وبإشراقها الطبائع الجزئية.

وهكذا تنزل من عالم إلى عالم أسفل منه، ومن رتبة إلى رتبة أدنى منها، وخلق الله عز وجل به وبالوسائط العالية أهل ذلك العالم الأسفل، الذي نزل بوجهه وإشراق نوره فيه، فخلق سبحانه به بواسطة النور الأحمر وهو نور الطبيعة الكلية جواهر الهباء، ثم عالم الأشباح والمثال، ثم جسم الكل، ثم الفلك الأعلى المسمى بالأطلس ومحدد الجهات، وبالعرش في لسان الشرع، ثم فلك الثوابت المسمى بالكرسي في لسان الشرع عليه السلام، ثم فلك البروج، ثم فلك المنازل، ثم الأفلاك السبعة، فلك زحل، وفلك المشتري، وفلك المريخ، وفلك الشمس، وفلك الزهرة، وفلك عطارد، وفلك القمر وهو سماء الدنيا، ثم العنصر الناري، ثم العنصر الهوائي، ثم العنصر المائي، ثم

العنصر الترابي أي التراب الطيب العذب، وهذا آخر نزوله في الإدبار[١].

---

(١) قال السيد الأجل الأمجد السيد كاظم الحسيني الحائري الرشتي طيب الله ثراه: (وإذا أردت أن تعرف كليات المراتب في السلسلة العرضية في كل شيء من الأشياء فاعلم أن الشيء لما بدأ من فعل الله سبحانه لا يكمل ولا يتم إلّا بعد إكمال القوسين الصعودي والنزولي أما النزولي فلصيرورته جامعًا ملكًا وأما الصعودي فلا ظهار تلك المراتب وبلوغه إلى غاياتها المقررة له فلولا النزول لم يتم الصعود ولولا الصعود لم يكمل الشيء فأول المبدأ هو الوجود ويعبر عنه بالفؤاد فلما خلقه الله سبحانه تعين وتركب فحصل من أول تركبه وتعينه العقل الكلي في العالم الكلي والجزئي في العالم الجزئي ثم استنطقه الله سبحانه فقال له: (أدبر فأدبر) فأول ما أدبر مقبلًا على الخلق إلى مقام الأرواح ثم إلى مقام النفوس عالم الذر تمام الخلق الأول من عالم الغيب ظهور الشيء الغيبي مشروح العلل مبين الأسباب ثم إلى مقام الطبيعة الكسر بعد الصوغ الإجمال بعد التفصيل المزج بعد الإمتياز ثم إلى مقام المادة تمام الكسر وجوهر الهباء وظهور الحصص والذر من غير الإمتياز ثم إلى مقام المثال والصورة والشبح والظل بدن نوراني لا روح له ثم إلى مقام الجسم المركب من المادة والصورة ثم إلى مقام العرش الفلك الأطلس المحيط بالعالم الجسماني كله فلك الأفلاك ثم إلى مقام الكرسي الظاهر بالكواكب ثم إلى فلك البروج الأثني عشر ثم إلى فلك المنازل الثمانية والعشرين ثم إلى فلك الشمس ثم منها إلى زحل والقمر ثم منها إلى المشتري وعطارد ثم منها إلى المريخ والزهرة ثم إلى كرة النار ثم إلى كرة الهواء ثم إلى كرة الماء ثم إلى كرة الأرض وإلى هنا تمت مراتب الأدبار. ثم أمره الله سبحانه بالإقبال فقال له أقبل فأقبل فأخذ في الصعود فأول ما صعد إلى مقام الجماد مبدئه البخار والدخان والسحاب والمطر والتيام الأجزاء الأربعة من العناصر على وزن معلوم مقدر معين والمزج التام ليكون المجموع شيئًا واحدًا ويتحقق الجماد في أول المزج ثم إلى مقام المعدن وهو مقام النضج بعد المزج أي النضج الأول ثم إلى مقام النبات ثم إلى مقام الحيوان ثم إلى مقام الجن ثم إلى مقام الملائكة ثم إلى الإنسان وفي هذا المقام تظهر المراتب المتقدمة النازلة كلها ويظهر العقل المتنزل المدبر المقبل ثم في الكلى إلى مقام القطب الغوث الجامع الكلي ومقام ظهور النفس الملكوتية الإلهية ذات الله العليا وشجرة طوبى وسدرة المنتهى=

بيان إقبال العقل

ثم أمره الله بالإقبال التكويني، فخلق الله تعالى بإقباله من التراب الطيب المعادن الطيبة، ثم النبات، ثم الحيوان، ثم الملك، ثم الجن، ثم الإنس، ثم الجامع عليه السلام، فلما جمع المراتب وتم قوس حروفه الكونية والأسباب التكليفية، وخلق الله له به جنودًا كلية أمره الله سبحانه بالإقبال التكليفي، ليخلق باطنه بالوجود التشريعي الذي هو روح للوجود التكويني، كما خلق ظاهره بالوجود التكويني الذي هو جسم وجسد للوجود التشريعي، ويسبغ عليه من نعمه الباطنة بقبوله التكليف، كما أسبغ عليه نعمه الظاهرة بقبول التكوين، ويصبغه في رحمته كما خلقه من نور فضله، ويرفعه إلى مقامه العالي كما أنزله منه، ويسكنه في بحبوحة جنانه كما أشخصه منه، فقال له أقبل فأقبل بكلية وجوده الجامع لجميع مراتب الوجود الحق، وأقبل معه بإقباله كل مقبل من جميع ذرات الوجود، فخلق الله منه كل خير وجعل الخير وزيره، وهو قوله عليه السلام: (فَكَانَ مِمَّا أَعْطَى الْعَقْلَ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسَّبْعِينَ

=وجنة المأوى من عرفها لم يشق أبدًا ومن لم يعرفها ضل وغوى وهذا المقام هو تمام بلوغ البدو إلى العود والأول بالآخر والآخر بالأول وهو مقام قاب قوسين ثم منه يصعد إلى مقام أعلى وهو تلك اللطيفة الإلهية وهي مقام اللانهاية وليس لها مقام أعلى منه لأنها نهاية ذكره ومبدأ ذاته فلا يتعداها أبدًا وإنما يسير في هذه الرتبة بلا نهاية ولا غاية لها وهي في كل مقام يطلب أعلى من مرتبتها فلا تصل إليها وتدور على نفسها سائرة إلى أعلى منها وهي في مرتبتها ومقامها فالحق سبحانه دائم التجلي عليها في مقامها بنفسها فلا يلحق إلى أعلى منها وهذا السير لا انقطاع لها وإنما كررت العبارة لأجل التفهيم وقد ذكرت لك السلسلتين بأوضح بيان فتفهم راشدًا وليس لي الآن قلب لا شرح مراتب تينك السلسلتين على كمال التفصيل وفيما ذكركفاية لأولي الدراية) جواهر الحكم ج٣ ص١٩٨ ـ ٢٠١.

الْجُنْد) ثم أمره الله تعالى بالإيمان به وباليوم الآخر فآمن وآمن بإيمانه كل مؤمن ومؤمنة، فخلق الله تعالى منه نور الإيمان وكتبه في قلوب المؤمنين وحببه إليهم، ثم أمره بالتصديق فصدق وصدق بتصديقه كل صديق، فهو الذي جاء بالصدق وصدق به[١]، وهكذا أمره مرة بعد أخرى بكل خصلة من خصال الخير وهو يأتمر ويأتي بها حتى اجتمعت فيه الخصال التي أشار إليها عليه السلام في قوله: (فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلّا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان).

فلما اجتمع فيه جميع خصال الخير التي أولها الخير وآخرها السخاء، وبذل الفواضل للمستحقين، وكلت مروته وتم قوس صعوده في جميع مراتب الكمال الإنساني، ووصل إلى أعلى درجات القرب الإمكاني، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢] فقال له تبارك وتعالى: (خلقتك خلقًا عظيمًا وكرمتك على جميع خلقي).

بيان خلق الجهل الأول

قال عليه السلام: (ثم خلق الجهل وهو ضد العقل) قال الله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣] وقال الرضا عليه السلام: (إن الله تعالى لم يخلق فردًا قائمًا بذاته لما أراد من الدلالة عليه)[٤].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الزمر ٣٣.

(٢) النجم ٨ ـ ٩.

(٣) الذاريات ٤٩

(٤) في التوحيد (للصدوق)، ص٤٣٩ باب ٦٥ ذكر مجلس الرضا علي بن موسى عليه السلام مع أهل الأديان وأصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر وما كلم به عمران الصابي في التوحيد عند المأمون.

قوله عليه السلام: (من البحر الأجاج ظلمانيًا) أي بحر الماهية وظلمة الإنية التي ما شمت رائحة الوجود وهي أصل جميع القبائح والشرور.

بيان إدبار الجهل

(فقال له: أدبر) أمره بالإدبار لتتميم الوجودات الكونية وتأليف الحروف الكونية فأدبر صاعدًا في إدباره على عكس إدبار العقل، وكان حينئذ في أسفل السافلين أي في مقام ما تحت الثرى، فخلق الله به الثرى أي باطن الصدر الكلي الذي هو أصل سجين، وخلق الله بظلماته باطن الصدور الضيقة الحرجة التي هي أصل كتاب الفجار، ثم خلق الله به بواسطة الثرى الطمطام أي الطبيعة الظلمانية الكلية، وبفاضل ظلمتها الطبائع الظلمانية الجزئية، ثم خلق الله به بواسطة الثرى والطمطام النيران أي مواد المركبات الخبيثة، ثم خلق الله سبحانه به بواسطة ما ذكر الريح العقيم، ثم البحر، ثم الحوت، ثم الثور أي الصدر المذكور، ثم صخرة سجين، ثم الملك الحامل للأرضين، ثم أرض الشقاوة، ثم أرض الإلحاد، ثم أرض الطغيان، ثم أرض الشهوة، ثم أرض الطبع، ثم أرض العادات، ثم أرض الممات، ثم كمثل الكلب، ثم السموم، ثم الماء الأجاج، ثم الأرض السبخة، ثم الحجارة والحديد، ثم النبات المر، ثم المسوخ، ثم الشياطين، ثم شياطين الجن، ثم شياطين الأنس، ثم إبليس لعنه الله.

بيان عدم إقبال الجهل

فلما تم قوس حروفه الظلمانية في إدباره صاعدًا وكمل في النكراء والشيطنة، وجمع له أسباب السلطنة الباطلة، وخلق الله به له جنودا وأعوانا كلية، فأمره الله تعالى بالإقبال ليختبره ويستنطق طبيعته وليعلم

﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾[١]، و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾[٢] و﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[٣] عدلًا منه تقدست أسماؤه وتظاهرت آلاؤه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٤].

(فقال له: أقبل) كما أقبل العقل، لأنك خلق مثله جعلت لك ما تتمكن به على الإقبال كما جعلت له، فلم يقبل بل أبى واستكبر وولى مدبرًا ورضي بالحياة الدنيا من الآخرة، واتخذ إلهه هواه، وأقبل على شهوة نفسه، وكان في إقباله هذا نازلًا إلى ما جاء منه، فأمره الله بالخير فلم يقبل، فخذله وتركه مع هوى نفسه فأراد بسوء اختياره الشر، فأجرى الله تعالى على يديه كل شر، وجعله وزيره، ثم أمره بالإيمان به وباليوم الآخر فلم يؤمن وكفر، فخلق الله سبحانه بتركه الإيمان الكفر وجعله كافرًا بكفره، قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٥]، ثم أمره بالتصديق بآياته فجحد بها واستيقنتها نفسه ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٦]، وهكذا كلما أمره سبحانه بخصلة من خصال الخير أبى واستكبر وطلب ضدها من الله، وقال رب آتني من الدنيا فأعطاه الله تعالى منها كل ما سأله، حتى اجتمع فيه جميع خصال الشر، رده

---

(١) سبأ ٢١.
(٢) النحل ٣٩.
(٣) النجم ٣١.
(٤) الأنبياء ٢٣.
(٥) النساء ١٥٥.
(٦) النمل ١٤.

الله تعالى إلى مقره الأصلي الذي هو ما تحت الثرى، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾(١).

بيان خلق الملائكة

فإذا عرفت فاعلم أن العقل الأول الذي هو المصباح ونور الله الذي أشرقت به السموات والأرضون، لما أظهره الله في أول الوجود المقيد تشعشعت أنواره وملأت الأكوان سبحاته، فلما قال الله تعالى له: أدبِر، أدبَر بإذن الله تعالى لإيجاد ما أمره به، فخلق من تلك الأشعة والسبحات العقلية ملائكة كروبيين وأرواحًا خلاقين، وجعلهم خدمته وأعوانه على ما أريد منه، وهو مختلفون في القوة والضعف، والكثرة والقلة، والإضاءة وعدمها، والقرب والبعد، من مقام الروح الكلية إلى التراب، كل ملك من جنس روح مسكنه ولا يتعداه صاعدا، فملائكة الأرواح لا يقدرون على مزاحمة سيدهم العقل، وملائكة النفوس لا يقدرون على مزاحمة ملائكة الأرواح ولا يصلون إلى مقامهم ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(٢)، ولا يقدرون على ما حملوا به، وهكذا مراتب الملائكة إلى الملائكة الترابيين، وإن السموات والأرض بقبضته وفي يده كحبة الخردل في يد أحدكم، وإن من الملائكة من يعجزه عن حمل حبة الخردل، بل منهم من تعجز المائة منهم عن حمل حبة الخردل، هذا بيان الملائكة في الجملة.

وأما الشياطين فإن الله سبحانه لما خلق العقل كما مر خلق الجهل الأول، لأنه ضده على عكس ما هو عليه من النور والاستقامة والقيام

---

(١) التين ٤ ـ ٥.

(٢) الصافات ١٦٤.

بالطاعة، وعمت ظلمته الماديات، فلما أمره الله تعالى بالإدبار أدبر لأن الإدبار بعد عن النور، فلما أمره بالإقبال أدبر موليًا حتى اتخذ إلهه هواه كما سبق ذكره، فخلق الله سبحانه من غرفات ظلمته وعكوسات توليته شياطين ترتبت في وجودها ترتب الملائكة على نحو المقابلة والضد، فقابلت الملائكة في جميع الماديات، ويستمدون في وجودهم من الجهل الأول، كما تستمد الملائكة من العقل الأول، ويغتذون بالمعاصي والقبائح كما تغتذي الملائكة بالتسبيح والطاعات، ومثال الملائكة من العقل الأول كالأشعة من الشمس، ومثال الشياطين من الجهل الأول كالأظلة من الكثيف كالجدار والأبنية.

هذا بيان أقسام الوجودات الثلاثة في الجملة، وكيفية تنزل الوجود المقيد وترتب الأسباب على المسببات، فالعقل وما صدر عنه وجود، والوجود خير كله، والجهل وما صدر عنه عدم أي عدمي، والعدم شر كله، والعقل وأتباعه أصحاب اليمين، والجهل وأتباعه أصحاب الشمال، وبينهما معاندة ومنازعة ومقاتلة أبدا، وهما ركنا عالم الكبير، والعقل وما منه ركنه الأعلى، والجهل وما منه ركنه الأسفل، وإن كان الركنان ممتزجان بحيث ظهرت فيهما صورة الوحدانية.

بيان أن الإنسان أنموذج العالم الكبير

فإذا تحققت هذا فاعلم أن الله تعالى خلق الإنسان أنموذجًا للعالم الكبير، وجعل فيه ما جعل في العالم الكبير حرفًا بحرف، على ترتيب الحروف الكونية الثمانية والعشرين، فجعل قلبه مرآتين، مرآة عن يمين قلبه وجهها إلى السماء فتنطبع فيه صورة الرأس المختص به من العقل الأول، وعلى الأذن اليمنى من القلب التي هي باب وحيه ملك مؤيد،

أعني به عقله وتحته جنود كثيرة من الملائكة بعدد أفعال العقل وميولات الوجود، لأن الإنسان في أصل خلقته مركب من الوجود الذي هو نور الله وصفة فعله، ومن الماهية التي هي ظل الوجود، وتلك الملائكة تعينه على كل خير.

ومرآة عن يسار قلبه ووجهها إلى الأرض فتنطبع فيها صورة الرأس المختص بها من الجهل الأول، وعلى الأذن اليسرى من القلب التي هي باب وحيها شيطان مقيض، أعني به نفسه، وتحته جنود كثيرة من الشياطين بعدد أفعال النفس الأمارة وميولات الماهية، تعينه على كل شر.

فالإنسان مركب من الوجود والماهية، وللوجود وجه ووزير يعينه على مطالبه وهو العقل، وللماهية وجه ووزير تعينها على مطالبها وهي النفس الأمارة، وهو ممكن والممكن لا قوام له إلّا بالمدد، وللوجود ميل وشهوة لتحصيل كمالاته، وللماهية ميل وشهوة لتحصيل كمالاتها، فتركبت في الإنسان شهوة وميل، فشهوة الوجود وميله في طاعة الله عز وجل، وشهوة الماهية وميلها في معصية الله وطاعة الشيطان، ولكل من الوجود والماهية باب، فباب الوجود العقل، وباب الماهية النفس الأمارة بالسوء، فإذا اشتهى الوجود شيئًا من كمالاته أذن العقل وطلب منه ذلك، فحرك بطاعته الآلات والقوى بما يريد، ولا يريد إلّا ما يريد الله ويحب، وإذا اشتهت الماهية شيئًا من كمالاتها أذنت النفس الأمارة وطلبت منها ذلك فحركت بطاعتها الآلات والقوى بما تريد، ولا تريد إلّا خلاف ما يريد الله.

ثم اعلم أن الآلات والقوى خلقت بالذات لخدمة الوجود والعقل خاصة، ولكنها جعلت بالتبع صالحة لأن تستعملها الماهية والنفس

الأمارة، لتتم الحجة عليهما، لئلّا يقولا يا ربنا خلقتنا وخلقت الوجود ووزيره العقل وهما ضدان لنا وخلقت لهما الآلات والقوى إعانة لهما على شهواتهما ولم تخلق لنا مثل ذلك ونحن ضد لهما، فلما كان ذلك صالحا للجميع بلغت حجة الله على الجميع، وتمت كلمة الله بما أجرى على العاصي والمطيع، فيطلب العقل شهوة الوجود كما أراد منه بما يريد الله ويحب ويرضاه، وتطلب النفس الأمارة شهوة الماهية كما أرادت منها بما لا يريد الله ولا يحبه ولا يرضاه، ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، فالخيرات من الله بالذات وبالوجود لكونها من تمام قابلية الوجود وشهوته، والشرور بالله بالعرض لكونها من تمام قابلية الخيرات، ومن الماهية بالذات لكون الشرور منها، وهي أي الماهية أصل الشرور، وأما سبب وجود الماهية أي سبب إيجادها فإنها خلقت لتكون دعامة للوجود وتمام قابليته، وسبب إيجاد الشرور هو تمام قابلية الخيرات، فافهم.

فالإنسان مجمع البحرين، وواقف بين الطتنجين، خلقه الله هكذا ليختبره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ في كل وجوداته (نَبْتَلِيهِ) أي نختبره، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي مختارًا في جميع أحواله وأفعاله، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل النجاة للعقل، (إِما) يطيعه فيكون (شَاكِرًا) لهذه النعمة، (وَإِما) يظلمه فيكون (كَفُورًا)[2] لها.

---

(١) النمل ٢٤.

(٢) الإنسان ٢ ـ ٣.

بيان حقيقة الإستعاذة

فإذا عرفت ما أشرنا إليه من أول تقسيم الوجود إلى هنا، وعرفت حقيقة الشيطان الذي أمرك الله أن تستعيذ به تعالى منه، فقال عز وجل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] الآية، فاعرف حقيقة الإستعاذة.

فاعلم أن قولك أعوذ بالله أي أمتنع به من الشيطان الرجيم، هذه استعاذة لفظية وامتناع قولي، وإنما أمرت بها عند قراءة القرآن لتطهير اللسان عما جرى عليه من غير ذكر الله، ليستعد لذكر الله وتلاوة آيات كتابه، وهذا لا يكفي إذا لم تكن معه استعاذة قلبية وامتناع فعلي، التي هي تنظيف للقلب من كدورة الوساوس الشيطانية ليتهيأ للحضور عند المخاطِب ويجد حلاوة معاني خطابه، وهي ـ أي الاستعاذة الحقيقية ـ أن تستعيذ وتمتنع بالله الذي لا حول ولا قوة إلّا به، بخروجك عن حولك وقوتك بأن لا تعتمد إلّا عليه، وتفوض جميع أمورك إليه، وتسلم لأمره، وترضى بما أجرى عليك من قضائه وقدره، وتمتثل جميع أوامره وتجتنب عن جميع نواهيه، وتستعمل جوارحك وقواك في خدمة سلطان وجودك ومقتضى عقلك من

---

(١) النحل ٩٨.

الشيطان المقيض، الذي هو قرينك ومعك، يزين لك المعصية ويسوفك بالتوبة، تمتنع منه بترك متابعة خطواته وعدم إجابة دعوته، وبتطهر صدرك عن وساوسه، وتعمير قلبك وإصلاحه بإخراج جنوده المفسدين منه لأن ﴿ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾(١)، بحيث تكون نفسك منبرًا للملائكة لا مرتعًا للشياطين، وقلبك بيتًا معمورًا للطائفين والقائمين والركع السجود، وبدنك بقعة من بقاع الخير المطرود منها الشيطان الرجيم، فحينئذ تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأما إذا لم تكن أنت تستعيذ بالله منه بالاستعاذة الحقيقية وتمتنع منه بالامتناع الفعلي، وتقول أعوذ بالله منه بمجرد الامتناع القولي، وأنت تمشي مع الشيطان في أودية هلاكته وإهلاكه، وتتبع خطواته في طرق ضلالته وإضلاله، فمثلك كمثل من يسير في أرض مسبعة نهاه الله عن السير فيها بغير حفاظ يحفظونه من السباع، وبغير آله وأسلحة يمتنع بها من شرها، وهو يقول دائما أعوذ بالله من السباع وأمتنع من شرها، فهذا هو الذي جمع مع هلاكته ملامة العقلاء، لأنهم لا يستحسنون سيره فيها بهذا النحو، واستحق خذلان الله حيث نهاه عن السير فيها فلم ينته واتخذ إلهه هواه.

بخلاف ما إذا كان معك الامتناع الفعلي وتقول أعوذ بالله منه، فإنك حينئذ بمأمن من شر الشيطان، وفي درع حصينة وحصن منيعة من حفظ الرحمن، وفي عداد من قال الله سبحانه فيهم ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

---

(١) النمل ٣٤.

(٢) النحل ٩٩.

وأما في الصورة الأولى فأنت من أوليائه وأعوانه الذين أعانوه على ظلمه وعداوته، ومن أعان ظالما على ظلمه فقد سلطه الله عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾(١)، وقال تعالى حكاية عن عبده لقمان في وصية ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٣)، مع أن الاستعاذة بالله عز وجل من الشيطان واجبة على كل أحد في كل حال، تنبيه على أن الاستعاذة في حال القراءة أهم الأحوال التي وجب على العبد أن يستعيذ فيها بالله سبحانه من الشيطان، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وليس شيء أشد نصحًا وأبلغ موعظة وأكمل هداية وأتم تبيانًا وأجمع تفسيرًا وأوقع تذكيرًا من القرآن لمن قرأه وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لأنه تنزيل من رب العالمين، وتذكرة للمتقين، ورحمة للمؤمنين، ومفتاح الغيوب وربيع القلوب، وطريق النجاة وعين الحياة، وشفاء لما في الصدور ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٤)، فالعبد إذا قرأ القرآن يضطرب الشيطان ويرتعش ويتزلزل، وفي باطن ذلك العبد يتخلل ويجمع فكره وكيده، ويدعو حزبه وجنده ويأتيه من كل جانب، ليأخذ سمعه ويعمي بصره، ويوسوس في صدره ويلهي قلبه عن ذكر الله، ويشغل لبه عن التذكر

---

(١) النحل ١٠٠.
(٢) لقمان ١٣.
(٣) النحل ٩٨.
(٤) المائدة ١٦.

والتدبر في آيات الله، لأنه يرى العبد عند قراءة القرآن أنه توجه إلى ما يهديه إلى صراط مستقيم، ويذكره عداوة الشيطان الرجيم، قال الله تعالى حكاية عنه وتنبيها على عداوته لبني آدم عليه السلام ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(١) إرادة منه لعنه الله أن يتخذ من عباد الله نصيبه ويضلهم عن سبيله، ويصمهم عن استماع قوله، وينسيهم ميثاق فطرته وشكر نعمته، ويأمرهم ليغيروا خلق الله ويبدلوا نعمة الله قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

فينبغي للعبد بل يجب عليه أن يذكر عند قراءة القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(٣)، فليستعذ بالله تبارك اسمه وتعالى ذكره من الشيطان، ويتوسل بباطن القرآن محمد وعترته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين، بالصلاة عليه وعليهم بموالاتهم والبراءة من أعدائهم، والتمسك بشريعتهم، والسلوك في طريقهم، ويسأل ربه بهم صلوات الله عليهم أن يحفظ لسانه ويجعل له عينا بصيرة وأذنًا سميعة واعية، وأن يطهر صدره عن وساوس الشيطان، ويجمع قلبه لإدراك لطائف معاني كتابه، وفهم

---

(١) الأعراف ١٦ ـ ١٧.

(٢) النساء ١١٧ ـ ١٢٠.

(٣) الزخرف ٣٦.

حقائق خطابه، وأن يوجه فؤاده نحو آيات القرآن حتى يسمعها من قائلها، وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: (لقد تجلى الله لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون)[١]، وروي أنه كان يصلي في بعض الأيام فخر مغشيًا عليه في أثناء الصلاة فسئل بعدها عن سبب غشيته، فقال عليه السلام: (ما زلت أردد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها)[٢]

فإذا استعاذ العبد بالله سبحانه من الشيطان المقيض الذي كان قرينه بالاستعاذة الحقيقية يعيذه الله ويجيره ويعصمه من جنده، ويصرف عنه كيده، ويبصره في أمر دينه ودنياه، فإذا دخل عليه الشيطان مثلا من باب المعيشة وقال تكسب واجمع المال وأمسكه ولا تنفقه في سبيل الله فإنك سوف تحتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى التكسب بل جعل الله له ما يكفيه في أمر معيشته، ووهب له مالا لو أنفقه في وجوه البر لا يضر بحاله، يعصمه الله من كيده ويذكره قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٦] فيتذكر ويشتغل بما لله عليه عما له على الله، ويمسك من المال بقدر ضرورته، ويقدم الفضل

---

(١) مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة من الواجبات والمستحبات ص٣٧٢.
(٢) مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة من الواجبات والمستحبات ص٣٧٢.
(٣) الزخرف ٣٢.
(٤) الذاريات ٥٦ ـ ٥٨.
(٥) طه ١٣٢.
(٦) البقرة ٢٦٨.

ليوم حاجته، وإذا أتاه من باب اللهو واللعب يذكره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(١) فيتذكر وينتهي عما نهاه عز وجل، وإذا جاءه من باب الإعراض عن آيات الله التي أراه الله في السموات والأرض أو تلاها عليه في كتابه يذكره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٤) وهكذا كلما قرأ آية من آيات الله يتدبرها ويتذكر كمن كان يسمعها من قائلها حتى صار كأنه يرى المخاطب في خطابه يخاطبه مشافهة، فحيئذ ينتفع بقراءة القرآن ويستشفي داءه بدوائه فإن القرآن دواء وشفاء ونفع لقوم، وداء وسبب زيادة مرض وخسران لقوم آخرين، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٥) ألا ترى قومًا يقرأون القرآن في أيام عمرهم وأعوام دهرهم وهم يستعيذون بالله من الشيطان عند قراءة القرآن بلسانهم وما يزيدهم القرآن إلّا طغيانًا كبيرًا، وذلك بأنهم لا يقرأون القرآن حق القراءة ولا يستعيذون بالله من الشيطان بحقيقة الاستعاذة.

---

(١) المائدة ٩٠ ـ ٩١.
(٢) الأعراف ١٨٥.
(٣) لقمان ٧.
(٤) يوسف ١٠٥.
(٥) الإسراء ٨٢.

تفسير
سورة الفاتحة المباركة

تفسير البسملة

تفسير فاتحة الكتاب

ذكر البسملة
بسم الله الرحمن الرحيم

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدثَنِي عَنِ اللهِ عَز وَجَل أَنهُ قَالَ: (كُلُ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ «بِسْمِ اللهِ [الرحمن الرحيم][1]» فِيهِ فَهُوَ أَبْتَر)[2].

وفي تفسير الإمام عليه السلام وَقَالَ الصادِقُ عليه السلام: (وَلَرُبمَا تُرِكَ فِي افْتِتَاحِ أَمْرِ بَعْضِ شِيعَتِنَا «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» فَيَمْتَحِنُهُ اللهُ بِمَكْرُوهٍ، لِيُنَبهَهُ عَلَى شُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالثنَاءِ عَلَيْهِ، وَيَمْحُوَ فيه[3] وَصْمَةَ تَقْصِيرِهِ عِنْدَ تَرْكِهِ قَوْلَ: بِسْمِ اللهِ [الرحْمنِ الرحِيمِ].

لَقَدْ دَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَبَيْنَ يَدَيْهِ كُرْسِي فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، فَمَالَ بِهِ حَتى سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَوْضَحَ عَنْ عَظْمِ رَأْسِهِ وَسَالَ الدمُ فَأَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِمَاءٍ، فَغَسَلَ عَنْهُ ذَلِكَ الدمَ.

---

(١) لا توجد في المصدر.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٢٥ [الافتتاح بالتسمية عند كل فعل].

(٣) في المصدر: عَنْهُ

ثُم قَالَ: ادْنُ مِني فَدَنَا مِنْهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مُوضِحَتِهِ وَقَدْ كَانَ يَجِدُ مِنْ أَلَمِهَا مَا لَا صَبْرَ لَهُ مَعَهُ وَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهَا وَتَفَلَ فِيهَا فَمَا هُوَ إِلا أَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَتى انْدَمَلَ وَصَارَ كَأَنهُ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ قط.

ثُم قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: يَا عَبْدَ اللهِ، الْحَمْدُ لِلهِ الذِي جَعَلَ تَمْحِيصَ ذُنُوبِ شِيعَتِنَا فِي الدنْيَا بِمِحَنِهِمْ لِتَسْلَمَ لَهُمْ طَاعَاتُهُمْ وَيَسْتَحِقوا عَلَيْهَا ثَوَابَهَا.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَإِنا لَا نُجَازَى بِذُنُوبِنَا إِلا فِي الدنْيَا.

قَالَ: نَعَمْ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: الدنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنةُ الْكَافِرِ إن الله يُطَهرُ شِيعَتَنَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ فِي الدنْيَا، بِمَا يَبْتَلِيهِمْ بِهِ مِنَ الْمِحَنِ، وَبِمَا يَغْفِرُهُ لَهُمْ، فَإِن اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ حَتى إِذَا وَرَدُوا الْقِيَامَةَ، تَوَفرَتْ عَلَيْهِمْ طَاعَاتُهُمْ وَعِبَادَاتُهُمْ.

وَ إِن أَعْدَاءَ مُحَمدٍ وَأَعْدَاءَنَا يُجَازِيهِمْ عَلَى طَاعَةٍ تَكُونُ مِنْهُمْ فِي الدنْيَا، وَإِنْ كَانَ لَا وَزْنَ لَهَا لِأَنهُ لَا إِخْلَاصَ مَعَهَا حَتى إِذَا وَافَوُا الْقِيَامَةَ، حُمِلَتْ عَلَيْهِمْ ذُنُوبُهُمْ وَبُغْضُهُمْ لِمُحَمدٍ صلى الله عليه وآله وَآلِهِ وَخِيَارِ أَصْحَابِهِ، فَقُذِفُوا لِذَلِكَ فِي النارِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمدًا صلى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ لِلهِ مُؤْمِنٌ وَالْآخَرُ كَافِرٌ بِهِ مُجَاهِرٌ بِعَدَاوَةِ أَوْلِيَائِهِ وَمُوَالاةِ أَعْدَائِهِ، وَلِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُلْكٌ عَظِيمٌ فِي قَطْرٍ مِنَ الْأَرض، فَمَرِضَ الْكَافِرُ فَاشْتَهَى سَمَكَةً فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، لِأَن ذَلِكَ الصنْفُ مِنَ السمَكِ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي اللجَجِ حَيْثُ لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ، فَآيَسَتْهُ الْأَطِباءُ مِنْ نَفْسِهِ وَقَالُوا لَهُ: اسْتَخْلِفْ عَلَى مُلْكِكَ مَنْ يَقُومُ بِهِ، فَلَسْتَ بِأَخْلَدَ مِنْ

أَصْحَابِ الْقُبُورِ، فَإِن شِفَاءَكَ فِي هَذِهِ السمَكَةِ التِي اشْتَهَيْتَهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهَا.

فَبَعَثَ اللهُ مَلَكًا وَأَمَرَهُ أَنْ يُزْعِجَ الْبَحْرَ بِتِلْكَ السمَكَةِ إِلَى حَيْثُ يُسَهلُ أَخْذُهَا فَأُخِذَتْ لَهُ تِلْكَ السمَكَةُ فَأَكَلَهَا، فَبَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ، وَبَقِيَ فِي مُلْكِهِ سِنِينَ بَعْدَهَا.

ثُم إِن ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ مَرِضَ فِي وَقْتٍ كَانَ جِنْسُ ذَلِكَ السمَكِ بِعَيْنِهِ ـ لَا يُفَارِقُ الشطُوطَ التِي يُسَهلُ أَخْذُهُ مِنْهَا، مِثْلَ عِلةِ الْكَافِرِ، وَاشْتَهَى تِلْكَ السمَكَةَ، وَوَصَفَهَا لَهُ الْأَطِباءُ.

فَقَالُوا: طِبْ نَفْسًا، فَهَذَا أَوَانُهَا تُؤْخَذُ لَكَ فَتَأْكُلُ مِنْهَا، وَتَبْرَأُ.

فَبَعَثَ اللهُ ذَلِكَ الْمَلَكَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُزْعِجَ جِنْسَ تِلْكَ السمَكَةِ كُلهُ مِنَ الشطُوطِ إِلَى اللجَجِ لِئَلا يُقْدَرَ عَلَيْهِ فَيُؤْخَذَ، حَتى مَاتَ الْمُؤْمِنُ مِنْ شَهْوَتِهِ، لِعَدَمِ دَوَائِهِ.

فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ مَلَائِكَةُ السمَاءِ وَأَهْلُ ذَلِكَ الْبَلَدِ فِي الْأرض حَتى كَادُوا يُفْتَنُونَ لِأَن اللهَ تَعَالَى سَهلَ عَلَى الْكَافِرِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَعَسرَ عَلَى الْمُؤْمِنِ مَا كَانَ السبِيلُ إِلَيْهِ سَهْلًا.

فَأَوْحَى اللهُ عَز وَجَل إِلَى مَلَائِكَةِ السمَاءِ وَإِلَى نَبِي ذَلِكَ الزمَانِ فِي الْأرض: أَني أَنَا اللهُ الْكَرِيمُ الْمُتَفَضلُ الْقَادِرُ، لَا يَضُرنِي مَا أُعْطِي، وَلَا يَنْفَعُنِي مَا أَمْنَعُ، وَلَا أَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرةٍ، فَأَما الْكَافِرُ فَإِنمَا سَهلْتُ لَهُ أَخْذَ السمَكَةِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، لِيَكُونَ جَزَاءً عَلَى حَسَنَةٍ كَانَ عَمِلَهَا، إِذْ كَانَ حَقًا عَلَي أَنْ لَا أُبْطِلَ لِأَحَدٍ حَسَنَةً حَتى يَرِدَ الْقِيَامَةَ وَلَا حَسَنَةَ فِي صَحِيفَتِهِ، وَيَدْخُلَ النارَ بِكُفْرِهِ.

وَ مَنَعْتُ الْعَابِدَ تِلْكَ السمَكَةَ بِعَيْنِهَا، لِخَطِيئَةٍ كَانَتْ مِنْهُ أَرَدْتُ

تَمْحِيصَهَا عَنْهُ بِمَنْعِ تِلْكَ الشهْوَةِ، وَإِعْدَامِ ذَلِكَ الدوَاءِ، لِيَأْتِيَن وَلَا ذَنْبَ عَلَيْهِ، فَيَدْخُلَ الْجَنةَ.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَفَدْتَنِي وَعَلمْتَنِي، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعَرفَنِي ذَنْبِيَ الذِي امْتُحِنْتُ بِهِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، حَتى لَا أَعُودَ إِلَى مِثْلِهِ.

قَالَ: تَرْكُكَ حِينَ جَلَسْتَ أَنْ تَقُولَ: «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» فَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِسَهْوِكَ عَما نُدِبْتَ إِلَيْهِ تَمْحِيصًا بِمَا أَصَابَكَ.

أَمَا عَلِمْتَ أَن رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله حدثَنِي عَنِ اللهِ عز وَجَل أَنهُ قَالَ: كُل أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ «بِسْمِ اللهِ» فِيهِ فَهُوَ أَبْتَرُ. فَقُلْتُ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمي لَا أَتْرُكُهَا بَعْدَهَا.

قَالَ: إِذًا تُحْصَنُ بِذَلِكَ وَتَسْعَدُ.

ثُم قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَفْسِيرُ «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» قَالَ: إِن الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَعْمَلَ عَمَلًا فَيَقُولُ: بِسْمِ اللهِ أَيْ: بِهَذَا الِاسْمِ أَعْمَلُ هَذَا الْعَمَلَ.

فَكُل أَمْرٍ يَعْمَلُهُ يَبْدَأُ فِيهِ بِـ«بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» فَإِنهُ يُبَارَكُ لَهُ فِيهِ.

قَالَ الْإِمَامُ مُحَمدُ بْنُ عَلِي الْبَاقِرُ عليه السلام دَخَلَ مُحَمدُ بْنُ عَلِي بْنِ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزهْرِي عَلَى عَلِي بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام وَهُوَ كَئِيبٌ حَزِينٌ فَقَالَ لَهُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام: مَا بَالُكَ مَهْمُومًا مَغْمُومًا قَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ هُمُومٌ وَغُمُومٌ تَتَوَالَى عَلَي لِمَا امْتُحِنْتُ بِهِ مِنْ جِهَةِ حُسادِ نِعْمَتِي، وَالطامِعِينَ فِي، وَمِمنْ أَرْجُوهُ وَمِمنْ قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ فَيَخْلُفُ ظَني.

فَقَالَ لَهُ عَلِي بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام: احْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ تَمْلِكْ بِهِ إِخْوَانَكَ.

قَالَ الزهْرِي: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ إِني أُحْسِنُ إِلَيْهِمْ بِمَا يَبْدُرُ مِنْ كَلَامِي.

قَالَ عَلِي بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِياكَ وَأَنْ تُعْجَبَ مِنْ نَفْسِكَ بِذَلِكَ وَإِياكَ أَنْ تَتَكَلمَ بِمَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِنْكَارُهُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ اعْتِذَارُهُ، فَلَيْسَ كُل مَنْ تُسْمِعُهُ نُكْرًا أَمْكَنَكَ أَنْ تُوَسعَهُ عُذْرًا.

ثُم قَالَ: يَا زُهْرِي مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ مِنْ أَكْمَلِ مَا فِيهِ، كَانَ هَلَاكُهُ مِنْ أَيْسَرِ مَا فِيهِ.

ثُم قَالَ: يَا زُهْرِي وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَتَجْعَلَ كَبِيرَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ وَالِدِكَ، وَتَجْعَلَ صَغِيرَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِكَ، وَتَجْعَلَ تِرْبَكَ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَخِيكَ، فَأَي هَؤُلَاءِ تُحِب أَنْ تَظْلِمَ وَأَي هَؤُلَاءِ تُحِب أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِ وَأَي هَؤُلَاءِ تُحِب أَنْ تَهْتِكَ سِتْرَهُ.

وَ إِنْ عَرَضَ لَكَ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، بِأَن لَكَ فَضْلًا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ـ فَانْظُرْ إِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْكَ فَقُلْ: قَدْ سَبَقَنِي بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصالِحِ فَهُوَ خَيْرٌ مِني، وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَ مِنْكَ، فَقُلْ: قَدْ سَبَقْتُهُ بِالْمَعَاصِي وَالذنُوبِ فَهُوَ خَيْرٌ مِني، وَإِنْ كَانَ تِرْبُكَ فَقُلْ: أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَنْبِي، وَفِي شَك مِنْ أَمْرِهِ، فَمَا لِي أَدَعُ يَقِينِي لِشَكي، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمُسْلِمِينَ يُعَظمُونَكَ وَيُوَقرُونَكَ وَيُبَجلُونَكَ فَقُلْ: هَذَا فَضْلٌ أَحْدَثُوهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ جَفَاءً وَانْقِبَاضًا عَنْكَ، فَقُلْ: هَذَا الذِي أَحْدَثْتُهُ، فَإِنكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ سَهلَ اللهُ عَلَيْكَ عَيْشَكَ، وَكَثُرَ أَصْدِقَاؤُكَ، وَقَل أَعْدَاؤُكَ، وَفَرِحْتَ بِمَا يَكُونُ مِنْ بِرهِمْ، وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ جَفَائِهِمْ.

وَ اعْلَمْ: أَن أَكْرَمَ الناسِ عَلَى الناسِ، مَنْ كَانَ خَيْرُهُ عَلَيْهِمْ فَائِضًا، وَكَانَ عَنْهُمْ مُسْتَغْنِيًا مُتَعَفِفًا، وَأَكْرَمُ الناسِ بَعْدَهُ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ عَنْهُمْ مُتَعَفِفًا وَإِنْ كَانَ إِلَيْهِمْ مُحْتَاجًا، فَإِنمَا أَهْلُ الدنْيَا يَعْشَقُونَ الْأَمْوَالَ، فَمَنْ لَمْ يُزَاحِمْهُمْ فِيمَا يَعْشَقُونَهُ كَرُمَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ لَمْ يُزَاحِمْهُمْ فِيهَا وَمَكنَهُمْ مِنْهَا أَوْ مِنْ بَعْضِهَا ـ كَانَ أَعز عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَ.

قَالَ عليه السلام ثُم قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ أَخْبِرْنِي مَا مَعْنَى «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» فَقَالَ عَلِي بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: حَدثَنِي أَبِي، عَنْ أَخِيهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَن رَجُلًا قَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنِي عَنْ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ مَا مَعْنَاهُ فَقَالَ عليه السلام: إِن قَوْلَكَ: «اللهِ» أَعْظَمُ الْأَسْمَاءِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ـ وَهُوَ الِاسْمُ الذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَسَمى بِهِ غَيْرُ اللهِ، وَلَمْ يَتَسَم بِهِ مَخْلُوقٌ.

فَقَالَ الرجُلُ: فَمَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «اللهِ»؟.

فَقَالَ عليه السلام: هُوَ الذِي يَتَأَلهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشدَائِدِ كُل مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرجَاءِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ دُونَهُ، وَتَقَطعِ الْأَسْبَابِ مِنْ كُل مَنْ سِوَاهُ، وَذَلِكَ أَن كُل مُتَرَئسٍ فِي هَذِهِ الدنْيَا أَوْ مُتَعَظمٍ فِيهَا، وَإِنْ عَظُمَ غَنَاؤُهُ وَطُغْيَانُهُ وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ مَنْ دُونَهُ إِلَيْهِ، فَإِنهُمْ سَيَحْتَاجُونَ حَوَائِجَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا هَذَا الْمُتَعَاظِمُ.

وَكَذَلِكَ هَذَا الْمُتَعَاظِمُ يَحْتَاجُ حَوَائِجَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا فَيَنْقَطِعُ إِلَى اللهِ عِنْدَ ضَرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ، حَتى إِذَا كُفِيَ هَمهُ، عَادَ إِلَى شِرْكِهِ. أَمَا تَسْمَعُ اللهَ عَز وَجَل يَقُولُ: «قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ الساعَةُ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِياهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ»، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ: أَيهَا الْفُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِي ـ إِنِي قَدْ أَلْزَمْتُكُمُ الْحَاجَةَ إِلَي فِي كُل حَالٍ، وَذِلةَ الْعُبُودِيةِ فِي

كُل وَقْتٍ، فَإِلَي فَافْزَعُوا فِي كُل أَمْرٍ تَأْخُذُونَ بِهِ وَتَرْجُونَ تَمَامَهُ، وَبُلُوغَ غَايَتِهِ، فَإِني إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُعْطِيَكُمْ لَمْ يَقْدِرْ غَيْرِي عَلَى مَنْعِكُمْ وَإِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَمْنَعَكُمْ لَمْ يَقْدِرْ غَيْرِي عَلَى إِعْطَائِكُمْ، فَأَنَا أَحق مَنْ سُئِلَ، وَأَوْلَى مَنْ تُضُرعَ إِلَيْهِ، فَقُولُوا عِنْدَ افْتِتَاحِ كُل أَمْرٍ عَظِيمٍ أَوْ صَغِيرٍ: «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» أَيْ أَسْتَعِينُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِاللهِ الذِي لَا تَحِق الْعِبَادَةُ لِغَيْرِهِ، الْمُغِيثِ إِذَا اسْتُغِيثَ، وَالْمُجِيبِ إِذَا دُعِيَ، «الرحْمَنِ» الذِي يَرْحَمُ بِبَسْطِ الرزْقِ عَلَيْنَا، «الرحِيمِ» بِنَا فِي أَدْيَانِنَا وَدُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا: خَففَ اللهُ عَلَيْنَا الدينَ، وَجَعَلَهُ سَهْلًا خَفِيفًا، وَهُوَ يَرْحَمُنَا بِتَمْيِيزِنَا مِنْ أَعْدَائِهِ.

ثُم قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَحْزَنَهُ أَمْرٌ تَعَاطَاهُ فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» وَهُوَ مُخْلِصٌ لِلهِ عَز وَجَل وَيُقْبِلُ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ، لَمْ يَنْفَك مِنْ إِحْدَى اثْنَتَيْنِ: إِما بُلُوغِ حَاجَتِهِ الدنْيَاوِيةِ وَإِما مَا يَعْدِلُهُ عِنْدَهُ وَيُدخَرُ لَدَيْهِ، وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلْمُؤْمِنِين.

وَ قَالَ الْحَسَنُ عليه السلام: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَإِنَ «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ» آيَةٌ مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ تَمَامُهَا بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِن اللهَ عَز وَجَل قَالَ لِي: يَا مُحَمدُ «وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» فَأَفْرَدَ الِامْتِنَانَ عَلَيَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَجَعَلَهَا بِإِزَاءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَإِن فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَشْرَفُ مَا فِي كُنُوزِ الْعَرْشِ.

وَإِن اللهَ تَعَالَى خَص بِهَا مُحَمدًا ﷺ وَشَرفَهُ بِهَا وَلَمْ يُشْرِكْ مَعَهُ فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ مَا خَلَا سُلَيْمَانَ عليه السلام فَإِنهُ أَعْطَاهُ مِنْهَا «بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ»، أَلَا تَرَى أَنهُ يَحْكِي عَنْ بِلْقِيسَ حِينَ قَالَتْ: «إِني أُلْقِيَ إِلَي

كِتابٌ كَرِيمٌ إِنهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنهُ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ»، أَلَا فَمَنْ قَرَأَهَا مُعْتَقِدًا لِمُوَالاةِ مُحَمدٍ وَآلِهِ الطيبِينَ، مُنْقَادًا لِأَمْرِهِمْ، مُؤْمِنًا بِظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ، أَعْطَاهُ اللهُ عز وَجَل بِكُل حَرْفٍ مِنْهَا حَسَنَةً، كُل حَسَنَةٍ مِنْهَا أَفْضَلُ لَهُ مِنَ الدنْيَا وَمَا فِيهَا، مِنْ أَصْنَافِ أَمْوَالِهَا وَخَيْرَاتِهَا، وَمَنِ اسْتَمَعَ قَارِئًا يَقْرَؤُهَا كَانَ لَهُ قَدْرُ ثُلُثِ مَا لِلْقَارِئِ، فَلْيَسْتَكْثِرْ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْمُعْرَضِ لَكُمْ، فَإِنهُ غَنِيمَةٌ لَا يَذْهَبَن أَوَانُهُ فَتَبْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْحَسْرَة)[١] انتهى ما في تفسير الإمام عليه السلام.

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام: (أَولُ كُلِ كِتَابٍ نَزَلَ مِنَ السمَاءِ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ فَإِذَا قَرَأْتَ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ، فَلَا تُبَالِي أَلا تَسْتَعِيذَ وَإِذَا قَرَأْتَ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ سَتَرَتْكَ فِيمَا بَيْنَ السمَاءِ وَالْأَرض)[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: (لا تدعها ولو كان بعده شعر)[٣].

وعن الباقر عليه السلام: (سرقوا أكرم آية من كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم، وينبغي الإتيان بها عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه)[٤].

والقمي عن الصادق عليه السلام: (أنها أحق ما يجهر به وهي الآية التي قال الله عز وجل ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[٥].

وفي الخصال عنه عليه السلام: (إن الإجهار بها في الصلوات واجب)[٦].

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٢٩.
(٢) الكافي ج٣ ص٣١٣ باب قراءة القرآن.
(٣) تفسير الصافي ج١ ص٨٣.
(٤) تفسير الصافي، ج١ ص٨٢.
(٥) تفسير القمي، ج١ ص٢٨ مقدمة المصنف.
(٦) في الخصال، ج٢ ص٦٠٤ (و الإجهار ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة واجب).

والعياشي عنه عليه السلام قال: (ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله عز وجل زعموا أنها بدعة إذا أظهروها)[١].

أقول: يعني عليه السلام بهم العامة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (والتسمية في أول كل سورة آية منها، وإنما كان يعرف انقضاء السورة بنزولها ابتداء للأخرى، وما أنزل الله كتابا من السماء إلّا وهي فاتحته)[٢].

أقول: قد قام الإجماع ودلت النصوص بأن بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة آية منها، وفي مشارق الأنوار عن علي عليه السلام أنه قال: (سر الكتب في القرآن وسر القرآن في الفاتحة وسر الفاتحة في البسملة وسر البسملة في الباء وسر الباء في النقطة وأنا النقطة تحت الباء)[٣].

اعلم أن هذه السورة المباركة أعني فاتحة الكتاب تشتمل على أسرار صعبة مستصعبة ووجوه كثيرة، لا يدخل حصرها تحت علمنا، وإنما نتكلم عليها بما يحضرنا حال الكتابة مما نعرف من بعض وجوهها، ونشير إلى بعض أسرارها التي مَنَّ الله تبارك وتعالى علينا بمعرفتها بنبيه وعترته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين مما أذن لنا في بيانه وكشفه.

فنقول: قوله عليه السلام: (وسر الكتب في القرآن...إلخ) يعني أن العلة الغائية التي أنزل الله تبارك وتعالى بها الكتب وأرسل بها الرسل من

---

(١) تفسير العياشي ج١ ص٢٢ [سورة الفاتحة(١): الآيات ١ الى ٢].
(٢) تفسير الصافي ج١ ص٨٢.
(٣) مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام ص٣٥.

لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه وآله هي بعينها علة إنزال هذا القرآن وهذا الكتاب الذي ختم الله به الكتب، وإرسال هذا الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي ختم الله عز وجل به الأنبياء والرسل، ونحن لما نظرنا في القرآن ورأينا قوله تعالى حيث يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] ورأينا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] عرفنا أن تلك العلة هي إخراج الأنبياء والرسل أممهم، وكذلك إخراج النبي صلى الله عليه وآله أمته من الظلمات إلى النور الذي هو صراط الله العزيز الحميد، الذي هو سبيله تعالى إلى الخلق وسبيل الخلق إليه تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[3]، وتزكيتهم عليهم السلام للناس وتعليمهم إياهم الكتاب والحكمة، والمراد بإخراجهم من الظلمات إلى النور، إخراجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمة الإنكار إلى نور المعرفة، ومن ظلمة ولاية الثلاثة إلى نور ولاية الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ومرجع هذه الظلمات التي بعضها فوق بعض إلى ظلمة واحدة هي الإنية والماهية التي ما شمت رائحة الوجود، ومرجع هذه الأنوار إلى نور واحد هو نور الله الذي يعبر عنه بالوجود.

---

(١) إبراهيم ١ ـ ٢.

(٢) الجمعة ٢.

(٣) الأنعام ١٥٣.

والمراد بالتزكية تهذيب النفس عن الأخلاق الرذيلة وتحليتها بالصفات الحميدة التي يعبر عنها بالطريقة.

والمراد بالحكمة، الحكمة العلمية التي هي معرفة الأشياء كما هي لكل عارف على حسب مقامه ورتبته وبقدر طاقته، التي يعبر عنها بالحقيقة.

والحكمة العملية التي هي العمل بمقتضى تلك المعرفة التي يعبر عنها بالشريعة.

وأنت إذا عرفت ما أشرنا إليه عرفت أن ظلمة الكفر منشؤها ومصدرها ظلمة الجهل، وظلمة الجهل مصدرها ظلمة الشك، وظلمة الشك مصدرها ظلمة الإنكار، وظلمة الإنكار مصدرها ظلمة ولاية الثلاثة، وظلمة ولاية الثلاثة مصدرها ظلمة الماهية الظلمانية.

وعرفت أيضًا أن نور الإيمان منشؤه ومصدره نور العلم، ونور العلم من نور اليقين، ونور اليقين من ضياء المعرفة، وضياء المعرفة من نور الولاية، ونور الولاية من نور الوجود الذي خلقه الله تعالى في أول الكون وجعله صراطًا مستقيمًا، أي سبيله إلى الخلق في كل ما آتاهم، وسبيل الخلق إليه في كل ما سألوه، وخاصية هذا النور أي الوجود الحكمة الإلهية التي هي معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله بما وصف به نفسه لعباده، ومعرفة الأشياء كما هي، والعمل بمقتضى تلك المعرفة.

وخاصية هذه الظلمة أي الماهية الهوى التي هي ضد الحكمة، كما قال الصادق عليه السلام في بيان جنود العقل والجهل: (وفعلها الإنكار بعد المعرفة وترك العمل بمقتضاها).

والإنسان بل كل شيء مركب من الوجود والماهية، والوجود كلمة

الله العليا وهو خير محض ومنه كل خير، والماهية كلمة الذين كفروا السفلى وهو شر محض، ومنها كل شر، والوجود سبيل الله إلى الخلق وسبيل الخلق إليه، والماهية سبيل الوجود إلى الموجود من حيث هو لا من حيث أنه نور الله وأثر فعله، وسبيل الموجود إلى الوجود كذلك ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[1] أي لا يهتدون إلى سبيل الله الذي هو الصراط المستقيم.

فإذا عرفت هذا ظهر لك أن سر القرآن أيضًا في الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2] أي صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

تفسير قوله تعالى: (بسم)

اعلم أن سر الفاتحة أيضًا في البسملة ولا يعرف هذا إلّا بعد تفسير البسملة لأن المسلك دقيق وبيان هذا السر خفي.

فنقول: بسم الله الرحمن الرحيم في المعاني عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: (الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله) وفي رواية (الميم ملك الله)[3].

فلما أضاف عليه السلام الباء الذي هو البهاء والسين الذي هو السناء

---

(١) النمل ٢٤.

(٢) الفاتحة ٦.

(٣) معاني الأخبار، ص٣ باب معنى بسم الله الرحمن الرحيم. تفسير القمي ج١ص٢٨.

والميم الذي هو المجد إلى الله سبحانه ونسبها إليه تعالى، علمنا أن الله تعالى نسب نفسه بأنه ذو البهاء والسناء والمجد، ولما كان مجموع الباء والسين والميم اسما لله الرحمن الرحيم، والاسم صفة لموصوف كما قال الرضا عليه السلام حين سئل عن الاسم ما هو قال عليه السلام: (صفة لموصوف)[١] رواه في المعاني، علمنا أن هذه المذكورات صفة لله وصف نفسه بها.

والبهاء هو الضياء وهي الشمس الطالعة في سماء عالم الجبروت، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾[٢] وهو النور الأبيض الذي منه ضوء النهار وهو الركن الأيمن الأعلى من أركان العرش، وهو القلم الجاري في اللوح المحفوظ بما كان وما يكون إلى آخر الدهر، وهو روح القدس الأعلى الذي قال العسكري عليه السلام: (وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة)[٣] وهو المصباح الذي قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[٤]، وهو السراج الوهاج[٥] والسراج المنير[٦]، والمراد به ما ابتدعه الله تعالى من الوجود بمشيئته في أول الوجود المقيد، أعني العقل الكلي الذي هو أول خلق من الروحانيين، وهو الملك الأعظم الذي له رؤوس ووجوه

---

(١) الكافي، ج١ ص١١٣ باب حدوث الأسماء.

(٢) يونس ٥.

(٣) الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة ص٤٨ من كلام الإمام الحسن العسكري عليه السلام. مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام ص٢٤٩ فصل [آل محمد الاسم الأعظم].

(٤) النور ٣٥.

(٥) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ النبأ ١٣.

(٦) إشارة لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الفرقان ٦١.

بعدد الخلائق في عالم الجبروت، وهي عقول جميع الخلائق التي خلقت من أشعة ذاته.

والسناء: هو نور الضياء والقمر الطالع في سماء عالم الملكوت قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[1] وهو النور الأخضر الذي منه اخضرت الخضرة، والحجاب الزبرجد، وهو الركن الأيسر الأعلى من أركان العرش، وهي شجرة طوبى وجنة المأوى وسدرة المنتهى، وهو اللوح المحفوظ، وهو ملك عظيم له رؤوس ووجوه بعدد الخلائق في عالم الملكوت، والمراد به ما سواه الله من العين بإرادته، وهو إشارة إلى النفس الكلية الملكوتية الإلهية التي هي نفس الله العليا المخلوقة التي لا يعلم عيسى بن مريم ما فيها وهو يعلم ما في نفس عيسى[2]، وهي التي خلق الله تعالى من أشعة ذاتها نفوس جميع الخلائق في عالم الملكوت.

والمجد: هو نور الكبرياء وهو نور العظمة والسناء، وهو ملك كبير له رؤوس ووجوه بعدد الخلائق في عالم الملك، والمراد به ما حدده تعالى من المفعولات بقدره، وهو إشارة إلى عالم الملك بما فيه من الأجسام والجواهر والأعراض وغير ذلك من الموجودات الملكية والمفعولات الجسمانية.

والعوالم الثلاثة نسبة الله وصفته أي نسبة وصفة فعلية، لأنها أثر فعله وكل واحد منها اسم ظاهر لاسم باطن هو مسماه أي مسمى

---

(١) يونس ٥.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

الاسم الظاهر، فالباء اسم ظاهر لاسم باطن هو مسماه وهو الله، والسين اسم ظاهر لاسم باطن هو مسماه وهو الرحمن، والميم اسم ظاهر لاسم باطن هو مسماه وهو الرحيم، فالأسماء الظاهرة مراكب للأسماء الباطنة التي هي مسمياته.

وبيان هذا أن نقول: الله سبحانه هو المنسوب والموصوف، والألوهية نسبته وصفته، والباء محلها وصورتها، والرحمن تعالى هو المنسوب والموصوف، والرحمانية نسبته وصفته، وهي الرحمة الواسعة، والسين محلها وصورتها، والرحيم عز وجل هو المنسوب والموصوف، والرحيمية نسبته وصفته، وهي الرحمة المكتوبة الخاصة والميم محلها وصورتها.

فالباء صورة للألوهية التي هي صفة الله سبحانه وهي الجامعة لصفات القدس كالسبحان والقدوس والعزيز والعلي وما أشبه ذلك، ولصفات الإضافة كالعليم والسميع والبصير والقادر والمدرك وما أشبه ذلك، ولصفات الخلق كالخالق والرازق والمعطي وما أشبه ذلك.

والسين صورة الرحمانية التي هي صفة الرحمن تعالى وهي الجامعة لصفات الإضافة وصفات الخلق.

والميم صورة الرحيمية التي هي صفة الرحيم عز وجل وهي جامعة لصفات الخلق.

وهو سبحانه وصف نفسه لعباده وتعرف لهم بنسبته في صفته كما أشرنا إليه، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فالألوهية جبروت في الدهر العلوي، والباء صورة لرتبتها ومحلها، والألف القائم في الله صورة معناها.

والرحمانية ملكوت في الدهر السفلي، والسين صورة لرتبها ومحلها، والألف المبسوط في الرحمن صورة معناها.

والرحيمية ملك في الزمان والميم صورة لرتبتها ومحلها، والألف الراكد في الرحيم صورة معناها.

والظاهر بهذه الصفات الثلاث في السرمد أظهرها في مراتبها فتعرف بصفاته لجميع مخلوقاته، فقد تضمنت البسملة نسبته سبحانه لعباده بالتلويح كما أشرنا إليه، وبالتصريح كما هو ظاهر الأسماء الثلاثة وهي الله الرحمن الرحيم، وفيها إشارة إلى ما تضمنت السورة الفاتحة، لأن سرها في البسملة فافهم فإنه أدق من الشعر وأحد من السيف، وذلك أنه تعالى قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فوصف نفسه بالشيئية ونسبها إليه ونفاها عن غيره إلّا به، حيث جعل العوالم الثلاثة المسماة بالجبروت والملكوت والملك المشار إليها بحروف (بسم) اسمًا لصفاته الثلاث، والصفات الثلاث اسمًا له في ظهوره بها، فكان هو الله الرحمن الرحيم، المحمود بكل لسان، رب العالمين ومالك يوم الدين، الذي لا تحق العبادة إلّا له ولا تجوز الاستعانة إلّا به، الهادي لعباده المؤمنين إلى صراط مستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فهو الشيء بحقيقة الشيئية غير أنه لا جسم ولا صورة، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] العالم القدير العدل الذي لا يجور، والأكرم الذي ترجع إليه الأمور.

ثم اعلم أن في قول الرضا عليه السلام حيث قال: (إن بسم الله الرحمن

---

(١) الشورى ١١.

الرحيم أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها)[١] إشارة إلى أن البسملة اسم الله الأعظم، وإنما قال عليه السلام أنها أقرب إلى الاسم الأعظم لأنه عليه السلام في بيان الاسم اللفظي الذي بمنزلة سواد العين، بالنسبة إلى الاسم المعنوي الذي هو بمنزلة بياضها، والتمثيل مأخوذ من ظاهر الظاهر، فإن البياض عبارة عن البساطة والوحدة، والسواد كناية عن التركيب والكثرة، ولو أخذ من الباطن انعكس، لأن النور في السواد لا في البياض فافهم.

فلما كان كلامه عليه السلام في اللفظ ناسب أن يقول إنها أقرب إلى الاسم الأعظم، إذ الاسم الأعظم في الحقيقة هو المعنوي، وفي الدعاء: (أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم)[٢] فالبسملة أي صورتها ولفظها اسم الله الأعظم اللفظي، ومعناها اسمه الأعظم المعنوي، ولما كان أشرف الأكوان الاسم الأعظم المعنوي، والوجود كان مبنيًا عليه بجميع مراتب حروفه الكونية وجب أن يكون فاتحة فاتحة الكتاب التكويني لعليته، ولما كان الكتاب التدويني المشتمل على جميع مراتب الحروف اللفظية التي هي مظاهر لتلك الحروف الكونية طبق الكتاب التكويني وجب أن يكون الاسم الأعظم اللفظي وهو بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ فاتحة فاتحة الكتاب التدويني لعليته.

ولما كانت صورة الاسم الأعظم المعنوي ومراتب كليات حروفها

---

(١) الأصول الستة عشر ص١٦٠ كتاب عاصم بن حميد الحناط. تفسير العياشي ج١ ص٢١.

(٢) تهذيب الأحكام ج٣ ص١١٤ دعاء أول يوم من شهر رمضان. مصباح المتهجد وسلاح المتعبد ج١ ص٣٣٨ صلاة أخرى للحاجة.

الكونية مشتملة على تسع عشر حرفًا، العقل الكلي، والنفس الكلية، والطبيعة الكلية، والمادة الكلية، والمثال الكلي، والجسم الكلي، وفلك الأفلاك، وفلك الثواب، وفلك زحل، وفلك المشتري، وفلك مريخ، وفلك الشمس، وفلك الزهرة، وفلك عطارد، وفلك القمر، والعنصر الناري، والعنصر الهوائي، والعنصر المائي، والعنصر الترابي، وجب أن تكون صورة الاسم الأعظم اللفظي مشتملة على تسع عشر حرفًا من الحروف اللفظية وهي بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ لتكون فيها إشارة إلى جميع مراتب كليات الحروف الكونية، فكما أنه سبحانه أمر القلم الأول وهو العقل المحمدي صلى الله عليه وآله أن يكتب في الكتاب التكويني ما كان وما يكون إلى آخر الوجود الذي لا نهاية له في الإمكان، فابتدأ القلم الأول بكتابة معنى بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ على حسب عدد حروفه الكونية الكلية، ثم كتب فيه ما كان وما يكون، كذلك أمر سبحانه القلم الآخر وهو اللسان المحمدي صلى الله عليه وآله أن يبين لخلقه أحكام ما كان وما يكون، ويخبرهم بحقيقة ما كتب في الكتاب التكويني، فابتدأ القلم الثاني في الكتاب التدويني ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بين لهم فيه أحكام ما كان وما يكون، وأخبرهم بظاهر القرآن حقيقة ما كتب بباطنه في الكتاب التكويني، لأن باطن القرآن عقله الكاتب لكل نور وفيء، وظاهره كلام الله المبين الذي فيه تبيان كل شيء.

وهنا سر خفي بل هو أخفى من دبيب النمل على الصفا في ليلة ظلماء، وهو أن الباء لما كان باطنه العقل الأول وهو الألف القائم كناية عن بساطته، والألف في رتبته الثانية وهي رتبة الباء الذي هو الألف المبسوط لأنه حصل من تكرار الألف مائلٌ لعشرة في المعنى

بحسب صورة الحروف الرقمية وهذه صورته (١٠)، فإذا ضم الباء الذي اشتمل في باطنه الألف في رتبته الثانية وهي العشرة إلى السين الذي هو ستون، وضم كلاهما إلى الميم الذي هو أربعون، ظهر سر البسملة الذي كان في الباء، أي ظهر اسم الله الأعظم الذي هو أول ما اختاره سبحانه بنفسه من الأسماء وهو العلي العظيم.

ففي المعاني عن محمد بن سنان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: (سَأَلْتُهُ هَلْ كَانَ اللهُ عَز وَجَل عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَالَ عليه السلام نَعَمْ قُلْتُ يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا قَالَ مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِيَ نَفْسَهُ وَلَكِنهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا لِأَنهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ فَأَولُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِي الْعَظِيمُ لِأَنهُ أَعْلَى الْأَشياء كُلهَا فَمَعْنَاهُ اللهُ وَاسْمُهُ الْعَلِي الْعَظِيمُ وَهُوَ أَولُ أَسْمَائِهِ لِأَنهُ عَلِي عَلَا كُل شَيْءٍ)[1].

فإذا عرفت أن سر البسملة في الباء فاعلم أن الكاتب أول ما يكتب أن يضع القلم على القرطاس فتحدث به النقطة، ثم يجر القلم فتحدث الباء، وهذه النقطة صورتها النقطة تحت الباء وكونها تحت الباء كناية عن كونها حاملة للباء، يعني كانت النقطة مقومة للباء وكان الباء مقوما بها، وقد عرفت مما ذكرنا سابقا عن تفسير الاستعاذة أن الوجودات ثلاثة.

الأول: الوجود الحق وهو الصانع عز وجل، وهو وجود لا تعين فيه، وأعني الوجود المعبر باللاتعين.

---

(١) معاني الأخبار ص٢ باب معنى الاسم. الكافي ج١ ص١١٣.

والثاني: الوجود المطلق وهو فعله وصنعه تعالى، وهو التعين الأول المعبر عنه بالمشيئة والإرادة والشجرة الكلية، والكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر، وحركة بنفسها، وفعل بنفسه، والحقيقة المحمدية والولاية المطلقة، ولها أربع مراتب في تزييل الفؤاد.

الأولى: الرحمة والنقطة.

والثانية: الرياح والألف والنَفَس الرحماني الأولي بفتح الفاء.

والثالثة: السحاب المزجى والحروف العاليات.

والرابعة: السحاب المتراكم والكلمة التامة، وهذه الكلمة كلمة فعلية وشرط ظهورها الكلمة المفعولية، لأن الفعل لا يظهر إلابالمفعول كالكسر والانكسار، والمراد بها أي الكلمة المفعولية الحقيقة المحمدية، لأنها محل المشيئة التي هي الكلمة الفعلية، ولها أيضا أربع مراتب.

الأولى: مرتبة النقطة المفعولية التي هي شرط ظهور النقطة الفعلية.

والثانية: النفَس الرحماني الثانوي بفتح الفاء.

والثالثة: مرتبة الحروف.

والرابعة: مرتبة الكلمة الجامعة.

وهاتان الكلمتان لا تظهر إحداهما إلّا بالأخرى، فالكلمة الأولى شرط ظهورها الأخرى، والكلمة الأخرى شرط تحققها الأولى، بل هما شيء واحد وبحران ملتقيان، إلّا أن بينهما برزخ لا يبغيان.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه فاعلم أنه قد ثبت أن الحقيقة المحمدية هي حقيقة آله وعترته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين، لأنهم

من حقيقة واحدة ونور واحد وطينة واحدة، قالوا عليهم السلام: (أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد وكلنا محمد)[١] صلى الله على محمد وآل محمد وسلم، فالنقطة مقام الجمع ومقام السر المستسر، والسر المجلل بالسر، وهذا المقام منسوب إلى محمد صلى الله عليه وآله وهو مقام أنا الشجرة، ومقام كلنا محمد صلى الله عليه وآله .

والنفس الرحماني أو مقام الفرق وهو منسوب إلى علي صلوات الله عليه، وهو مقام وعلي لقاحها، ومقام أنا من محمد كالضوء من الضوء، ومقام أولنا محمد صلى الله عليه وآله .

والحروف مقام الفرق وهو منسوب إلى الأئمة من ولده عليه وعليهم السلام غير القائم عليه السلام باعتبار، ومع القائم عليه السلام باعتبار آخر، وهو مقام والأئمة أغصانها، ومقام وأوسطنا محمد صلى الله عليه وآله .

والكلمة التامة الجامعة منسوبة في الظاهر إلى بقية الله عز وجل وهو القائم عليه السلام، وفي الباطن إلى ليلة مباركة أي ليلة القدر، التي يفرق فيها كل أمر حكيم إمام حكيم بعد إمام حكيم، أعني بها سيدتنا وسيدة نساء العالمين فاطمة صلوات الله عليها وعلى أولادها الطاهرين، وهو مقام وعلمنا ثمرها، وفاطمة ثمرة فؤادي، وهو مقام وآخرنا محمد صلى الله عليه وآله .

فإذا تحقق هذا مع ما أشرنا إليه سابقًا في تفسير (بسم) وقلنا أنه إشارة إلى العوالم الثلاثة التي أولها العقل الكلي مع جميع رؤوسه ووجوهه المشار إليها بالباء، الذي فسره عليه السلام بالبهاء، وعلمت أن

---

(١) بحار الأنوار ج٢٦ ص١٦ نادر في معرفتهم صلوات الله عليهم بالنورانية وفيه ذكر جمل من فضائلهم عليهم السلام.

الكتاب التدويني طبق الكتاب التكويني وبالعكس، فقد عرفت صدق قوله عليه السلام: (وسر الباء في النقطة، وأنا النقطة تحت الباء) لأنه عليه السلام نقطة دائرة الوجود وسر المعبود، وحامل بهاء الله العلي العظيم، ومقوم باء بسم الله الرحمن الرحيم، الذي ظهرت منه الموجودات وأشرقت به الأرضون والسموات، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرحمن الرحيم).

فإذا عرفت السر المكتوم المجلل، بالسر المجلل بالسر المجلل بالسر، فاحفظه فإنه سر المكتوم، وإلا فاطلبه بمحو الموهوم وصحو المعلوم، لتظهر لك الحقيقة التي هي نور أشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فانجلت في العالم أسراره، فقد أسمعتك تغريد الورقاء على الأفنان بفنون الألحان، ولكن قال الشاعر ونعم ما قال:

قد يطرب القمري أسماعنا ونحن لا نفهم ألحانه

في تفسير الإمام عليه السلام: (قَالَ رَجُلٌ لِلصادِقِ عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ دُلنِي عَلَى اللهِ مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ الْمُجَادِلُونَ عَلَي وَحَيرُونِي.

فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً.

قَالَ: بَلَى.

فَقَالَ: هَلْ كُسِرَتْ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ.

قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَهَلْ تَعَلقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَن شَيْئًا مِنَ الْأَشياء قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ.

قَالَ: بَلَى.

قَالَ الصادِقُ عليه السلام: فَذَلِكَ الشيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حِينَ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حِينَ لَا مُغِيث)[١].

أقول: إن أصحابنا رضوان الله عليهم ذكروا هذه الرواية في كتبهم وتفاسيرهم عند ذكرهم تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، ولم أجد أحدًا تكلم في معناها بشيء، مع أنها من الروايات التي درايتها صعبة تحتاج إلى أتم بيان.

في المعاني عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: (يَا بُنَي اعْرِفْ مَنَازِلَ الشيعَةِ عَلَى قَدْرِ رِوَايَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ فَإِن الْمَعْرِفَةَ هِيَ الدرَايَةُ لِلروَايَةِ وَبِالدرَايَاتِ لِلروَايَاتِ يَعْلُو الْمُؤْمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ إِني نَظَرْتُ فِي كِتَابٍ لِعَلِي عليه السلام فَوَجَدْتُ فِي الْكِتَابِ أَن قِيمَةَ كُل امْرِئٍ وَقَدْرَهُ مَعْرِفَتُهُ إِن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ الناسَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي دَارِ الدنْيَا)[٢].

وفيه عن إبراهيم الكرخي عن أبي عبد الله عليه السلام: (حَدِيثٌ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ تَرْوِيهِ وَلَا يَكُونُ الرجُلُ مِنْكُمْ فَقِيهًا حَتى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ كَلَامِنَا وَإِن الْكَلِمَةَ مِنْ كَلَامِنَا لَتَنْصَرِفُ عَلَى سَبْعِينَ وَجْهًا لَنَا مِنْ جَمِيعِهَا الْمَخْرَجُ)[٣].

فإذا عرفت هذا فاعلم أن تلك الرواية أعني ما في تفسير الإمام عليه السلام عن الصادق عليه السلام حين سأله رجل فقال: (يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ دُلنِي عَلَى اللهِ مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ الْمُجَادِلُونَ عَلَي وَحَيرُونِي)[٤] رواية من

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٢٢ [سورة الفاتحة (١): آية ١].
(٢) معاني الأخبار ص١. الأصول الستة عشر ص٣٦.
(٣) معاني الأخبار ص٢.
(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٢٢ [سورة الفاتحة (١): آية ١].

يدريها خير من ألف روايات يرويها، وذلك أن السائل حين كثر عليه المجادلون ﴿فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[(١)] وهم الذين أنكروا الصانع سبحانه مطلقًا، فكفروا بكفر الجحود فلم يعبدوا شيئًا، وأثبتوا صانعًا ليس بصانع فأشركوا، وعبدوا إلهًا ليس بمعبود أي لا يستحق العبادة، وجادلوه في الله حتى حيروه في أمر دينه، ولم يكن عنده دليل يستدل به على وجود الصانع الحق سبحانه ويخاصمهم به، فقال: (يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ دُلنِي عَلَى اللهِ مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ الْمُجَادِلُونَ عَلَي وَحَيرُونِي) في أمري وفي الجواب لهم، ولم أعرف كيف أجادلهم وأخاصمهم، ولم أهتد إلى دليل أستدل به عليهم وأخرج به من حيرة ضلالتهم، وأنجو به من خبث لسانهم ومقالتهم، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (يَا عَبْدَ اللهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً...إلخ)، وحاصل الجواب ستعرفه إن شاء الله بعد ذكر مذاهب أولئك الملحدين المنكرين لوجود الصانع جل وعلا على سبيل الإشارة، واقتصاد في المعنى واقتصار في العبارة.

فنقول: إن هؤلاء الجاحدين للحق خذلهم الله لما غيروا خلق الله وبدلوا فطرته التي فطر الناس عليها بأمر الشيطان ومتابعة خطواته، كان لهم فطرتان، فطرة أولية يعرفون بها آيات الله التي أراهم في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(٣)]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[(٤)] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[(٥)].

---

(١) الحج ٨.
(٢) العنكبوت ٦١.
(٣) العنكبوت ٦٣.
(٤) النحل ٨٣.
(٥) النمل ١٤.

وفطرة أخرى مغيرة منكوسة يجحدون بها آيات الله وينكرونها بعد معرفتها بمقتضى تغييرهم خلق الله وتبديلهم فطرة الله، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾[1]، وهؤلاء مختلفون في آرائهم وأقوالهم اختلافًا كثيرًا، إلّا أنهم متفقون في أن لهم وجودًا، أي في أنهم لم يكونوا ثم كانوا، ولكن اختلفوا وتفرقوا في معرفة وجودهم بدء وعودًا.

ذكر المذاهب الباطلة

فقالت طائفة منهم أنهم غير موجودين بوجود سابق مستند إلى الغير، وأنهم غير عائدين، إذا لا مبدأ لهم إلّا أنفسهم، فلم يعرفوا كيف وجودهم، بل قالوا أنهم كالنباتات في الأرض تذهب وتجيء أبدًا، لا انقطاع لذلك.

واستوت طائفة في معرفة وجودهم بمعنى أنهم موجَدون مستندون إلى موجد، لأن وجودهم حادث فيكون له محدِث سابق عليه، لأن الشيء لا يوجد نفسه لاستلزام ذلك تقدم الشيء على نفسه وهو ممتنع، واختلفوا في ذلك الموجد وكيفية حدوثهم.

فقالت طائفة منهم أنه العناصر، ثم اختلفوا فذهبت طائفة أنه العنصر الترابي، لأن جميع النباتات والحيوانات من التراب نشأت وإليه تعود، وهؤلاء أضعفهم عقلًا وأقلهم تصورًا، وربما رجعوا إلى الفرقة الأولى، فإن التراب الذي هو آخر الموجودات وأخسها وأضعفها وأقلها شعورًا، كيف يكون موجدًا لمن هو أشرف الموجودات وأقواها وأكثرها شعورًا.

---

(١) الأحقاف ٢٦.

وقالت طائفة أنه العنصر المائي لأنه الذي به حياة العالم وبه قوامهم، وهو ذَكَر العنصر الترابي والفاعل فيه، وبه الحل والعقد.

وقالت طائفة أنه العنصر الهوائي، لأنه أقوى من العنصرين، وبه حياة الحيوانات ومجرى مادة الحياة بالتنفس.

وقالت طائفة أنه العنصر الناري، لأنه أقوى العناصر فعلا وأشرفها درجة وأعلاها رتبة وأشدها لطافة، ومبنى الحياة على الحرارة الغريزية، وصورتها الوجود، فهي أصل الوجود، وهؤلاء المجوس.

وذهبت طائفة إلى أنه الطبائع الأربع؛ لأن العالم مركب منها، وعبادة الأصل وتعظيمه أولى من الفرع، وهم الطبيعيون.

وذهبت طائفة إلى أنه الكواكب لأن الطبائع أثر الكواكب فالأولى عبادة الكواكب السبعة السيارة، لأن كلا منها مستقل بنفسه مؤثر في الوجود، وهم الفلاسفة وإن كانوا مختلفين في عبادتهم لهذه الكواكب، فبعضهم عبد الزهرة، وقوم منهم عبدوا القمر، وآخرون منهم عبد الشمس، وأكثر هؤلاء القوم كانوا في زمان إبراهيم عليه السلام، ولقد أشرنا سابقًا إلى بعض معاني قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾[1] الآية، فراجع.

وذهبت طائفة إلى أنه النور والظلمة، فأسندوا كل خير وحسن إلى النور، وكل شر وقبيح إلى الظلمة، وهم الثنوية.

وذهبت طائفة إلى أنه الدهر فلم يعبدوا شيئًا زعمًا بأن العبادة لا تفيد، وإنما الدهر لما تقتضيه مجبول من حيث فطرته، فالأرحام تدفع

---

(١) الأنعام ٧٦.

والأرض تبلع، وهؤلاء الملاحدة وهم الدهريون الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١]، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٢].

اعلم أن كل هؤلاء متفقون في التصور[٣]، وإنما اختلفوا في التصديق[٤] فأخطأوا فيه، حتى قيل أنهم عبدوا الحق من حيث مظاهره وجهات ظهور قدرته وآياته، وإليه أشار قوله عليه السلام في الدعاء بعد نافلة العشاء الأخيرة (بَدَتْ قُدْرَتُكَ يَا إِلَهِي وَلَمْ تَبْدُ هَيْئَةٌ فَشَبهُوكَ يَا سَيدِي وَاتخَذُوا بَعْضَ آيَاتِكَ أَرْبَابًا يَا إِلَهِي فَمِنْ ثَم لَمْ يَعْرِفُوكَ يَا سيدي)[٥]، فاختلاف هؤلاء في أحوالهم لاختلاف آثار الأسماء والصفات وجهات وظهور القدرة والآيات، فالأولون عبدوه من حيث ظهور القدرة القاهرة في مظهر اسمه الرزاق، لأنهم وجدوا أنفسهم كالنباتات في الأرض، فإن أرض الأرحام كأرض النبات، بل هي الأرض حقيقة وهم النبات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[٦].

---

(١) الجاثية ٢٤.

(٢) النجم ٢٨.

(٣) التصور: هو حصول صورة شيء ما في الذهن فقط، مثل إذا كان له اسم فنطق به تمثل معناه في الذهن، مثل تمثل معنى المثلث أو الإنسان في الذهن دون أن يقترن به حكم بوجودهما أو عدمهما أو وجود حاله أو عدمها لهما (مصطلحات علم المنطق عند العرب صفحة ١٩٧).

(٤) التصديق: هو أن يحصل في الذهن نسبة هذي الصورة (التأليف) إلى الأشياء أنفسها أنها مطابقة لها، والتكذيب يخالف ذلك (مصطلحات علم المنطق عند العرب صفحة ١٩٠).

(٥) بحار الأنوار، ج٨٤ ص١١٠ باب فضل الوتيرة وآدابها وعللها وتعقيبها وسائر الصلوات بعد العشاء الآخرة.

(٦) نوح ١٧.

والذين عبدوا العنصر الترابي عبدوه من حيث مظهر اسمه المميت، وما جعله الله أصلًا لوجودهم وسببًا أوليا لبدأ شأنهم قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[١]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[٢]، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٣].

والذين عبدوا العنصر المائي عبدوه من حيث مظهر اسمه الحي، وما جعله الله سببًا لحياة العالم، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٤].

والعابدون للعنصر الهوائي إنما عبدوه من حيث مظهر اسمه القابض، وما جعله الله سببًا لحياة الحيوانات وأصلًا للماء الذي به الحياة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[٥].

والمجوس عبدوه من حيث الأحدية، فكما أن الأحدية معينة لجميع المراتب والأسماء والصفات، كذلك النار فإنها أقوى الاسطقسات[٦] وأعلاها، فإنها معينة لجميع الطبائع المحاذية لا

---

(١) طه ٥٥.
(٢) الروم ٢٠.
(٣) الحج ٥.
(٤) الأنبياء ٣٠.
(٥) فاطر ٩.
(٦) هو لفظ يوناني بمعنى الأصل، وتسمّى العناصر الأربع التي هي الماء والأرض والهواء والنار أسطقسات لأنها أصول المركبات التي هي الحيوانات والنباتات والمعادن، كذا في تعريفات السيد الجرجاني. كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص١٧٦ / أسطقس.

يقاربها طبيعة إلّا ويستحيل للنار لغلبة قوتها، فكذلك الأحدية لا يقابلها اسم ولا صفة إلّا ويندرج فيها ويضمحل، فلهذه اللطيفة عبدوا النار زاعمين أن حقيقتها ذاته.

والطبيعيون عبدوه من حيث صفاته لأن الأوصاف الإلهية التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة أصل بناء الوجود، فالرطوبة مظهر الحياة، والبرودة مظهر العلم، والحرارة مظهر الإرادة، واليبوسة مظهر القدرة، فالطبائع مظاهر الأوصاف في عالم الأكوان.

والفلاسفة إنما عبدوه من حيث أسمائه تعالى؛ لأن الكواكب مظاهر أسمائه تعالى، فزحل مظهر الواحدية لإحاطته بالأفلاك، والمشتري مظهر الرب لأنه المربي وهو أسعد الأفلاك، والمريخ مظهر القدرة والقهر لأنه المختص بالأفعال القهرية، والشمس مظهر اسمه الرحمن لأن كل الكواكب تستمد منه واسمه الرحمن تستمد منه جميع الأسماء، والزهرة مظهر الإرادة والتفاصيل لأنها سريعة التقلب في نفسها، ولها في كل تقلب حكم كالإرادة، وعطارد مظهر العلم لأنه الكاتب في السماء، والقمر مظهر الحياة.

والثنوية عبدوه من حيث نفسه زاعمين أن ذاته مجمع الأضداد، فهي تشتمل المراتب الحقية والخلقية، فظهرت في الوصفين بالحكمين، فما كان منهم منسوبًا إلى الحقيقة الإلهية فظاهر في النور، وما كان منسوبًا إلى الحقيقة الخلقية فهو عبارة عن الظلمة، فعبدوا هذين الأصلين لهذا السر الإلهي على زعمهم أنه الجامع للوصفين.

والدهرية عبدوه من حيث الهوية لأن هويته لا تدرك ولا تتناهى، وما ورد من النهي عن سب الدهر، كما قال النبي ﷺ: (لا تسبوا

الدهر فإن الدهر هو الله)[١] فالمراد به أن الدهر اسم الله كما في الدعاء (يا دهر يا ديهور)، أو أن الدهر في اعتقاد السباب هو الفاعل فيسب الفاعل، ولا فاعل إلّا الله تعالى، فيكون قد سب الله تعالى وهو مورد النهي.

وبالجملة لم تبق ذرة من ذرات أنواع الوجود إلّا وقد عُبدت من دون الله تعالى، إما عبادة ظاهرة أو باطنة، فلو أن أحدا رجا شيئًا أو خافه أو أثنى أو حسنه من حيث ذلك الشيء فقد عبده من دون الله في تلك الجهة، وقد ورد: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان)[٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣].

بيان مراتب التوحيد الباطل

واعلم أن هؤلاء المذكورين لم يكونوا موحدين بل اتخذ كل واحد منهم آية من آيات الله ربًا له فأشرك.

واستوت طائفة في معرفة موجدهم وأنه الحق جل وعلا، وهو عالم قادر حكيم، وافترقوا في معرفة وجوده تعالى وتوحيده، فهم في معرفة التوحيد على خمس مراتب، هي مراتب التوحيد الباطل، وهي طرق النيران، ولكل منها أهل وسكان.

---

(١) أمالي المرتضى، ج١ ص٤٥ تأويل خبر: (لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله). جامع الأخبار، ص١٦٠ الفصل الخامس والعشرون والمائة في السب.
(٢) الكافي، ج٦ ص٤٣٤ باب الغناء. (قريب منه).
(٣) يوسف ١٠٦.

فالأولى: توحيد من يعتقد أن معبوده جسم كالأجسام، وذلك كالكرامية[١] وبعض الحنابلة.

ومنهم من يعتقد أنه جسم لا كالأجسام، والظاهر أنه كالأول إذا أراد به التجسيم اللفظي، وإلا فلا إشكال في كونه من الأول.

والثانية: توحيد من يعتقد أنه تعالى صورة ومثال، وآية وحدته تشخص المشخصات الجنسية والنوعية والصنفية والشخصية، وهو باطل كالأول، وهم الذين يعبدون الأوثان.

والثالثة: توحيد من يعتقد أنه تعالى مادة الأشياء كما ذهب إليه كثير من الصوفية، ومثلوا له بالمداد بالنسبة إلى الكتابة، وبالثلج بالنسبة إلى الماء، وبالقرطاس بالنسبة إلى النقوش، يقول شاعرهم:

وما الخلق في التمثال إلّا كثلجة ... وأنت لها الماء الذي هو نابع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع[٢]

وبالموج بالنسبة إلى البحر، يقولون إذا تحرك البحر كان موجًا، وإذا سكن الموج كان بحرًا، كما أن الماء إذا جمد كان ثلجًا، وإذا ذاب الثلج كان ماء، يقول قائلهم:

---

(١) الكرامية من أصحاب محمد بن كرام القائلون بالتجسم والتشبه وكون الله تعالى جالسًا على العرش مربعًا، وقيام الحوادث بذاته تعالى وبثبوت الإمامة بالإجماع (شرح حياة الأرواح ج١ ص٤٨٥).

(٢) وما الخلق في التمثال إلّا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغير أن في حكم دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد في واحد إليها ... وفيه تلاشت وهو عنهن ساطع
الإنسان الكامل (الجيلي) ص٥١.

كالموج حكمهم في بحر وحدته والموج في كثرة بالبحر متحد
فإن تحرك في الأمواج أجمعه وإن تسكن لا موج ولا عدد[١]

ولا شك في كفر هؤلاء، ولقد روى الورع الأقصد الشيخ أحمد الأردبيلي في حديقة الشيعة بإسناده قال: قال رجل للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: قد خرج في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية فما تقول فيهم؟

فقال: (إنهم من أعدائنا فمن مال إليهم فهو منهم، وسوف يحشر معهم، وسيكون أقوام يدعون حبنا أهل البيت، ويميلون إليهم ويتشبهون بهم، ويلقبون أنفسهم بلقبهم ويؤلون أقوالهم، ألا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منه برآء، ومن أنكرهم ورد عليهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله)[٢].

والرابعة: توحيد من يعتقد أنه عز وجل طبيعة وحقائق الأشياء وطبائعها منه تعالى بالسنخ أو بالظل، ومن قال بأنها في ذاته بنحو أشرف[٣]، وكذا من قال أن معطي الشيء ليس فاقدا له في ذاته[٤]، يلزمهم القول بهذا نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

---

(١) الإنسان الكامل، ص٦٨ الباب الرابع عشر: في تجلي الصفات.

(٢) إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، ج٤ ص٢٠٤ الفصل الخامس والثلاثون.

(٣) يقول ملا صدرا: (إن هذا البرهان الآخر لهو الوجه الاخر الّذي اشرنا إليه قبيل هذا، وهو يدور على قطب الاقطاب الّذي هو كون بسيط الحقيقة كل الاشياء، فرقا آخر، هو كون مدار برهان اخر غير برهان الشيخ الاشراقى على ان بسيط الحقيقة كل الاشياء بوجه اعلى، يعنى ان بسيط الحقيقة الوجود، والوجود البسيط، كل الوجودات بنحو اشرف واقوى، وثمرة شجرة هذه المدار هو التوحيد الوجودى، فضلًا عن التوحيد الوجوبى، كما هو نتيجة برهان الشيخ، ثبت فيه) مفاتيح الغيب (ملا صدرا) ص٧٦٩.

(٤) يقول الملا هادي السبزواري: (فهو تعالى لمّا كان ينبوع ماء الحياة الّذي هو=

والخامسة: توحيد من يعتقد أنه تعالى نفس وصورة، ومن قال بأنه نفس الكل والعالم جسمه فهو منهم.

وهذه الاعتقادات طرق أهل الضلالة إلى النار، وهي أسباب المسخ التي من صورها الحيات والعقارب وسائر الحشرات والحيوانات المنكوسة، ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1]، وهي أحوال منكرة، أي آثار اعتقاداتهم من الأقوال والأعمال التي ينكرها كل من وقف عليها من المؤمنين العارفين بالله عز وجل، وأهل تلك الاعتقادات الفاسدة قد هلكوا بها وأهلكوا من اتبعهم وأصغى إليهم، قال الله تعالى في حقهم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي خلقناهم في الخلق الثاني، الذي هو الخلق التكليفي والإيجاد التشريعي، وعينا طبائعهم وقدرناهم بمقتضى إجابتهم المقرونة بإنكار الدعوة، وحكمنا عليهم بما اتصفوا به من الإنكار بعد البيان وهداية النجدين، بأنهم أهل النار، وطبعنا على قلوبهم بكفرهم بما كسبوا من هذه الاعتقادات وعملوا بمقتضاها، وختمنا على آذانهم وجعلنا على أبصارهم غشاوة حين أعرضوا عن آياتنا ولم يسمعوا مواعظنا، بل استعملوا آلات الدين للدنيا، فأولئك ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ حديثًا، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ آية، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ موعظة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ لما روي أنهم مساوون لهم لاشتراكهم في الأرواح الثلاثة، روح المدرج، وروح القوة، وروح الشهوة، فلا فرق بينهم وبين

=الوجود المنبسط على الظلمات الّتي هي الماهيّات، كان وجودا حقّا حقيقيّا والاّ لكان مفيض الكمال فاقدا له وهو باطل بالضرورة) شرح الأسماء الحسنى ص٢٣١ كلام في تجرد السبوح القدوس عن الماهية.

(١) السجدة ١٢.

الأنعام إلّا بروح الإيمان وليست فيهم ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ لأنهم أعطوا الفهم والعقل والتمييز ولم يعملوا بما أعطوا، ولم يشكروا شكر هذه النعمة، فسلبت عنهم التأييدات الإلهية والعنايات الربانية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[1] عما يراد منهم، وعن أن يخلقهم الله بقابلياتهم من الإجابات العملية والقولية خلقا لا يصلح إلّا للنار، ويصنعهم بما صنعوا، وهموا بما لم ينالوا صنعا كان مؤديا إلى جهنم خالدين فيها لسلوكهم في أعمالهم طريق ما خلقوا عليه، والذي خلقوا عليه هو ما أجابوا إليه مختارين، فحق عليهم حكم الله عز وجل في كتابه في هذه الآية وأمثالها، فكانت تلك الإجابات القبيحة موجبة لخلقهم كذلك ولا يظلم ربك أحدًا.

فإذا عرفت مراتب التوحيد الباطل وهي خمسة، فاعلم أن مراتب التوحيد الحق أيضا خمسة، وهي طرق الرضوان وأبواب الجنان، ولها أهل وسكان، وسنذكرها لك، وبينهما أي بين الخمسة الأولى المذكورة التي هي التوحيد الباطل، وبين الخمسة الأخر التي سنذكرها إن شاء الله التي هي التوحيد الحق توحيد متردد بين الحق والباطل، وهو طريق من يعتقد أن الله سبحانه معنى، فهم في ذلك على قسمين.

أحدهما: من يعتقد أنه عز وجل معنى كسائر المعاني، وهذا باطل، لأن المعنى مميز عن غيره بمشخصات معنوية، كما يتميز معنى البيت أعني ما يسكن فيه عن معنى الخاتم أعني الزينة، وأن العقل يفرق بين أحدهما من الآخر بمميزات معنوية، فهو محصور في العقل في جهة معنوية، ومن جهات العقل يومئ إليها بإشارة عقلية، وهذه

---

(١) الأعراف ١٧٩.

وأمثالها صفات الخلق المحدث، فلو عرف سبحانه بشيء من ذلك ونحوه لكان المعروف حادثًا.

بيان أسفل مراتب توحيد الحق

وثانيهما: من يعتقد أنه سبحانه معنى أي شيء، فإذا نزهه ذلك الذي عناه عن الجهات المعنوية والإشارات العقلية، ولو كان ذلك التنزيه حين يرجع إليه عقله كما هو حال سائر الغافلين، دخل في زمرة الموحدين، إلّا أن هذه المعرفة أسفل مراتب التوحيد، إذ لا يدخل في أهل الشهود الذين عناهم سيد الشهداء عليه السلام في حال طريقهم إلى المعبود بقوله عليه السلام: (أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُل عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ التِي تُوصِلُ إِلَيْكَ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيبًا وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبكَ نَصِيبًا)[1].

فإذا عرفت هذا فقول الصادق عليه السلام في جواب السائل حين سأله عن الله تعالى فقال: يا بن رسول الله دلني على الله ما هو فقد كثر علي المجادلون وحيروني.

فقال عليه السلام: (يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟.

قال: بلى.

قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغيثك؟.

قال: بلى.

قال: فهل تعلق قلبك هناك أن شيئًا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟.

---

(١) دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة.

قال: بلى.

قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي وعلى الإغاثة حين لا مغيث) إرشاد إلى هذا المعنى.

يعني أن ذلك الشيء المنزه عن جميع الجهات المعنوية والإشارات العقلية الذي تعلق قلبك به بعد انقطاعه عن جميع الأسباب المنجية، وفراغه عما سواه من الأشياء الملهية، هو الله الظاهر لك بك القادر على الإنجاء حين لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث، الذي لا يجوز أن يسمى بهذا الاسم إلّا هو، وهذا المعنى أي الشيء المنزه المذكور أول مراتب التوحيد الحق كما عرفت، وتوضيح هذا المقال وتفصيل ذلك الإجمال.

بيان إثبات وجود الصانع الحق

أنا نقول: أن الإمام عليه السلام أشار بقوله هذا إلى إثبات وجود الصانع الحق عز وجل، وإبطال كل مذهب من المذاهب الباطلة التي ذكرناها، وتشنيع كل معبود عُبِدَ من دون الله تعالى، ودل السائل على الله المعبود الحق الذي لا يحق العبادة إلّا هو، وهو أن كل شيء خلقه الله تعالى من الأشياء التي ظهرت في هذا العالم جعله سببًا من جهة ومسببًا من جهة أخرى، وعلة من وجه ومعلولًا من وجه آخر، ودليلًا لشيء ومدلولًا لشيء آخر، ليبين لخلقه طريق الصنع والإيجاد فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾[1] فلما أجرى حكمته على خلق الأشياء بالأسباب، فخلق الأسباب أولا

---

(١) الحج ٥.

وجعلها أسبابًا يخلق بها مسبباتها، وهو سبحانه أقرب إلى الأسباب من أنفسها وأقرب إلى مسبباتها منها ومن نفس المسببات، ليس لها تأثير إلّا به سبحانه بل ليس لها شيئية إلّا بفعله، (إذ كان الشيء من مشيته)[1]، تعلقت القلوب التي خلت عن ذكر الله بالأسباب الظاهرة وأنست بها، حتى جعلتها أربابًا من دون الله بما رأت عنها من آثار الربوبية كما أشرنا إليه مفصلًا عند ذكرنا للمذاهب الباطلة، فلما تعلقت قلوبهم بالأسباب ووجدوا أنفسهم محتاجة إليها عظموها في أنفسهم وعبدوها من دون الله تعالى، لأن الله سبحانه الذي هو السبب وسبب من ليس له سبب، ومسبب الأسباب من غير سبب، كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار، وبدت قدرته في خلق الأسباب ولم تبد هيئة، فلما اقتصر نظرهم إلى الأسباب الظاهرة فكان إذا وجد أحدهم سببًا يجد نفسه محتاجًا إليه تعلق قلبه به واطمأن إليه، فإذا خرج عن يده ذلك السبب انقطع تعلق قلبه به وتوجه إلى سبب آخر وتعلق قلبه به، وانقطع تعلق قلبه بالسبب الأول، فإذا خرج عن يده ذلك السبب أيضًا توجه قلبه إلى طلب سبب آخر فإذا وجده تعلق قلبه به واطمأن وإلا تزلزل واضطرب حتى وجد سببًا آخر، وهكذا كما هو حال أكثر الغافلين الناظرين إلى الأسباب المحجوبين عن رب الأرباب ومسبب الأسباب، فإذا ركب أحدهم سفينة مثلًا تعلق قلبه بالسفينة بأنها تنجيه من الغرق واطمأن إليها، فإذا كسرت به السفينة وكانت هناك سفينة أخرى تعلق قلبه بها وانقطع تعلق قلبه بالسفينة الأولى، فإن لم تكن هناك سفينة وكانت سباحة تعلق قلبه بالسباحة

---

(١) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢ ص٧٥٣ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير.

بأنها تغيثه وانقطع تعلق قلبه بالسفينة مطلقا لفقدانها، فإن لم يكن هناك سباحة أيضًا وكان شيء من الأسباب الظاهرة الذي احتمل أن يكون هو سبب نجاته تعلق قلبه به، فإن لم يكن هناك شيء من الأسباب فحينئذ كان لقلبه حالتان بمقتضى فطرته الأصلية الأولى التي فطره الله عليها وهي فطرة التوحيد والمعرفة، وفطرته المغيرة التي تغيرت بمداومة النظر إلى الأسباب الظاهرة وأنست بها حتى صارت له فطرة أخرى، فبالفطرة الأولى تعلق قلبه أن هناك شيئًا من الأشياء، أي مما يطلق عليه لفظ شيء يعني الشيئية وإن كانت بخلاف الأشياء، قادرًا على أن يخلصه من ورطته وهو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي وعلى الإغاثة حين لا مغيث، فإن دعاه بهذه الفطرة في هذه الحالة وهي حالة الاضطرار والانقطاع عما سواه أجابه الله تعالى فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، وبالفطرة الأخرى المغيرة نسي ذكر الله ويأس من رحمته كما يأس الكفار من أصحاب القبور وحيل بينهما الموج فكان من المغرقين لأنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم ربك.

فالدليل على وجود الصانع عز وجل تعلق القلب به عند انقطاع جميع الأسباب الظاهرة، لأنه تعالى لو لم يكن موجودا لوجب أن لا يبقى للقلب تعلق بشيء من الأشياء، إذ المفروض أن الأسباب الظاهرة كلها مفقودة، ولهذا انقطع تعلق القلب بها لفقدانها وبقي تعلق القلب بالشيء الذي هو الشيء بحقيقة الشيئية، وبالسبب الحقيقي الباطني الذي هو ليس كالأسباب الظاهرة، فإذًا لم يمكن أن تكون للقلب حالة يكون فيها خاليًا عن ذلك التعلق عند انقطاع جميع الأسباب التي يتعلق القلب بها عند وجودها، دل هذا على وجود المتعلَق بفتح اللام وهو الحق جل وعلا وهو الله سبحانه قال تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١] وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٢] وقال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣] أي في غيبتك وحضرتك، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[٤].

إبطال المذاهب الباطلة

وأما الدليل على إبطال تلك المذاهب وتشنيع المعبودين من دون الله الذي تضمنه قوله عليه السلام في جواب السائل بالإشارة، فهو أنا لما نظرنا إلى تلك الأسباب ووجدنا أن لها عدمًا ووجودًا، وغيبة وشهودًا، وأفولًا وغروبًا وطلوعًا، وتأثيرًا من جهة وتأثرًا من جهة أخرى، وانبساطًا من الفعل في وقت وانقباضًا في وقت آخر، ألا ترى أن النار التي تكون سببًا للإحراق كيف جعلها سبحانه بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام، والماء الذي يكون سببًا لدفع العطش كيف جعله الله تعالى سببًا لزيادة العطش، فقد روي أن رجلًا من عسكر ابن سعد عليه اللعنة والعذاب قال للحسين سيد الشهداء عليه السلام: يا حسين انظر إلى ماء الفرات كأنه بطون الحيات، فقال عليه السلام: اللهم أمته عطشانا، فغلب العطش على ذلك الخبيث فجاء إلى الفرات فأوقع نفسه فيه فلم يزل يشرب الماء وهو يزداد عطشًا حتى مات ودخل النار عطشانًا لعنه الله[٥].

---

(١) الحديد ٤.

(٢) طه ٤٦.

(٣) فصلت ٥٣.

(٤) الأنعام ٦٣ ـ ٦٤.

(٥) ورد في بحار الأنوار، ج٤٥ ص٥١ قال أبو الفرج: (قال وجعل الحسين عليه السلام=

وأنها علل وأسباب باعتبار، ومعلولات ومسببات باعتبار آخر، وأنها في تأثيرها تحتاج إلى أشياء أخر، كالأرض مثلا تحتاج في تأثيرها لإنبات النبات إلى الماء والهواء والرياح والشمس والقمر وحرث الحراث وبذر الزراع وغير ذلك من الأسباب.

وكذا الشمس والقمر في تأثيرهما تحتاجان إلى ما ذكرنا، وهكذا كل سبب من الأسباب لم يكن سببًا تامًا مستقلًا في تأثيره بل يحتاج إلى متممات أخر، فلما وجدناها كذلك علمنا أن تلك الأسباب مسخرات بأمر من هو مالك الملك ورب الأرباب ومسبب الأسباب، محتاجة إليه في جميع أحوالها، بل جعلها الله سبحانه محتاجة إلى المحتاجين إليها، ألا تنظر إلى الملوك المتعظمين مع احتياج الناس إليهم كيف يحتاجون إلى الناس في جميع أحوالهم، وإلى ذي مالٍ وثروةٍ يحتاج إليه الناس في وقت كيف يصير محتاجًا إليهم في وقت آخر.

فالسفينة لو كانت سببًا لنجاة أهلها فلِمَ تنكسر بنفسها وتغرق بأهلها، والسباحة إن كانت سببًا لإنجاء غيرها فلِمَ تغرق في بعض الأحيان ولم تنج نفسها، فالأسباب كلها مخلوقة مربوبة فقيرة وفي الدعاء: (وأشهد أن كل معبود مما دون عرشك إلى قرار أرضك السابعة السفلى باطل مضمحل ما عدا وجهك الكريم)[1] الدعاء.

=يطلب الماء وشمر يقول له: والله لا ترده أو ترد النار، فقال له رجل: ألا ترى إلى الفرات يا حسين كأنه بطون الحيتان، والله لا تذوقه أو تموت عطشًا، فقال الحسين عليه السلام: اللَّهُمَ أَمِتْهُ عَطَشًا، قال: والله لقد كان هذا الرجل يقول اسقوني ماء فيؤتى بماء فيشرب حتى يخرج من فيه ثم يقول اسقوني قتلني العطش فلم يزل كذلك حتى مات).

(١) تقدم تخريجه.

وقال سيد الساجدين عليه السلام في دعاء الصباح والمساء: (اللهُم فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا فَلَقْتَ لَنَا مِنَ الْإِصْبَاحِ، وَمَتعْتَنَا بِهِ مِنْ ضَوْءِ النهَارِ، وَبَصرْتَنَا مِنْ مَطَالِبِ الْأَقْوَاتِ، وَوَقَيْتَنَا فِيهِ مِنْ طَوَارِقِ الْآفَاتِ. أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَتِ الْأشياء كُلهَا بِجُمْلَتِهَا لَكَ، سَمَاؤُهَا وَأرضهَا، وَمَا بَثَثْتَ فِي كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا، سَاكِنُهُ وَمُتَحَركُهُ، وَمُقِيمُهُ وَشَاخِصُهُ وَمَا عَلَا فِي الْهَوَاءِ، وَمَا كَن تَحْتَ الثرَى، أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ يَحْوِينَا مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَتَضُمنَا مَشِيتُكَ، وَنَتَصَرفُ عَنْ أَمْرِكَ، ونَتَقَلبُ فِي تَدْبِيرِكَ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ إِلا مَا قَضَيْتَ، وَلَا مِنَ الْخَيْرِ إِلا مَا أَعْطَيْت)[1] الدعاء.

فليس شيء منها يأتي منه الربوبية أو كانت له صفة من صفات الألوهية أو يستحق العبادة، أو يجوز أن يسمى بالله الذي هو اسم لمن لا يحق العبادة إلّا له، أو يكون له شريك في السموات والأرض، قال الله سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[3].

مما ذكرنا في تفسير قوله عليه السلام في جواب السائل دليل تام على إثبات الوجود الحق الذي يسمى بالله، وعلى إبطال مذهب كل من جحد وأنكر وجود الصانع عز وجل واتخذ إلها دونه أو معه.

فالله اسم للذات الظاهرة بالألوهية الموصوف بجميع صفات الكمال، المنزه عن كل ما يستلزم النقصان، فصار في الاستعمال

---

(١) الصحيفة السجادية، ص٤٨.

(٢) المؤمنون ٩١.

(٣) الأنبياء ٢٢.

التغليبي عَلَمًا لتلك الذات الذي يتأله إليه كل مخلوق عند الحوائج والشدائد إذا انقطع الرجاء من كل من دونه وتقطع الأسباب من جميع ما سواه، يقول بسم الله أي أستعين على أموري كلها بالله الذي لايحق العبادة إلّا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي، ومعنى يتأله إليه يفزع إليه ويلتجأ ويسكن.

بيان مراتب التوحيد الحق

وأما مراتب التوحيد الحق التي وعدناك وقلنا لك سنذكرها إن شاء الله فهي خمسة.

قال الشيخ أعلى الله مقامه في الفوائد: (والخمسة الأخر هي مراتب الفعل الأربع الأول، والدواة الأولى خامسه التي هي معرفة النفس، التي هي معرفة الرب، فأعلاها في التوحيد أن يظهر لعبده في الرحمة، ثم في الرياح، ثم السحاب المسجى، ثم السحاب المتراكم، ثم في المداد الأول المسمى بالدواة الأولى).

ثم قال الشيخ أعلى الله مقامه في شرح الفوائد: (أقول: المراد بهذه الخمس المراتب مراتب المعرفة بالنسبة إلى العارفين، لأن حقيقة معرفة العبد هي ما ظهر به الرب له من وجوده، فحقيقة المعرفة حقيقة العارف من ربه يعني ظهوره تعالى لعبده به، وذلك الظهور أثر لفعل الظاهر، والأثر مشابه لصفة المؤثر التي هي مبدؤه ومنشؤه، وقد قال الرضا عليه السلام: (قد علم أولوا الألباب أن ما هنالك لا يعلم إلّا بما ها هنا) فإذا اعتبرنا الأثر وجدناه في نفسه وظهوره له خمس مراتب، أربع تنسب إليه وواحدة إلى أثره، لأنه قبل الظهور يعتبر فيه البطون وهي الأولى، ومن حيث البطون هي الثانية، والظاهر هي الرتبة

الثالثة، ومن حيث الظهور هي الرابعة، وهذه الأربع مراتب للشيء قبل الظهور تنسب إليه بنفسه وإن كان اعتبارها إنما هو من جهة اتصافه بالظهور، والخامسة هي الظهور الذي هو هيئة الفعل، وهيئة الفعل منها ما هو متصل به وهو الذي تلبس الفعل به لا ينفك منه، ومنها ما هو منفصل عن الفعل وهو المعبر عنه بالأثر وبالمعلول، ونظر المعلول إلى علته أعني الوجه المتصل بالفعل الذي لا ينفك عنه أعلى من نظره إلى نفسه من حيث كونه أثرًا ومعلولًا، وهذه الأربعة أعني الباطن، ومن حيث الباطن والظاهر، ومن حيث الظاهر، التي هي أسماء الفاعل مركبة ومتقومة من الأثر الذي به الظهور، ومن المؤثر الذي هو فعل الظاهر، فيكون هذا المركب اسما للظاهر يعرف به ويتميز به عند العارف به، وقد تقدم أن هذا الفعل الذي قلنا إنه المؤثر له أربع مراتب، النقطة والألف والحروف والكلمة، والمركب من الأثر والفعل الذي قلنا أنه المؤثر له أربع مراتب، فالنقطة مع البطون هو الأولى وهو أعلى الأسماء، والألف مع مع حيثية البطون هو الثاني، والحروف مع الظهور هو الثالث، والكلمة مع حيثية الظهور هو الرابع، وهذه الأسماء الأربعة هي المقامات والعلامات التي بها يعرف تعالى، وهي ما ذكره الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب: (وَمَقَامَاتِكَ التِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُل مَكَانٍ يَعْرِفُكَ بِهَا مَنْ عَرَفَكَ لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلا أَنهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ فَتْقُهَا وَرَتْقُهَا بِيَدِكَ بَدْؤُهَا مِنْكَ وَعَوْدُهَا إِلَيْكَ أَعْضَادٌ وَأَشْهَادٌ وَمُنَاةٌ وَأَذْوَادٌ وَحَفَظَةٌ وَرُوادٌ فَبِهِمْ مَلَأْتَ سَمَاءَكَ وَأرضكَ حَتى ظَهَرَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا أَنْت)[1] الدعاء، فالعارف

(١) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢ ص٨٠٣ أول يوم من رجب. الإقبال بالأعمال الحسنة، ج٣ ص٢١٤.

بالأول أعلى من العارف بالثاني، وهذا الثاني أعلى من العارف بالثالث، والعارف بالثالث أعلى من العارف بالرابع، فإن اعتبرت هذا في الصفات العليا الكلية الكبرى العامة المطلقة تعين العارفون بها، فلا يصل إلى الأول إلّا محمد صلى الله عليه وآله، ولا إلى الثاني إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام، وهكذا.

وإن اعتبرت هذا في ما دون ذلك من الصفات كصفات الصفات سواء كانت كلية إضافية أو جزئية، تفاوتت فيها مراتب العارفين كالأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء، وقيمة كل امرئ ما يحسنه.

وقولي: ونظر المعلول إلى علته إلى آخره، أريد بالعلة الاسم المركب من الأثر والمؤثر لا خصوص المؤثر الذي هو الفعل، إذ لا يوجد هناك عارف غير الفعل نفسه بنفسه فافهم.

وأريد بالمداد الأول المسمى بالدواة الأولى الأثر نفسه المعبر عنه بالوجود الممكن الراجح المثبوت، والعارف به ناظر إليه نفسه بمعنى أنه أثر وصفة وظل الفعل وما أشبه ذلك، وهذا طريق عال من طرق المعارف، إلّا أن الأربعة الأُوَل أعلى، لأن العارف هنا ناظر إلى نفسه من حيث أنه أثر وصنع، وهو المراد من قوله عليه السلام: (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

وفي الأربعة الأُوَل ناظر إلى علته، ونظره إلى علته أعلى من نظره إلى نفسه، وأريد بالنظر إلى نفسه من حيث هو أثر هنا الاحتراز عن النظر إلى نفسه من حيث هو هو، فإنه حينئذ جاهل لا يجد شيئًا لأنه سراب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾.

واعلم أنك لو أردت بالمداد الأول والدواة الأولى أرض الجرز والقابليات جاز ذلك وصدق عليه الاسم، إلّا أن إرادة كونه الوجود الراجح الممكن أولى.

واعلم أن هذا الوجود نور الأنوار وقد يذكر في الأخبار بالنور الذي تنورت منه الأنوار والحقيقة المحمدية.

وقولي فأعلاها في التوحيد أن يظهر لعبده في الرحمة إلى آخره، أريد به سبحانه يظهر لعبده بفعله أي بمفعوله الذي هو عبده، ونسبة مراتب المعرفة بعضها إلى بعض في القرب والشرف نسبة الظهور إلى مراتبه، فالظهور في الرحمة أعلى من الظهور بالألف، والظهور به أعلى من الظهور بالحروف، والظهور بها أعلى من الظهور بالكلمة، والظهور بها أعلى من الظهور بالوجود، والظهور به أعلى من الظهور بأرض الجرز، فالأربعة الأُوَل والخامس الذي هو الوجود أعلى المعارف وهي المشار إليها بالهاء، قال عليه السلام في تفسير الهاء من هو تثبيت الثابت)[1] انتهى كلامه أعلى مقامه في شرح الفوائد.

وإنما ذكرته بطوله لما فيه من الفوائد فإنه تمام في بيان مراتب التوحيد الحق فافهم.

فائدة شريفة

وفي المعاني عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى عَمنْ حَدثَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنهُ سُئِلَ عَنْ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ.

فَقَالَ: (الْبَاءُ بَهَاءُ اللهِ وَالسينُ سَنَاءُ اللهِ وَالْمِيمُ مُلْكُ اللهِ.

قَالَ: قُلْتُ اللهُ.

قَالَ: الْأَلِفُ آلَاءُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ النعِيمِ بِوَلَايَتِنَا وَاللامُ إِلْزَامُ اللهِ خَلْقَهُ وَلَايَتَنَا.

---

(١) تراث الشيخ الأوحد، ج١٣ ص٤٢ ـ ٤٦.

قُلْتُ: فَالْهَاءُ.

قَالَ: هَوَانٌ لِمَنْ خَالَفَ مُحَمدًا وَآلَ مُحَمدٍ ﷺ .

قَالَ: قُلْتُ الرحْمَنُ.

قَالَ: بِجَمِيعِ الْعَالَمِ.

قُلْتُ: الرحِيمُ.

قَالَ: بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصةً)[1].

(١) معاني الأخبار، ص٣ باب معنى بسم الله الرحمن الرحيم. تفسير القمي، ج١ ص٢٨.

تفسير الاسم الكريم وهو (الله)

أقول: معنى قوله عليه السلام: (الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم ملك الله) فقد تقدم ذكره فراجع.

وأما قوله عليه السلام: (الألف آلاء الله على خلقه من النعيم بولايتنا... إلى آخره) إشارة إلى وجه تسميته جل جلاله بهذا الاسم الجليل وهو أن هذا الاسم مشتمل على ثلاثة حروف.

الأول: الألف وهو إشارة إلى آلاء الله تعالى على خلقه من النعيم بولايتهم، والنعيم هنا يشمل جميع ما أنعم الله تعالى به على خلقه في الغيب والشهادة، وما أسبغ عليهم من نعمه ظاهرة وباطنة، ومرادنا بما أنعم عليهم في الغيب والشهادة نعم الوجود، وبما أسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة نعم التكليف، والأول يلزمه الشرع، والثاني يلزمه الوجود، فمن النعم في الغيب خلقه تبارك وتعالى لروحانية وجودهم في عالم الغيب من الماء الأول الإلهي الذي به حياة كل شيء، إلى أن وصلوا إلى عالم الشهادة فخلقهم منه ومن لطيف أرض الإمكان نطفة معنوية، ثم علقة ظلية ورقيقة روحية، ثم مضغة صورية، ثم كيفية طبيعية، ثم مادة نورية، ثم أشباحا مثالية، فهذه ستة أطوار من الوجود في عالم الغيب.

ثم حملهم على أجنحة الملائكة، ثم أمر الملائكة بإلقائهم إلى

الرياح، ثم إلى السحاب، ثم إلى الماء الثاني الذي هو وجه ذلك الماء الأول وظاهره، ثم إلى الأرض والتراب التي هي وجه تلك الأرض وظاهرها، ثم إلى النبات، فهذه ستة أطوار من الوجود.

ثم خلقهم مما نزل من أصلاب الآباء وترائب الأمهات إلى أرض الأرحام نطفة ظاهرية، ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم لحمًا ثم أنشأهم خلقًا آخر وهو الحياة، فهذه ستة أطوار من الوجود في عالم الشهادة.

ثم أخرجهم طفلًا إلى الدنيا وهو أول سنة وجودهم، ثم خلقهم في الفصول الأربعة، ثم أماتهم بعد تمام سنتهم وأقبرهم، فهذه ستة أطوار من الوجود في عالم الشهادة.

فبعض هذه الأطوار في الغيب، وبعضها في الشهادة، وبعضها في البرزخ بينهما، وهي أربعة وعشرون طورًا من الوجود قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1].

ومن نعم الوجود التي أنعم الله تعالى عليهم في الغيب ما خلق لهم من الحواس الباطنة، وشواعر الذكر ومشاعر الفكر وآلات الحفظ وغير ذلك من القوى الروحانية.

ومن نعم الوجود التي أنعم الله تعالى بها عليهم في الشهادة ما خلق لهم من الحواس الظاهرة وآلات البسط وأدوات القبض، وجوارح الأعمال، وتعديل الخلقة وحسن الصورة، ومنها ما سخر الله تعالى لهم من سمائه وأرضه، وما خلق لهم فيهما مما يتم به نظام أمرهم وأسباب معاشهم.

---

(١) نوح ١٣ ـ ١٤.

والمراد بنعم التكليف ما كلفهم به من العبادات، وصحيح الاعتقادات، ومكارم الأخلاق، وصوالح الأعمال، ومحاسن الآداب، وكرائم الأفعال والأقوال، مما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، ومنها إرسال الأنبياء والرسل إليهم، وإنزال الصحائف والكتب عليهم، وتأمير الأوصياء واستحفاظ الحفظة واستخلاف الخلفاء، وإنابة العلماء، وإقامة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمعلمين للمتعلمين، والمرشدين للمسترشدين، وجعل القرى الظاهرة بينهم وبين القرى المباركة، وأمرهم بالسير فيها ليالي وأيامًا آمنين، وكذلك جميع الدعاة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وكل هذه من النعم الظاهرة التي أسبغها عليهم.

وأما النعم الباطنة إرسال ما يهديهم إلى طرق المعارف والاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة والأخلاق الرغيبة إليهم، وهي العقول التي بها يعرف الجيد من الردي والخير من الشر، والناصح من الغاش، والمصلح من المفسد، والضار من النافع، وإرادة العاجلة من إرادة الآخرة، وهذه العقول لحظات عنايات منهم عليهم السلام للمؤمنين، ومناداة منهم عليهم السلام للمكلفين من الجانب اليمين، وهي أعظم النعم السابغة وأنفعها لمن لم يخالف مقتضياتها، بل هو النور الذي يخرجهم الولي من ظلمات شهوات نفوسهم وغواسق إنياتهم وكدورات طبائعهم وأرض عاداتهم إليه، فهم يمشون به في تلك الظلمات، فالعقل شرع ورسول في الباطن كما أن الرسول عقل وشرع في الظاهر، فقد ورد عنهم عليهم السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[١] أن المراد بالنعم الظاهرة الأنبياء والرسل والإمام الظاهر، والباطنة العقول والإمام الغائب.

وورد أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢] أن المراد به العقل، فأطلق الرسول على العقل كما أطلق العقل على الرسول.

فنعم التكليف الظاهرة والباطنة روح لنعم الوجود في الغيب والشهادة، وبهاتين النعمتين اللتين أنعم الله بهما عليهم في الدنيا أي نعمة الوجود في الغيب والشهادة، ونعمة التكليف الظاهرة والباطنة، يخلق الله تعالى لمن لم يبدلوا نعمة الله في دار الدنيا ولم يحلوا قومهم دار البوار نعيم الآخرة، ويتم نعمته عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإلى هذه النعم كلها أشار أمير المؤمنين عليه السلام كما في الأمالي والمناقب عن مولانا الباقر عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: (قُلْ مَا أَولُ نِعْمَةٍ بَلَاكَ اللهُ عَز وَجَل وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِهَا.

قَالَ عليه السلام: أَنْ خَلَقَنِي جَل ثَنَاؤُهُ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الثانِيَةُ.

قَالَ: أَنْ أَحْسَنَ بِي إِذْ خَلَقَنِي فَجَعَلَنِي حَيًا لَا مَيتًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الثالِثَةُ.

قَالَ: أَنْ أَنْشَأَنِي فَلَهُ الْحَمْدُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَعْدَلِ تَرْكِيبٍ.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الرابِعَةُ.

---

(١) لقمان ٢٠.

(٢) الإسراء ١٥.

قَالَ: أَنْ جَعَلَنِيَ مُتَفَكرًا رَاغِبًا [لَا بُلَهَةً][1] سَاهِيًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الْخَامِسَةُ.

قَالَ: أَنْ جَعَلَ لِي شَوَاعِرَ أُدْرِكُ مَا ابْتَغَيْتُ بِهَا، وَجَعَلَ لِي سِرَاجًا مُنِيرًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا السادِسَةُ.

قَالَ: أَنْ هَدَانِي الله لدينه وَلَمْ يُضِلنِي عَنْ سَبِيلِهِ.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا السابِعَةُ.

قَالَ: أَنْ جَعَلَ لِي مَرَدًا فِي حَيَاةٍ لَا انْقِطَاعَ لَهَا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الثامِنَةُ.

قَالَ: أَنْ جَعَلَنِيَ مُلْكًا مَالِكًا لَا مَمْلُوكًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا التاسِعَةُ.

قَالَ: أَنْ سَخرَ لِي سَمَاءَهُ وَأرضهُ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَلْقِهِ.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الْعَاشِرَةُ.

قَالَ: أَنْ جَعَلَنَا سُبْحَانَهُ ذُكْرَانًا قواما على حلائلنا لَا إِنَاثًا.

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا بَعْدَ هَذَا.

قَالَ: كَثُرَتْ نِعَمُ اللهِ يَا نَبِي اللهِ فَطَابَتْ، وَتَلَا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ فَتَبَسمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: لِتَهْنِكَ الحكمة يا علي، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْحَسَنِ، وَأَنْتَ وَارِثُ عِلْمِي، وَالْمُبِينُ لِأُمتِي مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ مِنْ بَعْدِي)[2]. الحديث.

---

(١) ساقطة من المخطوط.

(٢) الأمالي (للطوسي) ص٤٩٢ المجلس السابع عشر.

أقول: قوله عليه السلام: (وجعل لي سراجًا منيرًا) يعني الرسول صلى الله عليه وآله في الظاهر والعقل في الباطن، ولهذا ذكر عليه السلام بعد هذه النعمة العظمى خاصتيهما فقال السادسة: (أَنْ هَدَانِي الله لدينه وَلَمْ يُضِلنِي عَنْ سَبِيلِهِ) فافهم.

وقوله عليه السلام في العاشرة: (أَنْ جَعَلَنَا سُبْحَانَهُ ذُكْرَانًا قوامًا على حلائلنا لَا إِنَاثًا) حيث جعل هذه النعمة في الذكر آخر النعم التي ذكرها إشارة إلى أن ما عدا هذه النعمة مشترك بين الذكران والإناث، وأما هذه النعمة أي الذكورية مختصة بالرجال، هذا في الظاهر، وأما في الباطن فهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾[1] ولهذا جعل هذه النعمة غاية النعم، ويحتمل أن يكون اسم رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الإشارات.

وفي قوله عليه السلام في التاسعة: (أَنْ سَخرَ لِي سَمَاءَهُ وَأرضهُ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَلْقِهِ) بضمير المتكلم وحده، وفي العاشرة جعلنا ذكرانا بذلك الضمير مع الغير سر لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه ولطف حسه، ويرشد إليه قوله تعالى: (خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك)، وقوله عليه السلام: (نحن صنايع الله والخلق بعد صنايع لنا)[2] فافهم.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن تلك النعم المذكورة غيبها وشهادتها وظاهرها وباطنها وغيرها من النعم التي لا تحصى، بل إن تعدوا نعمة واحدة منها لا تحصوها، كلها عن ولايتهم عليهم السلام وبولايتهم ومن

---

(١) النساء ١١٧.

(٢) مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، ص٦١.

ولايتهم ولِولايتهم وفي ولايتهم وإلى ولايتهم، وهم عليهم السلام أولياء تلك النعم، فإن إيجاد الخلق ووجوداتهم وما تضمنت من الشرعيات الوجودية، وتكاليف المكلفين وما لزمتها من الوجودات الشرعية، كلها آثار ولايتهم التي هي ولاية الله، وهي نعم جليلة لا يقوم بها خلق، بل كل الخلائق مقصرون فيها عاجزون عن أداء شكر خفي نعمة منها، وهي ممادحهم وفضائلهم مكتوبة في ألواح الوجود من الأجساد والأجسام والأشباح والطبائع والنفوس والأرواح والعقول والأفئدة، تظهر آثارها في المعارف والاعتقادات والأخلاق والأحوال والأمثال والأقوال والأعمال والأفعال والحركات والسكنات، كل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله، وكل يعمل على شاكلته، وكل قد علم صلاته وتسبيحه، وكل يسبح بحمد ربه بما أوتي ولكن الناس لا يفقهون تسبيحه، فإن جعل الله لك أذنًا سميعة وعينًا بصيرة، لا تسمع إلّا أصوات الشاكرين لتلك النعم، ولا ترى إلّا أشباح المادحين لتلك الآلاء، ففي الكافي عن أبي يوسف البزاز قال تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: (أَتَدْرِي مَا آلَاءُ اللهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: هِيَ أَعْظَمُ نِعَمِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَهِيَ وَلَايَتُنَا)(١).

وفيه عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ غَيرُوا سُنةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَعَدَلُوا عَنْ وَصِيهِ لَا يَتَخَوفُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ثُم تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ﴾ ثُم قَالَ نَحْنُ النعْمَةُ التِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ وَبِنَا يَفُوزُ مَنْ فَازَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(٢).

---

(١) الكافي، ج١ ص٢١٧ باب أن النعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الأئمة عليهم السلام.

(٢) الكافي، ج١ ص٢١٧ باب أن النعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الأئمة عليهم السلام.

فالنعمة المتأصلة الحقيقية هم عليهم السلام، وأما من سواهم من الأولين والآخرين، بل جميع المخلوقات من أهل الأرضين والسموات فمن فاضل تلك النعم، نعم وجودهم في الغيب والشهادة، ونعم تكليفهم ظاهرة وباطنة، فذواتهم من فاضل أشعة أنوار ذواتهم، وطاعاتهم وحسناتهم من فاضل طاعاتهم وحسناتهم، وذلك كله ولايتهم ومن ولايتهم وبولايتهم وإلى ولايتهم، وهم أولياء ذلك كله، فالألف من لفظ الله وهو الحرف الأول إشارة إلى تلك الآلاء والنعم التي أنعم الله على خلقه بولايتهم، وهي ـ أي تلك الآلاء والنعم ـ مظهر معناه أي معنى الألف.

وأما الحرف الثاني وهو اللام قال عليه السلام: (إلزام الله خلقه ولايتنا) يعني أن الله عز وجل ألزم خلقه ولايتنا، وأوجب عليهم طاعتنا، كما ألزمهم ولايته وولاية رسوله صلى الله عليه وآله، وأوجب عليهم طاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله، ففي الكافي عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي الْعَلَاء قَالَ: ذَكَرْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَوْلَنَا فِي الْأَوْصِيَاءِ إِن طَاعَتَهُمْ مُفْتَرَضَةٌ قَالَ فَقَالَ: (نَعَمْ هُمُ الذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وَهُمُ الذِينَ قَالَ اللهُ عَز وَجَلَ إِنما وَلِيكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُو)[1].

وفيه عَنْ بَشِيرٍ الْعَطارِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: (نَحْنُ قَوْمٌ فَرَضَ اللهُ طَاعَتَنَا وَأَنْتُمْ تَأْتَمونَ بِمَنْ لَا يُعْذَرُ الناسُ بِجَهَالَتِهِ)[2].

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: (وآتيناهم ملكًا عظيمًا، قال: الطاعة المفترضة)[3].

---

(١) الكافي، ج١ ص١٨٧ باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام.

(٢) الكافي، ج١ ص١٨٦ باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام. الأصول الستة عشر، ص٢٤٧.

(٣) الكافي، ج١ ص١٨٦ باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام.

وفيه عن محمد بن زيد الطبري قال كنت قائمًا على رأس الرضا عليه السلام بِخُرَاسَانَ وَعِنْدَهُ عِدةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَفِيهِمْ إِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيسَى الْعَبَاسِي فَقَالَ: (يَا إِسْحَاقُ بَلَغَنِي أَن الناسَ يَقُولُونَ إِنا نَزْعُمُ أَن الناسَ عَبِيدٌ لَنَا لَا وَقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله مَا قُلْتُهُ قَط وَلَا سَمِعْتُهُ مِنْ أحد من آبَائِي قَالَهُ وَلَا بَلَغَنِي عَنْ أَحَدٍ مِنْ آبَائِي قَالَهُ وَلَكِنِي أَقُولُ الناسُ عَبِيدٌ لَنَا فِي الطاعَةِ مَوَالٍ لَنَا فِي الدينِ فَلْيُبَلغِ الشاهِدُ الْغَائِبَ)[1].

أقول: يريد عليه السلام أن الناس ليسوا لنا عبيدًا يجب عليهم أن يعبدونا من دون الله أو مع الله تعالى، لأن العبودية بهذا المعنى أي بمعنى وجوب العبادة على العبد بغير إشراك بعبادته أحدًا لمن يستحقها، وهو السيد الحقيقي الذي خلق العبد ولم يكن له شريك في خلقه، ليست إلّا لله تعالى، ونسبتها إلى غيره تعالى فيه مفسدة، وأما بعد ذلك المعنى فالناس عبيد لنا بكل وجه، يجب عليهم طاعتنا في كل شيء، ولهذا قال عليه السلام: (فليبلغ الشاهد الغائب) يعني لا مفسدة فيه، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]، فألزم الله خلقه ولايتهم، وفرض عليهم طاعتهم.

---

(١) الكافي، ج١ ص١٨٧ باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام.
(٢) آل عمران ٦٤.
(٣) آل عمران ٧٩ ـ ٨٠.

في الكافي عن أبي سلمة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: (نَحْنُ الذِينَ فَرَضَ اللهُ طَاعَتَنَا لَا يَسَعُ الناسَ إلا مَعْرِفَتُنَا وَلَا يُعْذَرُ الناسُ بِجَهَالَتِنَا مَنْ عَرَفَنَا كَانَ مُؤْمِنًا، وَمَنْ أَنْكَرَنَا كَانَ كَافِرًا وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ يُنْكِرْنَا كَانَ ضَالا حَتى يَرْجِعَ إِلَى الْهُدَى الذِي افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِنَا الْوَاجِبَةِ فَإِنْ يَمُتْ عَلَى ضَلَالَتِهِ يَفْعَلِ اللهُ بِهِ مَا يَشَاءُ)[١].

وأما الحرف الثالث فهو الهاء، قال عليه السلام: (هوان لمن خالف محمدًا وآل محمد صلوات الله عليهم)[٢].

أقول: إن الله تعالى لما أنعم على خلقه في تكوينهم في الخلق الأول الذي كان الناس فيه أمة واحدة، وقبلوا جميعا هذه النعم الظاهرة، وهي نعم الوجود في الغيب والشهادة، وهم عليهم السلام نعمه التي لا تحصى، وبهم أنعم الله تعالى على من سواهم في جميع وجوداتهم، كذلك أجرى حكمته وأمضى كلمته، وأظهر مشيئته، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٣]، ثم ألزم خلقه ولايتهم، وأوجب عليهم طاعتهم بحقيقة ما هم عليهم السلام أهله في الخلق الثاني، وهو خلق التكليف، كما ألزم خلقه ولايتهم عليهم طاعتهم لقبول الكون في الخلق الأول وهو خلق التكوين، خلق باطن من التزم ولايتهم وقبل طاعتهم في الخلق الثاني طيبًا وجعل باطنه إنسانًا، كما جعل ظاهره كذلك، وكرمه تكريمًا، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا، وجعل له في الدنيا حياة طيبة، وجعل مرده في الآخرة إلى حياة لا انقطاع لها، وكل ذلك لقبوله ولايتهم والتزام لطاعتهم.

---

(١) الكافي، ج١ ص١٨٧ باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام.

(٢) التوحيد (للصدوق) ص٢٣٠ باب معنى بسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) الأنبياء ٢٣.

وخلق باطن من لم يقبل ولايتهم ولم يلتزم طاعتهم خبيثًا، وجعل باطنه حيوانًا أو شيطانًا بمقتضى إجابته في الخلق الثاني، وجعل له في الدنيا حياة خبيثة هي الموت حقيقة، قال تعالى في حقهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[1]، وجعل له مردا في الآخرة إلى الهلاك الأكبر وعذاب لا انقطاع له، وكل ذلك لعدم قبوله ولايتهم، وتركه طاعتهم، وهذا معنى قوله عليه السلام: (الهاء هوان لمن خالف محمدا وآل محمد صلوات الله عليهم)، ومن الهوان لهم أن قال لبعضهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2]، فمسخوا على صورة القردة ظاهرًا وباطنًا، وبعضهم مسخ على تلك الصورة باطنًا لا ظاهرًا لحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[3]، وجعل بعضهم خنازير، ومسخ بعضهم على صور الحيات والعقارب وغير ذلك من صور المسوخات بحسب اعتقاداتهم وأعمالهم التي هي أسباب المسخ، ومن الهوان أن لعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأمر عباده المؤمنين بلعنهم وبالبراءة منهم، وجعل البراءة منهم شرطًا لقبول إيمانهم، ومن هوانهم أن ذكرهم الله في كتابه وسماهم بأبغض الأسماء إليه وكنى عنهم بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام والفحشاء والمنكر، وغير ذلك من الأشياء القبيحة والأسماء المبغوضة، وجعل مثلهم كمثل الكلب[4]

---

(١) النحل ٢١.

(٢) البقرة ٦٥.

(٣) طه ١٥.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٧٦.

والعنكبوت[١] والمرأة الحمقاء[٢] التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، وغير ذلك مما جعله الله تعالى مثلًا لهم، هذا هوانهم في الدنيا.

وأما هوانهم في الآخرة فغير موصوف، وقد أشار الباقر عليه السلام إليه كما في المجالس عن عمرو بن ثابت عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: (إِن أَهْلَ النارِ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا كَمَا يَتَعَاوَى الْكِلَابُ وَالذئَابُ مِما يَلْقَوْنَ مِنْ أَلَمِ الْعَذَابِ مَا ظَنكَ يَا عَمْرُو بِقَوْمٍ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَففُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا عِطَاشٍ فِيهَا جِيَاعٍ كَلِيلَةٍ أَبْصَارُهُمْ صُم بُكْمٍ عُمْيٍ مُسْوَدةٍ وُجُوهُهُمْ خَاسِئِينَ فِيهَا نَادِمِينَ مَغْضُوبٍ عَلَيْهِمْ فَلَا يُرْحَمُونَ وَمِنَ الْعَذَابِ فَلا يُخَففُ عَنْهُمُ وَفِي النارِ يُسْجَرُونَ وَمِنَ الْحَمِيمِ يَشْرَبُونَ وَمِنَ الزقومِ يَأْكُلُونَ وَبِكَلَائِبِ النارِ يُحْطَمُونَ وَبِالْمَقَامِعِ يُضْرَبُونَ وَالْمَلَائِكَةُ الْغِلَاظُ الشدَادُ لَا يَرْحَمُونَ فَهُمْ فِي النارِ يُسْحَبُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ وَمَعَ الشيَاطِينِ يُقَرنُونَ وَفِي الْأَنْكَالِ وَالْأَغْلَالِ يُصَفدُونَ إِنْ دَعَوْا لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُمْ وَإِنْ سَأَلُوا حَاجَةً لَمْ تُقْضَ لَهُمْ هَذِهِ حَالُ مَنْ دَخَلَ النارَ)[٣].

أقول: هذه حال من دخل النار ممن خالف محمدًا وآل محمد

---

(١) قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت ٤١.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ النحل ٩١.

(٣) الأمالي (للصدوق)، ص٥٥٧ المجلس الثاني والثمانون. روضة الواعظين وبصيرة المتعظين ج٢ ص٥٠٨ مجلس في ذكر جهنم وكيفيتها.

صلوات الله عليه وعليهم، فهذه حاله في الآخرة، وتلك حاله في الدنيا، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين والهوان المهين.

فإذا عرفت ما تشير إليه تلك الحروف الثلاثة، أعني الألف واللام والهاء، التي يجمعها الاسم الكريم الذي هو الله، فقد عرفت وجه تسميته تعالى به، فإن ألوهيته تعالى على هذا لها ثلاث أركان.

الأول: إنعامه تعالى على جميع خلقه بما أفاض عليهم من نعم الوجود في الغيب والشهادة، وبما أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة من نعم التكليف بولايتهم.

والثاني: إلزام الله تعالى خلقه ولايتهم وفرضه تعالى عليهم طاعتهم.

والثالث: إهانة الله تعالى لمن خالفهم.

فبهذه الأركان الثلاثة تمت الألوهية، وظهر وجه التسمية، فافهم.

وقولي ظهر وجه التسمية لا أريد به أن وجهها منحصر في هذا، بل أريد أنه وجه من وجوهها كما ستعرف بعض تلك الوجوه إن شاء الله تعالى.

بيان مبدأ اشتقاق الاسم الكريم

فنقول: قد اختلف في هذا الاسم الكريم بأنه مشتق أو مرتجل، فقال الخليل بن أحمد أنه مرتجل لقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1] ولأنه لو حكمنا باشتقاق كل اسم لزم الدور أو التسلسل، فلا بد أن تؤول الأسماء إلى جامد، ولأن يكون هو الاسم الكريم أولى.

---

(١) مريم ٦٥.

والحق أنه مشتق، واختلف فيما اشتق منه، فقيل: أنه مشتق من لاه بمعنى غاب، لأنه لا تدركه الأبصار.

وقيل: من لاه بمعنى بعد لبعد كنهه عن الإدراك.

وقيل: من أله بالمقام إذا أقام به، لعدم تغيره وتنقله.

وقيل: من لاه يلوه بمعنى ارتفع، لارتفاع عز جلاله عن تمييز الوصف.

وقيل: من وله الفصيل بأمه إذا ولع بها، لأن العباد مولهون أي مولعون بالتضرع إليه تعالى.

وقيل: من أله بمعنى فزع، لأن الخلق يفزعون إليه.

وقيل: من أله بمعنى سكن، لأن الخلق يسكنون إلى ذكره.

وقيل من الإلهية وهي القدرة على الاختراع.

وقيل: من أله بمعنى عُبِد، والإله هو المستحق للعبادة، أو المألوه أي المعبود، والأخير هو المروي عن أهل العصمة عليهم السلام.

وفي بعض الأخبار إشارة إلى بعض جهات الاشتقاق التي ذكروها، وكل جهات الاشتقاق المذكورة باعتبار عزته لا بعد فيها.

وفي التوحيد عن مولانا الباقر عليه السلام أنه قال: (اللهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ الذِي أَلِهَ الْخَلْقُ عَنْ دَرْكِ مَاهِيتِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِكَيْفِيتِهِ.

ويقول العرب: أله الرجل إذا تحير في الشيء فلم يحط به علمًا، وله إذا فزع إلى شيء مما يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواس الخلق)[1]. الحديث.

---

(١) التوحيد، (للصدوق) ص٨٩ باب تفسير قل هو الله أحد إلى آخرها.

وفي المعاني عن علي بن فضال عن أبيه قال: سَأَلْتُ الرضَا عَلِي بْنَ مُوسَى عليه السلام عَنْ بِسْمِ اللهِ قَالَ: (مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ بِسْمِ اللهِ أَيْ أَسِمُ عَلَى نَفْسِي سِمَةً مِنْ سِمَاتِ اللهِ عَز وَجَل وَهِيَ الْعِبَادَةُ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ مَا السمَةُ فَقَالَ الْعَلَامَةُ)[1].

أقول: هذا الحديث وما تقدم من قوله عليه السلام حين سئل عن الاسم ما هو قال: (صفة لموصوف)، دل على أن الاسم مشتق من الوسم، بمعنى العلامة كما ذهب إليه الكوفيون، وهو الحق في المسألة، لأن الاسم إنما وضع علامة للمسمى، لا من السمو بمعنى الرفعة كما هو اختيار البصريين في الاشتقاق.

وفيه عن الحسن بن راشد عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: سُئِلَ عَنْ مَعْنَى اللهِ عَز وَجَل فَقَالَ: (اسْتَوْلَى عَلَى مَا دَقَ وَجَل)[2].

---

(١) معاني الأخبار، ص٣ باب آخر في معنى بسم الله.

(٢) معاني الأخبار، ص٤ باب معنى الله عز وجل.

تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

إذا عرفت معنى بسم الله فاعلم أن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمن أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، ولهذا فالصادق في الحديث المتقدم حين سئل عن الرحمن قال عليه السلام: (بجميع العالم، قال السائل: قلت الرحيم، قال عليه السلام: بالمؤمنين خاصة).

وقال عليه السلام في حديث آخر: (الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة)[1].

فالرحمة الرحمانية تعم جميع الموجودات، وتشمل كل النعم، نعم الوجود في الغيب والشهادة، ونعم التكليف ظاهرة وباطنة، وما أجرى الله على خلقه من جهة الفضل والعدل في الدنيا والآخرة.

والرحمن اسم للغني القادر بالذات، المنعم على الإطلاق، الخالق لكل شيء، المفتقر إليه كل ما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي جميع أحواله، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولهذا لا يجوز أن يسمى بهذا الاسم غير الله تبارك وتعالى، كما أشار إليه

---

(١) تفسير الصافي، ج١ ص٨١.

الصادق عليه السلام بقوله: (الرحمن اسم خاص لصفة عامة) وإلى عموم هذه الصفة يشير قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[١].

والرحمة الرحيمية التي يصبغ الله فيها المؤمنين وبها يوفقهم في الدنيا والدين، وهم فيها أبد الآبدين، وبها كانوا إخوانًا على سرر متقابلين، فهي مختصة بالمؤمنين المتقين، وإلى خصوص هذه الصفة يشير قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[٣].

وإلى الرحمة الرحيمية التي هي صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، التي كان المؤمنون بها إخوانًا أشار الصادق عليه السلام حين سئل عن تفسير هذا الحديث: (إن الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ فَقَالَ: إن اللهَ خَلَقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نُورِهِ وَصَبَغَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ لَنَا بِالْوَلَايَةِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ يَوْمَ عَرفَهُمْ نَفْسَهُ فَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ لِأَبِيهِ وَأُمهِ أَبُوهُ النورُ وَأُمهُ الرحْمَةُ وَإِنمَا يَنْظُرُ بِذَلِكَ النورِ الذِي خُلِقَ مِنْهُ)[٤].

قال الملا محسن رحمه الله في تفسيره الصافي بعد ذكره هذا الحديث الشريف: (أقولُ: ووجه آخر لأخوة المؤمنين انتسابهم إلى النبي والوصي صلى الله عليهما فقد ورد أنه صلى الله عليه وآله قال: أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة، ووجه آخر انتسابهم إلى الإيمان الموجب للحياة الأبدية)[٥] انتهى.

---

(١) الأعراف ١٥٦.

(٢) الأعراف ١٥٦.

(٣) الأحزاب ٤٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١ ص١١٢ باب السبب الذي قيل من أجله بالوقف على موسى بن جعفر عليه السلام.

(٥) تفسير الصافي، ج٥ ص٥٢.

وأنا أقول: لو كان الملا نظر في هذه المسألة بنور الله لعرف أن الوجه الأول الذي ذكره وهو انتسابهم إلى النبي والوصي صلى الله عليهما وعلى آلهما لقوله ﷺ: (أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة)[1] هو بعينه الوجه الذي أشار إليه الإمام عليه السلام لا أنه وجه آخر، ولو قال وإلى ما أشار إليه عليه السلام في هذا الحديث من وجه الإخوة أشار جده ﷺ بقوله: (أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة)، أو قال وإلى قول جده رسول الله ﷺ: (أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة) أشار عليه السلام في هذا الحديث، لكان حينئذ ناظرًا بنور الله تعالى، ولكن يهدي الله لنوره من يشاء، وهكذا الوجه الثاني الذي ذكره، لأن انتسابهم إلى الإيمان انتسابهم إلى تلك الصبغة التي أشار إليها عليه السلام، وأما توصيفه الإيمان بالموجب للحياة الأبدية لا دخل له في معنى الآخرة فافهم وتدبر.

وإلى ما أشرنا إليه من أنهم في تلك الرحمة أبد الآبدين لا يخرجون منها، يشير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]، والرحمة لغة في الإنسان رقة القلب وعطفه، واستعمالها في حق الله في عرف العام باعتبار أخذ الغايات التي هي أفعال، لا المبادئ التي هي انفعالات، فالمراد بالرحمة في حقه تعالى عطفه وبره ورزقه وإحسانه وعنايته وعفوه ومغفرته وما أشبه ذلك، وفي العرف الخاص الرحمة إعطاء كل ذي حق حقه فنسبتها إليه تعالى نسبة فعلية.

وأول رحمة نسبت إليه سبحانه هي المرتبة الأولى من المشيئة

---

(١) الوافي، ج١٠ ص٣٦٣.

(٢) آل عمران ١٠٧.

وهي مرتبة النقطة من الكلمة التامة الفعلية، وهي رتبة الذات من الشجرة.

وثاني رحمة نسبت إليه تعالى هي المرتبة الثانية من المشيئة وهي مرتبة الرياح التي أرسلها الله تعالى بشرى بين يدي رحمته، وهي مرتبة الألف من الكلمة المعبر عنها بالنفس الرحماني الأولي بفتح الفاء وهي رتبة الأصل من الشجرة.

وثالث رحمة نسبت إليه تعالى هي المرتبة الثالثة منها وهي السحابة المزجى، وهي مرتبة الحروف من الكلمة وهي رتبة الفرع من الشجرة.

ورابع رحمة نسبت إليه تعالى هي المرتبة الرابعة منها وهي السحاب المتراكم، وهي مرتبة الكلمة التامة، وهي رتبة الكل من الشجرة.

وقد عرفت سابقًا أن شرط ظهور الكلمة الفعلية بجميع مراتبها تحقق الكلمة المفعولية التي هي مظهرها ومحلها، وهي الحقيقة المحمدية التي هي رحمة للعالمين.

وهذه المراتب إنما تعددت باعتبار تزييل الفؤاد، وإلا فهي شيء واحد في نفسها ورحمة واحدة في ذاتها، وسعت بوحدتها جميع الأشياء قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[1] فرحمته الفعلية وسعت كل شيء بالقيومية الصدورية، ورحمته المفعولية وسعت كل شيء بالقيومية الركنية.

وخامس رحمة نسبت إليه تعالى هو الماء الذي به حياة كل شيء،

---

(١) الأعراف ١٥٦.

وهو نور الأنوار التي ذكرت في الأجناد، نور أحمر منه احمرت الحمرة، ونور أخضر منه اخضرت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة، ونور أبيض منه البياض ومنه ضوء النهار، وهذه الأنوار الأربعة هي أركان العرش الذي استوى عليه الرحمن برحمانيته، فاستوى على الركن الأحمر برحمانيته بصفة الخلق فألقى فيه مثاله وأظهر عنه أفعاله، يعني خلق عنه كل شيء، واستوى على الركن الأبيض بصفة الرزق فألقى فيها مثاله وأظهر عنه أفعاله يعني رزق عنه كل شيء، واستوى على الركن الأخضر بصفة الإماتة فألقى فيه مثاله وأظهر عنه أفعاله يعني أمات عنه كل شيء، واستوى على الركن الأصفر بصفة الحياة فألقى فيه مثاله وأظهر عنه أفعاله يعني أحيى عنه كل شيء.

ولما كان اسمه الرحمن صفة لاسمه الكريم المنان وهو الله تبارك وتعالى قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] فملأت رحمته الرحمانية جميع أركان الوجود في عالم الغيب والشهود.

ولعموم رحمته الرحمانية وسعتها معنى آخر يظهر من مظاهرها وآثارها، وأنا أضرب لك أمثالا تعرف بها ذلك المعنى.

فأقول: هذه الشمس المضيئة مثلًا مظهر من مظاهر رحمته الرحمانية وهي بوجه واحد وإشراق واحد، وسعته بالتربية كل شيء في الأرض من المعدن والنبات والحيوان والإنسان، وأشرقت الأرض بنورها، واستنارت وجوه كل من عليها مما قابلها، ويتمتع من ضوئها

---

(١) الروم ٤٠.

وحرارتها كل ذي حاجة من المحتاجين في حوائجه، وينتفع بهما في مطالبه ومقاصده، حتى كأنها خلقت لأجله وحده، ووكلت لتدبير أمره خاصة، ومثلها القمر وسائر النجوم.

وكذلك الماء مثلًا مظهر من مظاهر رحمته الواسعة قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾[1] وهو مع أنه شيء واحد وحقيقة واحدة وله طبع واحد، لا يشبه لونه لونًا، ولا طعمه طعمًا، ولا ريحه ريحًا، بل لا لون له ولا طعم ولا ريح ظاهرًا، وإن كان طعمه طعم الحياة ولونه لون الوجود وريحه روح كل موجود، يتجنس منه الأجناس، ويتنوع منه الأنواع، ويتشخص به الأشخاص، ويتشكل فيه الأشكال، ويتلون منه الألوان، ويتكون منه اللؤلؤ والمرجان، ويتحقق منه كل روح وريحان، ويحصل منه كل طعم وذوق في ذائقة الحيوان، ويمصه كل نجم وشجر يسجدان، ويشربه كل ذي روح من وحش وطير وحيوان وإنسان، والناس يتمتعون به في حوائجهم وينتفعون به في مطالبهم ومقاصدهم، وينتظم أمور كل واحد منهم، حتى كأنه خلق لأجله خاصة، وكذلك الأرض والهواء والنار وغير ذلك من الآيات، التي هي من آثار رحمته الواسعة ومظاهر قدرته الجامعة، هذا من عموم رحمته وسعة رأفته في عالم الوجود والتكوين.

أما في عالم التكليف فكذلك، فانظر إلى عموم رحمته وسعة رأفته لكل واحد من المكلفين، وأنه تبارك وتعالى كيف بعث في عباده رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ظلال مبين، وهو رجل واحد له عقل واحد وبدن

---

(١) الروم ٥٠.

واحد ولسان واحد جعله الله تعالى رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] وهذه الرحمة وإن كانت من الرحمة الخاصة للمؤمنين إلّا أنها من عموم دعوته صلى الله عليه وآله تعم الكافرين أيضًا، كما قال الإمام عليه السلام في تفسيره الرحيم: (بعباده المؤمنين في تخفيفه عليهم طاعاته، وبعباده الكافرين في الرفق في دعائهم إلى موافقته)[٢]، فهو صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، بل كل قول ظهر منه فهو رحمة للعالمين، وكل فعل صدر عنه فهو رحمة للعالمين، ألا تنظر إلى قوله صلى الله عليه وآله (خير الأمور أوسطها)، وإلى قوله في جواب سراقة بن مالك حين سأله عن مسألة القدم إلى أن قال ففيم العمل قال صلى الله عليه وآله: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل يعمل بعمله)[٣].

وإلى قوله لأبي ذر الغفاري: (يا أبا ذر إنك في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة فمن يزرع خيرًا يوشك أن يحصد خيرًا ومن يزع شرًا يوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع ما زرع)[٤].

---

(١) التوبة ١٢٨.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٣٤ [سورة الفاتحة (١): آية ٣].

(٣) ما روى عن جابر أنّه جاء سراقة بن مالك فقال: يا رسول اللّه بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم أفيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ فقال: (بل فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له وكلّ عامل يعمله) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، ج١ ص٢٢٨.

(٤) الأمالي (للطوسي)، ص٤٧٣ المجلس السابع عشر.

وأمثال هذه من أقواله الحكيمة وكلماته الجامعة الكريمة، كيف ملأ نور هدايتها أركان كل شيء من أفعال المكلفين وصارت شفاء ورحمة للمؤمنين، وكذلك إذا قال ﷺ للناس: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[1] فصلى ركعتين مثلًا كصلاة الغداة على الهيئة المخصوصة بالشرائط المطلوبة والآداب المندوبة، وإذا نام على اليد اليمنى مستقبلًا القبلة كهيئة الملحود، وإذا جلس جلسة العبيد، وأمثال هذه من أفعاله الكريمة، فإنها أسوة لمن تأسى به ﷺ إلى يوم القيامة ورحمة للعالمين.

ومن رحمته الواسعة العامة للمكلفين هذا القرآن المبارك الذي جعله الله تعالى نورًا وبرهانًا وهدىً ودليلًا وشفاءً ورحمة للعالمين، وكل فرد من أفراد المكلفين ينتفع به ويمشي بنوره في ظلمات جهالته وحيرته، ويحتج به على من خاصمه بضلالته، ويهتدي بأعلام هدايته إلى مقاصده وطرق مطالبه، ويستدل به على من جادله بغير علم في أمر دينه ومذهبه، ويستشفي منه لكل مرض وعلة عرضه في أيام غفلته، ويستمطر من سحاب رحمته للبلد الميت من قلبه فيحيي به الأرض بعد موتها، فكما أن الناس ينتفعون بآيات الآفاق ينتفعون بآيات القرآن حرفًا بحرف، وكما أنه تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها في ظاهر الوجود وجعل منه ما هو شفاء ورحمة لكل مرض وعلة يحدث في الأبدان ويغير البنية، بأن خلق الله تعالى منه العقاقير والأدوية في رؤوس الجبال وأطراف التلال وبطون الأودية، كذلك نزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة، أي ماء هو شفاء ورحمة، أي علمًا نافعًا لمرض الجهل الذي يحدث في النفوس لأجل

---

(١) متشابه القرآن ومختلفه (لابن شهر آشوب)، ج٢ ص١٧٠.

الغفلة التي تغير الخلقة وتبدل الفطرة، فسالت أودية القوابل من ذلك الماء أي ماء العلم بقدرها واستعدادها، فالماء الظاهر شفاء ورحمة للأبدان، والماء الباطن شفاء ورحمة للنفوس، فسبحان من جعل الظاهر عنوانًا للباطن ودليلًا عليه، والباطن أصلًا وحقيقة للظاهر وبابًا إليه.

ثم اعلم أن كل ما خلق الله من الوجودات الكونية في عالم الغيب والشهادة فهو من الرحمة الرحمانية، وهي الرحمة الواسعة سميت بها لشمولها لكل موجود من جماد ومعدن ونبات وحيوان وإنسان، مؤمن وكافر ومنافق وصالح وطالح، وكل هذه وجودات، والموجود خير كله.

وأما الرحمة الرحيمية فهي قسمان، منها ما يشمل المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة وسنذكره لك إن شاء الله تعالى، ومنها ما هو خاصة للمؤمنين لا يجاوزهم في الدنيا ولا في الآخرة، وقد عرفت أن المراد بها صبغة الوجود وهي صبغة الله تعالى، والصبغة إيجاد في الخلق الثاني وهو خلق التكليف، وشرط الإيجاد القبول، فالمؤمنون لما قبلوا صبغة الله صبغهم في رحمته وهي الرحمة الرحيمية الخاصة بالمؤمنين، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1]، والكافرون لما لم يقبلوا صبغة الله أي الصبغ في الرحمة صبغهم في غضبه وهو ضد الرحمة، ولهذا صارت الرحمة الرحيمية بهذا المعنى، أي بمعنى صبغ الوجود في الرحمة خاصة بالمؤمنين وهي خير الإيجاد، وصار ضدها وهو صبغ الوجود في الغضب خاصة بالكافرين وهو شر الإيجاد، وهو

---

(١) النور ٤٣.

المعبر عنه بالطبع والرين والختم قال الله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[١] وقال: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[٣]، ففي الرحمة الرحمانية ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالرحمة الرحيمية ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن قبل صبغة الله بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾[٤] لمن لم يقبلها بالنار، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ بقبوله، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[٥] بإعراضه وعدم قبوله، فصار الخلق فريقين ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[٦].

فمرادنا بالرحمة الرحيمية التي بعث الله بها أنبياءه ورسله هي جميع ما أراد الله من العباد من التكاليف التي فصلها في كتبه وبينها بلسان أنبيائه ورسله، مما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، وبهذه الرحمة والصبغة يخلقهم خلقًا يصلح لدخول الجنة، ومن هذه الرحمة جميع ما أنعم الله بها على عباده المؤمنين في الجنة، وهي الرحمة المكتوبة الخالصة من جميع مكاره العدل، تجري عليهم من جهة الكرم والفضل بحقيقة ما هم أهله.

---

(١) النساء ١٥٥.
(٢) المطففين ١٤.
(٣) البقرة ٧.
(٤) البقرة ٢١٣.
(٥) النحل ٣٦.
(٦) الشورى ٧.

تفسير قوله تعالى:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال الإمام عليه السلام في تفسيره: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرضَا عليه السلام فَقَالَ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عز وَجَلَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مَا تَفْسِيرُهُ؟

فَقَالَ عليه السلام: لَقَدْ حدثَنِي أَبِي عَنْ جدي عَنِ الْبَاقِرِ عَنْ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَنْ أَبِيهِ عليهما السلام أَن رَجُلًا جَاءَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عز وَجَلَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِ الْعالَمِينَ مَا تَفْسِيرُهُ.

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ هُوَ أَنْ عرفَ الله عِبَادَهُ بَعْضَ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ جُمَلًا إِذْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَعْرِفَةِ جَمِيعِهَا بِالتفْصِيلِ لِأَنهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ تُعْرَفَ، فَقَالَ لَهُمْ قُولُوا الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا رَب الْعَالَمِينَ، يعني مالك العالمين وَهُمُ الْجَمَاعَاتُ مِنْ كُل مَخْلُوقٍ مِنَ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَأَما الْحَيَوَانَاتُ فَهُوَ يَقْلِبُهَا فِي قُدْرَتِهِ وَيَغْذُوهَا مِنْ رِزْقِهِ وَيُحَوطُهَا بِكَنَفِهِ وَيُدَبرُ كُلا مِنْهَا بِمَصْلَحَتِهِ، وَأَما الْجَمَادَاتُ فَهُوَ يُمْسِكُهَا بِقُدْرَتِهِ وَيُمْسِكُ الْمُتصِلَ مِنْهَا أَنْ يَتَهَافَتَ وَيُمْسِكُ الْمُتَهَافِتَ مِنْهَا أَنْ يَتَلَاصَقَ، وَيُمْسِكُ السماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرض إِلا بِإِذْنِهِ، وَيُمْسِكُ الْأَرض أَنْ تَنْخَسِفَ إِلا بِأَمْرِهِ، إِنهُ بِعِبَادِهِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

وَقَالَ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَالِكُهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَسَائِقُ أَرْزَاقِهِمْ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ فَالرزْقُ مَقْسُومٌ وَهُوَ يَأْتِي ابْنَ آدَمَ عَلَى أَي سِيرَةٍ سَارَهَا مِنَ الدنْيَا لَيْسَ تَقْوَى مُتقٍ بِزَائِدِهِ وَلَا فُجُورُ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ وَليس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِتْرٌ وَهُوَ طَالِبُهُ فَلَوْ أَن أَحَدَكُمْ يتربص رِزْقه لَطَلَبَهُ رِزْقُهُ كَمَا يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ فَقَالَ اللهُ جل جَلَالُهُ قُولُوا الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا وَذَكرَنَا بِهِ مِنْ خَيْرٍ فِي كُتُبِ الْأَولِينَ قَبْلَ أَنْ نَكُونَ فَفِي هَذَا إِيجَابٌ عَلَى مُحَمدٍ وَآلِ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله وَعَلَى شِيعَتِهِمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ بِمَا فَضلَهُمْ، وَذَلِكَ أَن رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَ لَما بَعَثَ اللهُ عز وَجل مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام وَاصْطَفَاهُ نَجِيًا وَفَلَقَ لَهُ الْبَحْرَ وَنَجى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَعْطَاهُ التوْرَاةَ وَالْأَلْوَاحَ رَأَى مَكَانَهُ مِنْ رَبهِ عز وَجل فَقَالَ يَا رَب لَقَدْ أَكْرَمْتَنِي بِكَرَامَةٍ لَمْ تُكْرِمْ بِهَا أَحَدًا قَبْلِي فَقَالَ اللهُ جل جَلَالُهُ يَا مُوسَى أَمَا عَلِمْتَ أَن مُحَمدًا عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَلَائِكَتِي وَجَمِيعِ خَلْقِي قَالَ مُوسَى عليه السلام يَا رَب فَإِنْ كَانَ مُحَمدٌ صلى الله عليه وآله أَكْرَمَ عِنْدَكَ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ فَهَلْ فِي آلِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْرَمُ مِنْ آلِي قَالَ اللهُ جل جَلَالُهُ يَا مُوسَى أَمَا عَلِمْتَ أَن فَضْلَ آلِ مُحَمدٍ عَلَى جَمِيعِ آلِ النبِيينَ كَفَضْلِ مُحَمدٍ عَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ مُوسَى يَا رَب فَإِنْ كَانَ فضل آل مُحَمدٍ عندك كَذَلِكَ [فهل في أصحاب الأنبياء أكرم عندك من صحابتي، قال الله تبارك وتعالى: يا موسى إن فضل صحابة محمد على جميع صحابة المرسلين كفضل آل محمد على جميع صحابة المرسلين، فقال موسى يا رب فإن كان محمد وآله وأصحابه كما وصفت] فَهَلْ فِي أُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ عِنْدَكَ مِنْ أُمتِي ظَللْتَ عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْتَ عَلَيْهِمُ الْمَن والسلْوى وَفَلَقْتَ لَهُمُ الْبَحْرَ فَقَالَ اللهُ جل جَلَالُهُ يَا مُوسَى أَمَا عَلِمْتَ أَن فَضْلَ أُمةِ مُحَمدٍ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ

كَفَضْلِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِي، فَقَالَ مُوسَى عليه السلام يَا رَب لَيْتَنِي كُنْتُ أَرَاهُمْ، فَأَوْحَى اللهُ عَز وَجَل إِلَيْهِ يَا مُوسَى إِنكَ لَنْ تَرَاهُمْ وَلَيْسَ هَذَا أَوَانَ ظُهُورِهِمْ، وَلَكِنْ سَوْفَ تَرَاهُمْ فِي الْجَناتِ جَناتِ عَدْنٍ وَالْفِرْدَوْسِ بِحَضْرَةِ مُحَمدٍ فِي نَعِيمِهَا يَتَقَلبُونَ وَفِي خَيْرَاتِهَا يَتَبَحْبَحُونَ أَفَتُحِب أَنْ أُسْمِعَكَ كَلَامَهُمْ فَقَالَ نَعَمْ إِلَهِي قَالَ اللهُ جَل جَلَالُهُ قُمْ بَيْنَ يَدَي وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ قِيَامَ الْعَبْدِ الذلِيلِ بَيْنَ يَدَي السيد الْمَلِكِ الْجَلِيلِ فَفَعَلَ ذَلِكَ مُوسَى عليه السلام فَنَادَى رَبنَا عَز وَجَل يَا أُمةَ مُحَمدٍ فَأَجَابُوهُ كُلهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَأَرْحَامِ أُمهَاتِهِمْ لَبيْكَ اللهُم لَبيْكَ لَبيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبيْكَ إِن الْحَمْدَ وَالنعْمَةَ وَالْمُلْكَ لَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لبيك قَالَ فَجَعَلَ اللهُ عَز وَجَل تِلْكَ الْإِجَابَةَ شِعَارَ الْحَاج ثُم نَادَى رَبنَا عَز وَجَل يَا أُمةَ مُحَمدٍ إِن من قَضَائِي عَلَيْكُمْ أَن رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبَى وَعَفْوِي قَبْلَ عِقَابِي فَقَدِ اسْتَجَبْتُ لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُوَنِي وَأَعْطَيْتُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْأَلُونِي مَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَن مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَادِقٌ فِي أحواله[1] مُحِق فِي أَفْعَالِهِ وَأَن عَلِي بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخُوهُ وَوَصِيهُ مِنْ بَعْدِهِ وَوَلِيهُ وَيُلْتَزَمُ طَاعَتُهُ كَمَا يُلْتَزَمُ طَاعَةُ مُحَمدٍ وَأَن أَوْلِيَاءَهُ الْمُصْطَفَيْنَ الطاهِرِينَ الْمُطَهرِينَ الميامين بِعَجَائِبِ آيَاتِ اللهِ وَدَلَائِلِ حُجَجِ اللهِ مِنْ بَعْدِهِمَا أَوْلِيَاؤُهُ أَدْخَلْتُهُ جَنتِي وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ.

قَالَ عليه السلام: فَلَما بَعَثَ اللهُ عَز وَجَل نَبِينَا مُحَمدًا صلى الله عليه وآله قَالَ يَا مُحَمدُ وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطورِ إِذْ نادَيْنا أُمتَكَ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ ولكن رحمة من ربك.

---

(١) في المصدر: أَقْوَالِهِ.

ثُم قَالَ عَز وَجَل لِمُحَمدٍ صلى الله عليه وآله : قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ رَب الْعالَمِينَ عَلَى مَا اخْتَصنِي بِهِ مِنْ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَقَالَ لِأُمتِهِ قُولُوا أَنْتُمْ الْحَمْدُ لِلهِ رَب الْعالَمِينَ عَلَى مَا اخْتَصنَا بِهِ مِنْ هَذِهِ الْفَضَائِلِ)[١].

تعريف الحمد

أقول: إن العلماء قد عرفوا الحمد بأنه الثناء باللسان على الجميل الاختياري سواء كان نعمة أو غيرها، وعرفوا المدح بأنه الثناء باللسان على الجميل مطلقًا، تقول حمدت زيدًا على علمه وكرمه ومدحته على حسنه، ولا تقول حمدت اللؤلؤ على صفائها بل تقول مدحتها على صفائها، والشكر فعل ينبئ عن التعظيم للمنعم وهو مقابلة للنعمة، فهو أعم منهما باعتبار المورد لجواز أن يكون قولًا وعملًا واعتقادًا، بخلاف مورد الحمد والمدح فإنه لا يكون إلّا قولًا، وأخص منهما باعتبار المتعلَق بفتح اللام، لأنه ـ أي متعلق الشكر ـ لا يكون إلّا نعمة بخلاف متعلقهما لجواز أن يكون نعمة أو غيرها، وأنت إذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٢] وإلى قولهم عليهم السلام كما في الدعاء (الحمد لله كلما حمد الله شيء وكما يحب الله أن يحمد وكما لكرم وجهه وعز جلاله)[٣] عرفت أن مورد الحمد لا يختص باللسان المعروف كما هو مرادهم عند التخصيص به، فينبغي أن يعمم اللسان ليشمل لسان كل شيء، أو لا يخصص به ليعم حمد كل حامد.

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٣٠ [تفسير الحمد].

(٢) الإسراء ٤٤.

(٣) الكافي، ج٢ ص٥٨٨ باب دعوات موجزات لجميع الحوائج للدنيا والآخرة. مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج١ ص٥٢.

بيان حقيقة الحمد

والحمد صفة للمحمود الظاهر بها للحامد وجودًا وفعلًا وحالًا ومقالًا ليحمده بما ظهر له به، فحقيقة الحامد حمد للمحمود وصفة كمال له، وصفاته من أفعاله وأحواله وأقواله صفات الحمد، والمحمود يحمد نفسه بحامديه بما ظهر لهم بحمده وصفات حمده، والحامدون يحمدونه بما أعطاهم من الحمد وصفاته، فالله سبحانه هو المحمود ولا محمود سواه ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وجودًا وفعلًا ومقالًا وحالًا، وحمده تعالى لنفسه سلوكه بالأشياء في طريق إرادته وبعثه لها في سبيل محبته، وحمدها له تعالى جريانها على مقتضى إرادته وانبعاثها في سبيل محبته، وإبراز كمالاتها عند مشيته، وتوجهها إلى مبادئها وغاياتها بأمره، لا يجاوز شيء منها إرادته، ولا يخالف شيء منها محبته.

وأول حمد وثناء أثنى به على نفسه هو الحمد الجامع لجميع الكمالات، والثناء الشامل لجميع محامد الكائنات، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله: (أعطيت لواء الحمد وعلي حامله)[1] فحقيقتهم صلوات الله عليهم حمدًا لله، وليس لله حمد أكمل منه ولا ثناء أجمل منه،

---

(١) وَمِمَّا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ قَالَ: (أُعْطِيتُ ثَلَاثًا وَعَلِيٌّ مشاركني فِيهَا، وَأُعْطِيَ عَلِيٌّ ثَلَاثًا وَلَمْ أُشَارِكْهُ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هِيَ الثَّلَاثُ الَّذِي شَارَكَكَ فِيهَا عَلِيٌّ؟
فَقَالَ: لِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَعَلِيٌّ حَامِلُهُ، وَالْكَوْثَرُ وَعَلِيٌّ سَاقِيهِ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ وَعَلِيٌّ قَسِيمُهُمَا أَمَّا الثَّلَاثُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلِيٌّ وَلَمْ أُشَارِكْهُ فِيهَا: أُعْطِيَ حَمْوًا مِثْلِي، وَلَمْ أُعْطَ مِثْلَهُ، وَأُعْطِيَ فَاطِمَةَ زَوْجَتَهُ، وَلَمْ أُعْطَ مِثْلَهَا، وَأُعْطِيَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَلَمْ أُعْطَ وَلَدًا مِثْلَهُمَا) الروضة في فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (لابن شاذان القمي)، ص٥٦ (حديث علي قسيم الجنة والنار).

فكانوا عليهم السلام قبل كل مذروء ومبروء أنوارًا أنطقها بتحميده وألهمها شكره وتمجيده، فحمدوه بما أعطاهم من حمده بلسان واحد بما لا نهاية له في الإمكان، ثم استنطق بها الخرسات بأنواع اللغات حين تعلقت تلك الصفات العليا بظهورها من المحمود بالحامدين وجودًا وفعلًا وحالًا ومقالًا، فضجت إليه باللغات المختلفة، وحمدوه بألسنة كثيرة متباينة، لا يشابه لسان منها لسانا آخر، ولا يفهم أهل لغة منها لغة غيره قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]، فهم عليهم السلام حمدوه حينئذ بكل لسان حمد الصفات للذات، وغيرهم يحمدون بهم حمد الصفات للذوات، فلم تبق ذرة من ذرات الوجود في كل لحظة في عالم الغيب والشهادة إلّا وهي معلنة لشكر مولاها شكر وجود وإيجاد، ناطقة بحمده حمد قبول واستعداد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[2].

ثم اعلم أنه تعالى كما افتتح كتابه التكويني بحمده الجامع لجميع أفراد الحمد واختصه لنفسه فقال: (خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك)[3]، كذلك افتتح كتابه التدويني بحمده الجامع لجميع أفراده كما يشعر به لام التعريف، واختصه لنفسه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا في ظاهر التفسير وباطنه، أما في باطن الباطن فقد سمعت قوله صلى الله عليه وآله: (أعطيت لواء الحمد وعلي حامله) فافهم.

ثم أمر عباده بأن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقوله

---

(١) الإسراء ٤٤.

(٢) الرعد ١٥.

(٣) قال سبحانه في الحديث القدسي مخاطبًا صفوة خلقه: (خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، ج١ ص٣٦٣.

تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إثبات لنفسه للألوهية، وقولنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إقرار على أنفسنا بالعبودية، فافتتاح أمر الخلق في التكوين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وافتتاح أمرهم في التكليف في الدنيا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم اختتام أمرهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ثم نهاية أمرهم في الجنة مختومة بقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تفسير الرب

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الرب في الأصل بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى غايته من الكمال اللائق به الممكن له شيئًا فشيئًا، ثم وصف به للمبالغة كزيد عدل، ثم شاع استعماله بمعنى المآلف والصاحب والسيد والمصلح والمربي والمدبر والمنعم.

والعالَم ـ بفتح اللام ـ اسم لما يعلم به كالخاتم والقالب، غلب فيما يعلم به الصانع وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، كالذوات والصفات والأجناس والأنواع والأشخاص وغير ذلك من الأشياء الممكنة المصنوعة، التي تدل بإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته على وجوده، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم.

---

(١) الزمر ٧٥.

(٢) يونس ١٠.

وقيل اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع.

وقيل عُني به الناس ها هنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يعلم به الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم، ولذلك سوى بين النظر فيهما وقال الله تعالى ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

أقول: اعلم أن الأحاديث في باب تعدد العوالم والآدميين كثيرة وهي مختلفة في ذكر العوالم، فمنها ما في رواية عبد الله الدهقان عن الرضا عليه السلام قال سمعته يقول: (إِن اللهَ خَلَقَ هَذَا النطَاقَ زَبَرْجَدَةً خَضْرَاءَ فَمِنْ خُضْرَتِهَا اخْضَرتِ السمَاءُ قَالَ قُلْتُ وَمَا النطَاقُ قَالَ الْحِجَابُ وَلِلهِ وَرَاءَ ذَلِكَ سَبْعُونَ أَلْفَ عَالَمٍ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْإِنْسِ وَالْجِن وَكُلهُمْ يَلْعَنُ فُلَانًا وَفُلَانًا)[2].

ومنها ما روي عن عجلان بن صالح قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قُبةِ آدَمَ فَقُلْتُ لَهُ هَذِهِ قُبةُ آدَمَ فَقَالَ: (نَعَمْ وَلِلهِ قِبَابٌ كَثِيرَةٌ أَمَا إِن خَلْفَ مَغْرِبِكُمْ هَذَا تِسْعَةً وتسعين[3] مَغْرِبًا أرضًا بَيْضَاءَ وَمَمْلُوةٌ خَلْقًا يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِنَا لَمْ يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَا يَدْرُونَ أَخَلَقَ اللهُ آدَمَ أَمْ لَمْ يَخْلُقْهُ يَبْرَءُونَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ قِيلَ لَهُ كَيْفَ هَذَا يَتَبَرءُونَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَهُمْ لَا يَدْرُونَ أَخَلَقَ اللهُ آدَمَ أَمْ لَمْ يَخْلُقْهُ فَقَالَ لِلسائِلِ أَتَعْرِفُ

---

(١) الذاريات ٢١.

(٢) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٤٩٢ باب في الأئمة أن الخلق الذي خلف المشرق والمغرب يعرفونهم ويؤتونهم ويبرءون من أعدائهم.

(٣) هكذا جاء في المخطوط، وفي المصدر: تسعة وثلاثين.

إِبْلِيسَ قَالَ لَا إِلا بِالْخَبَرِ قَالَ فَأُمِرْتَ بِاللعْنَةِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَكَذَلِكَ أُمِرَ هَؤُلَاءِ)(١)

ومنها ما روي عن أبي جعفر عليه السلام: (إِن مِنْ وَرَاءِ شمسكم هَذِهِ أَرْبَعِينَ عَيْنَ شَمْسٍ مَا بَيْنَ [عين](٢) شَمْسٍ إِلَى [عين](٣) شَمْسٍ أَرْبَعُونَ عَامًا فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مَا يَعْلَمُونَ أَن اللهَ خَلَقَ آدَمَ أَوْ لَمْ يَخْلُقْهُ وَإِن مِنْ وَرَاءِ قَمَرِكُمْ هَذَا أَرْبَعِينَ قَمَرًا مَا بَيْنَ قَمَرٍ إِلَى قَمَرٍ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مَا يَعْلَمُونَ أَن اللهَ خَلَقَ آدَمَ أَوْ لَمْ يَخْلُقْهُ قَدْ أُلْهِمُوا كَمَا أُلْهِمَتِ النحْلُ لَعْنَةَ الْأَولِ وَالثانِي فِي كُل وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَقَدْ وُكلَ بِهِمْ مَلَائِكَةٌ مَتَى مَا لَمْ يَلْعَنُوهُمَا عُذبُوا)(٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: (إِن لِلهِ عَز وَجَل اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ كُلُ عَالَمٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَسَبْعِ أرضينَ مَا تَرَى عَالَمٌ مِنْهُمْ أَن لِلهِ عَز وَجَل عَالَمًا غَيْرَهُمْ وَأَنَا الْحُجةُ عَلَيْهِمْ)(٥).

وفي عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: (إن الله عز وجل خلق ثلاثمائة عالم وبضعة عشر عالم كل عالم منهم يزيدون على ثلاثمائة وثلاثة عشر مثل آدم وما ولد آدم، وذلك معنى قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٦).

---

(١) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٤٩٣ باب في الأئمة أن الخلق الذي خلف المشرق والمغرب يعرفونهم ويؤتونهم ويبرءون من أعدائهم.

(٢) لا توجد في المصدر.

(٣) لا توجد في المصدر.

(٤) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٤٩٣ باب في الأئمة أن الخلق الذي خلف المشرق والمغرب يعرفونهم ويؤتونهم ويبرءون من أعدائهم.

(٥) الخصال، ج٢ ص٦٣٩ من روى أن لله عز وجل اثني عشر ألف عالم.

(٦) مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام ص٦٥ فصل [ما وراء الحجاب=

وفي بعض الروايات أن لله ألف قنديل معلق بالعرش، فسماواتكم هذه وأرضكم في قنديل واحد الحديث.

وأكثر ما ذكر في عدد العوالم ما روى الصدوق عن الباقر عليه السلام أنه قال: (بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين)[1].

والمستفاد من هذه الروايات وأمثالها مضافًا إلى ما يدل عليه دليل الحكمة أن المراد بتلك العوالم والآدميين أطوار الوجود وتنزلاته في مراتبه، فإن مراتبه من أول مرتبة الإمكان الراجح إلى عالمنا هذه تصير بهذا المقدار، أعني ألف ألف عالم وألف ألف آدم سواء أريد بها خصوص العدد المذكور أم مطلق الكثرة، وسواء أريد بها أن الأجناس ألف وتحت كل جنس ألف نوع، أم أن الأنواع ألف وتحت كل نوع ألف شخص، أم أن الأجناس أو الأنواع ألف ألف غير أنواع كل جنس أو أفراد كل نوع، والظاهر أن المراد بالأعداد على أي فرض واحتمال ليس خصوص العدد بل كناية عن الكثرة بهذا العدد، أما خصوصية ذكر الأعداد واختلافها والإشارة إلى المراتب الكلية والمبادئ الأولية وأصول الخلق وفروعه في الغيب والشهادة وبحسب النشأة الدنيوية والأخروية وغير ذلك مما يقتضي المقام ذكره عند أجوبة السائلين وهم عليهم السلام أعلم بما قالوا وأعرف بما خصصوا وأجملوا، وإلى ما ذهبنا إليه من أن المراد بالعوالم مراتب الوجود

=من عوالم]. بحار الأنوار ج٥٤ ص٣٢٢ باب العوالم ومن كان في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام ومن يكون فيها بعد انقضاء القيامة وأحوال جابلقا وجابرسا. (باختلاف يسير).

(١) التوحيد، (للصدوق) ص٢٧٧ باب ذكر عظمة الله جل جلاله.

وتطوراته في الأجناس والأنواع والأشخاص، يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال عليه السلام (يعني مالك العالمين وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات) الحديث وقد تقدم.

بيان العالم الكبير

إذا عرفت هذا فاعلم أنه إن أطلق العالم فالمراد به ما سوى الله عزوجل، وهو عبارة عن مدينة الوجود التي ظهر بها أمر الله وسخرها ودخل بها على حين غفلة من أهلها، وهو بهذا الإطلاق شخص واحد لا تعدد فيه، وإن كان قد جمع في وحدته كثرة لا تتناهى عددًا في الإمكان، وهذا الشخص هو الإنسان الكبير الذي باطنه غيب لا يدرك وظاهره سر ينبغي أن يهتك، وهو الذي فؤاده الإبداع الأول وقلبه الأعلى عرش الرحمن وعقله القلم الأول وروح القدس الذي في الجنان، وروحه النور الأصفر ونفسه اللوح المحفوظ، وطبيعته النور الأحمر، ومادته أصل جواهر الهباء، وشكله أحاط بكل الأشباح، وجسمه جسم الكل، والمحدد قلبه الظاهر، والكرسي صدره الواسع، ونفس فلك زحل وجه عقله، ونفس فلك المشتري علمه، ونفس فلك المريخ وهمه، ونفس فلك الشمس وجوده الثاني، ونفس فلك الزهرة خياله، ونفس فلك عطارد فكره، ونفس فلك القمر حياته، وظاهر السموات العلى أعالى بدنه، وظاهر الأرضين السفلى أسافل بدنه، وله تطورات في الغيب ومنها الرقائق، ومنها صورة عالية عن المواد عارية عن القوة والاستعداد[1]، ومنها حجب الغيوب، ومنها كروبيون

---

(١) وَسُئِلَ عليه السلام عَنِ الْعَالَمِ الْعِلْوِيِّ فَقَالَ: (صُوَرٌ عَارِيَةٌ عَنِ الْمَوَادِّ، عالية عَنِ الْقُوَّةِ=

وهم رجال من الخلق الأول[١] إلى غير ذلك، وله تطورات في الشهادة فمنها نور، ومنها نار، ومنها ظلمة، ومنها برد، ومنها ثلج، ومنها رعد، ومنها برق، ومنها بر، ومنها بحر، ومنها معدن وحجر، ومنها نجم وشجر، إلى غير ذلك مما يطول ذكره وهذا الشخص يسمى بالعالم الكبير الإنساني.

ذكر العوالم

وأما العالم الصغير الإنساني فهو مثله خلق منه حرفًا بحرف وطبعًا بطبع، فهو مطابق له في جميع مراتب وجوداته، هذا إذا أطلق العالم وأريد به ما سوى الله تعالى.

وأما إذا أطلق الاثنان أعني عالمَين ـ بفتح الميم ـ أريد به ما ينحصر في الاثنين، كعالم الغيب والشهادة، وكعالم الوجوب والإمكان، وكعالم الأجسام والأرواح، وكعالم الدنيا التي هي النشأة الأولى وعالم الآخرة التي هي النشأة الأخرى، وما أشبه ذلك.

=وَالِاسْتِعْدَادِ، تَجَلَّى لَهَا فَأَشْرَقَتْ، وَطَالَعَهَا بِنُورِهِ فَتَلَأْلَأَتْ، وَأَلْقَى فِي هُوِيَّتِهَا مِثَالَهُ فَأَظْهَرَ عَنْهَا أَفْعَالَهُ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ذَا نَفْسٍ نَاطِقَةٍ، إِنْ زَكَّاهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فَقَدْ شَابَهَتْ جَوَاهِرَ أَوَائِلِ عِلَلِهَا وَإِذَا اعْتَدَلَ مِزَاجُهَا وَفَارَقَتِ الْأَضْدَادَ فَقَدْ شَارَكَ بِهَا السَّبْعَ الشِّدَادَ) عيون الحكم والمواعظ (لليثي) ص٣٠٤ الباب الرابع عشر مما ورد من حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حرف الصاد.

(١) وَرَوَى بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّيَّارِيِّ قَالَ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَا مِنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عُبَيْدُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفَارِسِيُّ وَغَيْرُهُ رَفَعُوهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: (إِنَّ الْكَرُوبِيِّينَ قَوْمٌ مِنْ شِيعَتِنَا مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ جَعَلَهُمُ اللَّهُ خَلْفَ الْعَرْشِ لَوْ قُسِمَ نُورُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَكَفَاهُمْ ثُمَّ قَالَ إِنَّ مُوسَى لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ مَا سَأَلَ أَمَرَ وَاحِدًا مِنَ الْكَرُوبِيِّينَ فَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، ج١ ص٦٩ نادر من الباب.

وإذا أطلقت ثلاث عوالم فالمراد بها عالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم الملك، أو عالم الغيب وعالم الشهادة والبرزخ بينهما، أو عالم الدنيا وعالم الآخرة والبرزخ بينهما، وما أشبه ذلك مما هو منحصر بالثلاثة كعالم الوجوب المعبر عنه بالوجود الحق، وعالم الرجحان الذي يعبر عنه بالوجود المطلق، وعالم الجواز الذي يعبر عنه بالوجود المقيد الذي أوله الدرة وآخره الذرة.

وإذا أطلقت أربعة عوالم فيراد بها عالم الخلق وعالم الرزق وعالم الموت وعالم الحياة، التي أشار إليها قوله سبحانه في معرض الامتنان وإظهار القدرة القاهرة وتفرده بالربوبية والألوهية وبيان أصول رحمته الرحمانية، التي أركان العرش الذي استوى عليه الرحمن برحمانيته، فأعطى كل ذي حق حقه وساق إلى كل مخلوق رزقه فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] ولو كان شيء من الأصول التي يرجع إليها أمر من أمور ما سوى الله عز وجل لذكره سبحانه، وعلى خصوص هذا العدد تفرعت أشياء كتربيع الاسم الأعظم وأركانه، التي هي التوحيد والنبوة والولاية والشيعة[2]، وكتربيع الكلمات التي بني عليها الإسلام وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وكتربيع العرش والكعبة، وكتربيع الطبائع والعناصر التي منها جميع المواد العلوية والسفلية في عالم الغيب والشهادة، وكتربيع الفصول المعبر عنها بأربعة أيام سواء، وكالرياح

---

(١) الروم ٤٠.

(٢) روي عن الكاظم عليه السلام: (فالأول لا إله إلّا الله، والثاني محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، والثالث نحن، والرابع شيعتنا) تراث الشيخ الأوحد، ج٣٨ ص٦٢.

الأربعة الدبور والجنوب والصباء والشمال، وكالملائكة الأربعة الموكلة بأركان العرش جبرئيل وعزرائيل وإسرافيل وميكائيل، وكتربيع القوى في الإنسان كالجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة، وكالأخلاط الأربعة فيه إلى غير ذلك من المربعات.

وإذا قيل خمسة عوالم فالمراد بها عالم الأزل جل وعلا، وعالم السرمد، وعالم الجبروت، وعالم الملكوت، وعالم الملك، ومرادنا بعالم الأزل عنوانه الذي يعرف به، فإن الأزل عز وجل لا يدخل في العدد لذاته بوجه من الوجوه، وأما عنوانه فمن حيث أنه عنوان ودليل على معرفته فلا يجوز دخوله في مطلق العدد أيضًا بوجه من الوجوه، وأما من حيث هو هو فإنه خلق محدث كسائر المخلوقات لا يعرف به الله إلّا أنه يحصل به التمييز في الجملة، فعالمه غير عوالم المخلوقات، ولهذا جعلناه أول العوالم الخمسة، والمراد بعالم السرمد عالم الأمر وهو عالم المشيئة والإرادة والإبداع، والمراد بعالم الجبروت عالم العقول وهو عالم المعاني المجردة عن المادة العنصرية والصورة النفسية والمثالية والمدة الزمانية، لا التجرد المطلق كما توهمه أكثر العلماء من عبارات الحكماء المتقدمين حيث قالوا بتجرد العقول والنفوس، فإنهم إنما أرادوا ما ذكرنا لا التجرد المطلق الذي هو الواجب الحق جل وعلا، والمراد بعالم الملكوت عالم النفوس وهو عالم الصور المجردة عن المادة العنصرية والمدة الزمانية، والمراد بعالم الملكوت عالم الأجسام أوله محدد الجهات وآخره الأرض.

وإذا قيل ستة عوالم فالمراد بها عالم الدهر بجميع مراتبه، وهي عالم العقول وعالم النفوس وعالم الطبائع وعالم الهباء وعالم المثال

وهذه في الدهر، وعالم الأجسام بجميع مراتبها أولها المحدد وآخرها الأرض كما عرفت.

وإذا قيل سبعة عوالم فالمراد بها عالم النار وعالم الهواء وعالم الماء وعالم التراب وعالم الجسم وعالم النفس وعالم الروح، وهذا معنى قولهم كل شيء من الحوادث مثلث الكيان مربع الكيفية، والكيان لغة في الكون، يعني أن كل شيء في الجملة إنما يتم تركيبه إذا كان مشتملًا على الأكوان الثلاثة، أعني الجسم والنفس والروح، وعلى الكيفيات الأربع أعني الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة، وكل شيء تام لم يخل عن هذه الأصول الأربعة والأكوان الثلاثة، وكل واحد من هذه السبعة تحته أفراد كثيرة ولهذا يقال العوالم سبعة.

اعلم أن هذا العدد أي السبعة أكمل الأعداد، لتركبه من أول فرد وهو الثلاثة وأول زوج وهو الأربعة، فقد يعبر بها لكمال المعدود لا خصوصية العدد، وقد يراد بها العدد إذا كان في الأصول، وله مظاهر في العالم من الأشياء الكاملة كالسماوات السبع والأرضين السبع وكالأقاليم السبع للأرض، وكعدد الأسبوع، وعدد الطواف، وكمراتب النفس لأن لها سبع مراتب، الأمارة، والملهمة، واللوامة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة وهي التي يعبر عنها بالنفس الملكوتية الإلهية، وكالجنات السبع التي لها حظائر[1]،

---

(١) الجنات ثمان وهي:

الأولى: جنة الفردوس وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ الكهف ١٠٧.

الثانية: الجنة العالية وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ الحاقة: ٢٢ ـ ٢٣.

=

وكالنيران السبع[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ

=الثالثة: جنة النعيم وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يونس ٩

الرابعة: جنة عدن وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ البينة ٨.

الخامسة: جنة دار السلام وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الأنعام ١٢٧.

السادسة: جنة دار الخلد وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ الفرقان ١٥.

السابعة: جنة المأوى وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السجدة ١٩.

الثامنة: جنة دار المقام وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ فاطر ٣٥.

وكل هذه الجنات لها حظائر ما عدا جنة عدن ليس لها ظل لصفائها وغاية لطفها كما أشار إليه السيد الأمجد رضوان الله عليه في رسالته أصول العقائد، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(١) ودركات النار هي:

الأولى: جحيم، وهي أعلاها مرتبة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ المائدة ١٠

الثانية: لظى وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ المعارج ١٥ ـ ١٦

الثالثة: سقر وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ القمر ٤٨.

الرابعة: حُطَمة وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ الهمزة ٤.

الخامسة: هاوية وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ القارعة ٩ ـ ١١.

السادسة: سعير وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ لقمان ٢١

السابعة: جهنم وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ آل عمران: ١٢، وهي لها ثلاث طبقات: =

سَنَابِلَ﴾[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[٢] ومنه قوله: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[٣] ومنه قوله عليه السلام: (ليس شيء في الأرض ولا في السماء إلّا بسبعة بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وأجل وكتاب)[٤] هذا في الكتاب التكويني، وأما في الكتاب التدويني

=الأولى: الفلق، وهو بِئرٌ فيه توابيت.

الثانية: الصعود، وهو جبل من صِفر من نارٍ في وسط جهنم وإليها الإشارة بقوله تعالى: (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا). المدثر ١٧.

الثالثة: الآثام، وهو وادٍ من الحديد الذائب الجاري في أطراف الجبل، فعن الإمام محمد الباقر عليه الصلاة والسلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ سورة الفرقان ٦٨، قال عليه الصلاة والسلام: (آثام: وادٍ من أودية جهنم من صفرٍ مُذاب قدامه حرة في جهنم يكون فيه من عبد غير الله، ومن قتل النفس التي حرم الله، وتكون فيه الزناة). (مستدرك الوسائل ج١٤ ص٣٣٢ حديث رقم: ١٦٨٦٢).

ولكل واحدة منها حظيرة مسماة باسمها كما أشار إليه السيد الأمجد في الرسالة المذكورة آنفًا (ص٤١٢ ـ ٤١٣).

(١) البقرة ٢٦١.

(٢) لقمان ٢٧.

(٣) يوسف ٤٦.

(٤) في الكافي عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِيهِ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ جَمِيعًا عَنْ فَضَالَةَ بْنِ أَيُّوبَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَارَةَ عَنْ حَرِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْكَانَ جَمِيعًا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَكُونُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا بِهَذِهِ الْخِصَالِ السَّبْعِ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ وَقَدَرٍ وَقَضَاءٍ وَإِذْنٍ وَكِتَابٍ وَأَجَلٍ فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى نَقْضِ وَاحِدَةٍ فَقَدْ كَفَرَ). حَدَّثَنَا أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ عِمْرَانَ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ عليه السلام قَالَ: (لَا يَكُونُ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِسَبْعَةٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ وَإِرَادَةٍ وَمَشِيئَةٍ وَكِتَابٍ وَأَجَلٍ وَإِذْنٍ فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ رَدَّ=

فقد وردت الروايات من طريق العامة والخاصة أن القرآن نزل على سبعة أحرف[١] كلها كاف شاف.

وقيل أن العامة اختلفوا في معناه على ما يقرب من أربعين قولًا، وفي رواية أن للقرآن ظهرًا وبطنًا ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن، وقد جعل الله سبحانه فاتحة الكتاب التي فيها سر القرآن سبع آيات تمامها بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وجعلها بإزاء القرآن العظيم، وأعطاها نبيه صلى الله عليه وآله فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[٢] وغير ذلك من الأشياء التي يلاحظ فيها جهة الكمال.

وإذا أطلقت ثمانية عوالم يراد بها أشياء كثيرة ونحن نذكر منها واحدًا على سبيل التمثيل والتبيين ليكون آية للمتوسمين.

فنقول: إذا قيل ثمانية عوالم فالمراد بها عالم الخلق في الدنيا، وعالم الخلق في الآخرة، وعالم الرزق في الدنيا، وعالم الرزق في الآخرة، وعالم الموت في الدنيا، وعالم الموت في الآخرة، وعالم الحياة في الدنيا، وعالم الحياة في الآخرة، وحكم العوالم الأربعة أي عالم الخلق والرزق والموت والحياة في الدنيا معلوم، فقد عرفته مما أشرنا إليه سابقًا، وأما حكم الخلق في الآخرة وكذا حكم الرزق فيها فالمراد به ما يجدد فيها لأهل الجنة من أنواع النعيم رزقًا لهم بما

=عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) الكافي ج١ ص١٤٩.

(١) . عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم، قال: فقال: (إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تفسير العياشي، ج١ ص١٢ تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه.

(٢) الحجر ٨٧.

لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهو نعيم لا ينفد في ملك لا يبلى، وما يجدد لأهل النار من أنواع التعذيب والتأليم والعذاب الأليم وبما يشربون من الماء الحميم والطعام الأثيم، بما لا انقطاع له في دار لا نهاية لها، لأنه لا مدة للدار فيفنى ولا أجل للقوم فيقضى، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾(١) وقال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾(٢).

وأما حكم الموت في الآخرة فلم يكن معلومًا عند العوام بل المعلوم عدمه، إذ الآخرة لا موت فيها لأهل الجنة ولا أهل النار، ولكن عند الخواص فمعلوم ومعروف وهو الهلاك الأكبر، لأن الموت في الدنيا هو الانقطاع عن الأحباب والمفارقة للأصدقاء والأصحاب ومفارقة النعيم، وأهل النار أشد ما يعذبون به فيها بذلك نعوذ بالله من النار ومن غضب الجبار، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾(٣) والمفارقة في النار لا يرجى بعدها تلاق بخلاف مفارقة الدنيا، فكذا قيل إن الموت في الآخرة أعظم من الموت في الدنيا أربعة آلاف رتبة وتسعمائة رتبة نستجير بالله من الهلاك الأكبر.

وأما الحياة في الآخرة فهي الحياة العظمى التي لا نهاية لها في البقاء ولا في العظم ولا في العموم، أما من جهة البقاء فلا انقطاع لها بل هي مستمرة أبدًا لا آخر لها في الإمكان، وأما في العِظم فإنها تستمر في البقاء متصاعدة في القوة والمضاعفة لا إلى نهاية، فهي في

---

(١) النساء ٥٦

(٢) فاطر ٣٦

(٣) سبأ ٥٤.

آنٍ أقوى منها في ما قبله أبدا، وأما في العموم فلأن جميع ما في الجنة من جميع الحيوانات والنباتات والجمادات حية بالحياة الحيوانية المقرونة بالشعور والإحساس المقرونين بالتمييز والعقل لا يوجد فيها شيء يصدق عليه اسم الشيئية إلّا على ما وصفناه، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[1].

وفي الكافي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الرجل للرجل جزاك الله خيرًا ما يعني به؟.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: (إِن خَيْرًا نَهَرٌ فِي الْجَنةِ، مَخْرَجُهُ مِنَ الْكَوْثَرِ، وَالْكَوْثَرَ مَخْرَجُهُ مِنْ سَاقِ الْعَرْشِ، عَلَيْهِ مَنَازِلُ الْأَوْصِيَاءِ وَشِيعَتِهِمْ، عَلى حَافَتَيْ ذلِكَ النهَرِ جَوَارِي نَابِتَاتٌ، كُلمَا قُلِعَتْ وَاحِدَةٌ نَبَتَتْ أُخْرى، سُميَ بِذلِكَ النهَرُ، وَذلِكَ قَوْلُه عَزوَجَل: «فِيهِن خَيْراتٌ حِسانٌ» فَإِذَا قَالَ الرجُلُ لِصَاحِبِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَإِنمَا يَعْنِي بِذلِكَ تِلْكَ الْمَنَازِلَ التِي أَعَدهَا اللهُ ـ عَز وَجَل ـ لِصَفْوَتِهِ وَخِيَرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ)[2].

والمراد بالجواري فتاة النساء كما في القاموس، فقوله عليه السلام: (على حافتي ذلك النهر جواري نابتات) تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[3]، إشارة إلى أن للنباتات في الجنة حياة كحياة الحيوانات مقرونة بالشعور والإحساس المقرونين بالتمييز والعقل فافهم.

وهذا مجمل الإشارة إلى حياة الآخرة والأمر أعظم وأعظم،

---

(١) العنكبوت ٦٤.

(٢) الكافي، ج٨ ص٢٣٠ حديث يأجوج ومأجوج.

(٣) الرحمن ٧٠.

وستعرفه إذا دخلت الجنة إن شاء الله، وترى ما وصفت لك من الحياة الكبرى إذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا لا يوصف.

وإذا أطلقت تسعة عوالم فالمراد بها عالم القلوب التي مبدؤها من الحدود، وعالم النفوس التي مبدؤها من فلك الثوابت، وعالم العقول، وعالم العلوم، وعالم الأوهام، وعالم الوجودات الثانية، وعالم الخيالات، وعالم الأفكار، وعالم الحياة التي مبدؤها من الأفلاك السبعة.

وإذا قيل عشرة عوالم فالمراد بها هذه التسعة وعالم الأجساد التي مبدؤها من العناصر الأربعة.

وإذا قيل أحد عشر عالمًا فالمراد بها عوالم التوحيد وميادينه ومراتبه التي أشرنا إليها سابقًا، خمسة منها مراتب التوحيد الحق، وخمسة منها مراتب التوحيد الباطل، وواحدة منها مترددة بين الحق والباطل.

وإذا قيل اثني عشر عالمًا فمن المراد به العوالم النارية والهوائية والمائية والترابية في الجبروت، والعوالم النارية والهوائية والمائية والترابية في الملكوت، والعوالم النارية والهوائية والمائية والترابية في الملك، فهذه اثنى عشر عالما، وعناصر كل عالم من العوالم الثلاثة أعني عالم الجبروت والملكوت والملك بحسب عالمها من حيث البساطة والتركيب، فإذا لوحظ الأجناس أو الأنواع أو الأصناف يقال اثني عشر ألف عالم، وإذا لوحظ الأفراد أيضًا وأريد بالعدد مجرد الكثرة لا خصوصية العدد يقال اثنى عشر ألف ألف عالم.

وإذا قيل ثلاثة عشر عالمًا فالمراد بها عوالم الأفلاك التسعة وعوالم العناصر الأربعة.

وإذا أضيف إليها حكم فلك البروج يقال أربعة عشر عالمًا.

وإذا أضيف إليها حكم فلك المنازل أيضًا يقال خمسة عشر عالمًا.

وإذا قيل ستة عشر عالمًا فمن المراد بها عوالم الأفلاك التسعة والعوالم السبعة التي فوقها بحسب الرتبة لا بحسب المكان، وهي عالم جسم الكل، وعالم المثال، وعالم جواهر الهباء، وعالم الطبائع المجردة، وعالم النفوس الجوهرية، وعالم الرقائق الروحية، وعالم العقول والذوات المجردة.

فإذا أضيف إليها حكم فلك البروج هنا يقال سبعة عشر عالما.

وإذا أضيف إليها حكم فلك المنازل أيضا يقال ثمانية عشر عالمًا، فإذا لوحظ الأجناس أو الأنواع أو الأصناف يقال ثمانية عشر ألف عالم، وإذا لوحظ الأفراد كذلك يقال ثمانية عشر ألف ألف عالم.

وإذا أضيف إلى المذكورات عالم الأجساد المركب من العناصر الأربعة يقال تسعة عشر عالمًا.

وإذا لوحظ العنصر الناري والعنصر الهوائي الذي هو وسط العالم الكبير وأضيفا إلى المذكورات دون عالم الأجساد يقال عشرون عالما، وهو عدد كاف الكون، وذلك أي قولنا العنصر الهوائي وسط العالم الكبير، لأن العالم الكبير له جهتان عليا وسفلى.

أما جهته العليا فأول مرتبة منها عالم العقل الأول، ثم الروح الكلية، ثم النفس، ثم الطبيعة، ثم جوهر الهباء الكلي، ثم عالم المثال، ثم جسم الكل، ثم فلك المحدد، ثم فلك الثوابت، ثم فلك البروج، ثم فلك المنازل، ثم السموات السبع، ثم العنصر الناري، ثم العنصر الهوائي الذي قلنا أنه وسط العالم تنتهي مراتبه العلوية إليه، وهي عشرون عالمًا.

وأما جهته السفلى فأول مرتبة منها عالم الجهل الأول، ثم ما تحت الثرى، ثم الثرى، ثم الطمطام، ثم النيران، ثم الريح العقيم، ثم البحر، ثم الحوت، ثم الثور، ثم صخرة سجين، ثم الملك الحامل للأرضين، ثم الأرضون السبع، أرض الشقاوة وأرض الإلحاد وأرض الطغيان وأرض الشهوة وأرض الطبع وأرض العادات وأرض الموات، ثم كمثل الكلب الذي هو مقابلة كرة النار، ثم السموم الذي هو مقابلة الهواء وظاهره، فهذه أيضًا عشرون عالمًا تنتهي مراتب العالم الكبير من جهته السفلى إلى الهواء، فالهواء وسط العالم باطنه فيه الرحمة والحياة القديم، وظاهره من قبله السموم والعذاب الأليم فافهم.

فإذا أضفت العشرين إلى العشرين يكون المجموع أربعين عالمًا وهي تمام مراتب الكون ظاهرًا وباطنًا، فإذا لوحظ الأجناس أو الأنواع أو الأصناف قيل أربعون ألف عالم، وإذا لوحظ الأفراد أيضًا قيل أربعون ألف ألف عالم وهكذا، كلما أضيفت إلى المراتب العشرين العليا مرتبة من مراتب الوجود، كمرتبة العنصر المائي أو الترابي أو مرتبة الجماد أو النبات أو الحيوان، أو مرتبة الملك أو الجن أو الإنس، أو مرتبة الجامع عليه السلام، زيد في عدد العوالم العلوية صاعدة إلى تسعة وعشرين عالما في الجهة العليا من الوجود، وكذا إذا أضيفت إلى المراتب العشرين السفلى مرتبة من مراتب الوجود كمرتبة الماء الأجاج، أو مرتبة الأرض السبخة، أو مرتبة الحجارة والحديد، أو مرتبة النبات المر، أو مرتبة المسوخ، أو مرتبة الشياطين، أو مرتبة شياطين الجن، أو مرتبة شياطين الإنس، أو مرتبة إبليس الأبالسة لعنه الله، زيد في عدد العوالم السفلية نازلة إلى تسعة وعشرين عالمًا في الجهة السفلى من الوجود.

فإذا أسقطت عالم الروح الكلية من الجهة العليا، الذي هو برزخ بين عالم العقل والنفس، وأسقطت عالم ما تحت الثرى من الجهة السفلى الذي هو برزخ بين عالم الجهل والثرى، بقيت عوالم الحروف الكونية العلوية والسفلية وهي الثمانية والعشرون حرفًا علويًا نورانيًا، والثمانية والعشرون حرفًا سفليًا ظلمانيًا، ويصير مجموعهما ستة وخمسين عالمًا.

وإذا لحظت الأجناس أو الأنواع أو الأصناف التي تحت تلك العوالم قلت ستة وخمسون ألف عالم، وإذا لحظت الأفراد والأشخاص أيضًا مع إرادة مجرد الكثرة في إطلاق العدد تقول ستة وخمسون ألف ألف عالم، وهكذا يلاحظ الوجود في مراتبه وتنزلاته وتطوراته، في الأجناس والأنواع والأصناف والأفراد والذوات والصفات والأحوال والأفعال والأقوال والأمثال والأشكال والألفاظ والنقوش، وغير ذلك من أطوار الوجود في عالم الغيب والشهود، ويزاد في عدد العوالم إلى ألف ألف عالم.

وأما الآدميون الذين أشار الإمام عليه السلام إليهم في قوله: (وخلق الله ألف ألف آدم) فالمراد بهم تنزلات مراتب الإمكان والأكوان الوجودية وتطوراتها في الأجناس والأنواع والأصناف والذوات والصفات والأحوال والأمثال والأشكال والأفعال والأقوال والألفاظ والنقوش، وغير ذلك من أطوار الوجود في عالم الغيب والشهادة على نحو ما ذكرناه من العوالم.

وأول آدم وجد في عالم الإمكان هو المشيئة، وهو فعل الله الذي خلقه بنفسه وأمسكه بظله، وهو آدم الأكبر وحواهُ الجواز أي الإمكان الراجح، وأولاده وذريته المشيئات الجزئية أو الكلية الإضافية التي

يعبر عنها برؤوس المشيئة الكلية ووجوهها التي بها كونت جزئيات الأشياء وكلياتها، فإن كل شيء خلقه الله وكونه إنما خلقه وكونه بمشيئة خاصة به هو رأس من رؤوس المشيئة الكلية ووجه من وجوهها.

وقد ذكرنا سابقًا أن شرط ظهور المشيئة الذي هو آدم الأكبر الحقيقة المحمدية وفلك الولاية المطلقة الذي هو أول مكون بآدم الأول، وهو نور الأنوار المعبر عنه بالوجود والماء الذي به حياة كل شيء في عالم الغيب والشهادة، وأصل كل موجود مكون محدث، وهذا النور لا يمكن فيه من حيث ذاته أكثر من أربعة عشر شخصًا، إلّا أن يشاء الله أن يغير ما أجري في حكمته فإنه على كل شيء قدير.

وهذا آدم الثاني وأولاده تنزلاته وظهوراته بأشعته ومظاهره، وهي مائة وأربعة وعشرون ألفا، وأما عدد أولاد أولاده وهكذا إلى آخر مراتب تنزلاته وظهوراته بأشعته وأشعة أشعته وهكذا، فلا يحصي عددهم إلّا الله ورسوله صلى الله عليه وآله ومن قال الله تعالى في حقه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[1].

وثاني مكون من الكون الأول العقل الكلي، وأولاده العقول الجزئية وهي كلية إضافية، وهي مائة وأربعة وعشرون ألفا، وعدد أولاد أولاده وهكذا إلى آخر مراتب ظهوراته على نحو ما أشرنا إليه في بيان أولاد المكون الأول وهذا آدم الثالث.

وهكذا آدم الرابع وهو الروح الكلية وأولاده وهي الأرواح الجزئية، والنفس الكلية والنفوس الجزئية، وهي كلمات اللوح

---

(١) يس ١٢.

المحفوظ، والطبيعة الكلية والطبائع الجزئية وهلم جرا إلى عالم الأجسام، تترامى العوالم وتظهر الآدميون نازلة إلى عالم التراب، ثم ترجع صاعدة إلى مقام الجامع عليه السلام، ثم منه إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، ويتحقق في كل رتبة من مراتب الإمكان والأكوان نزولًا وصعودًا بظهور آدم الأول الأكبر بآدم الثاني بظهوراته عالم كلي وعوالم جزئية كثيرة، وآدم كلي وآدميون كذلك، إلى ألف ألف عالم وألف ألف آدم ونحن في آخر العوالم وآخر الآدميين.

وقد ظهر مما ذكرنا أن كل عالم آدم كما أن كل آدم عالم، ولهذا ساوى عليه السلام بين عدد العوالم وعدد الآدميين فقال عليه السلام: (لقد خلق الله تعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم).

نعم إذا لوحظ الشيء من حيث أنه مما يعلم به الصانع يسمى عالمًا، وإذا لوحظ من حيث أنه أب يتولد منه الأولاد، وأصل يتكون منه الأشياء يسمى باسم آدم، وكل آدم ظهر في هذا العالم فهو لم يخلق من أب وأم إلّا الأب والأم المعنويين اللذين تركبت ذاته منهما، والمراد بالأب المعنوي وجود الشيء الذي هو مادته، والمراد بالأم المعنوية ماهية الشيء التي هي صورته، كالسرير مثلا فإن ذاته تركبت من مادة وهي الخشب ومن صورة وهي الهيئة المعروفة، فالأب هو المادة والأم هي الصورة، وهذه الأم هي التي سعد في بطنها من سعد وشقي في بطنها من شقي، فكان الناس من جهة الآباء أمة واحدة، ومن جهة الأمهات صاروا مختلفين حين بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وذلك لأنهم عليهم السلام بعثوا بالتكليف الجامع للتوحيد والنبوة والولاية وما تقتضيه الولاية من الأمر والنهي، والناس كانوا مختارين في قبول التكليف وإجابة الدعوة وعدمها، فمن قبل منهم

تكليفه وعمل بمقتضاه صوره بقبوله وعمله الاختياري على صورة حسنة وهي الصورة الإنسانية وخلقه على هيكل التوحيد، ومن لم يقبله صوَرهُ بمقتضى تركه التكليف وعمله الاختياري على صورة قبيحة وهي الصورة الحيوانية الشيطانية وخلقه على هيكل الجحود، فكما أن حسن السرير في صورته التي هي الأم، وقبح الصنم في صورته التي هي الأم، لا في الخشب الذي هو الأب، لأن الخشب هو الذي كان السرير والصنم فيه أمة واحدة لا قبح فيه ولا حسن، كذلك السعادة والشقاوة إنما تكونان في بطن الصورة التي هي الأم السعيدة أو الشقية، لا في صلب الأب الذي هو المادة، لأن المادة هي جهة الآباء التي كان الناس فيها أمة واحدة لا سعادة فيها ولا شقاوة.

فإذا ثبت أن كل عالم يطلق عليه اسم آدم وبالعكس فقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دال على أن ربوبيته جارية في ألف ألف عالم وألف ألف آدم، وإضافة الرب للعالمين تفيد أن المراد بالربوبية هنا الربوبية إذ مربوب، وهي فعله ومشيئته، وقد عرفت أن شرط ظهورها الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله، والربوبية مع الحقيقة كالحديدة المحماة، فكما أن تأثير النار بالحديدة كذلك تأثير الربوبية بالحقيقة المحمدية، وقد تقدم قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه في وصف النبي صلى الله عليه وآله في خطبة يوم الغدير قال عليه السلام: (وَأَشْهَدُ أَن مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اسْتَخْلَصَهُ فِي الْقِدَمِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ انْفَرَدَ عَنِ التشَاكُلِ وَالتمَاثُلِ مِنْ أَبْنَاءِ الْجِنْسِ وَانْتَجَبَهُ آمِرًا وَنَاهِيًا عَنْهُ أَقَامَهُ فِي سَائِرِ عَالَمِهِ فِي الْأَدَاءِ مَقَامَهُ إِذْ كَانَ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَلَا تَحْوِيهِ خَوَاطِرُ الْأَفْكَارِ وَلَا تُمَثلُهُ غَوَامِضُ الظنون فِي الْأَسرار لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْجَبار...إلخ)، ثم قال عليه السلام بعد هذا الكلام بلا فاصلة: (وَأَن اللهَ تَعَالَى اخْتَص لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَبِيهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَرِيتِهِ خَاصةً عَلاهُمْ بِتَعْلِيَتِهِ وَسَمَا بِهِمْ إِلَى رُتْبَتِهِ

وَجَعَلَهُمُ الدعَاةَ بِالْحَق إِلَيْهِ وَالْأَدِلاءَ بِالْإِرْشَادِ عَلَيْهِ..إلخ)[١]، فقوله عليه السلام: (أَقَامَهُ فِي سَائِرِ عَالَمِهِ فِي الْأَدَاءِ مَقَامَهُ) في وصف النبي صلى الله عليه وآله، وقوله عليه السلام في وصف نفسه وأولاده الطيبين: (عَلاهُمْ بِتَعْلِيَتِه بِتَعْلِيَتِهِ وَسَمَا بِهِمْ إِلَى رُتْبَتِهِ) كاف في الدلالة على ما نحن بصدد ذكره، وهو أن ربوبيته تعالى لجميع العالمين، أعني ألف ألف عالم وألف ألف آدم قائمة به وبهم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

أما عالم المشيئة الذي هو آدم الأكبر وهو الربوبية إذ مربوب فهو قائم بهم عليهم السلام قيام ظهور لا تظهر إلّا بهم.

وأما عالم الوجود الذي هو آدم الثاني الذي هو نور الأنوار فهو عبارة عنهم قائم بهم، لأن الله سبحانه أقامه بنفسه، فهو قائم بنفسه قيامًا ركنيًا، وإن كان قائمًا بفعل الله قيام صدور، فيصدق عليه أنه قائم بهم.

وأما جميع العوالم والآدميين بعد هذين العالمين فهو قائم بهم قيام تحقق[٢] وقيام صدور، وذلك لأن كل عالم وآدم، بل كل شيء سوى الله عز وجل لا يتحقق في الإمكان ولا يبرز منه إلى الأكوان إلّا بعلل أربع[٣]، وهم عليهم السلام العلل الأربع لكل شيء في عالم الإمكان والأكوان.

---

(١) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢ ص٧٥٣ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير.

(٢) راجع في موضوع القيامات تراث الشيخ الأوحد ج١٧ ص١٨٢. جواهر الحكم ج١ ص٢٣٤ ـ ٢٣٥. جواهر الحكم ج٤ ص٢٢٨. جواهر الحكم ج٥ ص١٣٤. مخازن جواهر التنزيل ص٧٠ ـ ٧٣.

(٣) يعني العلة المادية والصورية والفاعلية والغائية، ولقد صنف علماؤنا الأعلام أعلى الله كلمتهم في بيان هذه المسألة وانحصار العلل الأربع في أهل بيت العصمة=

أما أنهم عليهم السلام العلة الفاعلية فلأنهم محال مشيئة الله التي هي الربوبية إذ مربوب، فلا تتعلق بشيء من الأشياء إلّا بهم، فهم عليهم السلام أركان لتأثير المشيئة والربوبية كالحديدة المحماة التي هي ركن لتأثير النار.

وأما أنهم العلة المادية فلأن وجود كل شيء قائم بأشعة أنوارهم عليهم السلام، فأشعة أنوارهم ملأت أركان كل شيء من الغيب والشهادة.

وأما أنهم عليهم السلام العلة الصورية، فلأن كل شيء من الأشياء سواء كان جوهرًا أو عرضًا ذاتًا أو صفة، فصورته إن كان طيبًا فمن أنوار هياكلهم وأنوار هياكل هياكلهم وهكذا، لأنهم عليهم السلام رحمة الله ومظاهر رحمة الله ومظهروا رحمة الله، والله سبحانه خلق الأشياء الطيبة من نوره وصبغها في رحمته، والصبغ في الرحمة هو تصوير الشيء على هيكل التوحيد، فالأشباح تلوح على أشباحهم وأشباح أشباحهم وهكذا، وإن كان خبيثًا فصورته من عكس أنوار هياكلهم، والله سبحانه خلق الأشياء الخبيثة بخبثها من عكس نوره وصبغها في عكس رحمته وهو الغضب، والصبغ في الغضب هو تصوير الشيء على هيكل الجحود، فهم عليهم السلام: (بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

=والطهارة محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين رسائل وكتب، ولعل من أجود ما قرأت في هذا الباب هو ما صنفه المولى المقدس الشيخ محمد بن الشيخ حسين آل أبي خمسين الأحسائي قدس الله نفسه الزكية في كتابه (نجاة الهالكين في حصر العلل الأربع في محمد وآله الطاهرين)، كما شرح وبين مرادات علمائنا بهذه المسألة بأعلى بيان مولانا المعظم المقدس آية الله المعظم الحكيم الإلهي والفقيه الرباني الميرزا موسى الحائري الأحقاقي الأسكوئي طيب الله ثراه في كتابه (إحقاق الحق).

الْعَذَابُ)[١]، فالطيب صورته من باطنهم وهو الرحمة وهي ولايتهم، والخبيث صورته من ظاهرهم أي خلافهم وهو الغضب وهو عداوتهم عليهم السلام.

وأما أنهم العلة الغائية فلأن الله سبحانه خلق الأشياء لهم قال تعالى: (خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك) وقال عليه السلام: (نحن صنائع الله والخلق بعد صنائع لنا).

فربوبيته تعالى نفسها وما ظهر من آثارها من ألف ألف عالم وألف ألف آدم، فهي قائمة بهم قيام ظهور أو قيام تحقق وصدور، فهم صلوات الله عليهم سادات الخلق وأربابهم، وهم ملوك الدنيا والآخرة، والله سبحانه رب الأرباب وإله الآلهة وسيد السادة وملك الملوك وجبار الجبابرة، فإياب الخلق إليهم وحسابهم عليهم، قالوا عليهم السلام: (اجعلوا لنا ربًا نؤوب إليه وقولوا في فضلنا ما شئتم ولن تبلغوا).

ثم اعلم أن ما ذكرنا من معنى العوالم والآدميين هو الذي تدل عليه الأخبار ويشير إليه دليل العقل، فلا تتوهم أنه من قبيل الصناعات والخرافات، وأن الإمام عليه السلام إنما أراد من معنى العوالم والآدميين ما يفهمه العوام لا المعنى الذي أشرنا إليه، لأني أقول: أن ما ذكرنا هو بعينه ما يفهمه العوام، لأن العالم عندهم ما له سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وأشجار وجبال وتلال وصحاري وبحار وغير ذلك مما هو داخل في مفهوم العالم، وكذا آدم عندهم من كان له ذرية ولم يولد هو من أب وأم ظاهر، وهو نوع من الأنواع تنتهي إليه سلسلة أفراد ذلك النوع، وكان فيه تناكح وتناسل، ولهم رزق ومعيشة وحياة

---

(١) الحديد ١٣.

وموت وتكليف وعبادة وصلاة وتسبيح وطاعة ومعصية، وفيهم مؤمن وكافر، قد أرسل الله فيهم رسولًا بلسانهم يبشر من أطاع منهم بالثواب وينذر من عصى منهم من العقاب، وأن لهم عقل وشعور وبعث ونشور، وأنهم يوم القيامة يبعثون، ثم يوفون أجورهم وهم لا يظلمون، وغير ذلك مما جرى لهم وعليهم، وهذه الأمور كلها بعينها موجودة في العوالم والآدميين الذين أشرنا إليهم ولكن كل شيء بحسبه، إلّا أن العوام لقلة تأملهم وقصور إدراكهم عن فهم الحقائق، وأنسهم بعالم المحسوسات، ملهأم

لا يثبتون تلك الأمور إلّا لمن هو من جنسهم ونوعهم، ولا يدركون إلّا ما هو في عالمهم أي عالم المحسوسات، ألا ترى أنهم إذا سمعوا أن لله ملائكة مدبرات لها أجنحة يطيرون بها في جهاتهم، يتوهمون أن الملائكة كلها من قبيل الماديات تقبل الزيادة والنقصان كالحيوانات، أو أن أجنحتهم كأجنحة الحمامة أو الطاووس مثلًا، ولا يعلمون أنها صور عالية عن المواد عارية عن القوة والاستعداد تجلى لها ربها فأشرقت وطالعها فتلألأت فألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله كما قال أمير المؤمنين في وصفها[1]، وأن الله تعالى جعل الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع تطير بها بعضها في فضاء الجبروت وبعضها في هواء الملكوت وبعضها في عالم الملك والناسوت، ومن قصور إدراكهم وقلة تأملهم أنهم يخصون الشعور

---

(١) سئل عليه السلام عن العالم العلويّ فقال: (صور عارية عن الموادّ عالية عن القوّة والإستعداد تجلّى لها فأشرقت وطالعها فتلألأت وألقى في هويّتها مثاله فأظهر عنها أفعاله وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكّاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها واذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السّبع الشّداد) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٢٣.

والإحساس والتمييز والعقل والتكليف والعبادة والثواب والعقاب لنوع الإنسان، ولا يرون للجمادات والنباتات وسائر الحيوانات غير الإنسان، ولا لشيء من الأشياء غير الملائكة والجن والإنس شعورًا وعقلًا، ولا تكليفًا وعبادة ولا صلاة أوتسبيحًا، فإذا سمعوا من أهل العصمة عليهم السلام، أو من العلماء العارفين بحقائق الأمور الذين أراهم الله الأشياء كما هي ببركة أئمتهم عليهم السلام، أن الأشياء كلها مكلفون لها شعور وإحساس مقرونان بالتمييز والعقل، أو تليت عليهم آيات الله التي تدل على ذلك تحيروا في المعنى المقصود، ولا يهتدون إليه سبيلًا، فمن كان منهم من أهل التسليم والتصديق صدق بلا تصور وسلم ونجا، ومن كان منهم من أهل الجدل والشقاق جحد وأنكر بلا تأمل وهلك ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[1].

فإن أردت أن تعرف أن الأشياء كلها جارية على نمط واحد في أمر التكليف والبعث والثواب والعقاب، وأن لها شعورًا تكليفيًا وتمييزًا وعقلًا جليًا وعبادة توقيفية، وتسبيحًا وتهليلًا وتمجيدًا وتحميدًا حقيقة كالنبي آدم، إلّا أن كل هذه الأمور في كل شيء بحسبه، فانظر إلى آيات الله التي أراها خلقه في الآفاق وفي أنفسهم، وتدبر آيات القرآن الذي فيه تبيان كل شيء، وتأمل في أخبار أهل العصمة عليهم السلام وكلام العلماء العارفين بمراداتهم، ليتبين لك المراد ويظهر لك من الحق ما خفي عن أكثر العباد، ونحن نشير إلى بعض الآيات والأخبار وكلام العلماء الذي أوردوه في هذا المقام.

فنقول: أما الآيات فكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا

---

(١) الإسراء ٧٢.

وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[١] وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[٢] وكقوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٣] وقوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[٥] وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] وقوله تعالى حكاية عن الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾[٩] ثم أجمل القول فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١٠] وقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[١١].

---

(١) فصلت ١١.
(٢) النحل ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) الأنعام ٣٨.
(٤) الأنبياء ٧٩.
(٥) سبأ ١٠.
(٦) النمل ١٨.
(٧) النمل ٢٢ ـ ٢٣.
(٨) الرحمن ٦.
(٩) الرعد ١٥.
(١٠) الإسراء ٤٤.
(١١) النور ٤١.

وأما الأخبار فكثيرة عمومًا وخصوصًا، كعموم الأخبار الدالة على أن ولايتهم عليهم السلام عرضت على السموات والأرض والجبال والنبات والشجر والحجر وكل شيء مما خلقه الله، فما قبل ولايتهم طاب وطهر، وما أنكرها خبث وقذر كالأرض السبخة والماء الأجاج[1].

وأما خصوص الأخبار الدالة على أن الأشياء كلها مكلفة وأن لها شعورا وعقلا تكليفيا، فكما روي عن حمران بن أعين قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يحدث عنه أبيه عن آبائه عليهم السلام: (أَنَّ رَجُلًا كَانَ مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَرِيضًا شَدِيدَ الْحُمَّى، فَعَادَهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام فَلَمَّا دَخَلَ بَابَ الدَّارِ طَارَتِ الْحُمَّى عَنِ الرَّجُلِ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ رَضِيتُ بِمَا أُوتِيتُمْ بِهِ حَقًّا حَقًّا وَالْحُمَّى لتَهْرُبُ مِنْكُمْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ أَمَرَهُ بِالطَّاعَةِ لَنَا، يَا كِبَاسَةُ قَالَ فَإِذَا نَحْنُ نَسْمَعُ

---

(١) الأخبار في ذلك كما ذكر المصنف كثيرة جدًا، ونحن نذكر خبرًا واحدًا منها وهو وما روي في الكافي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَقِيصَا التَّيْمِيِّ قَالَ: مَرَرْتُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ صلى الله عليهما وَهُمَا فِي الْفُرَاتِ مُسْتَنْقِعَانِ فِي إِزَارَيْنِ فَقُلْتُ لَهُمَا: يَا ابْنَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكُمَا أَفْسَدْتُمَا الْإِزَارَيْنِ، فَقَالا لِي: (يَا أَبَا سَعِيدٍ فَسَادُنَا لِلْإِزَارَيْنِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ فَسَادِ الدِّينِ، إِنَّ لِلْمَاءِ أَهْلًا وَسُكَّانًا كَسُكَّانِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالا: إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ، فَقُلْتُ: إِلَى هَذَا الْمَاءِ، فَقَالا: وَمَا هَذَا الْمَاءُ، فَقُلْتُ أُرِيدُ دَوَاءَهُ أَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمُرِّ لِعِلَّةٍ بِي أَرْجُو أَنْ يَخِفَّ لَهُ الْجَسَدُ وَيُسْهِلَ الْبَطْنَ فَقَالا: مَا نَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَ فِي شَيْءٍ قَدْ لَعَنَهُ شِفَاءً قُلْتُ: وَلِمَ ذَاكَ فَقَالا: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا آسَفَهُ قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام فَتَحَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَأَوْحَى إِلَى الْأَرْضِ فاسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ عُيُونٌ مِنْهَا فَلَعَنَهَا وَجَعَلَهَا مِلْحًا أُجَاجًا) وَفِي رِوَايَةِ حَمْدَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ أَنَّهُمَا عليهما السلام قَالا: (يَا أَبَا سَعِيدٍ تَأْتِي مَاءً يُنْكِرُ وَلَايَتَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ وَلَايَتَنَا عَلَى الْمِيَاهِ فَمَا قَبِلَ وَلَايَتَنَا عَذُبَ وَطَابَ وَمَا جَحَدَ وَلَايَتَنَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُرًّا أَوْ مِلْحًا أُجَاجًا) الكافي، ج٦ ص٣٩٠ باب المياه المنهي عنها.

الصَّوْتَ وَلَا نَرَى الشَّخْصَ يَقُولُ لَبَّيْكَ، قَالَ أَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَكَ أَلَّا تَقْرَبِي إِلَّا عَدُوًّا أَوْ مُذْنِبًا لِكَيْ تَكُونَ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ، فَمَا بَالُ هَذَا وَكَانَ الرَّجُلُ الْمَرِيضُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ اللَّيْثِيُّ)[1] انتهى.

وكما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (إن حمار النبي الذي يسمى عفير كزبير كلم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمي إِن أَبِي حَدثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدهِ عَنْ أَبِيهِ أَنهُ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السفِينَةِ فَقَامَ إِلَيْهِ نُوحٌ فَمَسَحَ عَلَى كَفَلِهِ ثُم قَالَ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا الْحِمَارِ حِمَارٌ يَرْكَبُهُ سَيدُ النبِيينَ وَخَاتَمُهُمْ فَالْحَمْدُ لِلهِ الذِي جَعَلَنِي ذَلِكَ الْحِمَارَ)[2].

وذكر عليه السلام أن أول شيء من الدواب توفي عفير ساعة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله فقطع خطامه ثم مر يركض حتى أتى بئر بني حطمة بقبًا فرمى بنفسه فكانت قبره[3].

وكما روي عن الصادق عليه السلام: (إِن أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرقِيمَ كَانُوا فِي زَمَنِ مَلِكٍ جَبارٍ عَاتٍ وَكَانَ يَدْعُو أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ قَتَلَهُ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ عز وَجَل، وَوَكلَ الْمَلِكُ بِبَابِ الْمَدِينَةِ وُكَلَاءَ، وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَخْرُجُ حَتى يَسْجُدَ لِلْأَصْنَامِ، فَخَرَجَ هَؤُلَاءِ بِحِيلَةِ الصيْدِ، وَذَلِكَ أَنهُمْ مَروا بِرَاعٍ فِي طَرِيقِهِمْ فَدَعُوهُ إِلَى أَمْرِهِمْ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، وَكَانَ مَعَ الراعِي كَلْبٌ فَأَجَابَهُمُ

---

(١) رجال الكشي، ص٨٨. مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٤ ص٥١.

(٢) الكافي، ج١ ص٢٣٧.

(٣) فَذَكَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: (أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ تُوُفِّيَ عُفَيْرٌ سَاعَةَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَطَعَ خِطَامَهُ ثُمَّ مَرَّ يَرْكُضُ حَتَّى أَتَى بِئْرَ بَنِي خَطْمَةَ بِقُبَا فَرَمَى بِنَفْسِهِ فِيهَا فَكَانَتْ قَبْرَه) الكافي، ج١ ص٢٣٧ باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله صو متاعه.

الْكَلْبُ وَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَقَالَ الصادِقُ عليه السلام: فَلَا يَدْخُلُ الْجَنةَ مِنَ الْبَهَائِمِ إِلا ثَلَاثَةٌ، حِمَارُ بَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَاءَ وَذِئْبُ يُوسُفَ وَكَلْبُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ)[1] الحديث.

وأما كلام العلماء العارفين بحقائق الأشياء المشتمل على ذكر الآيات والأخبار، وبيان بعض معناهما، فكقول الشيخ أعلى الله مقامه في شرح العرشية لصدر الدين الشيرازي، في بيان كيفية البعث والحشر، واختلاف الحكماء في حشر الحيوانات ما سوى الإنسان، قال الشيخ أعلى الله مقامه:

(أقول: ما سوى الإنسان والجن والشياطين والملائكة فقد اختلف الناس فيه، وأصل اختلافهم في أن غير ما ذكر مكلف أم لا، واختلافهم في التكليف مبني على الاختلاف في أن هذه الأشياء من الحيوانات والنباتات والجمادات هل لها شعور وتمييز أم لا؟

فقيل: إن الحيوانات والنباتات والجمادات ليس لها عقول ولا تمييز، والتكليف منوط بأولي العقول، وما ليس بمكلف لا فائدة في بعثه، لما ذكر من أن البعث إنما هو للمجازاة على الأعمال بالثواب أو العقاب.

وقيل: إن لها عقولًا وتمييزًا.

وأحب نقل كلمات للسيد نعمة الله الجزائري، في رسالته التي صنفها في الطاعون، وأسبابه وأحكامه، وإن كانت طويلة لأنه لما ذكر أن الوباء والطاعون ينقي الزمان من كثير من الفسقة والظلمة قال: (فإن قلت قد ذكرت الحيوانات والجمادات وأدخلتها في أحكام التنقية

---

(١) تفسير القمي، ج٢ ص٣٣.

فهل يدخلون في نظام النفوس الناطقة وهل يتحصل لهم شعور وعلم وتكليف؟.

قلت: هذه مسألة غريبة والبحث عنها أغرب.

فالجواب: أن النطق والكلام للطيور والحيوانات مما وردت الأخبار متواترة به، وكفى بذلك ما حكى الله سبحانه في الكتاب المجيد عن النملة وكلامها مع سليمان عليه السلام، وسمع سليمان عليه السلام عصفورًا يقول لعصفورته: لِمَ تمنعيني نفسك وأنا أقدر على أن آخذ سرير سليمان عليه السلام بمنقاري وأرمي به في البحر فطلبهما سليمان فقال: لا تقدر.

فقال: يا نبي الله، الزوج يعظم نفسه عند زوجته كيلا تطمع فيه.

ثم قال عليه السلام للأنثى: لم تمنعيه نفسك، وهو يحبك؟.

فقالت: يا نبي الله إنه مدع يزعم أنه يحبني، وهو يهوى غيري، فأثر كلام العصفورة في قلب سليمان ودخل بيته وبقي أربعين يومًا، يعني أن العصفورة لا تريد الشركة في الحب فكيف يكون سليمان يحب الله تعالى ويحب الملك والسلطان.

وفي الحديث: (إن القبرة وأنثاها كانا قد اتخذا عشهما في جواد الأرض عند دنو وقت الفراخ، فما شعرا إلّا وقد أتى سليمان عليه السلام وعساكره ونزلا بالقرب منهما فخافا على فراخهما فقالت الأنثى: إن سليمان نبي كريم، وهو يحب الهدية وكانا خبآ لأفراخهما تمرة وجرادة فحمل أحدهما التمرة والآخر الجرادة، فلما أتيا سليمان عليه السلام بسط يديه فوقع الذكر على اليمين والأنثى على اليسار، فتكلما معه وقبل هديتهما ودعا لهما بخير وأمر عساكره ألا يمروا على طريقهما ثم إنه مسح على رؤوسهما، فكان التاج من مسح سليمان عليه السلام

وتسبيحهما في الأسحار لعن الله مبغضي آل محمد صلى الله عليه وآله ، ومن ثم ورد النهي في كراهة ذبحهما.

وقال عليه السلام : (لا تدعوا صبيانكم يلعبون بالقنابر).

وأما العصفور فورد في الخبر أنه من شيعة عمر بن الخطاب وأنه لما عرضت عليه ولاية أهل البيت عليهم السلام لم يقبلها وكذلك الفاختة والرخمة.

وفي الحديث: (أنه ما صيد الصيد في بر، أو بحر، إلّا في حال ترك التسبيح).

وأئمتنا عليهم السلام وخواص أصحابهم كانوا يعرفون كلام الطيور والحيوانات ويترجمونها للناس.

وفي الرواية: أن الخطاف دل آدم على الحواء عليهما السلام، حتى اجتمعا في مكة شرفها الله تعالى فعاتبه الله على جمعه من فرقه الله تعالى فقال الخطاف: إلهي ألست قلت: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[1]، ورأيت آدم منفردًا أردت أيضًا أن يكون مع حواء زوجين غيرة مني على وحدانيتك.

فقال تعالى: عفوت عن قبح فعلك بحسن عذرك، وجعلتك في جوار ذريته وأمانهم.

وفي الحديث إن صوته قراءة سورة الفاتحة ومد صوته قراءة الأخير يقول فيه الضالين.

وبالجملة كلام الحيوانات ولغاتها مما لا ينبغي إنكاره، وعدم فهمنا له لا يدل على إنكاره، فإنا نرى بعض الهنود يتكلمون بلغة تقع

---

(١) الذاريات ٤٩.

في الأسماع مثل أصوات الخطاطيف، من غير حروف ولا تمييز كلمات، مع أنها لغة عندهم يتعارفون بها.

وأما أن لها نفوسًا ناطقة بمعنى الشعور والعلم بمصالحها ومضارها ونحو ذلك، فذهب إليه قدماء الحكماء والمحققون منهم، وصرح به ابن سيناء في جواب أسئلة بهمنيار.

وقال القيصري في شرح فصوص الحكم: (لا تفاوت بين الإنسان والحيوانات في النفوس الناطقة، ولا دليل على نفيه بل هي دراكة للكليات، والجهل بالشيء لا ينافي وجوده، وإمعان النظر بما يصدر عنها من العجائب يوجب أن يكون لها إدراك الكليات).

أقول: والأخبار ظاهرة فيه ودالة على أن لها تكليفًا من التسبيح والتقديس والطاعة لخالقها والقيام بولاية آل محمد ﷺ ومحبتهم وامتثال أوامرهم ونواهيهم.

وروي: (أن رجلًا من الصحابة مر بطريق فعضه كلب ومزق ثيابه فأتى إلى النبي ﷺ يشكو صاحب الكلب فقام ﷺ مع جماعة من الصحابة وأتوا إلى منزل صاحب الكلب فخرج فقال له: إن كلبك جرح فلانًا ومزق ثيابه فأخرجه حتى يقتله، فدخل ووضع في عنقه حبلًا وخرج به فلما رآه الكلب سلم عليه فقال له النبي ﷺ: لِمَ جرحت هذا الرجل ومزقت ثيابه؟ فقال: يا رسول الله ﷺ هذا يبغض أهل بيتك وينصب العداوة لوصيك علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن معاشر الكلاب أمرنا بأن من ينصب العداوة لأهل بيتك نفعل به هذا الفعل فخجل ذلك المنافق وحسن النبي ﷺ ما فعله الكلب ورجع).

وفي حديث: (إن بعض الحيوانات نكرت له أمه فنزا عليها ولما فرغ عرفها فعمد إلى ذكره فقطعه بأضراسه.

وينبغي أن تعلم أن غاية الإدراك هو الإفراط في المحبة التي يسمى في عرف الناس عشقًا.

وصرح الحكماء بأن من بلغ درجة العاشقين كان من أهل العلم والإدراك، وذكروا أن الطيور أعشق من الناس، حتى أن القماري ونحوها إذا مات ذكرها نَعَتْه الأنثى وبكت عليه حتى تموت، وكذلك إذا ماتت الأنثى، وهذا مشاهد في الخيل والبغال وأضرابهما، فإنها تكثر الحنين إلى ما ألفته من جنسها حتى تلقاه.

وذكروا أن صاحب قندهار نازع مع حاكم بخارى ولما اصطفت الناس كان مع كل عسكر أفيال، فنظر فيل من أحد العسكرين إلى فيل من العسكر الآخر، فعدى نحوه وعدى الآخر إليه فتلاقيا في الميدان ووضع كل واحدٍ منهما خرطومه على خرطوم الآخر وتعانقا طويلًا وسالت الدموع من أعينهما ثم وقعا على الأرض فوجدا ميتين.

وأما النباتات فذكر الشيخ أبو علي في رسالة صنفها في العشق: (إن العشق لا يختص بالإنسان بل هو موجود في الحيوانات والنباتات والمعادن).

وفي كتب الفلاحة إن النخل يخاف تارة ويعشق أخرى، قالوا: صح أن النخلة إذا لم تحمل ضرب في أصلها بفأس ويقول شخص لآخر لأي شيء هذا.

فيقول الضارب: دعني أقطعها.

فيقول: دعها في ضماني العام فإن لم تحمل فاقطعها.

وفي كتاب النفائس إذا زرع شخص أربع نخلات فحسن ثمرهن سنين ثم يبست واحدة لم تحمل مقابلها.

وفيه أيضًا أن شخصًا كان له نخل وكانت واحدة منهن تزهر وتسقط قبل الانعقاد أو قبل البلوغ، فشكا إلى حاذق فجاء حتى نظرها فقال: إنها عاشقة فدعا برصاص فصنع شريطًا وربطه منها إلى نخلة هناك فحسن ثمرها تلك السنة ودامت كذلك.

وإن صاحب البستان قطع الشريط لينظر، فأسقطت الزهر فأعاده فصلحت وذكروا من هذا الباب أشياء كثيرة.

وأما المعادن فروي في الحديث: (إن نبيًا من الأنبياء مر على جبل فرآه يبكي فسأله عن سبب بكائه؟ فقال: منذ سمعت قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فأخاف أن أكون من تلك الحجارة التي تكون من وقود تلك النار؟ فقال: أدعو الله أن لا تكون من تلك الحجارة، فسكن بكاؤه، ثم إن ذلك النبي عليه السلام مر به بعد مدة فرآه يبكي، فسأله ما هذا البكاء، وقد أمنت أن تكون من حجارة جهنم؟ فقال: هذا بكاء الشكر وذلك بكاء الخوف)[1].

والدال على هذا كله قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾[2]، حتى أنهم قالوا: إن تسبيح الحصى في يده صلى الله عليه وسلم

---

(١) وَرُوِيَ أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ اجْتَازَ بِحَجَرٍ يَنْبُعُ مِنْهُ مَاءٌ كَثِيرٌ فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ فَسَأَلَ اللَّهَ إِنْطَاقَهُ فَقَالَ لَهُ: (لِمَ يَخْرُجُ مِنْكَ الْمَاءُ الْكَثِيرُ مَعَ صِغَرِكَ فَقَالَ مِنْ بُكَاءِ حُزْنٍ حَيْثُ سَمِعْتُ يَقُولُ نارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ وَأَخَافُ أَنْ أَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ فَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ فَأَجَابَهُ اللَّهُ وَبَشَّرَهُ النَّبِيُّ بِذَلِكَ ثُمَّ تَرَكَهُ وَمَضَى ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ بَعْدَ وَقْتٍ فَرَآهُ يَنْبُعُ كَمَا كَانَ فَقَالَ أَلَمْ يُؤْمِنْكَ اللَّهُ فَقَالَ بَلَى فَذَلِكَ بُكَاءُ الْحُزْنِ وَهَذَا بُكَاءُ السُّرُورِ) إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١ ص٩٦.

(٢) الإسراء ٤٤.

وكذلك حنين الجذع للإعجاز إنما هو في إسماع الحاضرين وإلا فكل شيء يسبح لله، وكل شيء مخلوق يحن إلى النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام) انتهى كلامه في رسالة الطاعون.

وإنما ذكرته مع طوله وعدم اشتماله على ما يناسب المقام من التحقيق لاشتماله، على آيات وروايات وحكايات، وأيضًا يدل على ما يوجب التكليف المستلزم للدعوى).

وأنا أقول: إنما ذكرته مع طوله لاشتماله على ما يناسب المقام أي مقام التكليف الذي نحن بصدد ذكره لاشتماله على آيات وروايات وحكايات.

ثم قال الشيخ أعلى الله مقامه بعد نقل كلام الجزائري السيد نعمة الله رحمة الله عليه: (والحق الذي تشهد له الآيات والروايات والصحيح من الاعتبارات أن كل شيء مكلف، وكل شيء له عقل وتمييز بنسبة حظه من الوجود، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا﴾، ولم يقل لهم إشارة إلى جماديتها المعلومة.

وقوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، إشارة إلى تمييزها الموجب لإدخالها في مقام التكليف في جملة العقلاء ولذا لم يقل طائعات.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]، ولم يقل يسبحن، للإشارة إلى أن تكليفهم الذي دخلن به في جملة العقلاء هو أن يسبحون في فلك.

---

(١) فصلت ١١.

(٢) الأنبياء ٣٣.

وكل موضع من القرآن ذكر فيه النباتات والجمادات في مقام التكليف ذكرها بضمير العقلاء مثل قوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١)، ولم يقل تسبيحهن.

ومثل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾(٢)، ولم يقل داخرات.

ولهذا ساوى بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في موجب التكليف، وفي التكليف، وفي فائدة التكليف وغايته في كتابه فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٣)، فذكر غاية التكليف لكل ذي روح، بأنه يحشر إلى ربه المربي له بما يوجب حشره إليه، ليوصل إلى ثمرة فعله الذي هو فائدة التكليف وغايته.

وذكر موجب التكليف [في قوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، حكمهم كحكمهم لمشاركتهم لكم في مناط التكليف] الذي هو تمييز الصلاح من ضده والخير من ضده بنسبة رتبتهم من الوجود.

وذكر التكليف في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤)، وأمثال ذلك من الآيات.

وأما الأخبار الدالة على المدعى فكثيرة لا تكاد تحصى بل لا يكاد يوجد منها شيء يخالف إلّا ما كان وجه الموافقة فيه ظاهرًا في

---

(١) الإسراء ٤٤.
(٢) النحل ٤٨.
(٣) الأنعام ٣٨.
(٤) فاطر ٢٤.

الظاهر والباطن، وقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على ذلك تلويحًا وتصريحًا من الكتاب والسنة وأدلة العقل ما فيه كفاية لمن عرفه، مثل ما أشرنا إليه من أن كل شيء إنما خلقه الله من الوجود المخترع الذي لم يكن شيئًا [قبل الاختراع، ولا ذكر له قبل الاختراع ولم يخلق الله تعالى شيئًا] إلّا من الوجود المخترع، وهو قسمان: وجود موصوفي، ووجود وصفي.

والوجود الوصفي خلقه الله تعالى من الوجود الموصوفي وحكمه في كل شيء حكم موصوفه بنسبته، لأنه من نفسه من حيث نفسه إلّا أنه تابع له فيما يعطيه من فواضله.

والوجود الموصوفي الذي هو الذات، هو أول أثر فاض من فعل الله فهو أثر فعل العالم القادر المختار، فيكون عالمًا قادرًا مختارًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1]، إلّا أنه فعل المختار والأثر يشابه صفة مؤثره التي هو أثرها، فكان ذلك الوجود المحدث من فعله تعالى نورًا وتميزا وفهما وعلما واختيارا، ليس منه شيء لا نور فيه ولا تميز له ولا فهم له ولا علم له، ولا اختيار له.

والوجود الوصفي تابع لموصوفه في كل ما للموصوف بنسبته.

والوجود الموصوفي صفوته الإنسان، وغير الإنسان من فاضله، فهو أنزل منه رتبة في جميع تلك الصفات فمن دون الإنسان فيها الجن والملائكة، ومن دونهم سائر الحيوانات، ومن دون الحيوانات سائر النباتات، ومن دون النباتات سائر الجمادات، ومن دون الموصوفات

---

(١) الإنسان ٢.

صفاتها كل صفة دون موصوفها بنحو سبعين درجة، فكل صفة فيها من جميع ما في موصوفها واحدٍ من سبعين، فأنزل الجمادات بل أنزل صفاتها فيها ما في أعلى الإنسان بنسبتها.

ومثال ذلك السراج فإنه بمنزلة أمر الله الذي قام به كل شيء، وكل شيء من الصفات والموصوفات بمنزلة أشعة السراج، وكلما قرب من الأشعة من السراج كان أشد نورًا وحرارة ويبوسة من الشعاع الأبعد منه من السراج، حتى تنتهي إلى آخر الأشعة وأبعدها من السراج، وهو الذي ليس بعده إلّا ظلمة بحت، فأقربها إلى السراج أشدها في آثار صفات السراج، وأبعدها أضعفها في آثار صفات السراج وما بينهما بالنسبة، وكلها تستمد من إشراق السراج فجميع ما في أقواها يوجد في أضعفها لنسبته، فهذا مثال الأشياء، فالإنسان كالشعاع الأقرب من السراج والجمادات بل صفاتها كالشعاع الأبعد من السراج، فكل ما في الإنسان من العقل والشعور والاختيار في الجمادات وصفاتها بنسبة حظها من الوجود، فكل شيء مخلوق مكلف وإلا لما خلق)[1] انتهى كلام الشيخ أعلى الله مقامه.

أقول: قد ثبت مما ذكرنا من الآيات والأخبار وكلام العلماء الأعلام أن كل مخلوق مكلف وله شعور وعقل وتسبيح وتحميد بنسبته، فما ذكرنا من معنى العوالم والآدميين ليس من باب الصناعات والخرافات، بل هو المعنى الحقيقي الواقعي كما يفهمه العوام، فكل عالم كعالمنا فيها كل ما فيه، وكل آدم كما نبينا آدم عليه السلام لهم كل ما له وعليهم كل ما عليه، إلّا أن كل شيء بحسبه ونسبته من الوجود التي

---

(١) تراث الشيخ الأوحد، ج١٩ ص٣٢٨ ـ ٣٤٣.

هي حظه ونصيبه من الكتاب: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1] فيجازون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(١) الأنعام ٣٨.

تفسير [قوله تعالى]:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الإمام عليه السلام في تفسيره: (الرحمن الْعَاطِفِ عَلَى خَلْقِهِ بِالرزْقِ، لَا يَقْطَعُ عَنْهُمْ مَوَاد رِزْقِهِ، وَإِنِ انْقَطَعُوا عَنْ طَاعَتِهِ.

«الرحِيم» بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَخْفِيفِهِ عَلَيْهِمْ طَاعَاتِهِ، وَبِعِبَادِهِ الْكَافِرِينَ فِي الرفْقِ بِهِمْ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مُوَافَقَتِهِ.

قَالَ: وَإِن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: «الرحْمنِ» هُوَ الْعَاطِفُ عَلَى خَلْقِهِ بِالرزْقِ.

قَالَ: وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنهُ لَما سَلَبَ الطفْلَ قُوةَ النهُوضِ وَالتغَذي جَعَلَ تِلْكَ الْقُوةَ فِي أُمهِ، وَرَققَهَا عَلَيْهِ لِتَقُومَ بِتَرْبِيَتِهِ وَحَضَانَتِهِ، فَإِنْ قَسَا قَلْبُ أُم مِنَ الْأُمهَاتِ أَوْجَبَ تَرْبِيَةَ هَذَا الطفْلِ وَحَضَانَتَهُ عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَما سَلَبَ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ قُوةَ التربِيَةِ لِأَوْلَادِهَا، وَالْقِيَام بِمَصَالِحِهَا، جَعَلَ تِلْكَ الْقُوةَ فِي الْأَوْلَادِ لِتَنْهَضَ حِينَ تُولَدُ وَتَسِيرَ إِلَى رِزْقِهَا الْمُسَببِ لَهَا.

قَالَ عليه السلام: وَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَز وَجَلَ «الرحْمنِ»: أَن قَوْلَهُ «الرحْمنِ» مُشْتَقٌ مِنَ الرحْمَةِ.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: قَالَ اللهُ عَز

وَجَل: أَنَا «الرحْمَنُ». وَهِيَ مِنَ الرحِمِ شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ.

ثُم قَالَ عَلِي عليه السلام: أَوَ تَدْرِي مَا هَذِهِ الرحِمُ التِي مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ الرحْمَنُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الرحْمَنُ فَقِيلَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: حَث بِهَذَا الكلام كُل قَوْمٍ عَلَى أَنْ يُكْرِمُوا آباءهم وَيَصِلُوا أَرْحَامَهُمْ.

فَقَالَ لَهُمْ: أَيَحُثهُمْ عَلَى أَنْ يَصِلُوا أَرْحَامَهُمُ الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يُعَظمُوا مَنْ حَقرَهُ اللهُ، وَأَوْجَبَ احْتِقَارَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قَالُوا: لَا، وَلَكِنهُ حَثهُمْ عَلَى صِلَةِ أَرْحَامِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: فَقَالَ: أَوْجَبَ حُقُوقَ أَرْحَامِهِمْ، لِاتصَالِهِمْ بِآبَائِهِمْ وَأُمهَاتِهِمْ.

قُلْتُ: بَلَى يَا أَخَا رَسُولِ اللهِ.

قَالَ: فَهُمْ إِذَنْ إِنمَا يَقْضُونَ فِيهِمْ حُقُوقَ الْآبَاءِ وَالْأُمهَاتِ.

قُلْتُ: بَلَى يَا أَخَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله.

قَالَ: فَآبَاؤُهُمْ وَأُمهَاتُهُمْ إِنمَا غَذوْهُمْ فِي الدنْيَا وَوَقَوْهُمْ مَكَارِهَهَا، وَهِيَ نِعْمَةٌ زَائِلَةٌ، وَمَكْرُوهٌ يَنْقَضِي، وَرَسُولُ رَبهِمْ سَاقَهُمْ إِلَى نِعْمَةٍ دَائِمَةٍ لَا تَنْقَضِي، وَوَقَاهُمْ مَكْرُوهًا مُؤَبدًا لَا يَبِيدُ، فَأَي النعْمَتَيْنِ أَعْظَمُ.

قُلْتُ: نِعْمَةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَعْظَمُ وَأَجَل وَأَكْبَرُ.

قَالَ: فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَحُث عَلَى قَضَاءِ حَق مَنْ صَغرَ اللهُ حَقهُ، وَلَا يَحُث عَلَى قَضَاءِ حَق مَنْ كَبرَ اللهُ حقهُ.

قُلْتُ: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

قَالَ: فَإِذًا حَق رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَعْظَمُ مِنْ حَق الْوَالِدَيْنِ، وَحَق رَحِمِهِ أَيْضًا أَعْظَمُ مِنْ حَق رَحِمِهِمَا، فَرَحِمُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَوْلَى بِالصلَةِ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَطِيعَةِ.

فَالْوَيْلُ كُل الْوَيْلِ لِمَنْ قَطَعَهَا، وَالْوَيْلُ كُل الْوَيْلِ لِمَنْ لَمْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَهَا.

أَوَمَا عَلِمْتَ أَن حُرْمَةَ رَحِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُرْمَةُ رَسُولِ اللهِ، وَأَن حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ حُرْمَةُ اللهِ تَعَالَى، وَأَن اللهَ أَعْظَمُ حَقًا مِنْ كُل مُنْعِمٍ سِوَاهُ، وَأَن كُل مُنْعِمٍ سِوَاهُ إِنمَا أَنْعَمَ حَيْثُ قَيضَهُ لِذَلِكَ رَبهُ، وَوَفقَهُ لَهُ.

أَمَا عَلِمْتَ مَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ.

قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمي مَا الذِي قَالَ لَهُ.

قَالَ عليه السلام: قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا مُوسَى أَتَدْرِي مَا بَلَغَتْ بِرَحْمَتِي إِياكَ فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ أَرْحَمُ بِي مِنْ أَبِي وَأُمي.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا مُوسَى وَإِنمَا رَحِمَتْكَ أُمكَ لِفَضْلِ رَحْمَتِي، فَأَنَا الذِي رَققْتُهَا عَلَيْكَ، وَطَيبْتُ قَلْبَهَا [لِتَتْرُكَ طَيبَ وَسَنِهَا لِتَرْبِيَتِكَ][1] لبرك وتربيتك، وَلَوْ لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ بِهَا لَكَانَتْ هِيَ وَسَائِرُ النسَاءِ سَوَاءً.

يَا مُوسَى أَتَدْرِي أَن عَبْدًا مِنْ عِبَادِي يَكُونُ لَهُ ذُنُوبٌ وَخَطَايَا تَبْلُغُ أَعْنَانَ السمَاءِ فَأَغْفِرُهَا لَهُ، وَلَا أُبَالِي، قَالَ: يَا رَب وَكَيْفَ لَا تُبَالِ،ي قَالَ تَعَالَى: لِخَصْلَةٍ شَرِيفَةٍ تَكُونُ فِي عَبْدِي أُحِبهَا، وَهِيَ أَنْ يُحِب إِخْوَانَهُ الْفُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَعَاهَدَهُمْ، وَيُسَاوِيَ نَفْسَهُ بِهِمْ، وَلَا يَتَكَبرَ عَلَيْهِمْ.

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ غَفَرْتُ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَلَا أُبَالِي.

يَا مُوسَى إِن الْفَخْرَ رِدَائِي وَالْكِبْرِيَاءَ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا عَذبْتُهُ بِنَارِي.

---

(١) ساقط من المخطوط.

يَا مُوسَى إِن مِنْ إِعْظَامِ جَلَالِي ـ إِكْرَامَ الْعَبْدِ الذِي أَنَلْتُهُ حَظًا مِنْ حُطَامِ الدنْيَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، قَصُرَتْ يَدُهُ فِي الدنْيَا، فَإِنْ تَكَبرَ عَلَيْهِ فَقَدِ اسْتَخَف بِعَظِيمِ جَلَالِي.

ثُم قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: إِن الرحِمَ التِي اشْتَقهَا اللهُ عَز وَجَل مِنْ رَحْمَتِهِ بِقَوْلِهِ: أنا الرحْمَنِ هِيَ رَحِمُ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله، وَإِن مِنْ إِعْظَامِ اللهِ إِعْظَامِ مُحَمدٍ صلى الله عليه، وآله وَإِن مِنْ إِعْظَامِ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله إِعْظَامَ رَحِمِ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله، وَإِن كُل مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مِنْ شِيعَتِنَا هُوَ مِنْ رَحِمِ مُحَمدٍ وَإِن إِعْظَامَهُمْ مِنْ إِعْظَامِ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله.

فَالْوَيْلُ لِمَنِ اسْتَخَف بِشَيْءٍ مِنْ حُرْمَةِ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله، وَطُوبَى لِمَنْ عَظمَ حُرْمَتَهُ، وَكَرَمَ رَحِمَهُ وَوَصَلَهَا).

قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾

قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: (وَأَما قَوْلُهُ تَعَالَى «الرحِيم» فَإِن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: إنه رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِي الْخَلْقِ كُلهِمْ، فَبِهَا يَتَرَاحَمُ الناسُ، وَتَرَحمُ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا، وَتَحْنُو الْأُمهَاتُ [مِنَ الْحَيَوَانَاتِ](١) عَلَى أَوْلَادِهَا.

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَضَافَ هَذِهِ الرحْمَةَ الْوَاحِدَةَ إِلَى تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً فَيَرْحَمُ بِهَا أُمةَ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله، ثُم يُشَفعُهُمْ فِيمَنْ يُحِبونَ لَهُ الشفَاعَةَ مِنْ أَهْلِ الْمِلةِ، حَتى أَن الْوَاحِدَ لَيَجِيءُ إِلَى مُؤْمِنٍ مِنَ الشيعَةِ، فَيَقُولُ: اشْفَعْ لِي. فَيَقُولُ: وَأَي حَق لَكَ عَلَي فَيَقُولُ: سَقَيْتُكَ يَوْمًا مَاءً. فَيَذْكُرُ ذَلِكَ، فَيَشْفَعُ لَهُ، فَيُشَفعُ فِيهِ، وَيَجِيئُهُ آخَرُ فَيَقُولُ: إِن لِي عَلَيْكَ حَقًا، فَاشْفَعْ لِي. فَيَقُولُ: وَمَا حَقكَ عَلَي فَيَقُولُ: اسْتَظْلَلْتَ بِظِل جِدَارِي سَاعَةً فِي يَوْمٍ حَار. فَيَشْفَعُ لَهُ، فَيُشَفعُ فِيهِ، وَلَا يَزَالُ يَشْفَعُ حَتى يُشَفعَ فِي جِيرَانِهِ وَخُلَطَائِهِ وَمَعَارِفِهِ، فَإِن الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِما تَظُنون)(٢) انتهى ما في تفسير الإمام عليه السلام.

---

(١) ساقط من المخطوط.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص٣٤.

أقول: قد ذكرنا سابقًا عند تفسير البسملة أن الرحمة الرحمانية مشتملة على الفضل والعدل، وهي عامة للمؤمن والكافر، فتجري على المؤمن في الدنيا من جهة الفضل، وعلى الكافر من جهة العدل، أو أنه سبحانه قد تفضل على المؤمن بما يستحقه لإيمانه، وعلى الكافر إتمامًا للنعمة لعله يتذكر نعمة الله أو يخشى عقوبته عليها بترك شكرها أو بزوالها واستدراجًا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1]، وأنه تعالى قد يجري عدله على المؤمن في الدنيا بأن يؤاخذه بما يقع منه من الذنوب فيبتليه بالمرض والفقر وموت الولد والهموم، أو يسلط عليه ظالمًا يؤذيه، أو جار سوء أو قرين سوء يؤذيانه، أو غير ذلك من مكاره الدنيا ومصابها، ليعلم الصابرين ويكون ما أصابه كفارة لما وقع منه من الذنوب، وليعلم المؤمن أن الدنيا دار بلية ومحنة وليست بدار أمن وراحة، فيزهد فيها ولا يرغب في الركون إليها، ويكون ذلك سببًا لتجافيه عن دار الغرور وإنابته إلى دار السرور واستعداده للموت قبل نزوله، ليخرج من دار المحنة سليمًا إلى دار السلام، وكل ذلك من رحمته تعالى على المؤمن.

وأنه سبحانه قد يجري عدله على الكافر في الدنيا جزاءً بما كسبت يداه، أو ليرغب في الإسلام، أو ليكره الدنيا، لأن كثيرًا من أهل الكفر إنما لرغبتهم في الدنيا إذ قد يكون عليهم في الإسلام ذلة في زعمهم بالانقياد إلى أهل الإسلام، أو خوفًا على فوات بعض حطامها وأمثال ذلك، قد يسلمون حرصًا على الدنيا، فإذا تبين لهم فساد

---

(١) الأنعام ٤٤.

الركون إليها وأنهم لا يدركون مطالبهم آمنوا، وكل ذلك من رحمته الواسعة على عباده الضعفاء، أو أنه تعالى يجري عدله على الكافر في الدنيا تقدمة لعذابه أو غير ذلك.

وأما رحمته الرحيمية فهي قسمان:

أحدهما: خاصة بالمؤمنين وهي بمعنى صبغ الوجود في الرحمة، وقد أشرنا إليه سابقًا فراجع.

والثاني: يشمل المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة، ففي الدعاء: (يا رَحْمنَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُما)[1].

أما شموله للمؤمن في الدنيا بأن يتفضل عليه بجزيل النعم وإيصال فواضل الكرم جزاءً لشكره، قال الله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2] وأن يعفو عن تقصيراته وسيئاته ويبدل سيئاته حسنات، فلا يؤاخذه بشيء من ذلك رحمة به، وهذا جهة الفضل من الرحمة الواسعة التي هي الرحمة المكتوبة، وأما في الآخرة بأن يتفضل عليه بنعيم أبدي لا يفنى وملك سرمدي لا يبلى، وهذا من الرحمة الرحيمية.

وأما شمولها للكافر في الدنيا بأن يوسع عليه في رزقه وترفع عنه البلايا والمحن والفقر والهموم والأمراض وغير ذلك من مكاره الدنيا، جزاءً لبعض أعماله الظاهرة، كما لو أعطى فقيرًا شيئًا من رقة قلبه أو استدراجًا أو تذكيرًا لنعمه عليه، وأما شمولها له في الآخرة

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة، ج١ ص٢٥٦ الباب الثامن فيما نذكره من زيادات ودعوات في الليلة الرابعة ويومها وفيها ما نختاره من عدة روايات.

(٢) الأنعام ٥٣.

بأن يخفف عليه من عذابه في أول دخوله النار، بحيث لا يحس بالتخفيف بكفره مثلًا خمسين طبقة من العذاب، يوضع في النار ويخفف عليه بعض طبقات العذاب بقدر ثواب أعماله متفرقة، حتى يوفى ثوابه، ثم يشدد عليه فهو في زيادة أبدًا، نعوذ بالله من النار.

تفسير [قوله تعالى]:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

تفسير [قوله تعالى]: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

قوله عز وجل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، في تفسير الإمام عليه السلام: (أَيْ قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ يَوْمِ الدينِ، وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ، قَادِرٌ عَلَى تَقْدِيمِهِ عَلَى وَقْتِهِ، وَتَأْخِيرِهِ بَعْدَ وَقْتِهِ، وَهُوَ الْمَالِكُ أَيْضًا فِي يَوْمِ الدينِ، فَهُوَ يَقْضِي بِالْحَقِ، لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَنْ يَظْلِمُ وَيَجُورُ، كَمَا فِي الدنْيَا مَنْ يَمْلِكُ الْأَحْكَامَ.

وَقَالَ عليه السلام: هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْيَسِ الْكَيسِينَ وَأَحْمَقِ الْحَمْقَى.

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: أَكْيَسُ الْكَيسِينَ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِن أَحْمَقَ الْحَمْقَى مَنِ اتبَعَ نَفْسُهُ هَوَاهَا، وَتَمَنى عَلَى اللهِ تَعَالَى الْأَمَانِي.

فَقَالَ الرجُلُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَيْفَ يُحَاسِبُ الرجُلُ نَفْسَهُ؟.

قَالَ: إِذَا أَصْبَحَ ثُم أَمْسَى رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: يَا نَفْسِ إِن هَذَا يَوْمٌ مَضَى عَلَيْكِ لَا يَعُودُ إِلَيْكِ أَبَدًا، وَاللهُ تَعَالَى يَسْأَلُكِ عَنْهُ فِيمَا أَفْنَيْتِيهِ ـ فَمَا الذِي عَمِلْتِ فِيهِ أَذَكَرْتِ اللهَ أَمْ حَمِدْتِيهِ، أَقَضَيْتِ حق أخ مُؤْمِنٍ، أَنفسْتِ عَنْهُ كُرْبَةً، أَحَفِظْتِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فِي أَهْلِهِ وَوُلْدِهِ، أَحَفِظْتِيهِ بَعْدَ

الْمَوْتِ فِي مُخَلفِيهِ، أَكَفَفْتِ عَنْ غِيبَةِ أَخٍ مُؤْمِنٍ بِفَضْلِ جَاهِكِ، أَأَعَنْتِ مُسْلِمًا مَا الذِي صَنَعْتِ فِيهِ فَيَذْكُرُ مَا كَانَ مِنْهُ.

فَإِنْ ذَكَرَ أَنهُ جَرَى مِنْهُ خَيْرٌ، حَمِدَ اللهَ تَعَالَى، وَكَبرَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أَوْ تَقْصِيرًا، اسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَى عز وجل، وَعَزَمَ عَلَى تَرْكِ مُعَاوَدَتِهِ، وَمَحَا ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِتَجْدِيدِ الصلَاةِ عَلَى مُحَمدٍ وَآلِهِ الطيبِينَ، وَعَرَضَ بَيْعَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي عليه السلام عَلَى نَفْسِهِ، وَقَبُولَهُ لَهَا، وَإِعَادَةَ لَعْنِ أَعْدَائِهِ وَشَانِئِيهِ وَدَافِعِيهِ عَنْ حَقهِ.

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَ اللهُ عز وَجَل: لَسْتُ أُنَاقِشُكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الذنُوبِ ـ مَعَ مُوَالاتِكَ أَوْلِيَائِي، وَمُعَادَاتِكَ أَعْدَائِي)[1] انتهى ما تفسير الإمام عليه السلام.

أقول: قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ على ما فسره الإمام عليه السلام إشارة إلى أمور:

الأول: أنه إشارة إلى إبطال قول منكري البعث، وذلك لأن مالك الشيء هو القادر المتسلط عليه، والمراد بيوم الدين يوم القيامة، وهو يوم بعث الخلق وإعادة أرواحهم إلى أجسادهم للحساب واستيفاء الجزاء، ولهذا قال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي قادر على إقامة يوم الدين وهو يوم الحساب، ومعلوم أن من يقدر على ابتداء الخلق لا من شيء كان على إعادتهم أقدر، فلا وجه لاستبعاد من أنكر البعث ورجوع الأرواح إلى الأجساد كأُبي بن خلف وأشباهه، حيث قالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾[2]، وقال: ﴿مَن

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٣٩ [سورة الفاتحة (١): آية ٤]. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ص٢٨.

(٢) ق ٣.

يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ قال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(١).

والثاني: أنه إشارة إلى أنه تعالى لم يجعل ليوم القيامة وقتًا معينًا عند خلقه لا يجوز تغييره، وهو قوله عليه السلام: (قادر على تقديمه على وقته وتأخيره بعد وقته) ووجه الحكم في عدم التعيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾(٢).

والثالث: أنه إشارة إلى كمال منته وإتمام نعمته على خلقه يوم القيامة، حيث وصف نفسه بالمالكية لذلك اليوم، ولم يجعل لأحد فيه تصرفًا في أمر ونهي، وتسلطًا على شخص، ولا حكمًا في شيء، فيظلمهم في قضائه ويجور عليهم في حكمه، فلا يصل إلى كل ذي حق حقه ولا يعطي كل ذي فضل فضله، بل جعل أمور عباده إلى العدل الذي لا يجور، والأكرم الذي ترجع إليه الأمور، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾(٤) وقالوا عليهم السلام: (إن إلينا إياب هذا الخلق ثم إن علينا حسابهم)(٥) وهو قول الإمام عليه السلام: (وهو المالك أيضًا في

---

(١) يس ٧٨ ـ ٨١.

(٢) طه ١٥.

(٣) الإنفطار ١٩.

(٤) الغاشية ٢٥ ـ ٢٦.

(٥) مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٣ ص١٠٧ فصل في تسميته بعلي والمرتضى وحيدرة وأبي تراب وغير ذلك. مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام ص٢٨٧ فصل [إذا شئنا شاء الله].

يوم الدين فهو يقضي بالحق لا يملك الحكم والقضاء في ذلك اليوم من يظلم ويجور كما قد يجور في الدنيا من يملك الأحكام).

والرابع: أنه تنبيه على أن رجوع الخلق يوم القيامة لأجل الحساب إلى من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1]، فينبغي للعباد أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسَبوا وهو قوله عليه السلام، وَقَالَ يعني أَمِير الْمؤْمِنِينَ عليه السلام: (هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْيَسِ الْكَيسِينَ وَأَحْمَقِ الْحَمْقَى؟.

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: أَكْيَسُ الْكَيسِينَ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ)[2] الحديث.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام (لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِسَابِ مَهُولَةٌ إلا حَيَاءُ الْعَرْضِ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَفَضِيحَةُ هَتْكِ السترِ عَلَى الْمَخْفِيات لَحق لِلْمَرْءِ أَنْ لَا يَهْبِطَ مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ وَلَا يَأْوِيَ إِلَى عُمْرَانٍ وَلَا يَأْكُلَ وَلَا يَشْرَبَ وَلَا يَنَامَ إلا عَنِ اضْطِرَارٍ مُتصِلٍ بِالتلَفِ وَمِثْلَ ذَلِكَ يَفْعَلُ مَنْ يَرَى الْقِيَامَةَ بِأَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا قَائِمَةً فِي كُل نَفْسٍ وَيُعَاينُ بِالْقَلْبِ بِالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبارِ حِينَئِذٍ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْمُحَاسَبَةِ كَأَنهُ إِلَى عَرَصَاتِهَا مَدْعُو وَفِي غَمَرَاتِهَا مَسْؤول، قال تعالى ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾)[3].

---

(١) الأنبياء ٤٧.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص٣٨ [سورة الفاتحة (١): آية ٤]. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ص٢٨.

(٣) مصباح الشريعة، ص٨٥ الباب الثامن والثلاثون في الحساب.

اعلم أن قراءة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو المشهور، وقرئ ملك يوم الدين، روى العياشي أنه قرأه الصادق عليه السلام ما لا يحصى.

(قيل: وتخصيص اليوم بالإضافة، إما لتعظيمه أو لتفرده تعالى، ينفرد الأمر فيه، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه ربًا للعالمين موجدًا لهم منعمًا عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها، مالكًا لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل بأن يحمد فضلا عن أن يعبد، ليكون دليلا على ما بعده وهو ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد وهو الإيجاد والتربية، والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه ليس يصدر منه الإيجاب بالذات، أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد، والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، لتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين)[1] انتهى.

أقول: قوله: (وتخصيص اليوم بالإضافة إما لتعظيمه) يعني تعظيم يوم الدين وهو كذلك، لأن في يوم القيامة يظهر من آثار عظمة الله عز وجل ما لم يظهر في الدنيا عشر من أعشارها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وقال

(١) تفسير البيضاوي، ج١ ص١٥.
(٢) المطففين ٤ ـ ٦.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾[١]، وقال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٢] وقال: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾[٣].

وقوله: (لتفرده بنفوذ الأمر فيه) يوهم أنه تعالى ليس في الدنيا متفردًا بإنفاذ الأمر فيها وهو ليس كذلك، فإنه تعالى كما كان متفردًا في يوم القيامة بنفوذ الأمر فيه كان في الدنيا متفردًا بذلك، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[٤].

وقال سيد الساجدين في دعاء الصباح: (أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَتِ الْأشياء كُلهَا بِجُمْلَتِهَا لَكَ: سَمَاؤُهَا وَأرضهَا، وَمَا بَثَثْتَ فِي كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا، سَاكِنُهُ وَمُتَحركُهُ، وَمُقِيمُهُ وَشَاخِصُهُ وَمَا عَلَا فِي الْهَوَاءِ، وَمَا كَن تَحْتَ الثرَى، أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ يَحْوِينَا مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَتَضُمنَا مَشِيتُكَ، وَنَتَصَرفُ عَنْ أَمْرِكَ، وَنَتَقَلبُ فِي تَدْبِيرِكَ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ إِلا مَا قَضَيْتَ، وَلَا مِنَ الْخَيْرِ إِلا مَا أَعْطَيْت)[٥]. الدعاء.

ولو قال أو لظهور تفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه لكان ممكنًا أن يحمل على وجه صحيح بالنسبة إلى نظر العوام في الدنيا، فإنهم يرون أنهم مالكون فيها قادرون على أمورهم متسلطون على أموالهم، وذلك

---

(١) الحج ١.
(٢) النبأ ١ ـ ٢.
(٣) ص٦٧ ـ ٦٨.
(٤) سبأ ٢٢.
(٥) الصحيفة السجادية ص٥٠ (وكان من دعائه عليه السلام عند الصباح والمساء). المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية) ص٧٠ الفصل الرابع عشر في تعقيب صلاة الصبح.

لأن الدنيا لما كانت دار تكليف واختبار وهو يقتضي التملك والاختيار جمع الله تعالى لهم فيها أسباب تكليفهم، وملكهم ما يتم به نظام أمرهم وبلاغ معاشهم، وأقدرهم على أفعالهم وأعمالهم، وسلطهم على أملاكهم وأموالهم، فالعوام يرون في الدنيا لأنفسهم مِلكًا ومُلكا، ويحسبون لهم قدرة واستطاعة وقوة، غافلين عن أنه سبحانه هو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، وأنه تعالى ما ملكهم شيئًا إلّا وهو في قبضته لم يخله من يده، ولم يخرج بتمليكه عن مِلكه ومُلكه، ولهذا تراهم يعتمد بعضهم على بعض كاعتماده على مانع عزيز، ويلتجأ بعضهم إلى بعض كالتجائه إلى كهف حريز، ويحمد بعضهم بعضًا كأن فيه جميع محامد الصفات، ويرى نفسه محتاجًا إليه كاحتياجه إلى الغني بالذات، ويحب بعضهم بعضًا كحب الله ويتبعه كمن يتبع رضوان الله، ويطيعه في كل منكرة كأنه وجبت عليه طاعته، ولا يعصيه في ترك معروف كأنه حرمت عليه معصيته، ويجري بأمره في بحر ضلالته كجريان الفلك، ويتذلل عنده كتذلله عند مالك الملك، غافلًا عن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1]، فلما كان حال العوام في الدنيا ما سمعت أضاف سبحانه ملكيته إلى يوم الدين وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ * إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ

---

(١) آل عمران ٢٦.

(٢) غافر ١٦.

ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا﴾[1].

وأما يوم القيامة فتنكشف لهم عن الحقائق لأنه يوم كشف الغِطاء قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2]، ويشاهدون الملك خالصًا لله عز وجل، ولا يرون مالكًا إلّا الله تبارك وتعالى، فيعترفون بالتقصير ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[3] ويقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[4]، ويقول الضالون منهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]، وأما العارف بالله فلا يفرق بين الدنيا والآخرة ويعلم أن الخلق فيهما ما يملكون من قطمير، وليس لهم شرك فيهما، وما لهم منهم فيهما من ظهير، والملك في الدنيا لله الملك الجبار كما أنه في الآخرة لله الواحد القهار.

وباقي كلام القيل ففي مذاق أهل الظاهر مليح وعندنا على ظاهره صحيح.

---

(١) البقرة ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٢) ق ٢٢.

(٣) المؤمنين ١٠٦.

(٤) الأحزاب ٦٧.

(٥) الشعراء ٩٧ ـ ٩٨.

تفسير [قوله تعالى]:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

تفسير [قوله تعالى]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في تفسير الإمام عليه السلام (قَالَ اللهُ تَعَالَى: قُولُوا: يَا أَيهَا الْخَلْقُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، «إِياكَ نَعْبُدُ» أَيهَا الْمُنْعِمُ عَلَيْنَا، وَنُطِيعُكَ مُخْلِصِينَ موحدين مَعَ التذَلُلِ وَالْخُضُوعِ بِلَا رِيَاءٍ، وَلَا سُمْعَةٍ.

وَ«إِياكَ نَسْتَعِينُ» مِنْكَ نَسْأَلُ الْمَعُونَةَ عَلَى طَاعَتِكَ لِنُؤَدِيَهَا كَمَا أَمَرْتَ، وَنَتقِيَ مِنْ دُنْيَانَا مَا نَهَيْتَ عَنْهُ، وَنَعْتَصِمَ ـ مِنَ الشيْطَانِ الرجِيمِ، وَمِنْ سَائِرِ مَرَدَةِ الْجِن وَالْإِنْسِ مِنَ الْمُضِلينَ، وَمِنَ الْمُؤْذِينَ الظالِمِينَ ـ بِعِصْمَتِكَ.

وَسُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَنِ الْعَظِيمُ الشقَاءُ قَالَ: رَجُلٌ تَرَكَ الدنْيَا لِلدنْيَا، فَفَاتَتْهُ الدنْيَا وَخَسِرَ الْآخِرَةَ، وَرَجُلٌ تَعَبدَ وَاجْتَهَدَ وَصَامَ رِئَاءَ الناسِ فَذَاكَ الذِي حُرِمَ لَذاتِ الدنْيَا، وَلَحِقَهُ التعَبُ الذِي لَوْ كَانَ بِهِ مُخْلِصًا لَاسْتَحَق ثَوَابَهُ، فَوَرَدَ الْآخِرَةَ وَهُوَ يَظُن أَنهُ قَدْ عَمِلَ مَا يَثْقُلُ بِهِ مِيزَانُهُ، فَيَجِدُهُ هَبَاءً مَنْثُورًا.

قِيلَ: فَمَنْ أَعْظَمُ الناسِ حَسْرَةً؟.

قَالَ: مَنْ رَأَى مَالَهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ، وَأَدْخَلَهُ اللهُ بِهِ النارَ، وَأَدْخَلَ وَارِثَهُ بِهِ الْجَنةَ.

قِيلَ: فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟

قَالَ: كَمَا حَدثَنِي بَعْضُ إِخْوَانِنَا عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَسُوقُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا فُلَانٍ مَا تَقُولُ فِي مِائَةِ أَلْفٍ فِي هَذَا الصنْدُوقِ مَا أَدَيْتُ مِنْهَا زَكَاةً قط، وَلَا وَصَلْتُ مِنْهَا رَحِمًا قط، قَالَ: فَقُلْتُ: فَعَلَامَ جَمَعْتَهَا قَالَ: لِجَفْوَةِ السلْطَانِ، وَمُكَاثَرَةِ الْعَشِيرَةِ، وَتَخَوفِ الْفَقْرِ عَلَى الْعِيَالِ، وَلِرَوْعَةِ الزمَانِ.

قَالَ: ثُم لَمْ يَخْرُجْ مِنْ عِنْدِهِ حَتى فَاضَتْ نَفْسُهُ.

ثُم قَالَ عَلِي عليه السلام: الْحَمْدُ لِلهِ الذِي أَخْرَجَهُ مِنْهَا مَلُومًا مليما بِبَاطِلٍ جَمَعَهَا، وَمِنْ حَق مَنَعَهَا، جَمَعَهَا فَأَوْعَاهَا، وَشَدهَا فَأَوْكَاهَا، قَطَعَ فِيهَا الْمَفَاوِزَ الْقِفَارَ، وَلُجَجَ الْبِحَارِ، أَيهَا الْوَاقِفُ لَا تُخْدَعْ كَمَا خُدِعَ صُوَيْحِبُكَ بِالْأَمْسِ، إِن مِنْ أَشَد الناسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ رَأَى مَالَهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ، أَدْخَلَ اللهُ عز وَجَل هَذَا بِهِ الْجَنةَ وَأَدْخَلَ هَذَا بِهِ النارَ.

قَالَ الصادِقُ عليه السلام: وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا حَسْرَةً رَجُلٌ جَمَعَ مَالًا عَظِيمًا بِكَد شَدِيدٍ، وَمُبَاشَرَةِ الْأَهْوَالِ، وَتَعَرضِ الْأَخْطَارِ، ثُم أَفْنَى مَالَهُ فِي صَدَقَاتٍ وَمَبَراتٍ، وَأَفْنَى شَبَابَهُ وَقُوتَهُ فِي عِبَادَاتٍ وَصَلَوَاتٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرَى لِعَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام حَقهُ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ مَحَلهُ، وَيَرَى أَن مَنْ لَا بِعُشْرِهِ وَلَا بِعُشْرِ عَشِيرِ مِعْشَارِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ عليه السلام، يُوقَفُ عَلَى الْحُجَجِ فَلَا يَتَأَملُهَا، وَيُحْتَج عَلَيْهِ بِالْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ فَيَأْبَى إِلا تَمَادِيًا فِي غَيهِ، فَذَاكَ أَعْظَمُ مِنْ كُل حَسْرَةٍ، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَصَدَقَاتُهُ مُمَثلَةٌ لَهُ فِي مِثَالِ الْأَفَاعِي تَنْهَشُهُ، وَصَلَوَاتُهُ وَعِبَادَاتُهُ مُمَثلَةٌ لَهُ فِي مِثَالِ الزبَانِيَةِ تَدْفَعُهُ حَتى تَدُعهُ إِلَى جَهَنمَ دَعًا، يَقُولُ: يَا وَيْلِي أَلَمْ أَكُ مِنَ الْمُصَلينَ أَلَمْ أَكُ مِنَ الْمُزَكينَ أَلَمْ أَكُ عَنْ أَمْوَالِ الناسِ وَنِسَائِهِمْ مِنَ الْمُتَعَففِينَ، فَلِمَا ذَا دُهِيتُ بِمَا دُهِيتُ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا شَقِي مَا نَفَعَكَ مَا عَمِلْتَ، وَقَدْ ضَيعْتَ أَعْظَمَ الْفُرُوضِ بَعْدَ

تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِنُبُوةِ مُحَمدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ضَيعْتَ مَا لَزِمَكَ مِنْ مَعْرِفَةِ حَق عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَلِي اللهِ، وَالْتَزَمْتَ مَا حَرمَ اللهُ عَلَيْكَ مِنَ الِائْتِمَامِ بِعَدُو اللهِ.

فَلَوْ كَانَ لَكَ بَدَلَ أَعْمَالِكَ هَذِهِ عِبَادَةُ الدهْرِ مِنْ أَولِهِ إِلَى آخِرِهِ، وَبَدَلَ صَدَقَاتِكَ الصدَقَةُ بِكُل أَمْوَالِ الدنْيَا، بَلْ بِمِلْءِ الْأَرض ذَهَبًا، لَمَا زَادَكَ ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى إِلا بُعْدًا، وَمِنْ سَخَطِ اللهِ عَز وَجَل إِلا قُرْبًا.

قَالَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِي عليه السلام: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ عَز وَجَل: قُولُوا «إِياكَ نَسْتَعِينُ» عَلَى طَاعَتِكَ وَعِبَادَتَكَ، وَعَلَى دَفْعِ شُرُورِ أَعْدَائِكَ، وَرَد مَكَايِدِهِمْ، وَالْمقَامِ عَلَى مَا أَمَرْتَ بِهِ)[1].

أقول: إن الله سبحانه كما علم عباده المؤمنين وعرفهم كيف يحمدونه على ما يستحق من الحمد والثناء لذاته وصفاته الإلهية، وعلى ما يجب عليهم من أداء حق الربوبية، وعلى ما أنعم عليهم من حلائل النعم وفواضل الكرم، بما أفاض عليهم في الدنيا من آثار رحمته الرحمانية والرحيمية، وبما سيفيض عليهم في الآخرة من رحمته المكتوبة الخاصة لهم، التي من جملتها أنه تعالى لم يجعل ليوم الدين مالكا إلّا نفسه، ولا لأحد فيه تصرفا إلّا بإذنه، ولا حكما إلّا بأمره، علمهم وعرفهم كيف يعبدونه شكرا لتلك النعم، ويستعينون به على عبادته وطاعته ليؤدوها كما علم فقال: (قُولُوا: يَا أَيهَا الْخَلْقُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ «إِياكَ نَعْبُدُ» أَيهَا الْمُنْعِمُ عَلَيْنَا، نُطِيعُكَ مُخْلِصِينَ) لك

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص٣٩.

العبادة موحدين لا نشرك بعبادتك أحدًا ولا نعبد إلّا إلهًا واحدًا، لأن العبادة التي هي غاية الخضوع والخشوع والتذلل وكمالها، لا يجوز إلّا لمن له غاية النعم ونهاية الجود والكرم وتمامها، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على عبادتك كما أمرت وطاعتك كما فرضت، وعلى جميع أمور دنيانا وآخرتنا بما رضيت، لأنه لا حول ولا قوة إلّا بك وحدك لا شريك لك، والانتقال من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه على أنه ينبغي للعابد أن يعبد الله كأنه يراه، كما قال رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري: (يَا أَبَا ذَرٍّ، اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك)[1] يعني أنه سبحانه وإن لم تكن تراه ولن تراه أبدا فإنه يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين، وهو موجود في غيبتك وحضرتك مطلع على سرك وعلانيتك، بل يكون السر عنده علانية ويساوى عنده الغيب والشهادة، فاعبده على يقين منك به وحضر من قلبك له، وفناء عن وجودك وانجذاب إلى جهة معبودك، ناسيًا عن كل ما سواه، مخلصًا نيتك لله، مع كمال مراعاة الأدب من غير مشقة ولا تعب، موقعًا عبادتك على أحسن وجه، متلذذًا بعبادته بكل لذة، وافقًا بين يديه كوقوف عبد ذليل بين يدي ملك جليل، الذي بيده ملكوت كل شيء وبأمره قام كل نور وفيئ، ذاكرًا ليوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، الذي كان إياب الخلق إليه وحسابهم عليه، مصغرًا لنفسك محقرًا لعبادتك، مدرجًا لها في تضاعيف عبادة العابدين، خارجًا عن حولك وقوتك، ناجيًا بلسان شوقك قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) الأمالي (للطوسي) ص٥٢٦.

قَالَ الصادِقُ عليه السلام: (فإِذَا بَلَغْتَ بَابَ الْمَسْجِدِ فَاعْلَمْ أَنكَ قَدْ قَصَدْتَ [بَابَ مَلِكٍ عَظِيمٍ](١) ملكًا عظيمًا لَا يَطَأُ بِسَاطَهُ إِلا الْمُطَهرُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لِمُجَالَسَتِهِ إِلا الصديقُونَ فَهَبِ الْقَدُومَ إِلَى بِسَاطِ خدمة هَيْبَةِ الْمَلِكِ فَإِنكَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ إِنْ غَفَلْتَ فَاعْلَمْ أَنهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ مَعَكَ وَبِكَ فَإِنْ عَطَفَ عَلَيْكَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ قَبِلَ مِنْكَ يَسِيرَ الطاعَةِ وَأَجْزَلَ لَكَ عَلَيْهَا ثَوَابًا كَثِيرًا وَإِنْ طَالَبَكَ بِاسْتِحْقَاقِ الصدْقِ وَالْإِخْلَاصِ عَدْلًا بِكَ حَجَبَكَ وَرَد طَاعَتَكَ وَإِنْ كَثُرَتْ وَهُوَ فَعالٌ لِمَا يُرِيدُ وَاعْتَرِفْ بِعَجْزِكَ وَتَقْصِيرِكَ وَانْكِسَارِكَ وَفَقْرِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِنكَ قَدْ تَوَجهْتَ لِلْعِبَادَةِ لَهُ وَالْمؤَانَسَةِ بِهِ وَاعْرِضْ أسرارك عَلَيْهِ وَلْتَعْلَمْ أَنهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أسرار الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ وَعَلَانِيَتُهُمْ وَكُنْ كَأَفْقَرِ عِبَادِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَخْلِ قَلْبَكَ عَنْ كُل شَاغِلٍ يَحْجُبُكَ عَنْ رَبكَ فَإِنهُ لَا يَقْبَلُ إِلا الْأَطْهَرَ الْأَخْلَصَ انْظُرْ مِنْ أَي دِيوَانٍ يُخْرَجُ اسْمُك)(٢) الحديث.

وقال عليه السلام: (إِذَا اسْتَقْبَلْتَ الْقِبْلَةَ فَآيِسْ مِنَ الدنْيَا وَمَا فِيهَا وَالْخَلْقِ وَمَا هُمْ فِيهِ وَفَرِغْ قَلْبَكَ عَنْ كُل شَاغِلٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَعَايِنْ بِسِرِكَ عَظَمَةَ اللهِ عَز وَجَل وَاذْكُرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى هُنالِكَ تَبْلُوا كُل نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ وَقِفْ عَلَى قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرجَاءِ فَإِذَا كَبرْتَ فَاسْتَصْغِرْ مَا بَيْنَ السمَاوَاتِ الْعُلَى وَالثرَى دُونَ كِبْرِيَائِهِ فَإِن اللهَ تَعَالَى إِذَا اطلَعَ عَلَى قَلْبِ الْعَبْدِ وَهُوَ يُكَبرُ وَفِي قَلْبِهِ عَارض عَنْ حَقِيقَةِ تَكْبِيرِهِ فَقَالَ يَا كَذابُ أَتَخْدَعُنِي وَعِزتِي وَجَلَالِي لَأَحْرِمَنكَ حَلَاوَةَ ذِكْرِي وَلَأَحْجُبَنكَ عَنْ قُرْبِي وَالْمَسَرةِ بِمُنَاجَاتِي وَاعْلَمْ

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط.

(٢) مصباح الشريعة ص١٣٠ الباب الواحد والستون في دخول المسجد. بحار الأنوار ج٨٠ ص٣٧٣ باب فضل المساجد وأحكامها وآدابها.

أَنهُ تَعَالَى غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى خِدْمَتِكَ وَهُوَ غَنِي عَنْكَ وَعَنْ عِبَادَتِكَ وَدُعَائِكَ وَإِنمَا دَعَاكَ بِفَضْلِهِ لِيَرْحَمَكَ وَيُبْعِدَكَ عَنْ عُقُوبَتِهِ وَيَنْشُرَ عَلَيْكَ مِنْ بَرَكَاتِ حَنَانِيتِهِ وَيَهْدِيَكَ إِلَى سَبِيلِ رِضَاهُ وَيَفْتَحَ عَلَيْكَ بَابَ مَغْفِرَتِهِ فَلَوْ خَلَقَ اللهُ عز وَجَل عَلَى ضِعْفِ مَا خَلَقَ مِنَ الْعَوَالِمِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَى سَرْمَدِ الْأَبَدِ لَكَانَ عِنْدَ اللهِ سَوَاءٌ كَفَرُوا بِهِ بِأَجْمَعِهِمْ أَوْ وَحدُوهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْخَلْقِ إلا إِظْهَارُ الْكَرَمِ وَالْقُدْرَةِ فَاجْعَلِ الْحَيَاءَ رِدَاءً وَالْعَجْزَ إِزَارًا وَادْخُلْ تَحْتَ سَرِيرِ سُلْطَانِ اللهِ تَعَالَى تَغْتَنِمْ فَوَائِدَ رُبُوبِيتِهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُسْتَغِيثًا إِلَيْه)[1].

أقول: قوله عليه السلام: (إذا بلغت باب المسجد) وكذا قوله: (فإذا استقبلت القبلة) وقوله: (إذا كبرت) تنبيه على أنه ينبغي للعابد أن تكون حاله هذه عند توجهه إلى عبادة ربه، وبلوغه إلى باب المسجد الذي هو باب دار الملك، وعند استقباله للقبلة التي هي بيته الذي يجب عليه أن يواجه بظاهره إليه وقت عبادته، وعند تكبيره لافتتاح الصلاة التي هي معراجه إلى مقام القرب والشهود ومحل المناجاة مع الملك المعبود.

فما ظنك بحال من يتقرب إليه سبحانه بتحميده وتمجيده وملاحظة كمال ربوبيته، وعموم صفة رحمانيته للمؤمن والكافر والمطيع والعاصي في الدنيا، وخصوص رحمة رحيميته لأهل محبته من المؤمنين في الآخرة، والانغماس في بحر وحدانيته الذي يعبر عنه تارة بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وأخرى بـ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ ، ولم يزل يتقرب إليه متدرجًا إلى أن يبلغ في القرب مقامًا صار العلم له عيانًا والخبر شهودًا والغيبة حضورًا، وهو مقام كشف سبحات الجلال

---

(١) مصباح الشريعة ص٨٧ الباب التاسع والثلاثون في افتتاح الصلاة.

من غير إشارة، وظهور نور الجمال الذي لا تكشفه العبارة، ومقام غلبة السر المكتوم وصحو المعلوم، وهو مقام كمال التجريد وجذب الأحدية لصفة التوحيد، وهو الحقيقة التي هي معرفة الله القديم الذي كان ولم يزل، وهو النور المشرق من صبح الأزل، وهو جهة الخطاب لرب العالمين ومالك يوم الدين في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والمقصود بالعبادة والخطاب هو المعبود المستعان.

[الجمع بين ما دل على جواز الرؤية وامتناعها]

فإن قلت: ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله (اعبد الله كأنك تراه)[1]، وما الجمع بين الآيات والأخبار الدالة على عدم جواز الرؤية كقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[3]، وكقول أمير المؤمنين عليه السلام: (لا تحيط بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا)[4]، وكما في الكافي عن أبي هاشم الجعفري قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ فَقَالَ: (يَا أَبَا هَاشِمٍ أَوْهَامُ الْقُلُوبِ أَدَق مِنْ أَبْصَارِ الْعُيُونِ، أَنْتَ [قَدْ] تُدْرِكُ بِوَهْمِكَ السِّنْدَ وَالْهِنْدَ وَالْبُلْدَانَ التِي لَمْ

---

(١) مصباح الشريعة ص٨ الباب الثاني في العبودية.

(٢) الأعراف ١٤٣.

(٣) الأنعام ١٠٣.

(٤) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٢٦٩ حمد الله تعالى. الإحتجاج على أهل اللجاج (للطبرسي) ج١ ص٢٠٤ احتجاجه عليه السلام فيما يتعلق بتوحيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات المصنوعين من الجبر والتشبيه والرؤية والمجيء والذهاب والتغيير والزوال والانتقال من حال إلى حال في أثناء خطبه ومجاري كلامه ومخاطباته ومحاوراته.

تَدْخُلْهَا وَلَا تُدْرِكُهَا بِبَصَرِكَ، وَأَوْهَامُ الْقُلُوبِ لَا تُدْرِكُهُ فَكَيْفَ أَبْصَارُ الْعُيُونِ)[١].

وغير ذلك من الأخبار الدالة على عدم جواز الرؤية.

وبين الآيات والأخبار الدالة على جواز [الرؤية] كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢] وكقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[٣] وكقول أمير المؤمنين عليه السلام حين سأله السائل فقال: هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال عليه السلام: (لم أعبد ربًا لم أره)[٤] وكقوله عليه السلام: (ما رأيت شيئًا إلّا ورأيت الله قبله أو معه)[٥] على اختلاف الرواية، وكقول سيد الشهداء عليه السلام: (عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيبًا)[٦] وغير ذلك من الأخبار الدالة على جواز الرؤية.

أقول: وجه الجمع بين الآيات والأخبار أن المراد بالرؤية المنفية الممتنعة هي التي كانت متعلَقها ـ بفتح اللام ـ ذات القديم سبحانه، سواء كانت بأبصار العيون أو أبصار القلوب وأوهامها، فإنه سبحانه كما لا تدركه الأبصار من نحو ذاته لا تدركه القلوب والأوهام كذلك، كما عرفت من قوله عليه السلام في رواية أبي هاشم، وأما قوله عليه السلام حين سأله السائل بعد قوله عليه السلام (لم أعبد ربا لم أره.

---

(١) الكافي ج١ ص٩٩ في قوله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.
(٢) القيامة ٢٢ ـ ٢٣.
(٣) النجم ١١.
(٤) الوافي ج١١ ص٢٦.
(٥) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج١٠ ص٣٩١. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب ج١٤ ص٤٧٩ [سورة النصر(١١٠): الآيات ١ الى ٣].
(٦) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج٧ ص٦٣.

فقال السائل: كيف رأيته؟.

قال عليه السلام: ويحك[١] لا تراه العيون بمشاهدة الأبصار ولكن تراه القلوب بحقيقة الإيمان)[٢].

فليس المراد أن القلوب تراه من نحو ذاته المقدسة وتدركه بكنهها تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، كيف وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُه)[٣] بل المراد برؤية القلوب له تعالى هي حقيقة الإيمان به والتصديق له بوجوده، والمراد بوجوده تعالى إثباته كما قال عليه السلام: (وجوده إثباته ودليله آياته)[٤] لا إدراك وجوده تعالى، لأن وجوده عين ذاته، وقد عرفت أنها لا تدرك ولا تحيط بها الأوهام، وذلك لأن شرائط الرؤية كلها منتفية هنا، لأن شرط إدراك البصر للأشياء أن يكون المرئي مقابلًا للرائي، أو في حكم المقابل كالرؤية بالمرآة، وأن لا يكون المرئي بعيدًا عن الرائي بعدًا مفرطًا بحيث لا يصل إليه شعاع البصر، ولا قريبًا منه قربًا مفرطًا بحيث يتصل البصر بالمبصر، وأن يكون مستنيرًا، وأن يكون في جهة من الجهات، وكل هذه الشروط منفية في حق المعبود سبحانه، لأنه تعالى ليس معزولًا عن شيء، فلا يمكن التقابل ولا حكمها، ولأنه سبحانه ليس بقريب كقرب بعض

---

(١) في المصدر: ويلك.

(٢) الكافي ج١ ص٩٨ باب في إبطال الرؤية.

(٣) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٨٧ ومن كلام له عليه السلام وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي. بحار الأنوار ج٤ ص٣٠٨ باب جوامع التوحيد.

(٤) (دَلِيلُهُ آيَاتُهُ وَوُجُودُهُ إِثْبَاتُه) الإحتجاج على أهل اللجاج ج١ ص٢٠١.

الأشياء إلى بعض، ولا بعيد كبعد بعضها عن بعض، بل هو أقرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء بما لا يتناهى، وأبعد منه كذلك بجهة واحدة، فلا يحصل القرب إلّا مكان المتوسط بين الرائي والمرئي الذي هو شرط تحقق الرؤية، وليس سبحانه مستنيرًا من غيره ولا في غيره لتكون ذاته مدرَكة مرئية، وليس في جهة فيكون محصورًا فيها، فلا يمكن رؤيته تعالى لأن شروط الرؤية لا تجري عليه تعالى، هذا بالنسبة إلى رؤية البصر.

وأما رؤية القلوب كذلك، لأن القلوب لا تدرك ما وراء مبدئها، وذاته سبحانه ليس مبدءًا للأشياء لأن مبدأها هو الوجود الحادث المخلوق الذي هو أثر مشيئته تعالى فيكون في الإمكان، والله سبحانه في الأزل الذي هو ذاته، ومن في الإمكان لا يدرك من في الأزل، لأن الشيء لا يدرك ما وراء مبدئه وما ليس من جنسه وسنخه، فيستحيل عليه تعالى الرؤية في الدنيا والآخرة، فلذا قال سبحانه لموسى بن عمران عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[1] بنفي التأبيد حين سأله الرؤية، بل لم يرضَ مولانا الرضا عليه التحية والثناء أن ينسب الرؤية إلى نفسه تعالى لنفسه سبحانه كما في رواية محمد بن سنان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: قَالَ: سَأَلْتُه: هَلْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَالَ: (نَعَمْ قُلْتُ يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا قَالَ مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُو)[2] الحديث، وسنذكر تمامه إن شاء الله مشروحًا.

---

(١) الأعراف ١٤٣.

(٢) الكافي ج١ ص١١٣ باب حدوث الأسماء. التوحيد ص١٩١ باب أسماء الله تعالى والفرق بين معانيها وبين معاني أسماء المخلوقين.

والمراد بالرؤية الجائزة رؤية آياته وعلامات قدرته، سواء تعلقت بالآيات الظاهرة وأدركتها أبصار العيون، أو تعلقت بالآيات الباطنة وأدركتها أبصار القلوب، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] ولم يقل ذاتنا، وقال عز وجل: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[2] ثم قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[4]، فقول علي عليه السلام: (لم أعبد ربًا لم أره) وكذا قوله عليه السلام: (ما رأيت شيئًا إلّا ورأيت الله قبله أو معه) وقول سيد الشهداء عليه السلام: (متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الإشارة هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا)[5] وأمثال ذلك ترجع إلى رؤية الآيات والعلامات لا الذات المقدسة فإنها لا تدرَك بوجه ولا بمشعر من المشاعر، حتى الفؤاد الذي هو أعلى مشاعر الإنسان.

وأما قول الصادق عليه السلام: (فإذا انجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة)[6] فالمراد بتلك المعرفة معرفة الصفة التي وصف سبحانه بها نفسه، وهي صفة استدلال عليه لا صفة تكشف له، كيف وقد

---

(١) فصلت ٥٣.

(٢) النجم ١١.

(٣) النجم ١٨.

(٤) الذاريات ٢٠ ـ ٢١.

(٥) إقبال الأعمال ج١ ص٣٤٩ فصل فيما نذكره من أدعية يوم عرفة. بحار الأنوار ج٦٤ ص١٤٢.

(٦) مصباح الشريعة ص١١٩ الباب السادس والخمسون في البيان. بحار الأنوار ج٦٧ ص٢٣ باب حب الله تعالى.

اعترف بالعجز عن حق معرفته الذي هو معرفة ذاته سبحانه خاتم النبيين والأئمة وجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين صلى الله عليه وعليهم أجمعين، فقالوا: (سبحانك ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك)[١].

فعلى هذا فقول رسول الله ﷺ لأبي ذر رضوان الله عليه: (اعبد الله كأنك تراه)[٢] يجوز أن يراد بالرؤية هنا الرؤية المنفية الممتنعة، بمعنى أنه ﷺ وصاه وأمره أن يعبد ربه في حال الغيبة وعدم الرؤية كحال الحضور، وفرض الرؤية بمراعاته كمال الأدب وعدم التفاته إلى غير جهة معبوده ظاهرًا وباطنًا، وغير ذلك مما أشرنا إليه سابقًا، وهذه العبارة جرت على الطريق المتعارف عند أهل اللسان فلا يلزم منها التشبيه، أي تشبيه ذاته تعالى بالأشياء الغائبة التي يمكن حضورها أو فرض حضورها ورؤيتها، على أن مرجع التشبيه إلى حالتي العابد لا المعبود سبحانه، فإنه تعالى ليس له حالتان، حالة الغيبة وحالة الحضور، وحالة البطون وحالة الظهور، لأن غيبته تعالى عين حضوره وبطونه نفس ظهوره، وهو قريب في بعده، وبعيد في قربه، وعال في دنوه ودان في علوه، قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه: (الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالًا فيكون أولًا قبل أن يكون آخرًا ويكون ظاهرًا قبل أن يكون

---

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج١٢ ص١٥٥.

(٢) مصباح الشريعة ص٨ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَحُرُوفُ الْعَبْدِ ثَلَاثَةٌ (ع) (ب) (د) فَالْعَيْنُ: عِلْمُهُ بِاللَّهِ، وَالْبَاءُ: بَوْنُهُ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَالدَّالُ: دُنُوُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَا كَيْفٍ وَلَا حِجَابٍ وَأُصُولُ الْمُعَامَلَاتِ تَقَعُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ كَمَا ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْبَابِ الْأَوَّلِ).

باطنًا)[١] فلم تكن له سبحانه حالات متخالفة متعاقبة (ليس كمثله شيء وهو اللطيف الخبير)[٢].

ويجوز أن يراد بها الرؤية الجائزة المطلوبة، بمعنى أنه ﷺ أمره أن يعبد الله على يقين من قلبه وحقيقة من إيمانه ورؤية ومعرفة من فؤاده، بأن يجعل قلبه عارفًا بأن لله معرفة شهودية، ويطلب منه تعالى رؤيته ومعرفته الفؤادية حتى يدخل في أهل الكشف والمحبة والشهود الذين عناهم سيد الشهداء عليه السلام بقوله: (أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك)[٣] الدعاء.

وأشار إليهم سيد الساجدين عليه السلام بقوله: (إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم في أوكار الأذكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون) إلى أن قال: (وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقر بإدراك المسؤول ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم)[٤].

وأما قوله ﷺ: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٥] إشارة إلى أن وصيتي لك أن تعبد الله على كمال مراعاة الأدب وشرائط العبادة وحضور القلب وغير ذلك من مكملات العبادة، لأجل أنه تعالى يراك

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٥ ص١٥٣ ومن خطبة له عليه السلام.
(٢) الدروع الواقية ص٢١٦ اليوم الثامن عشر.
(٣) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.
(٤) بحار الأنوار ج٩١ ص١٥١ باب أدعية المناجاة.
(٥) مصباح الشريعة ص٨ الباب الثاني في العبودية.

على هيئة المتواضعين وصفة الخاشعين، وهي أي رؤيته تعالى إياك حاصلة تراه أنت أم لا تراه فالتزم بوصيتي.

[بحث في الأسماء الإلهية]

ثم اعلم أنه تعالى أمرك أن تعبده وتستعين به وتقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقد قصدت مخاطبًا بخطابك وجهة الخطاب غيره، وإذا دعوته باسمه وقلت: يا الله مثلًا فالاسم غيره لأنه غيره، لأنه صفة لموصوف، والصفة غير الموصوف فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أَولُ الدينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُل صِفَةٍ أَنهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُل مَوْصُوفٍ أَنهُ غَيْرُ الصفَةِ فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَناهُ وَمَنْ ثَناهُ فَقَدْ جَزأَهُ وَمَنْ جَزأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدهُ وَمَنْ حَدهُ فَقَدْ عَده)[2].

قوله عليه السلام: (ومن أشار إليه فقد حده) يريد أنه سبحانه لا تقع عليه الإشارة، سواء كانت قلبية أو وهمية أو خيالية أو حسية، لاستلزام كل واحدة من الإشارات حدودًا معنوية أو حسية، ولهذا قال عليه السلام في حديث كميل رحمة الله عليه في باب معرفة الله سبحانه: (كشف سبحات الجلال من غير إشارة)[3].

---

(١) الفاتحة ٥.

(٢) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٣٩ ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوي على حمد الله وخلق العالم وخلق الملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبي والقرآن والأحكام الشرعية.

(٣) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٨١ باب ركود الشمس.

وقوله عليه السلام: (ومن حده فقد عده) لأن كل محدود يكون معدودًا، لأنه تحيط به حدود عديدة كثيرة، وأقطار مختلفة، فإذا توهمت شيئًا في خطابك أو أشرت إلى شيء في وهمك، فذلك المتوهم والمشار إليه غيره سبحانه، ففي إرشاد المفيد عليه الرحمة عن الصادق عليه السلام أنه قال لهشام بن الحكم: (إن الله لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه)[1] انتهى.

وقال مولانا الباقر عليه السلام: (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود عليكم)[2].

وفي الكافي في باب المعبود عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (من عَبَدَ اللهَ بِالتوَهمِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ وَالْمَعْنَى فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى بِإِيقَاعِ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ التِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فَعَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ فِي سَرَائِرِهِ وَعَلَانِيَتِهِ فَأولئك أَصْحَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حَقًا وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أولئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقا)[3].

وفيه عن هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ أَنهُ سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَاشْتِقَاقِهَا اللهُ مِما هُوَ مُشْتَق؟.

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ج٢ ص٢٠٤ في ما حفظ عن الإمام الصادق عليه السلام في التوحيد.

(٢) أوردها الشيخ البهائي بهذا النحو: (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه، مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم) ونسبها إلى الإمام الباقر عليه السلام. راجع مشرق الشمسين، ص٣٩٨، وشرح أصول الكافي للمازندراني، ج١ ص٢٥، ونقل الشيخ المجلسي كلام الشيخ البهائي في البحار، ج٦٦ ص٢٩٣.

(٣) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.

قَالَ: فَقَالَ لِي: (يَا هِشَامُ اللهُ مُشْتَق مِنْ إِلَهٍ وَالْإِلَهُ يَقْتَضِي مَأْلُوهًا وَالِاسْمُ غَيْرُ الْمُسَمى فَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَلَمْ يَعْبُدْ شَيْئًا وَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ والْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَعَبَدَ اثْنَيْنِ وَمَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى دُونَ الِاسْمِ فَذَاكَ التوْحِيدُ أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ؟.

قَالَ: فَقُلْتُ زِدْنِي؟

قَالَ: إِن لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا فَلَوْ كَانَ الِاسْمُ هُوَ الْمُسَمى لَكَانَ كُل اسْم مِنْهَا إِلَهًا وَلَكِن اللهَ مَعْنًى يُدَل عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَكُلهَا غَيْرُهُ، يَا هِشَامُ الْخُبْزُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ وَالْمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ وَالثوْبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ وَالنارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهْمًا تَدْفَعُ بِهِ وَتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا وَالْمُتخِذِينَ مَعَ اللهِ جَل وَعَز غَيْرَهُ؟.

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ فَقَالَ: نَفَعَكَ اللهُ بِهِ وَثَبتَكَ يَا هِشَامُ.

قَالَ هِشَامٌ: فَوَ اللهِ مَا قَهَرَنِي أَحَدٌ فِي التوْحِيدِ حَتى قُمْتُ مَقَامِي هَذَا)[1].

أقول: قوله عليه السلام (تناضل) بالضاد المعجمة أي تجادل وتخاصم وتدافع.

وفي الكافي أيضًا عَنْ عَبْدِ الرحْمَنِ بْنِ أَبِي نَجْرَانَ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَوْ قُلْتُ لَهُ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ نَعْبُدُ الرحْمَنَ الرحِيمَ الْوَاحِدالْأَحَدَ الصمَدَ.

قَالَ فَقَالَ: (إِن مَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ الْمُسَمى بِالْأَسْمَاءِ فقد أَشْرَكَ

---

(١) الكافي ج١ ٨٧ باب المعبود.

وَكَفَرَ وَجَحَدَ وَلَمْ يَعْبُدْ شَيْئًا بَلِ اعْبُدِ اللهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الصمَدَ الْمُسَمى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ دُونَ الْأَسْمَاءِ إِنِ الْأَسْمَاءَ صِفَاتٌ وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ)[١].

أقول: المستفاد من هذه الروايات أن لله تبارك وتعالى أسماء اختارها لنفسه وسمى نفسه بها وأمر عباده أن يدعوه بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾[٢] وأنه سبحانه معنى هذه الأسماء ومسماها، وأن من عبد الاسم دون معناه ومسماه الذي هو سبحانه فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى الذي هو المسمى فقد أشرك لأنه عبد اثنين، مع أنه سبحانه قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾[٣]، فالمعبود سبحانه هو المسمى بهذه الأسماء.

ولشيخي وسيدي وأستاذي أعلى الله مقامه عبارة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة تنافي بظاهرها ما يستفاد من تلك الروايات، من أن المعبود هو المسمى بتلك الأسماء، لأنه جعل المسمى غير الذات القديم الذي هو المعبود عز وجل، ونحن نذكر كلامه أعلى الله مقامه أولًا ثم نبين مراده بما يرفع التنافي بين كلامه وكلام أئمته عليهم السلام، وليس مرادنا بإيراد كلامه وتبيين مرامه، رفع التنافي بين الكلامين فقط، بل نريد ذلك وزيادة توضيح في هذا المقام الذي هو موضع الكلام ومزلة الأقدام.

فنقول: إنه رضوان الله عليه ذكر في أوائل الشرح المذكور في بيان

---

(١) الكافي ج١ ص٨٨ باب المعبود. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج١ ص٣٠٦.

(٢) الأعراف ١٨٠.

(٣) النحل ٥١.

قوله عليه السلام (وموضع الرسالة) أن لهم عليهم السلام أربعة مقامات استنبطها لهم من قول مولانا علي بن الحسين عليه السلام في حديث رواه جابر بن يزيد الجعفي الذي سنذكره إن شاء الله تعالى، فقال: (ولهم عليهم السلام في محل الرسالة أربعة مقامات:

المقام الأول: مقام السرّ المقنع بالسرّ.

والثاني: مقام المعاني وهو مقام سرّ السرّ.

والثالث: مقام الأبواب وهو مقام السرّ والسفارة والوساطة والترجمة.

والرابع: مقام الإمامة.

وقد أشار الصادق عليه السلام إلى هذه المواضع الشريفة والمقامات المنيفة كما رواه محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات عنه عليه السلام: (إن أمرنا هو الحق وحق الحق، وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، وهو السرّ وسرّ السرّ وسرّ المستسر وسرّ مقنع بالسر)[1] انتهى.

فأشار إلى المقام الأول بقوله عليه السلام: (وسرّ المستسرّ وسرّ مقنع بالسرّ)، وإلى المقام الثاني بقوله: (وباطن الباطن وهو سِرُّ السرّ)، وإلى المقام الثالث بقوله عليه السلام (وباطن الظاهر) وهو السر، وإلى المقام الرابع بقوله: (وهو الظاهر)، وإلى الأخيرين بقوله عليه السلام: (وهو الحق)، وإلى الأولين بقوله عليه السلام: (وحق الحقّ).

---

(١) بصائر الدرجات ص٢٩. ومختصر البصائر ص٢٩١. وبحار الأنوار ج٢ ص٧١. والعوالم ج٣ ص٣١٤.

وعنه عليه السلام: (إن أمرنا سرّ مستسر، وسرّ لا يفيده[١] إلّا سرّ وسرّ على سرٍّ وسرٌّ مقنع بسرٍّ)[٢].

فأشار في هذا إلى الأول بقوله عليه السلام: (سرٌّ مقنع بسرٍّ)، وإلى الثاني بقوله: (سرّ على سرّ)، وإلى الثالث بقوله عليه السلام: (وسرٌّ لا يفيده إلّا سرّ)، وإلى الرابع بقوله:

(سرٌّ مستسر).

أما الأول: فهو مقام البيان.

والثاني: مقام المعاني.

والثالث: مقام الأبواب.

والرابع: مقام الإمام عليه السلام.

وفي رواية جابر الإشارة إلى الأولين، روي عن جابر بن عبد الله عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: (يا جابر عليك بالبيان والمعاني).

قال: فقلت: وما البيان والمعاني؟

قال: (قال علي عليه السلام: أما البيان فهو أن تعرف أن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣] فتعبده ولا تشرك به شيئًا. وأما المعاني فنحن معانيه ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه وحقّه إذا شئنا شاء الله ويريد الله ما نريده، فنحن المثاني الذي أعطانا الله نبينا، صلى الله عليه وآله ونحن وجه الله الذي يتقلب في الأرض بين أظهركم، فمن عرفنا

---

(١) في البصائر والمختصر: لا يفيد، وما بالمتن موافق للبحار والعوالم.

(٢) بصائر الدرجات ص٢٨. ومختصر البصائر ص٢٩١. وبحار الأنوار ج٢ ص٧١. والعوالم ج٣ ص٣٠٧.

(٣) سورة الشورى: ١١.

فأمامه اليقين ومن جهلنا فأمامه سجين، ولو شئنا خرقنا الأرض وصعدنا السماء، وإِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَ هذا الخلق ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[1] انتهى.

أقول: وبيان: (إذا شئنا شاء الله ويريد الله ما نريده) في الجملة كما أجاب به بعض الأولياء: كان في سفينة فاشتد بهم الموج وأشرفوا على الغرق، فالتجأوا إليه أن يدعو الله فقال: ليس لي أن أعترض على ربي، فلما اشتد الأمر ضجوا وتضرعوا إليه فحرك شفتيه فسكن الموج على الفور، كأن لم يكن.

فقال له شخص كثير الملازمة له والخدمة: أخبرني بأي شيء دعوت الله؟!

فقال: إنا نترك ما نريد لما يُريد، فإذا أردنا ترك ما يُريد لما نُريد... إلخ. وهذا صورة ما قالوا عليهم السلام.

وذكر الإمام سيد الساجدين عليه السلام الإشارة إلى الكلّ على ما روي في كتاب أنيس السمراء وسمير الجلساء قال: حدثني أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا سليمان بن أحمد، قال: حدثنا جعفر بن محمد، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد الموصلي قال: أخبرني أبي عن خالد عن القاسم عن جابر بن يزيد الجعفي، عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2]، وهي والله آياتنا وهذه أحدها، وهي والله ولايتنا يا جابر).

إلى أن قال عليه السلام: (يا جابر أو تدري ما المعرفة؟ المعرفة إثبات

---

(١) كتاب التوحيد ص١٥٠. مشارق أنوار اليقين ص٢٨٤.

(٢) سورة الأعراف: ٥١.

التوحيد أولًا ثم معرفة المعاني ثانيًا، ثم معرفة الأبواب ثالثًا، ثم معرفة الإمام رابعًا، ثم معرفة الأركان خامسًا، ثم معرفة النقباء سادسًا، ثم معرفة النجباء سابعًا، وهو قوله عزّ وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[١] وتلا أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

يا جابر إثبات التوحيد ومعرفة المعاني، أما إثبات التوحيد فمعرفة الله القديم [الغائب][٣]، الذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾[٤] وهو غيب باطن كما سنذكره كما وصف به نفسه، وأما المعاني فنحن معانيه وظاهره فيكم اخترعنا من نور ذاته وفوض إلينا أمور عباده). الحديث[٥].

وإنما ذكرته بطوله لما فيه من الأسرار، وسنشير إلى بيان بعضها فيما بعد.

فأما المقام الأول: المسمى بإثبات التوحيد وبالسرِّ المقنع بالسرِّ وحقّ الحقّ، فالإشارة إلى بيانه من الأحاديث المروية عنهم عليهم السلام، كثيرة فمنها ما قال علي عليه السلام: (لا تحيط به الأوهام بل تجلّى لها بها وبها امتنع منها)[٦].

---

(١) سورة الكهف: ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

(٣) ما أثبتناه من البحار وإلزام الناصب، وفي الأصل: العامة، وفي الهداية الكبرى: العلي.

(٤) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٥) والحديث طويل رواه في بحار الأنوار ج٢٦ ص١٤. الهداية الكبرى للخصيبي ص٢٣٠.

(٦) نهج البلاغة ج٢ ص١١٥. الاحتجاج للطبرسي ج١ ص٣٠٥.

وقال عليه السلام: (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا)[١].

أقول: الذي يشير إلى هذا المقام من الحديث الثاني هو الوجه الثالث منه، والمراد من هذا المقام الذي هو إثبات التوحيد، هو معرفة الله بصفته التي وصف بها نفسه لعباده الذين أراد أن يعرفوه بها وهي صفة محدثة[٢] لا تشبه[٣] صفة شيء من المخلوقات وهي مقاماته وعلاماته التي لا تعطيل لها في كلّ مكان، أي في غيبتك وحضرتك، من عرفها فقد عرف الله، لأنها أمثاله، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٤].

وفي دعاء كلّ يوم من شهر رجب عن الحجة عليه السلام: (فجعلتهم معادن لكلماتك وأركانًا لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك..)[٥] إلخ.

فبيّن عليه السلام أنهم عليهم السلام معادن لكلماته يعني أنهم أعضاد لخلقه لأن

---

(١) بصائر الدرجات ص٥١٧. أصول الكافي ج١ ص١٨٤.

(٢) في الكافي ج١ ص١٠٧ باب صفات الذات عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور، قال: قلت: فلم يزل الله متحركًا؟ قال: فقال: تعالى الله عن ذلك إن الحركة صفة محدثة بالفعل، قال: قلت: فلم يزل الله متكلمًا؟ قال: فقال: إن الكلام صفة محدثة ليست بأزلية، كان الله عزّ وجلّ ولا متكلم).

(٣) في نسخة أخرى: لا تشتبه.

(٤) سورة الشورى: ١١.

(٥) مصباح الكفعمي ج٢ ص٧٢. ومصباح المتهجد ص٨٠٣.

العلة المادية لجميع الخلق هو شعاع أنوارهم، فقد اتخذهم الله سبحانه أعضادًا لخلقه يعني يخلق خلقه من شعاع أنوارهم والخلائق من الأسباب والمسببات كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1]، فَهُم معادن لكلماته.

وجعلهم سبحانه أركانًا لتوحيده، لأنه المقام الذي لا فرق بينه وبين الله سبحانه إلّا أنه عبده هو ظهوره للعبد بالعبد، وهم عليهم السلام تلك المظاهر كما يأتي في التمثيل بالقائم، فإنه لا فرق بينه وبين زيد إلّا أنه ظهور زيد بالقيام، فهو محدثه به وركنه القيام، فحقيقتهم كالقيام وظهوره على تلك الحقيقة بها كالقائم، والقائم هو المقام الذي يعرف زيدًا به من عرف زيدًا، أي لا يعرف زيد إلّا به، والمراد أن الله سبحانه لا يعرف إلّا بتلك المقامات وهي لا تتحقق إلّا بِهم وفِيهم، كما أن القائم لا يتحقق إلّا بالقيام وفيه، وهذا معنى قول علي عليه السلام: (لا يُعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا). فهم أركان توحيده وآياته كذلك ومقاماته وكونها لا تعطيل لها لأنها وجه الله. كما قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[2]، وكون الإثبات لا يكون إلّا بالخلق لأن ذاته تجلّ عن إدراك العقول وتوهم الأوهام، لأن العقول والأوهام إنما تدرك أنفسها وتشير إلى نظائرها[3]، وما ذكرنا من المعرفة هي سبيل معرفتهم التي لا يعرف الله إلّا بها.

---

(١) سورة آل عمران: ٤٥.

(٢) سورة البقرة: ١١٥.

(٣) نهج البلاغة ج١ ص١٢. الاحتجاج ج١ ص٢٩٩.وتوحيد الصدوق ص٣٩ باب التوحيد ونفي التشبيه ولفظه في التوحيد عن علي عليه السلام: (.. له معنى الربوبية إذ لا مربوب وحقيقة الإلهية إذ لا مألوه، ومعنى العالم ولا معلوم ومعنى الخالق ولا=

ومثال المقام الذي هو التوحيد القائم كما مرّ قبل هذا، فإنك إذا قلت القائم فهو صفة زيد وهو ظهور زيد بالقيام وليس هو زيدًا ولم يستتر ضميره فيه، وإنما استتر فيه جهة فاعلية قيامه، وتلك الجهة قائمة بزيد قيام صدور، وقائمة في غيب قائم قيام ظهور، وقائم قائم بها قيام تحقق، لأنها لا تظهر إلّا في قائم، وقائم لا يتحقق إلّا بها، لأنها مبدأ وجود قائم وهي حركة أحدثها زيد بنفسها وهي ليست زيدًا، وإنما هي حركته، فالقائم مثال زيد وظهوره بفعله، فإذا أردت أن تعرف زيدًا فإنما تعرفه بما أحدث لك من أمثاله ووصفه كالقائم والقاعد والمتكلم.

وهذا أي المشار إليه والمسمى بزيد، وما أشبه ذلك من أمثاله وصفاته وتوصيفاته فتعرفه بما وصف به نفسه وهو ما ظهر لك به من هذه الأفعال والصفات وكلها غيره، وهي وإن كانت مثله بحيث يكون بينهما في جهة التعرف والتعريف والمعرفة مساواة، لرجوع ذلك كلّه إلى الصفات، والذات عن ذلك كلّه بمعزل إلّا أنها محدثة به صادرة عنه لا منه، وهو قوله عليه السلام في الدعاء المتقدم[1]: (لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك)[2]، فافهم.

=مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع، ليس منذ خلق استحقّ معنى الخالق، ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البارئية، كيف ولا تغيّبه مذ ولا تدنيه قد ولا تحجبه لعل ولا توقته متى، ولا تشمله حين ولا تقارنه مع، إنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلة إلى نظائرها وفي الأشياء يوجد فعالها، منعتها منذ القدمة وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة..)، ولفظه في الاحتجاج وشرح المشاعر: (.. وتشير الآلات إلى نظائرها).

(١) في الزيارة الرجبية.

(٢) مشارق أنوار اليقين للبرسي ص١٣٤. مصباح الشيخ الكفعمي ج٢ ص٧٢. ومصباح المتهجد للطوسي ص٨٠٣. وإقبال الأعمال لابن طاوس ج٣ ص٢١٤.

فقول علي بن الحسين عليه السلام في الحديث المتقدم: (وهي والله آياتنا وهذه أحدها)[١]، وذلك في بيانه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٢]، يشير إلى ما ذكرنا وأنهم ذوو الآيات التي جحد بها الكافرون والمشركون، وهم الذين نسوهم كما ﴿نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ﴾[٣] يوم القيامة وهذا المقام كله وهو مقام: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٤]، إحدى الآيات، وهي تلك الفعلة التي فعل بهم حين حرّك الخيط الأصفر وهي ولايتهم، إلّا أن هذا أعلاها لأنه ليس له شبه، كما قال عليه السلام: (أما البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٥] فتعبده ولا تشرك به شيئًا)[٦].

أمّا أن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فلأنه وصف الحق سبحانه نفسه للعباد فلا يشابه شيئًا من الخلق، وأما أنك تعبده فلأنك تعبد الله الظاهر لك به حتى أنه غيبه عن نفسه وعن المخلوقات فلا يتوجه العابد إلّا إلى الذات، مع أنه أبدًا لا يجدها ولا يفقدها حيث لا يجدها أبدًا، فهذا مقام السرّ المقنع بالسرِّ وحقّ الحقّ وهو البيان والتوحيد، وهذا المقام لهم حيث لا يجدون أنفسهم شيئًا ووجدوا الله ظاهرًا في كلّ شيء، قد جعله دكًّا ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، كان وحده لا يسمع فيها صوت إلّا صوته، وهذا المقام لا يكون موضع الرسالة لأنه مصدر الإرسال فكيف يكون موضع

---

(١) والحديث طويل رواه في بحار الأنوار ج٢٦ ص١٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥١.
(٣) سورة الأعراف: ٥١.
(٤) سورة هود: ١٢٣.
(٥) سورة الشورى: ١١.
(٦) كتاب التوحيد ص١٥٠. مشارق أنوار اليقين ص٢٨٤.

الرسالة)[١] إلّا باعتبار فرض المغايرة ولهذا اعتبرنا هذا المقام وجعلناه الأول.

أقول: هذا آخر كلامه في الشرح في بيان المقام الأول من مقاماتهم، وإنما ذكرته بتمامه لشدة الاحتياج إليه، ولأنه مشتمل على بيان حقيقة ما نحن بصدد ذكره في هذا المقام، وقوله أعلى الله مقامه: (وهذا أي المشار إليه) عطف على قوله: (القائم) في قوله: (كالقائم)، وكذا قوله: (المسمى بزيد وما أشبه ذلك) يعني أن القائم والقاعد والمتكلم، وهذا أي المشار إليه، وكذا كل اسم من الأسماء التي تشير بها إلى زيد والمسمى بزيد وما أشبه ذلك كلها أمثال زيد وصفاته لا ذاته، ولهذا قال: (وكلها غيره)، ثم قال: (والذات عن ذلك كله بمعزل)، فجعل المسمى بزيد غير ذات زيد، فكلامه هذا ينافي بظاهره ما في ظاهر الروايات المتقدمة، لأن ما يستفاد من ظاهرها أن المسمى بالأسماء هو الذات القديم الذي هو المعبود سبحانه كما لا يخفى.

وأما بيان ما يرفع التنافي بين كلامه وكلام الإمام عليه السلام يحتاج إلى بسط الكلام في هذا المقام.

فنقول: قد عرفت مما ذكرنا سابقًا في تفسير الاستعاذة عند تقسيم الوجود، أن الذي يعبر عنه بالوجود عند طلب معرفته إما برسمه أو بكنهه أو بعنوانه على ثلاثة أقسام.

الأول: الوجود الحق.

والثاني: الوجود المطلق.

والثالث: الوجود المقيد.

---

(١) تراث الشيخ الأوحد، ج٣ ص٤٤ ـ ٥٦.

أما الأول: الذي هو الوجود الواجب المقدس عن كل ما سواه، ومن جملة ما هو مقدس عنه إطلاق العبارة عليه، فإذا أطلقت العبارة الصحيحة فإنما تقع على عنوانه وآية معرفته والدليل عليه، فليست له صفة تنال ولا حد يضرب له فيه الأمثال، ولا تصل إليه إشارة ولا تقع عليه عبارة، ولا يوضع له اسم من نحو ذاته، وإنما (أسماؤه تعبير وصفاته تفهيم وكنهه تفريق بينه وبين خلقه وغيوره تحديد لما سواه)[1]، وهذا القسم من الوجود يعبر عنه عند أهل المعرفة بحسب عنوانه وبالنظر إلى دليل معرفته بالذات البحت، فوجوده عين ذاته، وماهيته عين وجوده، وذاته عين صفاته، وصفاته عين ذاته، قال عليه السلام (هو علم لا جهل فيه، وقدرة لا عجز فيها)[2]، وقال عليه السلام (وكمال توحيده نفي الصفات عنه)[3].

ووجود بلا اعتبار فالاعتبارات كلها في خلقه.

وباللاتعين: فلا يوضع له اسم من نحو ذاته، لأن التسمية للشيء لا تكون إلّا بعد تعيينه، فلا تجاوز التسمية عن فعله وعنوانه.

والمنقطع الوجداني فلا يمكن إدراكه لغيره إلّا بما دل على إثبات وجوده بآياته.

ومنقطع الإشارات فتنقطع الإشارات الحسية والخيالية والروحية والعقلية والسرمدية كلها دون عز جلاله.

---

(١) قال الإمام الرضا عليه السلام: (أسماؤه تعبير، وأفعاله تفهيم، وذاته حقيقة) التوحيد، ص٣٥. الاحتجاج ج٢ ص١٧٤ خطبته عليه السلام في التوحيد في مجلس المأمون.

(٢) لم نجد هذه الرواية بعينها ولكن وجدنا ما يقرب منها عَنِ الصَّيْقَلِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عِلْمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَحَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهِ، وَنُورٌ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ) الفصول المهمة في أصول الأئمة ج١ ص٢٢٨.

(٣) الكافي ج١ ص١٤٠ باب جوامع التوحيد. بحار الأنوار ج٥٤ ص١٦٦ تحقيق في دفع شبهة.

والكنز المخفي فلا يعرف ذاته أحد غير ذاته.

والمجهول المطلق فلا يعلم أحد كيف هو في سره وعلانيته.

والواجب الحق فكل ما سواه قائم بأمره.

والغني المطلق فلا يحتاج إلى التسمية لذاته، ولا إلى أن تكون ذاته مسمى لاسم من أسمائه، بل اختار سبحانه لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها بلسانه، وجعل لها معان ومسميات، هي أسماؤه حقيقة لتكون وسيلة لغيره يدعوه بهابقلبه، ويتوجه بها إلى معبوده ومقصوده.

فقول الإمام عليه السلام لعبدالرحمن بن أبي بحران في روايته: (بَلِ اعْبُدِ اللهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الصمَدَ الْمُسَمى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ دُونَ الْأَسْمَاء)[1]، يعني أنك إذا عبدت المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء فقد عبدت الله الظاهر لك به، حتى غيبه عن نفسه وعن كل شيء سواه، فلا يتوجه العابد إلّا إلى الذات كما أشار إليه الشيخ في آخر كلامه، بيان لقول إمامه عليه السلام، فالمقصود بالعبادة هو الله سبحانه لاغير.

فإن قلت: زدني بيانًا فإن ما أشرت إليه وما أشار شيخك إليه زادني تحيرًا، وأورثني تحسرًا على ما مضى من عمري، وقد كنت في غفلة من هذا.

فأقول: قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2]، وأمرك أن تدعوه بأسمائه في مطالبك ومقاصدك ووقت دعائك وحين

---

(١) الكافي ج١ ص٨٨ باب المعبود.مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج١ ص٣٠٦.

(٢) الأعراف ١٨٠.

عبادتك، فأنت إذا دعوته بأسمائه، وتقول مثلا يا الله يا رحمن يا علي يا عظيم يا غفو يا رحيم يا جواد يا وهاب يا كريم، فالمدعو بهذه الأسماء المقدسة والمقصود بالعبادة هو المعبود الحق سبحانه لا معبود سواه، وهو القديم الغاية الذي ليس كمثله شيء وهو السميع بدعائك، والقادر على إجابتك، العليم بسرك وعلانيتك، الذي لا تجوز العبادة إلّا له، ولا يستحقها إلّا هو سبحانه وحده لا شريك له، وتلك الأسماء وسائلك إليه وأدلاؤك عليه، وشفعاؤك عنده، فقولك يا الله هو الاسم الجامع لجميع صفات القدس والإضافة وصفات الخلق، ومعناه وركنه المتقوم به هو الألوهية، أو مسماه هو الذات المقدسة الظاهرة بصفة الألوهية، والمقصود بالعبادة هو المعبود سبحانه.

وقولك الرحمن هو الاسم الجامع لصفات الإضافة وصفات الخلق، ومعناه وركنه المتقوم به هو الرحمة الواسعة المشتملة على الفضل والعدل، ومسماه هو الذات المباركة الظاهرة بصفة الرحمانية، والمقصود هو المعبود سبحانه.

وقولك يا علي هو الاسم العالي على كل شيء، ومعناه وركنه المتقوم به هو العلو في التوحد والوحدانية، ومسماه هو الذات العلية الظاهرة بالصفة المذكورة، والمقصود هو المعبود سبحانه.

وقولك يا عظيم هو الاسم الحامل للسلطنة القديمة والولاية المطلقة، ومعناه وركنه المتقوم به هو العظمة التي ملأت أركان كل شيء، ومسماه هو الذات الظاهرة في الجبروت بصفة القهر والغلبة، وفي الملك والملكوت بصفة الكبرياء والعظمة، والمقصود هو المعبود سبحانه.

وقولك يا غفور يا رحيم هما الاسمان المطلوبان بهما ستر العيوب وغفران الذنوب والرحمة المكتوبة، التي هي جهة الفضل الخالصة من جميع مكاره العدل، ومعناهما وركناهما المتقومان بهما هو المغفرة المطلوبة والرحمة الخاصة المرغوبة، ومسماهما هو الذات الظاهرة بصفة المغفرة الواسعة للمذنبين، والرحمة الرحيمية الخاصة بالمؤمنين، والمقصود هو المعبود سبحانه.

وقولك يا جواد يا وهاب يا كريم هذه أسماء مباركة، ومعناها وأركانها المتقومة بها هي الجود المطلق والموهبة الكبرى والكرم الحقيقي، ومسماها هو الذات الظاهرة بتلك الصفات الكريمة، والمقصود هو المعبود سبحانه.

والمراد بهذه المعاني والأركان هي حقيقتهم عليهم السلام فهم أركان أسمائه تعالى، ومعاني أفعاله، لأن هذه الأسماء أسماء لكل فاعل بالله سبحانه، وفي الدعاء (اللهُم إِني أَسْأَلُكَ وَلَمْ يُسْأَلْ مِثْلُكَ أَنْتَ مَوْضِعُ مَسْأَلَةِ السائِلِينَ وَمُنْتَهَى رَغْبَةِ الراغِبِينَ أَدْعُوكَ وَلَمْ يُدْعَ مِثْلُكَ [وَ أَرْغَبُ إِلَيْكَ وَلَمْ يُرْغَبْ إِلَى مِثْلِكَ][1] أَنْتَ مُجِيبُ دَعْوَةِ الْمُضْطَرينَ وَأَرْحَمُ الراحِمِينَ أَسْأَلُكَ بِأَفْضَلِ الْمَسَائِلِ وَأَنْجَحِهَا وَأَعْظَمِهَا يَا اللهُ يَا رَحْمَانُ يَا رَحِيمُ وَبِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَأَمْثَالِكَ الْعُلْيَا وَنِعَمِكَ التِي لَا تُحْصَى)[2].

أقول: هذه إشارة إليهم عليهم السلام عمومًا.

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط.

(٢) بحار الأنوار ج٨٤ ص٢٤٥ باب كيفية صلاة الليل والشفع والوتر وسننها وآدابها وأحكامها.

(وَبِأَكْرَمِ أَسْمَائِكَ عَلَيْكَ وَأَحَبهَا إِلَيْكَ وَأَقْرَبهَا مِنْكَ وَسِيلَةً وَأَشْرَفِهَا عِنْدَكَ مَنْزِلَةً وَأَجْزَلِهَا لَدَيْكَ ثَوَابًا وَأَسْرَعِهَا فِي الْأُمُورِ إِجَابَةً)[١].

أقول: هذا إشارة إلى خصوص اسمه تعالى الذي هو أول ما اختاره سبحانه من أسمائه الحسنى وهو العلي العظيم، الذي هو أعلى الأشياء كلها.

(وَبِاسْمِكَ الْمَكْنُونِ الْأَكْبَرِ الْأَعَزِ الْأَجَلِ الْأَعْظَمِ الْأَكْرَمِ الذِي تُحِبهُ وَتَهْوَاهُ وَتَرْضَى بِهِ عَمنْ دَعَاكَ فَاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعَاءَهُ وَحَق عَلَيْكَ أَنْ لَا ترد سَائِلَك)[٢].

أقول: هذا إشارة إلى سيد الأسماء وأشرفها وأجمعها وأعظمها وأكملها صلى الله على محمد وآله الطاهرين.

وفي الدعاء الذي ورد في قنوت الوتر: (اللهُم أَنْتَ اللهُ نُورُ السماواتِ وَالْأرض وَأَنْتَ اللهُ زَيْنُ السمَاوَاتِ وَالْأرض وأَنْتَ اللهُ جَمَالُ السمَاوَاتِ وَالْأرض وَأَنْتَ اللهُ عِمَادُ السمَاوَاتِ وَالْأرض وَأَنْتَ اللهُ قِوَامُ السمَاوَاتِ وَالْأرض وأَنْتَ اللهُ صَرِيخُ الْمُسْتَصْرِخِينَ وَأَنْتَ اللهُ غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ وَأَنْتَ اللهُ الْمُفَرجُ عَنِ الْمَكْرُوبِينَ وَأَنْتَ اللهُ الْمُرَوحُ عَنِ الْمَغْمُومِينَ وَأَنْتَ اللهُ مُجِيبُ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِينَ وَأَنْتَ اللهُ إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَأَنْتَ اللهُ الرحْمَنُ الرحِيمُ وَأَنْتَ اللهُ كَاشِفُ السوءِ وَأَنْتَ اللهُ بِكَ مُنْزَلٌ كُل حَاجَة)[٣]. الدعاء.

---

(١) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد ج١ ص١٤٠ما ينبغي أن يفعله من غفل عن صلاة الليل.

(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد ج١ ص١٤٠ ما ينبغي أن يفعله من غفل عن صلاة الليل.

(٣) من لا يحضره الفقيه ج١ ٤٩٠ باب دعاء قنوت الوتر.

أقول: من عرف معنى هذه الفقرات من الدعاء الشريف وكيفية الدعوة بها فقد عرف معبوده وأسماءه الحسنى وصفاته العليا ونعمه التي لا تحصى، وهي إشارة إلى مقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، التي لا فرق بينه وبينها إلّا أنهم عباده وخلقه، فالفقرة الأولى إشارة إلى قولهم عليهم السلام: (أولنا محمد صلى الله عليه وآله)[١]، والفقرة الأخيرة وهي قوله عليه السلام (وأنت الله بك تنزل كل حاجة) إشارة إلى قولهم عليهم السلام (وآخرنا محمد صلى الله عليه وآله)، وما بين الفقرتين وهي اثنتى عشرة فقرة إشارة إلى قولهم عليهم السلام (وكلنا محمد) صلى الله على محمد وآل محمد.

فإن عرفت ما أشرنا إليه فقد عرفت معنى ما أشار إليه الصادق عليه السلام بقوله: (إن أمرنا هو الحق، وحق الحق، وهو الظاهر، وباطن الظاهر، وباطن الباطن، وهو السر وسر السر، وسر المستسر، وسر مقنع بالسر)[٢]، ومعنى قوله علي عليه السلام: (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا)[٣]، ومعنى قوله عليه السلام (لا تحيط به الأوهام بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها)[٤]، وإلا فارجع إلى ما تقدم من التمثيل بالقائم والقاعد والمتكلم، التي هي مقامات لزيد، يعرف زيدًا بها من عرفه، فإن زيدًا قبل ظهوره بصفة القيام أو القعود أو التكلم أو غير ذلك من صفاته الفعلية، لا تعين فيه وليس له ظهور

---

(١) بحار الأنوار ج٢٦ ص٦ باب نادر في معرفتهم صلوات الله عليهم بالنورانية وفيه ذكر جمل من فضائلهم عليهم السلام.

(٢) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم ج١ ص٢٩ نادر من الباب في أن علم آل محمد عليهم السلام سر مستسر وهو نادر من الباب.

(٣) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم ج١ ص٤٩٧ باب في الأئمة عليهم السلام أنهم الذين ذكرهم الله يعرفون أهل الجنة والنار.

(٤) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٢٦٩ حمد الله تعالى.

مطلقا عند غيره، فإذا قام وظهر بصفة القيام، أي أحدث حركة بنفسها وهي قام، وتعلقت تلك الحركة بالقيام الذي هو ركن وجود القائم، فحدث القيام بها وصدر عنها، تحقق القائم الذي هو اسم معنوي لزيد دال على وجوده، أي يثبت به وجود زيد الذي لا يعرف إلّا بما وصف زيد به نفسه وهو القائم، وحينئذ يوضع له أي لذلك الاسم المعنوي لفظ أي اسم لفظي وهو لفظ القائم ليدل عليه، أي يدل على المعنوي وصفة له، والاسم المعنوي دال على وجود زيد القائم وصفة له، وهي صفة استدلال عليه لا صفة تكشف له.

وكذا إذا قعد زيد وظهر بصفة القعود، أي أحدث حركة بنفسها وهي قعد، وتعلقت تلك الحركة بالقعود الذي هو ركن وجود القاعد، فحدث القعود بها وصدر عنها، تحقق القاعد الذي هو اسم معنوي آخر لزيد دال على وجود، أي يثبت به وجود زيد، الذي لا يعرف إلّا بما وصف زيد به نفسه وهو القاعد، وحينئذ يوضع له أي لذلك الاسم المعنوي لفظ أي اسم لفظي وهو لفظ القاعد ليدل عليه، أي يدل على ما يدل على وجود زيد القاعد، فاللفظي يدل على المعنوي واسم له، والمعنوي يدل على المسمى واسم له، والمسمى هو الذات الظاهرة بصفة القيام في المثال الأول، والذات الظاهرة بصفة القعود في المثال الثاني، وهكذا إلى آخر صفاته الفعلية وهيئاته الإيجادية، كلما ظهر زيد بصفة من صفات أفعاله، وتعلق فعله بوجود تلك الصفة أي أوجدها بفعله، تحقق له اسم من أسمائه المعنوية، ثم يوضع له اسم لفظي ليدل عليه، فالأسماء أسماء فاعل لزيد، وله فعل واحد كلي له رؤوس ووجوه بعدد متعلقات تلك الرؤوس والوجوه، يتعلق بوجه منها مرة بالقيام مثلا فيتحقق اسمه القائم، وبوجه آخر منها أخرى بالقعود فيظهر اسمه القاعد، فقائم وقاعد ومتكلم وغير ذلك من الأسماء

أمثال زيد وهيئاته، أي أمثال فعله وهيئات ظهوره، وهيئات الفعل إما متصلة به وهي التي يعبر عنها برؤوس الفعل ووجوهه، وإما منفصلة عنه وهي هيئات مفعولاته، ومدار دلالة الأسماء على الهيئات والصور الوجودية أو الإيجادية كدلالة هيئة الألف القائم المتصلة به المنفصلة عن حركة يد الكاتب على الهيئة المتصلة بها، ودلالة هيئة الباء المنبسطة المتصلة به المنفصلة عنها على الهيئة المتصلة بها، فالأسماء ظاهرها تدل على باطنها من الأسماء المعنوية والهيئات الوجودية، وباطنها تدل على باطن باطن ظاهرها من الأسماء الفعلية والهيئات الإيجادية، ونظير هذا في المحسوس أن الخشب من حيث هو واحد لا تكثر فيه، فإذا صنع منه النجار شيئًا كالسرير مثلا، وصوره على هيئته المعروفة، جاء معه اسم يدل عليه وهو لفظ السرير، ويسمى ذلك المصنوع سريرًا، فحقيقة السرير هو المسمى بلفظ السرير، وإذا صنع منه شيئًا آخر كالباب وصوره على هيئته المخصوصة، جاء معه اسم آخر يدل عليه وهو لفظ الباب، ويسمى ذلك المصنوع بابًا، فحقيقة الباب هو المسمى بلفظ الباب، وتلك الحقيقتين المصورتين على الصورتين المخصوصتين تدل كل واحدة منهما على هيئة حركة يد النجار الخاصة بها، وتلك الحركة تدل على وجود صانع أحدثها بنفسها، ثم أحدث بها ما صنع من أمثال السرير والباب وغير ذلك دلالة إثباتية لا كشفية، يعني أن تلك الحركة صفة للنجار صفة استدلال عليه لا صفة تكشف له بأنه أبيض أو أسود، طويل أو قصير، حسن الوجه أو قبيح الوجه، وغير ذلك من الصفات والهيئات التي لا تنكشف بالدلالة الإثباتية، فلفظ السرير يدل على هيئة السرير، وتلك الهيئة تدل على هيئة فعل النجار الخاصة بالسرير، وهي حركة إيجادية وهيئة فعلية تدل على نفسها دلالة كشفية، وتدل على فاعلها دلالة

إثباتية، فلفظ السرير اسم لحقيقة السرير ويدل عليها وهي مسماه، وحقيقة السرير اسم للحركة الإيجادية الخاصة بها وتدل عليها وهي مسماها، وتلك الحركة اسم لنفسها تدل عليه، فمن جهة معلوليتها بنفسها اسم ومن جهة عليتها لنفسها ولغيرها مسماة فافهم.

فإن قلت: لم لا يجوز أن تكون اسمًا لمن هو فوقها من ذات الفاعل تدل عليها دلالة إثباتية وتكون تلك الذات مسماها؟.

قلت: يجوز ذلك في ظاهر القول، وبالنسبة إلى فهم العوام وقد قال الإمام عليه السلام في الحديث المتقدم لعبد الرحمن بن أبي نجران: (بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء)[1] ولكن في حقيقة الأمر وبالنسبة إلى فهم الخواص العارفين بالله وبصفاته وأفعاله لا يجوز ذلك، لأن هذه الرتبة أي رتبة الفعل الذي هو المشيئة هي غاية الغايات ونهاية النهايات، التي ينتهي إليها جميع النسب والإضافات، التي من جملتها نسبة الفاعلية والمفعولية والعلية والمعلولية، ونسبة كون الشيء اسمًا أو مسمى، دالًا أو مدلولًا، سببًا أو مسببًا، قال عليه السلام: (علة كل شيء فعله تعالى وهو لا علة له) وقال عليه السلام: (خلق الله المشيئة بنفسها وخلق الأشياء بالمشيئة)[2] وقال علي عليه السلام: (انتهى المخلوق إلى مثله وألجأه الطلب إلى شكله والطريق مسدود والطلب مردود) وفي الدعاء: (بدت قدرتك يا إلهي ولم تبد هيئة يا سيدي فشبهوك وجعلوا بعض آياتك أربابا يا إلهي فمن ثم لم يعرفوك يا سيدي)[3] يعني بدت قدرتك الفعلية والهيئة الإيجادية ولم تبد هيئة ذاتية لأن ذاتك المقدسة لا هيئة لها، فإذا لم تكن لها

---

(١) الكافي ج١ ص٨٨ باب المعبود.

(٢) الكافي ج١ ص١١٠ باب الإرادة أنها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل.

(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل ص٢٦١ ذكر صفة صلاة الوتيرة.

هيئة، وقد عرفت أن مدار دلالة الأسماء على الصور والهيئات، فعلى أي شيء يدل الفعل الذي هو الحركة الإيجادية، فدلالتها مقصورة على الهيئة التي هي نفسها لا تتجاوز عنها إلى من فوقها من الذات البحت المقدسة عن جميع الاعتبارات والنسب والإضافات، التي تنقطع دون عز جلاله الإشارات كلها، وكيف تتجاوز إليها وقد قال عليه السلام: (والطريق مسدود) فهذا مراد الشيخ أعلى الله مقامه حيث جعل المسمى غير ذات زيد، وقال (وهذا) أي المشار إليه والمسمى بزيد وما أشبه ذلك من أمثاله وصفاته وكلها غيره، وأنت إذا عرفت ما أراد الإمام عليه السلام بقوله (بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء)[1] وما أراد الشيخ من جعل المسمى غير ذات البحت، فقد حكمت أن لا تنافي بين الإرادتين، وأن المعبود الحق والمقصود بالعبادة فيهما هو الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فإن قلت: ما ذكرت من كون مدار دلالة الألفاظ والأسماء على الصور والهيئات إنما هو يجري في الألفاظ والأسماء المشتقة، فما الذي تقول في الألفاظ الجامدة والأعلام المعينة للمسميات الدالة على الذوات مع قطع النظر عن الهيئات، وأسماء الإشارات الدالة عليها كذلك، كزيد مثلًا فإنه اسم يعين المسمى مطلقًا، وعلم لذات زيد يدل عليها، وكهذا مشارًا به إلى زيد فإنه يدل على ذات زيد مع قطع النظر عن هيئته.

أقول: لا فرق بين الألفاظ الجامدة والمشتقة ولا بين الأعلام وغيرها في أن مدار دلالتها على الصور والهيئات على ما نريد من

---

(١) الكافي ج١ ص٨٨ باب المعبود.

معنى الهيئة والصورة، لأنا نريد بهما ظهور الشيء وتعينه بصفة من صفاته، وقولك زيد علم لذات زيد يدل عليها ليس كذلك، فإن لفظ زيد ما وضع لذات زيد من حيث هي، لأن الذات من حيث هي لا تعين فيها ولا عبارة لها، وإنما وضع الاسم لها من حيث تعينها وظهورها بصفة من صفاتها واسم من أسمائها، وحيثية التعين والظهور غير الذات البحت التي لا تعين فيها ولا ظهور لها أصلًا، فالمسمى بزيد والمدلول عليه بلفظ زيد إنما هو جهة تعينه وظهوره عند غيره، التي تصح أن تقع عليها العبارة وتوضع لها اسم يدل عليها، لا ذاته الغائبة عن درك الأبصار وإحاطة الأوهام، وكذا قولك: (هذا مشارا به إلى زيد) ليس كما تزعم لأن ذات زيد لا يمكن أن تصل إليها الإشارة أو تقع عليها العبارة، فالمشار إليه بـ (هذا) إنما هو جهة ظهوره وحضوره التي تصح الإشارة إليها لا ذاته البحت التي هي منقطع الإشارات وممتنع العبارات، على أن أسماءه تعالى كلها مشتقة وخلاف بعضهم في اسم الجلالة نشأ عن عدم البصيرة بمعرفة أسمائه تعالى وصفاته، والحق أنه مشتق أيضًا كما نص عليه الصادق عليه السلام في حديث هشام بن الحكم وقد تقدم، وعلى فرض علَميته لا تنافي اشتقاقه، وقد أشرنا سابقًا إلى أنه صار علمًا له تعالى بالغلبة لا بحسب أصل الوضع واللغة.

فلنرجع إلى بيان الأخبار التي رواها الكليني رضوان الله عليه في باب المعبود من الكافي.

فنقول: قوله عليه السلام في الحديث الأول (من عبد الله بالتوهم فقد كفر)[1].

---

(١) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.

يريد عليه السلام أن من توهم شيئًا وتصوره في وهمه وعبده بالتوهم أنه معبوده الحق، أو أن المعبود سبحانه مثله ـ أي مثل ما توهمه ـ أو عبد الله تعالى متوهمًا شاكًا لا على يقين من وجوده تعالى وتصديق من قلبه بنبيه، فقد كفر في كل هذه الصور.

أما في الصورة الأولى فلأن المعبود سبحانه لا يتوهم ولا يقع في وهم من الأوهام، قال عليه السلام: (لا تحيط به الأوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها)[1] وقال الباقر عليه السلام: (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود عليكم)[2] فإذا عبد ما يقع في وهمه وهو سبحانه بخلافه فلم يعبد الله المعبود الحق، ومن ترك عبادة المعبود الحق فقد كفر.

وأما في الصورة الثانية فلأن الله سبحانه ليس كمثله شيء أي لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء، فإذا توهم شيئًا وزعم أن معبوده مثله أو هو مثل معبوده وعبده، فقد عبد مخلوقًا مصنوعا مثله، قال عليه السلام في الحديث المتقدم: (فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود عليكم)، فإذا عبد مثله مخلوقًا مصنوعًا فقد ترك عبادة خالق ليس بمخلوق، وصانع ليس بمصنوع الذي هو المعبود الحق، ومن ترك عبادة المعبود الحق فقد كفر.

وأما في الصورة الثالثة فلأن من عبد الله على غير يقين من وجوده

---

(١) نهج البلاغة ص٢٦٩ حمد الله تعالى.

(٢) أوردها الشيخ البهائي بهذا النحو: (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه، مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم) ونسبها إلى الإمام الباقر عليه السلام. راجع مشرق الشمسين، ص٣٩٨، وشرح أصول الكافي للمازندراني، ج١ ص٢٥، ونقل الشيخ المجلسي كلام الشيخ البهائي في البحار، ج٦٦ ص٢٩٣.

تعالى وعدم تصديق بنبيه ﷺ فقد ترك شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ باطنًا، ومن ترك الشهادتين باطنًا بعدم تصديقه بوجود الصانع عز وجل وتكذيبه بنبوة محمد ﷺ فقد كَفَرَ كُفرَ نفاق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[2] فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[3] أي على طرف من الدين لا ثبات له فيه بل على شك في دينه وغير يقين في إيمانه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس على ظفر قر وإلا فر، وفي الكافي عن مولانا الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية قَالَ: (هُمْ قَوْمٌ وَحدُوا اللهَ وَخَلَعُوا عِبَادَةَ مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فَخَرَجُوا مِنَ الشرْكِ وَلَمْ يَعْرِفُوا أَن مُحَمدًا ﷺ رَسُولُ اللهِ فَهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى شَك فِي مُحَمدٍ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَالُوا نَنْظُرُ فَإِنْ كَثُرَتْ أَمْوَالُنَا وَعُوفِينَا فِي أَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا عَلِمْنَا أَنهُ صَادِقٌ وَأَنهُ رَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ نَظَرْنَا قَالَ اللهُ عَز وَجَل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يَعْنِي عَافِيَةً فِي الدنْيَا ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يَعْنِي بَلَاءً فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ انْقَلَبَ عَلَى شَكهِ إِلَى الشرْك)[4].

---

(١) الحج ١١.

(٢) المنافقون ١.

(٣) الحج ١١.

(٤) الكافي ج٢ ص٤١٣ باب في قوله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف. بحار الأنوار ج٢٢ ص١٣٣ باب ما جرى بينه وبين أهل الكتاب والمشركين بعد الهجرة وفيه نوادر أخباره وأحوال أصحابه صزائدا على ما تقدم في باب المبعث وكتاب الاحتجاج وما سيأتي في الأبواب الآتية.

اعلم أن المراد بالاسم في قوله عليه السلام: (ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر)[١] أسماء الله سبحانه، وأسماؤه تعالى إذا أطلقت يراد بها ثلاثة وجوه:

الأول: أن يراد بالاسم أنه صفة لموصوف كما أشار إليه مولانا الرضا عليه السلام حين سئل عن الاسم فقال: (صفة لموصوف)[٢] وعلى هذا فكل شيء صدر عن فعل الله من الجواهر والأعراض، الذوات، والصفات، أسماء الله تعالى وصفاته، أي صفات فعله وآثار قدرته وعلامات ربوبيته، ومن عبد اسمًا من هذه الأسماء دون المعنى المسمى به، أو صفة من تلك الصفات دون الموصوف بها، فقد عبده من دون الله تعالى، ومن عبد شيئًا من دون الله المعبود الحق فقد كفر ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٣].

والثاني: أن المراد بالاسم أسماء الله الحسنى قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾[٤] وهي على قسمين:

الأول: أن يراد بها هذه الأسماء اللفظية، ففي تفسير علي بن إبراهيم القمي في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ففسر الأسماء الحسنى بالرحمن الرحيم، ومعنى عبادتها دون المعنى المسمى بها أن من أظهر صورة العبادة وقال مثلًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يعرف المخاطب الذي هو المعبود الحق

---

(١) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.
(٢) الكافي ج١ ص١١٣ باب حدوث الأسماء.
(٣) النمل ٢٤.
(٤) الأعراف ١٨٠.

سبحانه، أو قال مثلًا يا الله يا رحمن يا رحيم ولم يعرف المسمى بهذه الأسماء، ولم يعقد قلبه عليه، أو توهم شيئًا وزعم أنه معبوده، أو عبد الله على غير علم ويقين بل على سبيل الشك والتخمين، أو أطلق هذه الأسماء وعبد معانيها ومفاهيمها بحسب الاشتقاق، ففي كل هذه الصور يصدق عليه أنه عبد الاسم دون المعنى أي المسمى بها.

لأنه في الصورة الأولى لا يعرف المسمى فكيف يعبده.

وفي الثانية أطلق الاسم على شيء متوهم غير مسماه فلم يعبد شيئًا.

وفي الثالثة أطلق الاسم وهو شاك متردد في ثبوت معناه فكيف تصح عبادته.

وفي الرابعة عبد مفاهيم الألفاظ ومعانيها التي هي وتلك الألفاظ الموضوعة لها كلها حادثة مخلوقة.

وإلى هذا أشار الصادق عليه السلام في الحديث الثاني المذكور في الكافي من باب المعبود بقوله عليه السلام: (إِنَ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا فَلَوْ كَانَ الِاسْمُ هُوَ الْمُسَمى لَكَانَ كُل اسْمٍ مِنْهَا إِلَهًا وَلَكِن اللهَ مَعْنًى يُدَل عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَكُلهَا غَيْرُهُ.

ثم قال عليه السلام: يَا هِشَامُ الْخُبْزُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ وَالْمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ وَالثوْبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ وَالنارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهْمًا تَدْفَعُ بِهِ وَتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا وَالْمُتخِذِينَ مَعَ اللهِ جَل وَعَز غَيْرَه)[1] الحديث.

أراد عليه السلام أن هنا أسماء كثيرة لها مفاهيم متعددة ومعاني مختلفة

---

(١) الكافي، ج١ ص٨٧.

من جهة الاشتقاق ومبدئه، فلو كان المسمى أيضًا متعددة كتعدد مسميات الخبز والماء والثوب والنار لكان كل اسم من تلك الأسماء إلهًا، فمن عبد مفاهيم تلك الأسماء بإطلاق الأسماء عليها فقد عبد آلهة كثيرة، وقد أمر أن يعبد إلهًا واحدًا، ومن عبد آلهة متعددة فقد كفر، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1] وتلك العبادة نظير عبادة الذين كانوا يعبدون الأصنام فمنعهم رسول الله صلى الله عليه وآله عن عبادتها فقال لهم اعبدوا إلهًا واحدًا وهو المعبود الحق، فتعجبوا من قوله صلى الله عليه وآله فقالوا كما حكى الله سبحانه عنهم بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[2] فقوله عليه السلام: (ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر) إشارة إلى ما ذكرنا، ففي الحقيقة ترجع عبادته في جميع هذه الصور إلى عبادة الاسم فقط دون المعنى، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر لأنه في الحقيقة لم يعبد شيئًا.

والثاني: وهو الوجه الثالث من الوجوه المتقدمة أن يراد بالأسماء الحسنى أسماؤه المعنوية الحسنى، وقد روى محمد بن مسعود العياشي عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ﴾ بها إلى أن قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل من أحد إلّا بمعرفتنا)[3] ففسر الأسماء مرة بالرحمن الرحيم بقصد الأسماء اللفظية، ومرة بهم عليهم السلام بقصد معاني

---

(١) البقرة ١٣٣.

(٢) ص ٥.

(٣) تفسير العياشي، ج٢ ص٤٢. الكافي ج١ ص١٤٤ باب النوادر.

تلك الأسماء اللفظية، لأن معاني هذه الألفاظ أسماؤه تعالى المعنوية، والمراد بعبادتها دون المسمى أن من عبدهم عليهم السلام من دون الله أو مع الله فقد كفر أو أشرك وهذا محكم لا ريب فيه، وقد أجمع المسلمون على كفر من عبد شيئًا من دون الله، وعلى شرك من عبد شيئًا مع الله سبحانه، وهم عليهم السلام قالوا في مقام الإقرار بالربوبية لله عز وجل والاعتراف بالعبودية على أنفسهم له تعالى نحن قوم مربوبون ولسنا بآلهة ويجب أن نعبد من دون الله أو مع الله، وقالوا عليهم السلام (اجعلوا لنا ربا نؤوب إليه وقولوا في فضلنا ما شئتم ولن تبلغوا)[1].

وفي المجالس عن الصادق عليه السلام في حديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة قال عليه السلام: (يا علقمة ما أعجب أقاويل الناس في علي عليه السلام كم بين من يقول أنه رب معبود وبين من يقول أنه عبد عاص للمعبود ولقد كان قول من ينسبه إلى العصيان أهون عليه من قول من ينسبه إلى الربوبية)[2] الحديث.

أقول: الضمير المجرور في قوله عليه السلام: (أهون عليه) راجع إلى المنسوب إليه العصيان وهو علي عليه السلام، ووجه أهو نية قول من ينسبه إلى العصيان عليه أنه عليه السلام وإن لم يكن راضيا بقول من ينسبه إلى الربوبية ولكنه عليه السلام يستحي أن يكون منسوبا إليه الربوبية التي ليست إلّا لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين، ويخاف من أنه ربما يتوجه إليه العتاب ظاهرا كما توجه إلى عيسى بن مريم عليه السلام حيث قال الله

---

(١) مختصر البصائر ص١٨٨ باب في فضل الأئمة صلوات الله عليهم وما جاء فيهم من القرآن العزيز.

(٢) الأمالي ص١٠٤ المجلس الثاني والعشرون.

سبحانه له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[1] الآية.

أما نسبة العصيان إليه بعد كونه معصومًا قد أذهب الله تعالى عنه الرجس وطهره تطهيرا فلا تضره، بل تكون سببا لزيادة حسناته، لكونه عليه السلام مظلوما بتلك النسبة، هذا إذا أريد بالربوبية المنسوبة إليه الربوبية إذ لا مربوب، التي هي كينونة الذات على ما هي عليه مما له لذاته بلا اختلاف ولا تكثر، وأما إذا أريد بها الربوبية إذ مربوب، التي هي صفة الربوبية إذ لا مربوب فهم عليهم السلام محلها ومظهرها، ونسبتها إليهم عليهم السلام نسبة حقيقية، وقد نسبها إليهم سبحانه في باطن باطن آياته بقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2] إلى أن قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[3]، وهم عليهم السلام جنب الله الذي يدعو من قصر في حقهم عليهم السلام حسرته يوم القيامة بأنه لم يعرفهم حق معرفتهم ودفعهم عن مقامهم وأزالهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها، ألا ترى قول إبراهيم عليه السلام إذ قال له تعالى: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]، وقول الضالين يوم القيامة الذين ضلوا عن سبيل معرفتهم عليهم السلام واتبعوا الغاوين منهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] يعني جعلناكم مساوين لرب العالمين حيث

---

(١) المائدة ١١٦.

(٢) الزمر ٥٤.

(٣) الزمر ٥٦.

(٤) البقرة ١٣١.

(٥) الشعراء ٧٩ ـ ٩٨.

أطعناكم فيما أمرتمونا، واتبعناكم على مخالفة أمر سيدنا ومالكنا ومربينا وهادينا ومدبر أمورنا، وذلك حين كشف لهم يوم القيامة عن الحقائق حتى عرفوا أن كل ما ينسب للمعبود من الأحوال المرتبطة بالخلق هي بعينها ما لهم عليهم السلام، فلما كشف لهم عن ذلك ورأوا أنهم عليهم السلام لا يعدلهم شيء ولا يدنو من مقامهم شيء، ولا يصل إلى رتبتهم أحد، قالوا ما قالوا تعجبا لما رأوا من علو مقامهم عليهم السلام، وتحسروا على ما فرطوا في جنبهم، فافهم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]، الحمد لله الملك الجبار.

ويحتمل أن يكون الضمير المذكور راجعًا إلى من ينسبه إلى العصيان، يعني أن قول من ينسبه إلى العصيان كان أهون على القائل من حيث العقوبة من قول من ينسبه إلى الربوبية، لأن من ينسبه عليه السلام إليها كان أشنع قولًا وأقبح فعلًا وأعظم عقوبة وأكبر كلمة، قال الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[2]، وقال سبحانه ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[3]، فإذا كانت نسبة الولد إليه سبحانه التي تستلزم الإشراك في الربوبية بهذه الشناعة، فكيف تجوز نسبة الربوبية بتمامها إلى عبد من عباده سبحانه، الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا

---

(١) البقرة ١٦٧.

(٢) الكهف ٤ ـ ٥.

(٣) مريم ٨٨ ـ ٩٣.

ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالله سبحانه هو المعبود، ومن عبد من دونه شيئًا فقد كفر، ومن عبد معه شيئًا فقد أشرك.

ومما ذكرنا يظهر معنى قوله عليه السلام: (ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك)[١] في جميع الوجوه المذكورة.

وأما قوله عليه السلام: (ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه)[٢] بصفاته التي وصف بها نفسه، وعقد عليه قلبه، ونطق به لسانه في سر أمره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين حقًا) وفي حديث آخر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[٣] فهو من أحاديثهم عليهم السلام التي قالوا: (إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان)[٤].

فنقول: إن الله عز وجل لما كان في عز جلاله وعلو مكانه بحيث لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار، ولا يلحق أحد وصفه من معاينة، ولا يجد أحد كيف هو من سر وعلانية، ولا يمكن الوصول إلى سبيل معرفته بوجه، لا بنفي ولا بإثبات، إلّا بما وصف به نفسه، اختار سبحانه لنفسه أسماءه الحسنى وأمر عباده أن يدعوه بها، لأنه تعالى إن لم يدع باسمه لم يعرف، ووصف نفسه بصفاته العليا ليعرفوه بها، قال الله عز وجل

---

(١) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.

(٢) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود. التوحيد ص٢٢٠ باب أسماء الله تعالى والفرق بين معانيها وبين معاني أسماء المخلوقين.

(٣) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.

(٤) الأمالي، ص٤ المجلس الأول. بحار الأنوار ج٢ ص١٨٣ باب أن حديثهم عليهم السلام صعب مستصعب وأن كلامهم ذو وجوه كثيرة وفضل التدبر في أخبارهم عليهم السلام والتسليم لهم والنهي عن رد أخبارهم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[١] وقالوا عليهم السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا)[٢] وتوصيفه تعالى نفسه لخلقه على قسمين:

توصيف إيجادي تكويني، وتوصيف تبييني قولي.

فبالأول أرى آيات قدرته وعلامات سلطانه ومقامات معرفته عباده في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنهم الحق، وبالثاني بيَّن في ظاهر كتابه الكريم ظاهر تلك الآيات، وأشار في باطنه إلى باطنها، وفي باطن باطنه إلى باطن باطنها.

مثلًا خلق سبحانه السراج وجعله آية معرفته ثم قال في كتابه الذي هو تبيان كل شيء: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[٣] الآية، هذا ظاهر الكتاب، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٤] في هذا إشارة خفية إلى باطن باطنه فافهم.

وخلق سبحانه الأشياء المحكمة المتقنة ووهب العلم لأهله والقدرة لخلقه والسمع والبصر لعباده، فقال في محكم آياته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٥] وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦] و﴿عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الأعراف ١٨٠.

(٢) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم ج١ ص٤٩٧ باب في الأئمة أنهم الذين ذكرهم الله يعرفون أهل الجنة والنار.

(٣) النور ٣٥.

(٤) فصلت ٥٣.

(٥) الملك ١٤.

(٦) الشورى ١٢.

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢]، وخلق النفس على صفة لو جردت كمال التجريد وكشفت عن جميع سبحاتها، بحيث لا تبقى لها إشارة، بقيت لا تشبه شيئًا ولا يشبهها شيء، وهي حينئذ آية معرفته تعالى بل هي نفس معرفته، قال صلى الله عليه وآله: (من عرف نفسه فقد عرف ربه)[٣]، فجعل صلى الله عليه وآله معرفة النفس عين معرفة الرب، ثم قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾[٥] فوصف سبحانه نفسه في الكتب الثلاثة، الكتاب التكويني الآفاقي، والكتاب التدويني وهو القرآن، والكتاب النفسي الإنساني.

إذا عرفت هذا فاعلم أنهم عليهم السلام باطن هذه الكتب، وهم أسماء الله الحسنى التي أمر الله تعالى عباده أن يدعوه بها أي بهم عليهم السلام، وهم صفاته العليا التي وصف الله سبحانه نفسه بها لهم، يعني وصف نفسه لهم بهم، ثم وصف نفسه بهم عليهم السلام لمن دونهم من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وجميع الخلق من الأولين والآخرين، فقوله عليه السلام: (ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه... إلخ)[٦] يعني من عبد الله تعالى وحده بصفاته التي وصف بها نفسه، أي عبده بهم عليهم السلام، بتوجهه بهم إلى معبوده سبحانه، وقصده بهم إلى مقصوده بالعبادة، بأن يدعوه بأسمائه الحسنى ظاهرًا

---

(١) التغابن ١.
(٢) الشورى ١١.
(٣) مصباح الشريعة ص١٣ الباب الخامس في العلم.
(٤) الذاريات ٢٠ ـ ٢١.
(٥) الشورى ١١.
(٦) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.

وبمعانيها باطنًا، على معرفة من فؤاده ويقين وتصديق وإيمان من قلبه، وإقرار ونطق من لسانه، فهو من المؤمنين الممتحنين الذين هم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقًا.

وفي المعاني عن محمد بن سنان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سَأَلْتُهُ هَلْ كَانَ اللهُ عز وَجَل عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ؟.

قَالَ عليه السلام: (نَعَمْ.

قُلْتُ: يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا.

قَالَ مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِيَ نَفْسَهُ وَلَكِنهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا لِأَنهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ فَأَولُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِي الْعَظِيمُ لِأَنهُ أَعْلَى الْأشياء كُلهَا فَمَعْنَاهُ اللهُ وَاسْمُهُ الْعَلِي الْعَظِيمُ وَهُوَ أَولُ أَسْمَائِهِ لِأَنهُ عَلِي عَلَا كُل شَيْءٍ)[1].

أقول: قوله عليه السلام: (مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ) يعني أنه تعالى شيء بخلاف الأشياء ولم يكن محتاجًا إلى شيء، وقولك يراها ويسمعها لا يصح إلّا أن يكون الرائي من حيث كونه رائيًا غير كونه مرئيًا، ومن جهة كونه سامعا غير كونه مسمعا، والله سبحانه ليس كذلك، فلا يحتاج إلى أن يرى نفسه أو يسمعها، لأنه لا يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه ونفسه هو، ليس هناك حيث وحيث ولا جهة وجهة.

وقوله عليه السلام: (فليس يحتاج أن يسمي نفسه) يعني أنه سبحانه لا يقع عليه اسم ولا صفة من نحو ذاته، ولا يحتاج أن يسمي نفسه بالأسماء، بل الخلق محتاجون في دعائهم له تعالى إلى أسماء يدعونه

---

(١) معاني الأخبار ص٢ باب معنى الاسم. الكافي ج١ ص١١٣ باب حدوث الأسماء.

بها، فاختار لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها، لأنه تعالى إذا لم يدع باسمه لم يعرف، وقد عرفت أن الاسم علامة للمسمى وأنه صفة لموصوف كما أشار إليه مولانا الرضا عليه السلام، فالاسم اللفظي علامة للمسمى يدل عليه دلالة لفظية، كدلالة لفظ الشمس مثلًا على الكوكب النهاري، والاسم المعنوي علامة للمسمى وصفة له يدل عليه دلالة معنوية كدلالة شعاع الشمس عليها، ولا شك أن الاسم المعنوي كان أتم دلالة من الاسم اللفظي، لأن المراد بدلالة أسمائه تعالى عليه أن تدل على وجوده تعالى، والمراد بوجوده المدلول عليه إثباته لا إدراك وجوده تعالى، قال عليه السلام: (وجوده إثباته ودليله آياته) وأسماؤه تعالى صفاته، والمراد بالصفة هنا صفة استدلال عليه لا صفة تكشف له، أي تكشف عن كنه ذاته، فإذا كان المقصود من الدلالة هنا ما ذكرنا، كان الاسم المعنوي أتم دلالة وأوضح بيانًا وأكمل هداية على المقصود من الاسم اللفظي، فدلالة لفظ السراج مثلًا على وجود النار ليست كدلالة نفس الشعلة المرئية عليه، بل تكون الأسماء اللفظية أسماء للأسماء المعنوية تدل عليها، وهي تدل على المسمى بها، كلفظ القائم فإنه اسم للقائم الذي هو صفة زيد، تدل على وجود زيد القائم، فأسماؤه تعالى اللفظية أسماء لأسمائه الحسنى المعنوية التي اختارها سبحانه لنفسه وأمر عباده أن يدعوه بها.

وقوله عليه السلام: (فأول ما اختار لنفسه العلي العظيم لأنه أعلى الأشياء كلها) إشارة إلى اسمه العلي الأعلى، وأوليته إما إضافية بالنسبة إلى سائر أسمائه الحسنى غير الله، لأن الترتيب الوجودي يقتضي أن يكون أول الأسماء اسم الجلالة وهو الله، ففي الحديث من باب الاشتقاق قال الله تعالى: (هذا محمد وأنا الحميد المحمود في

فعالي شققت له اسمًا من اسمي، وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسمًا من اسمي)[١] الحديث، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]، وقال عليه السلام: (أنا من محمد كالضوء من الضوء)، فالنبي صلى الله عليه وآله هو اسم الله سبحانه المشار إليه في الحديث المذكور (أنا الحميد المحمود شققت له اسمًا من اسمي) قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل الحمد للرحمن، وقال صلى الله عليه وآله: (أعطيت لواء الحمد وعلي حامله) والولي عليه السلام هو اسمه الرحمن المشار إليه فيه (أنا العلي العظيم شققت له اسمًا من اسمي)، وأما حقيقته بالنسبة إلى مقام الجمع المعبر عنه بقوله صلى الله عليه وآله: (يا علي أنت نفسي التي بين جنبي) و(أنت مني بمنزلة الرأس من الجسد) و(أنت مني وأنا منك) فافهم.

وقوله عليه السلام: (فمعناه الله واسمه العلي العظيم) أراد عليه السلام بالمعنى هنا المسمى، يعني مسمى العلي العظيم هو الله سبحانه واسمه تعالى العلي العظيم.

وبالجملة هما صلى الله عليهما وآلهما الاسمان العليان الأعليان العظيمان الأعظمان، اللذان أمر الله تعالى عباده أن يدعوه بهما وبسائر أسمائه الحسنى عليهم السلام، ويعبدوه بهم، ويتوجهوا بهم عليهم السلام إليه تعالى في عبادتهم ودعائهم وعند حوائجهم ومطالبهم ومقاصدهم، وأن يتمسكوا بولايتهم، ويوالوا من والوا ويجانبوا من جانبوا، وأعداؤهم لعنهم الله هم الأسماء السوأى الذي أمر الله تعالى عباده

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٢٢٠ [سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ومعناه:].

(٢) الإسراء ١١٠.

المؤمنين أن يذروهم ويتجنبوا عنهم، وهم الذين يلحدون في أسمائه تعالى، ويتسمون بها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ولا تتوهم من قولنا أن الله سبحانه أمر عباده المؤمنين أن يعبدوه بهم ويتوجهوا بهم إليه سبحانه في عبادتهم، أنا نريد ما يريد أهل التصوف الملحدون في أسمائه تعالى، الذين يأمرون مريديهم أن يتوجهوا بهم إلى معبودهم، يقول الشيخ منهم لمريديه: إذا أردت أن تصلي تتصور صورتي أمام نيتك، وتمثل هيئتي عند قصدك ودخولك في الصلاة، لأنك قصدت إلى معبود بينك وبينه مسافة بعيدة وأنت لم تقطعها وأنا قد قطعتها ووصلت إليه، وأنت تابع لي وسالك مسلكي، لا تصل إلى معبودك إلّا باتباعي، فإذا تخيلت صورتي وتمثلت وجهي أمام قصدك إلى معبودك، وصورتي في خيالك هي حقيقة ظاهري الذي تشاهده ببصرك، لأن الخيال هو أصل الوجود، والظاهر من آثاره قائم به، وحقيقتي قد اتصلت بمعبودك وأنت بخيالك اتصلت بحقيقتي ووصلت إلى معبودك بدلالتي وهدايتي.

هذا قولهم ورأيهم وطريق عبادتهم، وهم كذبوا لعنهم الله وألحدوا في أسمائه تعالى، ولم يعرفوا معبودهم، وتركوا متابعة أهل العصمة عليهم السلام فلم يهتدوا إلى معرفة معبودهم وطريق عبادته سبحانه، لأن المريد إذا تخيل صورة شيخه أمام قصده إلى معبوده كانت تلك الصورة المحدودة بالأبعاد هي معبوده ومقصوده بالعبادة، أو وجه معبوده ومقصوده.

---

(١) يوسف ٤٠.

فإن قيل: إنهم يدعون أن تلك الصورة المتخيلة ليست مقصودة بالعبادة.

قلنا: إذا لم تكن مقصودة بالعبادة فلا تخلو من أن تكون دليلًا على المقصود بالعبادة أو لا، فإن كانت دليلًا فهي إنما تدل بهيئتها على المدلول، فيلزم أن يكون مدلولها على تلك الهيئة من التحديد والتخطيط، فإن لم يكن مدلولها فأي شيء يدل عليه إذا لم تدل بهيئتها، وإن لم تكن دليلًا ولا مدلولا فهي صورة شيطانية تشغل العابد بملاحظتها عن التوجه إلى معبوده الذي ليس كمثله شيء، على أنهم خذلهم الله أين هم وهذه الدعوى العظيمة وطلب مرتبة الجامعية الكبرى لأنفسهم التي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[1].

ونحن إذا قلنا بوجوب التوجه إلى وجهه الكريم ومعاني أسمائه الحسنى، فإنما نريد به أن العابد إذا قصد معبوده الذي ليس كمثله شيء، ولا يمكن التوجه إليه من نحو ذاته المقدسة، ولا يمكن معرفته في سر ولا علانية إلّا بما وصف به نفسه، وجب عليه أن يتوجه بوجه فؤاده وقلبه إلى جهة مقصوده ووجه معبوده وباب استغنائه في كل أحواله لا خصوص وقت العبادة، وهم عليهم السلام أسماؤه وصفاته التي وصف بها نفسه، وهم جهته العلية ووجهه الكريم وبابه الذي يؤتى منه ويستغنى به، مثلًا إذا قلت حين دعوته: (اللهم أهل الكبرياء والعظمة، وأهل الجود والجبروت، وأهل العفو والرحمة) فإنما تقصد

---

(١) مريم ٩٠ ـ ٩٥.

القديم الغاية الذي ليس كمثله شيء وهو السميع لمقالتك العليم بسرك وعلانيتك البصير بفقرك وفاقتك القادر على قضاء حوائجك، وتدعوه وحده بهذه الصفات المذكورة، وهي كبرياؤه التي لا توصف، وعظمته التي ملأت أركان كل شيء، وجوده الذي به غناء كل فقير، وجبروته التي غلب بها كل شيء، وعفوه الذي لا يستغني عنه شيء، ورحمته التي وسعت كل شيء، وهم عليهم السلام هذه الصفات التي وصف تعالى بها نفسه، وهي أركان أسمائه الحسنى وهم أسماؤه الحسنى التي تدعوه بها كاسمه الكبير والعظيم والجواد والجبار والعفو والرحمن الرحيم التي أمرك الله سبحانه أن تدعوه بها، فإذا كانت أسماؤه تعالى لا تتحقق إلّا بهم لأنهم عليهم السلام أركانها، والشيء لا يتحقق إلّا بركنه المتقوم به، فلا يمكنك أن تدعو الله سبحانه إلّا بهم عليهم السلام، وإذا كانوا عليهم السلام جهته وجنبه ووجهه وبابه سبحانه، ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفه سبحانه بها من عرفه لا فرق بينها وبينه تعالى إلّا أنهم عباده وخلقه، بل كانت جهته سبحانه منحصرة فيهم، ووجهه الكريم لا يظهر إلّا فيهم وبهم ومنهم، فلا يمكنك أن تتوجه إلى معبودك إلّا بهم عليهم السلام قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1] وقالوا عليهم السلام: (لنا مع الله حالات نحن فيها هو وهو نحن ولكن هو هو ونحن نحن)[2]، وفي مختصر بصائر سعد بن عبد الله الأشعري للحسن بن سليمان الحلي رحمه الله ما رواه من كتاب منهج التحقيق بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إِن اللهَ تَعَالَى خَلَقَ أَرْبَعَةَ

---

(١) البقره ١١٥.

(٢) الكلمات المكنونة، ص١٧٤. شرح الأربعين، ص٢١٣.

عَشَرَ نُورًا مِنْ نُورِ عَظَمَتِهِ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ فَهِيَ أَرْوَاحُنَا.

فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ عُدهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَمَنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ نُورًا.

فَقَالَ: مُحَمدٌ وَعَلِي وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وتِسْعَةٌ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ وَتَاسِعُهُمْ قَائِمُهُمْ ثُم عَدهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ثُم قَالَ نَحْنُ وَاللهِ الْأَوْصِيَاءُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ الْمَثَانِي التِي أَعْطَاهَا اللهُ نَبِينَا وَنَحْنُ شَجَرَةُ النبُوةِ وَمَنْبِتُ الرحْمَةِ وَمَعْدِنُ الحكمة وَمَصَابِيحُ الْعِلْمِ وَمَوْضِعُ الرسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَوْضِعُ سِر اللهِ وَوَدِيعَةُ اللهِ جَل اسْمُهُ فِي عِبَادِهِ وَحَرَمُ اللهِ الْأَكْبَرُ وَعَهْدُهُ الْمَسْؤولُ عَنْهُ فَمَنْ وَفَى بِعَهْدِنَا فَقَدْ وَفَى بِعَهْدِ اللهِ وَمَنْ خَفَرَهُ فَقَدْ خَفَرَ ذِمةَ اللهِ وَعَهْدَهُ عَرَفَنَا مَنْ عَرَفَنَا وَجَهِلَنَا مَنْ جَهِلَنَا نَحْنُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى التِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعِبَادِ عَمَلًا إِلا بِمَعْرِفَتِنَا وَنَحْنُ وَاللهِ الْكَلِمَاتُ التِي تَلَقاهَا آدَمُ مِنْ رَبهِ فَتابَ عَلَيْهِ إِن اللهَ تَعَالَى خَلَقَنَا فَأَحْسَنَ خَلْقَنَا وَصَورَنَا فَأَحْسَنَ صُوَرَنَا وَجَعَلَنَا عَيْنَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَلِسَانَهُ الناطِقَ فِي خَلْقِهِ وَيَدَهُ الْمَبْسُوطَةَ عَلَيْهِمْ بِالرأْفَةِ وَالرحْمَةِ وَوَجْهَهُ الذِي يُؤْتَى مِنْهُ وَبَابَهُ الذِي يَدُل عَلَيْهِ وَخُزانَ عِلْمِهِ وَتَرَاجِمَةَ وَحْيِهِ وَأَعْلَامَ دِينِهِ وَالْعُرْوَةَ الْوُثْقَى وَالدلِيلَ الْوَاضِحَ لِمَنِ اهْتَدَى وَبِنَا أَثْمَرَتِ الْأَشْجَارُ وَأَيْنَعَتِ الثمَارُ وَجَرَتِ الْأَنْهَارُ وَنَزَلَ الْغَيْثُ مِنَ السمَاءِ وَنَبَتَ عُشْبُ الْأرض وَبِعِبَادَتِنَا عُبِدَ اللهُ وَلَوْلَانَا مَا عُرِفَ اللهُ وَأَيْمُ اللهِ لَوْ لَا وَصِيةٌ سَبَقَتْ وَعَهْدٌ أُخِذَ عَلَيْنَا لَقُلْتُ قَوْلًا يَعْجَبُ مِنْهُ أَوْ يَذْهَلُ مِنْهُ الْأَولُونَ وَالْآخِرُون)[1] انتهى.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٥ ص٤ باب بدو أرواحهم وأنوارهم وطينتهم عليهم السلام وأنهم من نور واحد.

ومع هذا كله فلا يجوز لك أن تتصور صورة النبي ﷺ أو علي عليه السلام أو الأئمة عليهم السلام عند عبادتك وتوجهك إلى معبودك سبحانه وتمثلهم في خيالك، كما يفعلونه أهل التصوف، أي يتخيلون صورة مشايخهم ويمثلونها في خيالهم عند عبادتهم وتوجههم، لأن هذا شرك وكفر، لأن ما تتصوره لا يدل عليه تعالى، وما يدل عليه تعالى لايمكن تصوره، إذ لا صورة له، قال عليه السلام: (كشف السبحات الجلال من غير إشارة)[١] ولهذا قال عليه السلام: (من عبد الله بالتوهم فقد كفر)[٢] وقال عليه السلام: (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود عليكم)[٣].

فإن عرفت ما أشرنا إليه وعبدت الله سبحانه كما أمرك أن تعبده، ودعوته بأسمائه الحسنى وأمثاله العليا كما أمرك أن تدعوه بها، فقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٤]، وإلا فاعبد الله سبحانه بلا توهم ولا تصور بشيء، وفي الحديث في معنى التوحيد والعدل قال عليه السلام: (التوحيد ألا تتوهمه والعدل ألا تتهمه)[٥].

وأما قوله عليه السلام: (فأولئك هم أصحاب أمير المؤمنين حقًا) أو (أولئك هم المؤمنون حقًا) يدل بمفهومه على أن من لم يعبد الله على نحو ما أشرنا إليه ليس من المؤمنين حقيقه، وإن كان من أتباعهم أي أتباع المؤمنين، ولا من أصحاب أمير المؤمنين وشيعته حقيقة، وإن كان من محبيه عليه السلام.

---

(١) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٨١ باب ركود الشمس.
(٢) الكافي ج١ ص٨٧ باب المعبود.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) الأعراف ٤٣.
(٥) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٨٠٦ الله(جل جلاله).

[ذكر اجتماع أصحاب الأديان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وإبطال أقوالهم]

وفي تفسير الإمام عليه السلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[1] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: (وَلَقَدْ حَدثَنِي أَبِي الْبَاقِرُ عليه السلام، عَنْ جَدي عَلِي بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِي سَيدِ الشهَدَاءِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَنهُ اجْتَمَعَ يَوْمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَهْلُ خَمْسَةِ أَدْيَانٍ:

الْيَهُودُ وَالنصَارَى، وَالدهْرِيةُ، وَالثنَوِيةُ، وَمُشْرِكُو الْعَرَبِ.

فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ نَقُولُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وَقَدْ جِئْنَاكَ يَا مُحَمدُ لِنَنْظُرَ مَا تَقُولُ فَإِنْ تَبِعْتَنَا فَنَحْنُ أَسْبَقُ إِلَى الصوَابِ مِنْكَ وَأَفْضَلُ، وَإِنْ خَالَفْتَنَا خَصَمْنَاكَ.

وَقَالَتِ النصَارَى: نَحْنُ نَقُولُ، إِن الْمَسِيحَ ابْنُ اللهِ اتحَدَ بِهِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ لِنَنْظُرَ مَا تَقُولُ، فَإِنْ تَبِعْتَنَا فَنَحْنُ أَسْبَقُ إِلَى الصوَابِ مِنْكَ وَأَفْضَلُ، وَإِنْ خَالَفْتَنَا خَصَمْنَاكَ.

وَقَالَتِ الدهْرِيةُ: نَحْنُ نَقُولُ: الْأَشياء لَا بَدْءَ لَهَا وَهِيَ دَائِمَةٌ، وَقَدْ جِئْنَاكَ لِنَنْظُرَ مَا تَقُولُ، فَإِنْ تَبِعْتَنَا فَنَحْنُ أَسْبَقُ إِلَى الصوَابِ مِنْكَ وَأَفْضَلُ، وَإِنْ خَالَفْتَنَا خَصَمْنَاكَ.

وَقَالَتِ الثنَوِيةُ: نَحْنُ نَقُولُ: إِن النورَ وَالظلْمَةَ هُمَا الْمُدَبرَانِ، وَقَدْ جِئْنَاكَ لِنَنْظُرَ مَا تَقُولُ، فَإِنْ تَبِعْتَنَا فَنَحْنُ أَسْبَقُ إِلَى الصوَابِ مِنْكَ وَأَفْضَلُ، وَإِنْ خَالَفْتَنَا خَصَمْنَاكَ.

---

(١) البقرة ١١١.

وَقَالَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ: نَحْنُ نَقُولُ إِن أَوْثَانَنَا آلِهَةٌ وَقَدْ جِئْنَاكَ لِنَنْظُرَ مَا تَقُولُ فَإِنْ تَبِعْتَنَا فَنَحْنُ أَسْبَقُ إِلَى الصوَابِ مِنْكَ وَأَفْضَلُ، وَإِنْ خَالَفْتَنَا خَصَمْنَاكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: آمَنْتُ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكَفَرْتُ بِكُلِ مَعْبُودٍ سِوَاهُ.

ثُم قَالَ لَهُمْ: إِن اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي كَافةً لِلناسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، حُجةً عَلَى الْعَالَمِينَ وَسَيَرُد اللهُ كَيْدَ مَنْ يَكِيدُ دِينَهُ فِي نَحْرِهِ.

ثُم قَالَ لِلْيَهُودِ: أَجِئْتُمُونِي لِأَقْبَلَ قَوْلَكُمْ بِغَيْرِ حُجةٍ؟.

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَمَا الذِي دَعَاكُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِأَن عُزَيْرًا ابْنُ اللهِ.

قَالُوا: لِأَنهُ أَحْيَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ التوْرَاةَ بَعْدَ مَا ذَهَبَتْ، وَلَمْ يَفْعَلْ بِهِ هَذَا إِلا لِأَنهُ ابْنُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَكَيْفَ صَارَ عُزَيْرٌ ابْنَ اللهِ دُونَ مُوسَى وَهُوَ الذِي جَاءَهُمْ بِالتوْرَاةِ وَرُئِيَ مِنْهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ ولَئِنْ كَانَ عُزَيْرٌ ابْنَ اللهِ ـ لِمَا ظَهَرَ مِنْ إِكْرَامِهِ بِإِحْيَاءِ التوْرَاةِ، فَلَقَدْ كَانَ مُوسَى بِالْبُنُوةِ أَحق وَأَوْلَى، وَلَئِنْ كَانَ هَذَا الْمِقْدَارُ مِنْ إِكْرَامِهِ لِعُزَيْرٍ يُوجِبُ أَنهُ ابْنُهُ، فَأَضْعَافُ هَذِهِ الْكَرَامَةِ لِمُوسَى تُوجِبُ لَهُ مَنْزِلَةً أَجَل مِنَ الْبُنُوةِ ـ لِأَنكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِنمَا تُرِيدُونَ بِالْبُنُوةِ الْوِلَادَةَ عَلَى سَبِيلِ مَا تُشَاهِدُونَهُ فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ ـ مِنْ وِلَادَةِ الْأُمهَاتِ الْأَوْلَادَ بِوَطْءِ آبَائِهِمْ لَهُن، فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِاللهِ وَشَبهْتُمُوهُ بِخَلْقِهِ، وَأَوْجَبْتُمْ فِيهِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ، وَوَجَبَ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ مُحْدَثًا مَخْلُوقًا، وَأَن لَهُ خَالِقًا صَنَعَهُ وَابْتَدَعَهُ.

قَالُوا: لَسْنَا نَعْنِي هَذَا، فَإِن هَذَا كُفْرٌ كَمَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنا نَعْنِي أَنهُ

ابْنُهُ عَلَى مَعْنَى الْكَرَامَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وِلَادَةٌ، كَمَا قَدْ يَقُولُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا لِمَنْ يُرِيدُ إِكْرَامَهُ وَإِبَانَتَهُ بِالْمَنْزِلَةِ مِنْ غَيْرِهِ: يَا بُنَي، وَأَنهُ ابْنِي. لَا عَلَى إِثْبَاتِ وِلَادَتِهِ مِنْهُ، لِأَنهُ قَدْ يَقُولُ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ أَجْنَبِي لَا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكَذَلِكَ لَما فَعَلَ بِعُزَيْرٍ مَا فَعَلَ، كَانَ قَدِ اتخَذَهُ ابْنًا عَلَى الْكَرَامَةِ لَا عَلَى الْوِلَادَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَهَذَا مَا قُلْتُهُ لَكُمْ: إِنهُ إِنْ وَجَبَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يَكُونَ عُزَيْرٌ ابْنَهُ ـ فَإِن هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِمُوسَى أَوْلَى، وَإِن اللهَ تَعَالَى يَفْضَحُ كُل مُبْطِلٍ بِإِقْرَارِهِ وَيَقْلِبُ عَلَيْهِ حُجتَهُ، إِنْ مَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ يُؤَدِيكُمْ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ ـ مِما ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، لِأَنكُمْ قُلْتُمْ: إِن عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِكُمْ ـ قَدْ يَقُولُ لِأَجْنَبِي لَا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ: يَا بُنَي، وَهَذَا ابْنِي لَا عَلَى طَرِيقِ الْوِلَادَةِ، فَقَدْ تَجِدُونَ أَيْضًا هَذَا الْعَظِيمَ يَقُولُ لِأَجْنَبِي آخَرَ: هَذَا أَخِي وَلِآخَرَ: هَذَا شَيْخِي، وَأَبِي، وَلِآخَرَ: هَذَا سَيدِي، عَلَى سَبِيلِ الْإِكْرَام، وَإِن مَنْ زَادَهُ فِي الْكَرَامَةِ زَادَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، فَإِذَا يَجُوزُ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونُ مُوسَى أَخًا لِلهِ ـ أَوْ شَيْخًا لَهُ أَوْ أَبًا أَوْ سَيدًا ـ لِأَنهُ قَدْ زَادَهُ فِي الْكَرَامَةِ عَلَى مَا لِعُزَيْرٍ، كَمَا أَن مَنْ زَادَ رَجُلًا فِي الْإِكْرَام فَقَالَ لَهُ: يَا سَيدِي وَيَا شَيْخِي وَيَا عَمي ـ وَيَا رَئِيسِي وَيَا أَمِيرِي عَلَى طَرِيقِ الْإِكْرَام، وَإِن مَنْ زَادَهُ فِي الْكَرَامَةِ زَادَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، أَفَيَجُوزُ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَخًا لِلهِ، أَوْ شَيْخًا، أَوْ عَمًا أَوْ رَئِيسًا، أَوْ سَيدًا أَوْ أَمِيرًا لِأَنهُ قَدْ زَادَهُ فِي الْإِكْرَام عَلَى مَنْ قَالَ لَهُ: يَا شَيْخِي أَوْ يَا سَيدِي أَوْ يَا عَمي، أَوْ يَا رَئِيسِي، أَوْ يَا أَمِيرِي.

قَالَ: فَبُهِتَ الْقَوْمُ وَتَحَيرُوا وَقَالُوا: يَا مُحَمدُ أَجلْنَا نَتَفَكرُ فِيمَا قُلْتَهُ لَنَا.

فَقَالَ: انْظُرُوا فِيهِ بِقُلُوبٍ مُعْتَقِدَةٍ لِلْإِنْصَافِ، يَهْدِكُمُ اللهُ.

ثُم أَقْبَلَ ﷺ عَلَى النصَارَى فَقَالَ لَهُمْ: وَأَنْتُمْ قُلْتُمْ إِن الْقَدِيمَ عَز وَجَل اتحَدَ بِالْمَسِيحِ ابْنِهِ مَا الذِي أَرَدْتُمُوهُ بِهَذَا الْقَوْلِ أَرَدْتُمْ أَن الْقَدِيمَ صَارَ مُحْدَثًا ـ لِوُجُودِ هَذَا الْمُحْدَثِ الذِي هُوَ عِيسَى أَوِ الْمُحْدَثُ الذِي هُوَ عِيسَى صَارَ قَدِيمًا ـ لِوُجُودِ الْقَدِيم الذِي هُوَ اللهُ أَوْ مَعْنَى قَوْلِكُمْ: «إِنهُ اتحَدَ بِهِ» أَنهُ اخْتَصهُ بِكَرَامَةٍ لَمْ يُكْرِمْ بِهَا أَحَدًا سِوَاهُ فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَن الْقَدِيمَ تَعَالَى صَارَ مُحْدَثًا فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ، لِأَن الْقَدِيمَ مُحَالٌ أَنْ يَنْقَلِبَ فَيَصِيرَ مُحْدَثًا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَن الْمُحْدَثَ صَارَ قَدِيمًا فَقَدْ أَحَلْتُمْ لِأَن الْمُحْدَثَ أَيْضًا مُحَالٌ أَنْ يَصِيرَ قَدِيمًا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنهُ اتحَدَ بِهِ بِأَنِ اخْتَصهُ وَاصْطَفَاهُ عَلَى سَائِرِ عِبَادِهِ، فَقَدْ أَقْرَرْتُمْ بِحُدُوثِ عِيسَى، وَبِحُدُوثِ الْمَعْنَى الذِي اتحَدَ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ، لِأَنهُ إِذَا كَانَ عِيسَى مُحْدَثًا وَكَانَ اللهُ اتحَدَ بِهِ بِأَنْ أَحْدَثَ بِهِ مَعْنًى صَارَ بِهِ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَهُ، فَقَدْ صَارَ عِيسَى وَذَلِكَ الْمَعْنَى مُحْدَثَيْنِ، وَهَذَا خِلَافُ مَا بَدَأْتُمْ تَقُولُونَهُ.

قَالَ: فَقَالَتِ النصَارَى: يَا مُحَمدُ إِن اللهَ تَعَالَى لَما أَظْهَرَ عَلَى يَدِ عِيسَى مِنَ الْأَشياء الْعَجِيبَةِ مَا أَظْهَرَ، فَقَدِ اتخَذَهُ وَلَدًا عَلَى جِهَةِ الْكَرَامَةِ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا قُلْتَهُ لِلْيَهُودِ فِي هَذَا الْمَعْنَى الذِي ذَكَرْتُمُوهُ.

ثُم أَعَادَ ﷺ ذَلِكَ كُلهُ، فَسَكَتُوا إِلا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمدُ أَوَ لَسْتُمْ تَقُولُونَ: إِن إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ.

قَالَ: قَدْ قُلْنَا ذَلِكَ.

فَقَالَ: فَإِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ فَلِمَ مَنَعْتُمُونَا مِنْ أَنْ نَقُولَ: إِن عِيسَى ابْنُ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنهُمَا لَمْ يَشْتَبِهَا، لِأَن قَوْلَنَا: إِن إِبْرَاهِيمَ

خَلِيلُ اللهِ، فَإِنمَا هُوَ مُشْتَق مِنَ الْخَلةِ وَالْخُلةِ: فَأَما الْخَلةُ فَإِنمَا مَعْنَاهَا الْفَقْرُ وَالْفَاقَةُ، فَقَدْ كَانَ خَلِيلًا إِلَى رَبهِ فَقِيرًا، وَإِلَيْهِ مُنْقَطِعًا، وَعَنْ غَيْرِهِ مُتَعَففًا مُعْرِضًا مُسْتَغْنِيًا، وَذَلِكَ لَما أُرِيدَ قَذْفُهُ فِي النارِ، فَرُمِيَ بِهِ فِي الْمَنْجَنِيقِ فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى جَبْرَئِيلَ عليه السلام وَقَالَ لَهُ: أَدْرِكْ عَبْدِي، فَجَاءَهُ فَلَقِيَهُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: كَلفْنِي مَا بَدَا لَكَ فَقَدْ بَعَثَنِي اللهُ لِنُصْرَتِكَ.

فَقَالَ: بَلْ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، إِني لَا أَسْأَلُ غَيْرَهُ وَلَا حَاجَةَ لِي إِلا إِلَيْهِ. فَسَماهُ خَلِيلَهُ أَيْ فَقِيرَهُ وَمُحْتَاجَهُ، وَالْمُنْقَطِعَ إِلَيْهِ عَمنْ سِوَاهُ.

وَ إِذَا جُعِلَ مَعْنَى ذَلِكَ مِنَ الْخُلةِ وَهُوَ أَنهُ قَدْ تَخَللَ مَعَانِيَهُ، وَوَقَفَ عَلَى أسرار لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا غَيْرُهُ كَانَ مَعْنَاهُ الْعَالِمَ بِهِ وَبِأُمُورِهِ، وَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ تَشْبِيهَ اللهِ بِخَلْقِهِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنهُ إِذَا لَمْ يَنْقَطِعْ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ وَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِأسرارهِ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ وَأَن مَنْ يَلِدُهُ الرجُلُ وَإِنْ أَهَانَهُ وَأَقْصَاهُ، لَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلَدَهُ لِأَن مَعْنَى الْوِلَادَةِ قَائِمٌ.

ثُم إِنْ وَجَبَ لِأَنهُ قَالَ اللهُ: إِبْرَاهِيمُ خَلِيلِي أَنْ تَقِيسُوا أَنْتُمْ فَتَقُولُوا: إِن عِيسَى ابْنُهُ، وَجَبَ أَيْضًا كَذَلِكَ أَنْ تَقُولُوا لِمُوسَى: إِنهُ ابْنُهُ، فَإِن الذِي مَعَهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ لَمْ يَكُنْ بِدُونِ مَا كَانَ مَعَ عِيسَى، فَقُولُوا إِن مُوسَى أَيْضًا ابْنُهُ، وَإِنهُ يَجُوزُ أَنْ تَقُولُوا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: شَيْخُهُ وَسَيدُهُ وَعَمهُ وَرَئِيسُهُ وَأَمِيرُهُ كَمَا قَدْ ذَكَرْتُهُ لِلْيَهُودِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَفِي الْكُتُبِ الْمُنزلَةِ أَن عِيسَى قَالَ: أَذْهَبُ إِلَى أَبِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: فَإِنْ كُنْتُمْ بِذَلِكَ الْكِتَابِ تَعْمَلُونَ، فَإِن فِيهِ: «أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ» فَقُولُوا: إِن جَمِيعَ الذِينَ خَاطَبَهُمْ كَانُوا أَبْنَاءَ اللهِ، كَمَا كَانَ عِيسَى ابْنَهُ مِنَ الْوَجْهِ الذِي كَانَ عِيسَى ابْنَهُ، ثُم إِن مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ يُبْطِلُ عَلَيْكُمْ هَذَا الذِي زَعَمْتُمْ أَن عِيسَى مِنْ جِهَةِ

الِاخْتِصَاصِ كَانَ ابْنًا لَهُ، لِأَنكُمْ قُلْتُمْ: إِنمَا قُلْنَا: إِنهُ ابْنُهُ لِأَنهُ تَعَالَى اخْتَصهُ بِمَا لَمْ يَخْتَص بِهِ غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَن الذِي خَص بِهِ عِيسَى لَمْ يَخُص بِهِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الذِينَ قَالَ لَهُمْ عِيسَى: «أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ» فَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ الِاخْتِصَاصُ لِعِيسَى، لِأَنهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَكُمْ بِقَوْلِ عِيسَى لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ اخْتِصَاصِ عِيسَى، وَأَنْتُمْ إِنمَا حَكَيْتُمْ لَفْظَةَ عِيسَى وَتَأَولْتُمُوهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا لِأَنهُ إِذَا قَالَ: «أَبِي وَأَبِيكُمْ» فَقَدْ أَرَادَ غَيْرَ مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ وَنَحَلْتُمُوهُ، وَمَا يُدْرِيكُمْ لَعَلهُ عَنَى: أَذْهَبُ إِلَى آدَمَ وَإِلَى نُوحٍ إِن اللهَ يَرْفَعُنِي إِلَيْهِمْ وَيَجْمَعُنِي مَعَهُمْ، وَآدَمُ أَبِي وَأَبُوكُمْ وَكَذَلِكَ نُوحٌ، بَلْ مَا أَرَادَ غَيْرَ هَذَا.

قَالَ: فَسَكَتَتِ النصَارَى، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ مُجَادِلًا وَلَا مُخَاصِمًا وَسَنَنْظُرُ فِي أُمُورِنَا.

ثُم أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الدهْرِيةِ فَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَمَا الذِي دَعَاكُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِأَن الْأَشياء لَا بَدْءَ لَهَا وَهِيَ دَائِمَةٌ لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ.

فَقَالُوا: لِأَنا لَا نَحْكُمُ إِلا بِمَا نُشَاهِدُ، وَلَمْ نَجِدْ لِلْأَشياء حَدَثًا ـ فَحَكَمْنَا بِأَنهَا لَمْ تَزَلْ وَلَمْ نَجِدْ لَهَا انْقِضَاءً وَلَا فَنَاءً فَحَكَمْنَا بِأَنهَا لَا تَزَالُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَوَجَدْتُمْ لَهَا قدَمًا، أَمْ وَجَدْتُمْ لَهَا بَقَاءً أَبَدَ الْآبَادِ فَإِنْ قُلْتُمْ: إِنكُمْ قَدْ وَجَدْتُمْ ذَلِكَ أَثْبَتمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَنكُمْ لَمْ تَزَالُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ وَعُقُولِكُمْ بِلَا نِهَايَةٍ، وَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ وَلَئِنْ قُلْتُمْ هَذَا دَفَعْتُمُ الْعَيَانَ وَكَذبَكُمْ الْعَالِمُونَ الذِينَ يُشَاهِدُونَكُمْ.

قَالُوا: بَلْ لَمْ نُشَاهِدْ لَهَا قِدَمًا وَلَا بَقَاءً أَبَدَ الْآبَادِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلِمَ صِرْتُمْ بِأَنْ تَحْكُمُوا بِالْقِدَمِ وَالْبَقَاءِ دَائِمًا لِأَنكُمْ لَمْ تُشَاهِدُوا حُدُوثَهَا وَانْقِضَاءَهَا أَوْلَى مِنْ تَارِكِ التمَيزِ لَهَا مِثْلُكُمْ

يَحْكُمُ لَهَا بِالْحُدُوثِ وَالِانْقِضَاءِ وَالِانْقِطَاعِ لِأَنهُ لَمْ يُشَاهِدْ لَهَا قِدَمًا وَلَا بَقَاءً أَبَدَ الْآبَادِ.

أَوَ لَسْتُمْ تُشَاهِدُونَ اللَّيْلَ وَالنهَارَ وَأَحَدُهُمَا بَعْدَ الْآخَرِ.

فَقَالُوا: نَعَمْ.

فَقَالَ: أَتَرَوْنَهُمَا لَمْ يَزَالا وَلَا يَزَالانِ.

فَقَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: أَفَيَجُوزُ عِنْدَكُمْ اجْتِمَاعُ اللَّيْلِ وَالنهَار.

فَقَالُوا: لَا.

فَقَالَ ﷺ: فَإِذًا يَنْقَطِعُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فَيَسْبِقُ أَحَدُهُمَا، وَيَكُونُ الثانِي جَارِيًا بَعْدَهُ.

قَالُوا: كَذَلِكَ هُوَ.

فَقَالَ: قَدْ حَكَمْتُمْ بِحُدُوثِ مَا تَقَدمَ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ لَمْ تُشَاهِدُوهُمَا، فَلَا تُنْكِرُوا لِلهِ قُدْرَةً.

ثُم قَالَ ﷺ: أَتَقُولُونَ مَا قَبْلَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنهَارِ ـ مُتَنَاهٍ أَمْ غَيْرُ مُتَنَاهٍ، فَإِنْ قُلْتُمْ: غَيْرُ مُتَنَاهٍ فَكَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكُمْ آخِرٌ بِلَا نِهَايَةٍ لِأَولِهِ، وَإِنْ قُلْتُمْ: إِنهُ مُتَنَاهٍ فَقَدْ كَانَ وَلَا شَيْءَ مِنْهُمَا بِقَدِيمٍ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ لَهُمْ: أَقُلْتُمْ إِن الْعَالَمَ قَدِيمٌ لَيْسَ بِمُحْدَثٍ وَأَنْتُمْ عَارِفُونَ بِمَعْنَى مَا أَقْرَرْتُمْ بِهِ، وَبِمَعْنَى مَا جَحَدْتُمُوهُ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَهَذَا الذِي نُشَاهِدُهُ مِنَ الْأَشياء بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ مُفْتَقِرٌ، لِأَنهُ لَا قِوَامَ لِلْبَعْضِ إِلا بِمَا يَتصِلُ بِهِ، أَلَا تَرَى أَن الْبِنَاءَ

مُحْتَاجٌ بَعْضُ أَجْزَائِهِ إِلَى بَعْضٍ وَإِلا لَمْ يَتسِقْ، وَلَمْ يَسْتَحْكِمْ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا تَرَوْنَ.

وَقَالَ ﷺ: فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمُحْتَاجُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ لِقُوتِهِ وَتَمَامِهِ هُوَ الْقَدِيمَ، فَأَخْبِرُونِي أَنْ لَوْ كَانَ مُحْدَثًا كَيْفَ كَانَ يَكُونُ وَمَا ذَا كَانَتْ تَكُونُ صِفَتُهُ.

قَالَ: فَبُهِتُوا وَعَلِمُوا أَنهُمْ لَا يَجِدُونَ لِلْمُحْدَثِ صِفَةً يَصِفُونَهُ بِهَا إِلا وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي هَذَا الذِي زَعَمُوا أَنهُ قَدِيمٌ، فَوَجَمُوا وَقَالُوا: سَنَنْظُرُ فِي أَمْرِنَا.

ثُم أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الثنَوِيةِ الذِينَ قَالُوا: النورُ وَالظلْمَةُ هُمَا الْمُدَبرَانِ.

فَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَمَا الذِي دَعَاكُمْ إِلَى مَا قُلْتُمُوهُ مِنْ هَذَا.

فَقَالُوا: أَنا وَجَدْنَا الْعَالَمَ صِنْفَيْنِ: خَيْرًا وَشَرًا، وَوَجَدْنَا الْخَيْرَ ضِد الشر، فَأَنْكَرْنَا أَنْ يَكُونَ فَاعِلٌ يَفْعَلُ الشيْءَ وَضِدهُ، بَلْ لِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَاعِلٌ، أَلَا تَرَى أَن الثلْجَ مُحَالٌ أَنْ يُسَخنَ كَمَا أَن النارَ مُحَالٌ أَنْ تُبرَدَ، فَأَثْبَتْنَا لِذَلِكَ صَانِعَيْنِ قَدِيمَيْنِ: ظُلْمَةً وَنُورًا.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَلَسْتُمْ قَدْ وَجَدْتُمْ سَوَادًا وَبَيَاضًا، وَحُمْرَةً وَصُفْرَةً وَخُضْرَةً وَزُرْقَةً وَكُل وَاحِدَةٍ ضِد لِسَائِرِهَا لِاسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ اثْنَيْنِ مِنْهُمَا فِي مَحَل وَاحِدٍ، كَمَا كَانَ الْحَر وَالْبَرْدُ ضِدَيْنِ لِاسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَحَل وَاحِدٍ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَهَلا أَثْبَتمْ بِعَدَدِ كُل لَوْنٍ صَانِعًا قَدِيمًا لِيَكُونَ فَاعِلُ كُل ضِد مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ غَيْرَ فَاعِلِ الضد الْآخَرِ!.

قَالَ: فَسَكَتُوا.

ثُم قَالَ: وَكَيْفَ اخْتَلَطَ النورُ وَالظلْمَةُ، وَهَذَا مِنْ طَبْعِهِ الصعُودُ، وَهَذِهِ مِنْ طَبْعِهَا النزُولُ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَن رَجُلًا أَخَذَ شَرْقًا يَمْشِي إِلَيْهِ وَالْآخَرَ غَرْبًا أَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يَلْتَقِيَا مَا دَامَا سَائِرَيْنِ عَلَى وُجُوهِهِمَا.

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَوَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِطَ النورُ وَالظلْمَةُ، لِذَهَابِ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي غَيْرِ جِهَةِ الْآخَرِ، فَكَيْفَ حَدَثَ هَذَا الْعَالَمُ مِنِ امْتِزَاجِ مَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَمْتَزِجَ بَلْ هُمَا مُدَبرَانِ جَمِيعًا مَخْلُوقَانِ.

فَقَالُوا: سَنَنْظُرُ فِي أُمُورِنَا.

ثُم أَقْبَلَ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ فَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَلِمَ عَبَدْتُمُ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللهِ.

فَقَالُوا: نَتَقَرَبُ بِذَلِكَ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

فَقَالَ: أَوَ هِيَ سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ لِرَبهَا، عَابِدَةٌ لَهُ، حَتى تَتَقَرَبُوا بِتَعْظِيمِهَا إِلَى اللهِ.

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَأَنْتُمُ الذِينَ تَنْحِتُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: فَلَأَنْ تَعْبُدَكُمْ هِيَ لَوْ كَانَ يَجُوزُ مِنْهَا الْعِبَادَةُ أَحْرَى مِنْ أَنْ تَعْبُدُوهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمَرَكُمْ بِتَعْظِيمِهَا مَنْ هُوَ الْعَارِفُ بِمَصَالِحِكُمْ وَعَوَاقِبِكُمْ وَالْحَكِيمُ فِيمَا يُكَلفُكُمْ.

قَالَ: فَلَما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا اخْتَلَفُوا: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِن اللهَ

قَدْ يَحُل فِي هَيَاكِلِ رِجَالٍ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصوَرِ التِي صَورْنَاهَا، فَصَورْنَا هَذِهِ، نُعَظمُهَا لِتَعْظِيمِنَا تِلْكَ الصوَرَ التِي حَل فِيهَا رَبنَا.

وَ قَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِن هَذِهِ صُوَرُ أَقْوَامٍ سَلَفُوا كَانُوا مُطِيعِينَ لِلهِ قَبْلَنَا، فَمَثلْنَا صُوَرَهُمْ وَعَبَدْنَاهَا تَعْظِيمًا لِلهِ.

وَ قَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِن اللهَ لَما خَلَقَ آدَمَ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسجُودِ لَهُ، كُنا نَحْنُ أَحَق بِالسجُودِ لِآدَمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَفَاتَنَا ذَلِكَ، فَصَورْنَا صُورَتَهُ فَسَجَدْنَا لَهَا تَقَربًا إِلَى اللهِ كَمَا تَقَربَتِ الْمَلَائِكَةُ بِالسجُودِ لِآدَمَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَكَمَا أُمِرْتُمْ بِالسجُودِ ـ بِزَعْمِكُمْ ـ إِلَى جِهَةِ مَكةَ فَفَعَلْتُمْ، ثُم نَصَبْتُمْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْبَلَدِ بِأَيْدِيكُمْ مَحَارِيبَ سَجَدْتُمْ إِلَيْهَا، وَقَصَدْتُمُ الْكَعْبَةَ لَا مَحَارِيبَكُمْ، وَقَصْدُكُمْ فِي الْكَعْبَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا إِلَيْهَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَخْطَأْتُمُ الطرِيقَ وَضَلَلْتُمْ، أَما أَنْتُمْ وَهُوَ ﷺ يُخَاطِبُ الذِينَ قَالُوا: إِن اللهَ يَحُل فِي هَيَاكِلِ رِجَالٍ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصوَرِ التِي صَورْنَاهَا، فَصَورْنَا هَذِهِ نُعَظمُهَا لِتَعْظِيمِنَا لِتِلْكَ الصوَرِ التِي حَل فِيهَا رَبنَا، فَقَدْ وَصَفْتُمْ رَبكُمْ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوَ يَحُل رَبكُمْ فِي شَيْءٍ حَتى يُحِيطَ بِهِ ذَلِكَ الشيْءُ فَأَي فَرْقٍ بَيْنَهُ إِذَنْ وَبَيْنَ سَائِرِ مَا يَحُل فِيهِ ـ مِنْ لَوْنِهِ وَطَعْمِهِ وَرَائِحَتِهِ ولِينِهِ وَخُشُونَتِهِ وَثِقْلِهِ وَخِفتِهِ وَلِمَ صَارَ هَذَا الحال فِيهِ مُحْدَثًا وَذَلِكَ قَدِيمًا دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُحْدَثًا وَهَذَا قَدِيمًا، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَحَال مَنْ لَمْ يَزَلْ قَبْلَ الْمَحَال، وَهُوَ عَز وَجَل لَا يَزَالُ كَمَا لَمْ يَزَلْ فَإِذَا وَصَفْتُمُوهُ بِصِفَةِ الْمُحْدَثَاتِ فِي الْحُلُولِ فَقَدْ لَزِمَكُمْ أَنْ تَصِفُوهُ بِالزوَالِ وَالْحُدُوثِ.

وَ أَما مَا وَصَفْتُمُوهُ بِالزوَالِ وَالْحُدُوثِ فَصِفُوهُ بِالْفَنَاءِ، فَإِن ذَلِكَ أَجْمَعَ مِنْ صِفَاتِ الْحَال وَالْمَحْلُولِ فِيهِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ يُغَيرُ الذاتَ، فَإِنْ

جَازَ أَنْ يَتَغَيرَ ذَاتُ الْبَارِي تَعَالَى بِحُلُولِهِ فِي شَيْءٍ جَازَ أَنْ يَتَغَيرَ بِأَنْ يَتَحَركَ وَيَسْكُنَ وَيَسْوَد وَيَبْيَض وَيَحْمَر وَيَصْفَر وَتَحُلهُ الصفَاتُ التِي تَتَعَاقَبُ عَلَى الْمَوْصُوفِ بِهَا حَتى يَكُونَ فِيهِ جَمِيعُ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ، وَيَكُونَ مُحْدَثًا عز اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ثُم قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِذَا بَطَلَ مَا ظَنَنْتُمُوهُ مِنْ أَن اللهَ يَحُل فِي شَيْءٍ ـ فَقَدْ فَسَدَ مَا بَنَيْتُمْ عَلَيْهِ قَوْلَكُمْ.

قَالَ: فَسَكَتَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا: سَنَنْظُرُ فِي أُمُورِنَا.

ثُم أَقْبَلَ عَلَى الْفَرِيقِ الثانِي فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونَا عَنْكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ صُوَرَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَسَجَدْتُمْ لَهَا وَصَلَيْتُمْ، فَوَضَعْتُمُ الْوُجُوهَ الْكَرِيمَةَ عَلَى التراَبِ بِالسجُودِ لَهَا فَمَا الذِي أَبْقَيْتُمْ لِرَب الْعَالَمِينَ أَمَا عَلِمْتُمْ أَن مِنْ حَق مَنْ يَلْزَمُ تَعْظِيمُهُ وَعِبَادَتُهُ أَنْ لَا يُسَاوَى بِهِ عَبْدهُ أَرَأَيْتُمْ مَلِكًا عَظِيمًا إِذَا سَاوَيْتُمُوهُ بِعَبِيدِهِ فِي التعْظِيمِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ أَيَكُونُ فِي ذَلِكَ وَضْعٌ لِلْكَبِيرِ كَمَا يَكُونُ زِيَادَةً فِي تَعْظِيمِ الصغِيرِ.

فَقَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنكُمْ مِنْ حَيْثُ تُعَظمُونَ اللهَ بِتَعْظِيمِ صُوَرِ عِبَادِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ تَزِرُونَ عَلَى رَب الْعَالَمِينَ.

قَالَ: فَسَكَتَ الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ قَالُوا: سَنَنْظُرُ فِي أُمُورِنَا.

ثُم قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْفَرِيقِ الثالِثِ: لَقَدْ ضَرَبْتُمْ لَنَا مَثَلًا، وَشَبهْتُمُونَا بِأَنْفُسِكُمْ وَلَا سَوَاءَ، وَذَلِكَ أَنا عِبَادُ اللهِ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ نَأْتَمِرُ لَهُ فِيمَا أَمَرَنَا، وَنَنْزَجِرُ عما زَجَرَنَا، وَنَعْبُدُهُ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُهُ مِنا، فَإِذَا أَمَرَنَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ أَطَعْنَاهُ وَلَمْ نَتَعَد إِلَى غَيْرِهِ مِما لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا، لِأَنا لَا نَدْرِي لَعَلهُ إِنْ أَرَادَ مِنا الْأَولَ فَهُوَ يَكْرَهُ الثانِيَ، وَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَتَقَدمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَما أَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ بِالتوَجهِ إِلَى الْكَعْبَةِ أَطَعْنَا، ثُم أَمَرَنَا بِعِبَادَتِهِ بِالتوَجهِ نَحْوَهَا فِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ التِي نَكُونُ بِهَا

فَأَطَعْنَا، فَلَمْ نَخْرُجْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنِ اتبَاعِ أَمْرِهِ، وَاللهُ عز وَجَل حَيْثُ أَمَرَ بِالسجُودِ لِآدَمَ لَمْ يَأْمُرْ بِالسجُودِ لِصُورَتِهِ التِي هِيَ غَيْرُهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقِيسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، لِأَنكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلهُ يَكْرَهُ مَا تَفْعَلُونَ إِذْ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِهِ.

وَ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَذِنَ لَكُمْ رَجُلٌ دُخُولَ دَارِهِ يَوْمًا بِعَيْنِهِ أَلَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ أَوْ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا دَارًا لَهُ أُخْرَى مِثْلَهَا بِغَيْرِ أَمْرِهِ، أَوْ وَهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِهِ، أَوْ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ، أَوْ دَابةً مِنْ دَوَابِهِ، أَلَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ذَلِكَ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَأْخُذُوهُ، أَخَذْتُمْ آخَرَ مِثْلَهُ.

قَالُوا: لَا، لِأَنهُ لَمْ يَأْذَنْ لَنَا فِي الثانِي كَمَا أَذِنَ لَنَا فِي الْأَولِ.

قَالَ صلى الله عليه وآله: فَأَخْبِرُونِي اللهُ تَعَالَى أَوْلَى بِأَنْ لَا يُتَقَدمَ عَلَى مِلْكِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، أَوْ بَعْضُ الْمَمْلُوكِينَ.

قَالُوا: بَلِ اللهُ أَوْلَى بِأَنْ لَا يُتَصَرفَ فِي مِلْكِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ وَإِذْنِهِ.

قَالَ: فَلِمَ فَعَلْتُمْ، وَمَتَى أَمَرَكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا لِهَذِهِ الصوَرِ.

قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: سَنَنْظُرُ فِي أُمُورِنَا، ثُم سَكَتُوا.

وَقَالَ الصادِقُ عليه السلام: فَوَ الذِي بَعَثَهُ بِالْحَق نَبِيًا مَا أَتَتْ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثَةُ أَيام حَتى أَتَوْا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله فَأَسْلَمُوا، وَكَانُوا خَمْسَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ كُل فِرْقَةٍ خَمْسَةٌ، وقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ حُجتِكَ يَا مُحَمدُ، نَشْهَدُ أَنكَ رَسُولُ اللهِ.

وَقَالَ الصادِقُ عليه السلام: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فَكَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدًا عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ مِنْهُمْ.

لما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فكان رَدًا على الدهْرِيةِ الذِينَ قالُوا: الْأشياء لَا بَدْءَ لَهَا وَهِيَ دَائِمَةٌ.

ثُم قَالَ ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ فَكَانَ رَدًا عَلَى الثنَوِيةِ الذِينَ قَالُوا: إِن النورَ وَالظلْمَةَ هُمَا الْمُدَبرَانِ.

ثُم قَالَ ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فَكَانَ رَدًا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ الذِينَ قَالُوا: إِن أَوْثَانَنَا آلِهَةٌ.

ثُم أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إِلَى آخِرِهَا، فَكَانَ فِيهَا رَدًا عَلَى كُلِ مَنِ ادعَى مِنْ دُونِ اللهِ ضِدًا أَوْ نِدًا.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: قُولُوا: إِياكَ نَعْبُدُ أَيْ نَعْبُدُ وَاحِدًا لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الدهْرِيةُ: إِن الْأشياء لَا بَدْءَ لَهَا وَهِيَ دَائِمَةٌ، وَلَا كَمَا قَالَتِ الثنَوِيةُ الذِينَ قَالُوا: إِن النورَ وَالظلْمَةَ هُمَا الْمُدَبرَانِ، وَلَا كَمَا قَالَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ: إِن أَوْثَانَنَا آلِهَةٌ، فَلَا نُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا، وَلَا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ إِلَهًا كَمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفارُ، وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنصَارَى: إِن لَكَ وَلَدًا، تَعَالَيْتَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًا كَبِيرًا)[1] انتهى ما في تفسير الإمام عليه السلام.

اعلم أن الله سبحانه عَلِمَ خلقه كما خلقهم أنهم على ثلاث درجات، فأمر نبيه ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه أهل كل درجة بما

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٥٤٢ [احتجاج الرسول صو جداله ومناظرته:].

يناسبهم مما آتاهم من كل ما سألوه فقال تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

فأول الدرجات درجة أهل الحكمة، الذين آتاهم الله من كل ما سألوه في الدواة الأولى التي يعبر عنها بـ(ن)، وهم أولوا الأفئدة المستضيئة بضياء المعرفة، ودليلهم دليل الحكمة التي هي معرفة الأشياء كما هي.

وثاني الدرجات درجة أهل الموعظة الحسنة الذين آتاهم الله تعالى من كل ما سألوه في الحجاب الأبيض الذي يعبر عنه بـ(الْقَلَمِ)، وهم أرباب القلوب المستنيرة بنور اليقين ودليلهم دليل الموعظة الحسنة.

وأسفل الدرجات درجة أهل الجدال الذين آتاهم الله تعالى من كل ما سألوه في اللوح المعبر عنه بـ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ ، وفي حجاب الياقوت وفي آخر أكوارهم وأشكالهم وأجسامهم، وهم أصحاب العلوم وأهل الآثار والرسوم ودليلهم دليل المجادلة.

ولما كان هؤلاء الكفرة أي أهل خمسة أديان باطلة، وهم اليهود والنصارى والدهرية والثنوية ومشركو العرب في أسفل الدرجات، وكان دليلهم دليل المجادلة الذي هو أقل الدلالات، وفيهم اليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2] كالمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بلسان أهل الظاهر، وجادلهم بالتي هي أحسن.

إذا عرفت هذا فاعلم أن في قوله عليه السلام: (اجتمع يومًا عند

---

(١) النحل ١٢٥.

(٢) العنكبوت ٤٦.

رسول الله ﷺ أهل خمسة أديان) إشارة إلى بطلان كل هذه الأديان، فإن هذه الأديان ليست كلها بحق، ولو كان فيها دين حق لم يجتمع أهله مع أهل الأديان الباطلة، لأن الحق لا يجتمع مع الباطل، وأما قول أمير المؤمنين عليه السلام: (فلو أن الباطل خلص لم يخف على أهل ذي حجى ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمتزجان فيجيئان معًا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)، فراجع إلى مقام الاختيار واستنطاق الطبيعة وليس هنا مقامه.

فمجيء هؤلاء الكفار عند رسول الله ﷺ مجتمعين متعاونين على الإثم والعدوان، دليل على اضطرابهم في أمرهم وشكهم في دينهم، وبطلان عقائدهم وضعف عقولهم، بحيث يكفر بعضهم بعضًا، وينكر بعضهم دين بعض، كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[1] ومع ذلك مجتمعون عند رسول الله ﷺ ويتظاهرون عليه بالمجادلة والمشاقة.

وقوله عليه السلام: فقالت اليهود ونحن نقول كذا، وقالت النصارى نحن نقول كذا، وقالت الدهرية نحن نقول كذا، وهكذا الثنوية ومشركو العرب.

يدل على أن كل واحد من هؤلاء يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ليس لهم دليل يدل على ما يدعونه من صحة دينهم واستقامتة طريقتهم وأنهم اتبعوا أهواءهم واستحسنوا آراءهم، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوها حسنًا، قال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) البقرة ١١٣.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] بل كل واحد منهم اتخذ إلهه هواه قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ثم قال: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] ولهذا قال ﷺ في أول كلامه لليهود: (أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجة) فإن قوله صلى الله عليه وآله هذا يدل على أنهم يقولون بغير حجة ولا دليل، وقوله ﷺ لليهود: (فما دعاكم إلى القول بكذا) إشارة إلى أن قولهم هذا نشأ من الدواعي النفسانية والوساوس الشيطانية، وإلا لقال ﷺ فما دليلكم أو برهانكم على كذا كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾[3].

ثم اعلم أن إبطال قول اليهود والنصارى وقلب حجتهم ودليلهم الاستحساني عليهم سَهْلٌ بعد بيان الرسول ﷺ لا يحتاج إلى زيادة بيان، وقد أبطل رسول الله ﷺ قولهم بدليل المجادلة بالتي هي أحسن طرق المجادلة حتى اعترفوا بالعجز عن المخاصمة، وقالوا ما رأينا كاليوم مجادلًا ولا مخاصمًا وسننظر في أمورنا.

وأما إبطال قول الدهرية ومذهبهم فنحن نحتاج في فهم كلام رسول الله ﷺ على إبطال مذهبهم إلى زيادة بيان وتوضيح.

فنقول: قوله ﷺ: (وأنتم فما دعاكم إلى القول بأن الأشياء لا بدأ لها وهي دائمًا لم تزل ولا تزال)، وقولهم في جوابه ﷺ: (إنا لا نحكم إلّا بما نشاهد ولما لم نجد للأشياء حدوثا فحكمنا بأنها لم

---

(١) النساء ١٧١.

(٢) الفرقان ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) البقرة ٦٤.

تزل، ولما لم نجد لها نقص وفناء فحكمنا بأنها لا تزال)، يدل على أن نظرهم مقصور على عالم الشهادة والمحسوسات، وهمهم قاصرة عن درك ما في عالم الغيب والمعقولات، فهم لما دخلوا في هذا العالم والأشياء قائمة على أصولها موجودة في أماكنها، مرتبة على ترتيب وجوداتها، جارية مسبباتها على أسبابها، وأسبابها مفيضة على مسبباتها، وهم قد خرجوا منه وهي قائمة عليها موجودة فيها باقية على الهيئة التي كانت عليها، زعموا أن الأشياء قديمة أزلية لا بدأ لها، وهي دائمة أبدية لا فناء لها، ومرادهم بالأشياء التي حكموا بقدمها وعدموا فناءها أصول الأشياء كالسماء وما فيها من النيرات والثوابت والسيارات، وكالأرض وما عليها من الجبال الراسيات، وما بينهم من العناصر التي تركبت منها المعادن والنباتات والحيوانات، وغير ذلك من أصول الموجودات لا فروعها كالمعدن والنبات والحيوان والإنسان، فإنهم لا ينكرون أنها حادثة غير دائمة، وإن حكموا أن أصولها التي تركبت منها قديمة باقية يدل على ما ذكرنا قولهم إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر[1]، فهم لا ينكرون هلاكهم وعدم بقائهم على هيئتهم وعقولهم، لأن ذلك من الضروريات التي لا مجال للإنكار فيها، وإلى هذا أشار صلى الله على وآله بقوله: (أفوجدتم لها قدما) إلى أن قال ﷺ: (وإن قلتم هذا فدفعتم العيان وكذبتم العالمين الذين يشاهدونكم)، ثم أخذ رسول الله صلى الله علية وآله في إبطال قولهم بأن الأشياء قديمة لا بدأ لها وإثبات حدوثها، أي حدوث الأشياء التي قالوا بقدمها، فأشار ﷺ أولا إلى أن ما

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية ٢٤.

دعاكم إلى قدم الأشياء وأنها دائمة وهو قولكم: (إنا لما لم نجد للأشياء حدوثًا... إلخ) لا يدل على مطلوبكم، لأن عدم وجدانكم للأشياء حدوثًا وانقضاء لا يدل على قدمها ودوامها وهذا ظاهر، لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، بل دلالته على حدوثها أولى من دلالته على قدمها، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: (فإذا أولى من تارك التميز لها مثلكم أن يحكم بالحدوث والانقضاء والانقطاع لأنه لم يشاهد لها قدما ولا بقاء أبد الأبد)، يعني أنكم لم تكونوا في الأزل أي في أول بدأ الأشياء فترون حدوثها أو قدمها، ولم تصلوا إلى الأبد أي آخر نهاية الأشياء ووقت فنائها فترون فناءها أو بقاءها فتحكمون بقدمها أو حدوثها وبدوامها أو فنائها، والعاقل لا يحكم على سبيل القطع والجزم بقدم شيء لم يثبت عنده حدوثه، بل يحكم على حدوث الشيء ما لم يثبت عنده قدمه، وهذا إشارة إلى دليل الموعظة الحسنة بأنه طريق الاحتياط الذي فيه السلامة والنجاة، وذلك لأن هنا قومًا يقولون أن هناك صانعًا حكيما قديمًا أزليًا أبديًا لا قديم سواه، وهو الذي خلق الأشياء كلها أصولها وفروعها لا من شيء، بل اخترعها بقدرته اختراعًا وابتدعها على مشيئته ابتداعًا، فهي حادثة بمشيئته قائمة بأمره، تبقى بإبقائه إذا شاء بقاءها وتفنى بإهلاكه إذا شاء فناءها وهلاكها ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1]، ولهم دلائل تامة وحجج بالغة وبراهين قاطعة على إثبات ما يدعونه من وجود صانع قديم وحدوث هذا العالم الذي أتقنه صنع حكيم، فالعاقل إذا نظر بهذا الدليل لا يحكم بقدم شيء أجمع أهل العقول السليمة على

---

(١) القصص ٨٨.

حدوثه، ولا ينكر وجود صانع يدل كل شيء بإمكانه على وجوده وبحدوثه على قدمه وبفنائه على بقائه ودوامه، وإلى نحو هذا الدليل أشار قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ﴾[2]، وقول الصادق عليه السلام لعبدالكريم ابن أبي العوجاء حين أنكر على الطائفين بالبيت الحرام قال ما معناه إن كان الأمر كما تقولون وليس كما تقولون فأنتم وهم سواء وإن كان الأمر كما يقولون وهو كما يقولون فقد نجوا وهلكتم[3].

ثم إنه صلى الله عليه وآله شرع في إثبات حدوث العالم وإقامة الدليل عليه فقال صلى الله عليه وآله: (أولستم تشاهدون الليل والنهار)، وكيفية الاستدلال أنكم تشاهدون الليل والنهار وهما شيئان وجوديان يتعاقبان، وضدان متعاندان لا يجتمعان، ينقطع أحدهما عن الآخر فيسبقه سريعا، ويكون الثاني جاريا بعده يطلبه حثيثا، وهذان الشيئان أي الليل والنهار لا يتحققان في الوجود إلّا بوجود ما في العالم من أصول الأشياء التي قلتم أنها لا بدأ لها، لأن النهار لا يوجد إلّا أن تكون

---

(١) فصلت ٥٢.

(٢) الأحقاف ١٠.

(٣) من حديث طويل في الكافي: (فَقَامَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَبَقِيتُ أَنَا وَابْنُ الْمُقَفَّعِ جَالِسَيْنِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْنَا ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ قَالَ وَيْلَكَ يَا ابْنَ الْمُقَفَّعِ مَا هَذَا بِبَشَرٍ وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا رُوحَانِيٌّ يَتَجَسَّدُ إِذَا شَاءَ ظَاهِرًا وَيَتَرَوَّحُ إِذَا شَاءَ بَاطِنًا فَهُوَ هَذَا فَقَالَ لَهُ وَكَيْفَ ذَلِكَ قَالَ جَلَسْتُ إِلَيْهِ فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ غَيْرِي ابْتَدَأَنِي فَقَالَ إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهُوَ عَلَى مَا يَقُولُونَ يَعْنِي أَهْلَ الطَّوَافِ فَقَدْ سَلِمُوا وَعَطِبْتُمْ وَإِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَقُولُونَ وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ فَقَدِ اسْتَوَيْتُمْ وَهُم) الكافي ج١ ص٧٥ باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

الشمس طالعة، ولا تكون الشمس طالعة إلّا أن تكون الأفلاك موجودة دائرة، ولا تكون الأفلاك موجودة دائرة إلّا أن تكون الأرض ثابتة ساكنة، لأن الأرض والسماء متساوقان في الظهور، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، فكذلك الليل لا يوجد إلّا إذا كانت الشمس غاربة، والكواكب بعضها ظاهرة، وبعضها غائبة، والأفلاك دائرة، والأرض ثابتة، فالأشياء بعضها محتاج إلى بعض في تحققها ووجودها، وقد أشار عليه السلام إلى هذا في آخر كلامه الذي أورده على الدهرية، وسنذكره مع بعض البيان إن شاء الله تعالى، فإذا كان الليل والنهار موجودين متعاقبين وهما لا يجتمعان بل ينقطع أحدهما عن الآخر، فيسبق أحدهما ويكون الثاني جاريا بعده، دل هذا على حدوث ما تقدم من ليل أو نهار، فإن ما تقدم منهما لا يخلو إما أن يكون حادثًا أو قديمًا، فإن كان حادثًا ثبت المطلوب، وإن كان قديمًا فالقديم لا يتغير ولا يتحول من حال إلى حال، فكيف يذهب ويفنى ويجيء الآخر بعده، فقوله عليه السلام: (أتقدرون ما تقدم من الليل والنهار أنه متناه أم غير متناه، فإن قلتم غير متناه فكيف وصل إليكم آخر بلا نهاية لأوله، وإن قلتم أنه متناه فقد كان ولا شيء منها يحتمل) أي يكون دليلًا آخر على إثبات حدوث الليل والنهار أو يتممها للدليل الأول، فإذا ثبت حدوث الليل والنهار ثبت بحدوثها حدوث العالم كله، وإلا يستلزم أن تكون الأفلاك وما فيها من الشمس والقمر وسائر الكواكب والأرض وما عليها وما بين السماء والأرض موجودة ولم يكن الليل والنهار

---

(١) فصلت ١١.

موجودين، وهذا خلاف ما نشاهده من وضع بناء العالم وترتب الأشياء بعضها على بعض واحتياج بعضها إلى بعض، فإن ما نشاهد أن كلما كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، وكلما كانت غاربة فالليل موجود، ولا يمكن أن تكون الأفلاك وما فيها موجودة، ولم تكن الشمس طالعة ولا غاربة لارتفاع النقيضين، ولا يمكن أن تكون طالعة وغاربة لاجتماع النقيضين، فالأشياء مفتقر بعضها إلى بعض في تحققها في عالم الظهور والبروز، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: (فهذا الذي نشاهده من الأشياء بعضها إلى بعض مفتقر لأنه لا قوام للبعض إلّا بما يتصل به، ألا ترى أن البناء يكون محتاجا بعض أجزائه إلى بعض وإلا لم يتسق ولم يستحكم وكذلك سائر ما ترون).

اعلم أن افتقار بعض الأشياء إلى بعض إما أن يكون لذاته أو لغيره.

والأول: افتقاره إلى ركني ذاته كمادته وصورته أي وجوده وماهيته، وإلى مقومات الوجود والماهية كالوقت والمكان والكم والكيف والجهة والرتبه، وكافتقار الكل إلى الجزء، والجزء إلى الكل، وكافتقار بعض الأجزاء إلى بعض مما يتصل به.

والثاني: افتقار بعض أجزاء العالم في التأثر والتأثير إلى بعض، كافتقار كل واحد من الشمس والقمر مثلًا إلى الآخر في تأثيرهما للمعدن والنبات والحيوان وتأثرها منهما، فالشمس بحرارتها ويبوستها يسخن الأشياء ويدبرها، والقمر ببرودته ورطوبته يبردها ويعدلها، فيتم بهما وبسائر الأسباب العلوية والسفلية نظام العالم.

فإذا نظرت بنور الله وجدت الأشياء كلها والعالم بتمامه وجلاله واحدًا، وبناء محكمًا متصلًا محتاجًا بعض أجزائه إلى بعض، كما

تجد نفسك التي هي أنموذج العالم الكبير شخصًا واحدًا وبناء محكمًا يحتاج بعض أجزاء وجودك إلى بعض، فكما أنك محدث مخلوق قد خلقك خالق عليم وبناك صانع حكيم ولم تكن شيئًا، قال تعالى: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[1] كذلك هذا العالم لم يكن شيئًا ثم كان وإن لم تشاهد أوله وبدءه.

ولما كان هنا مظنة سؤال، وهو أن الأشياء وإن كان بعضها محتاج إلى بعض لكن بمجموعها وتمامها هو القديم قال ﷺ: (فإن كان هذا المحتاج بعضه إلى بعض لقوته وتمامه هو القديم فاجزوني أن لو كان محدثًا كيف يكون وماذا كان يكون صفته) يعني أن كل شيء إنما يعرف بصفته، فالطويل يعرف بصفته التي هي الطول، والقصير يعرف بصفته التي هي القصر، والأحمر يعرف بالحمرة، والأخضر يعرف بالخضرة، والفقير يعرف بصفة الفقر، والغني يعرف بصفة الغناء، وهكذا كل شيء يعرف بصفته، فالقديم له صفات يعرف بها لا بغيرها من صفات المحدث، والمحدث له صفات يعرف بها لا بغيرها من صفات القديم، فلو كان هذا العالم المحتاج بعضه إلى بعض، وقد اجتمع فيه جميع صفات الممكنات المحدثات قديمًا واجبًا، فكيف يكون لو كان ممكنًا؟، وماذا تكون صفته لو كان محدثًا؟، فالذي اجتمع فيه صفة الفقر ولون الفناء والزوال والهلاك والاضمحلال والتغير والتبدل والانقلاب والانتقال والاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق والغيبة والحضور والطلوع والأفول والحركة والسكون والإضاءة والاستضاءة والإنارة والاستنارة والتقدم والتأخر والتركيب والتأليف، ومعنى الكل والجزء، والكلية والجزئية،

---

(١) مريم ٩.

والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والانبساط والاستدارة، والطول والعرض والعمق، والسعة والضيق، والشفافية والكمودة، والحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، والعلو والدنو، والجهة والرتبة، والكيفية والكمية، والوضع والإشارة، ومعنى من وإلى وفي وعلى ومتى وحتى، والتشابه والتشاكل، والتشارك والتجانس، والتنوع والتماثل، والتقارب والتباعد، والمعية والبينونة، والتولد والتوليد، والتوصيف والتحديد، والمقابلة والمعادلة، والإفراد والجمع والتثنية، والامتداد بين طرفين، والدخول والخروج، والعزلة والاتحاد والحلول، والنمو والذبول، والمواصلة والمزاوجة، والمداخلة والممازجة، والفعل والانفعال، والتضاد والتخالف، والتعاند والتوافق، والوصل والفصل، والزيادة والنقصان، والتحلل والتخلل، والصعوبة والسهولة، والخشونة والنعومة، والصلابة والرخاوة، والخرق والالتئام، والثقل والخفة، والكبر والصغر، والغلظ والرقة، والتفتت والتقطع، والقرب والبعد، واللمس والشم والذوق، والاستماع والرؤية، والفرح والحزن، والمرض والصحة، والعافية والبلاء، والضحك والبكاء، والنوم واليقظة، والشدة والرخاء، والجوع والظمأ، والشبع والري، والخلو والامتلاء، والفراغ والشغل، والنطق والصمت، واللون والتلون، والمعروضية والعارضية، والجوهرية والعرضية، واللذة والنفرة، والكلال والملال، والذكاء والبلادة، والفهم والحماقة، والعقل والجهالة، والتصور والتوهم، والشك والارتياب، والتقدير والتقدر، والجذب والدفع، والهضم والمسك، والضعف والقوة، والشباب والهرم، والحياة والموت، والحشر والنشر، والحساب والكتاب، والثواب

والعقاب، وغير ذلك من صفات الممكنات المحدثات مما يطول بذكره الكلام ولا يسعه المقام، لو كان هذا المجموع هو القديم الذي ليس كمثله شيء وهو منزه ومقدس عن جميع هذه الصفات وأمثالها، فالمحدث ما هو، وأي شيء صفته، وهذا معنى قوله عليه السلام: (فبهتوا وعلموا أنهم لا يجدون للمحدث صفة يصفونه إلّا وهي موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم فوجموا ثم قالوا سننظر في أمورنا).

قال عليه السلام: (ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الثنوية الذين قالوا أن النور والظلمة هما المدبران، فقال: وأنتم فما الذي دعاكم إلى قولكم هذا؟.

قالوا: لأنا وجدنا العالم صنفين خيرًا وشرًا، ووجدنا الخير ضد الشر، فأنكرنا أن يكون الفاعل يفعل الشر وضده، بل لكل واحد منهما فاعل، ألا ترى أن الثلج محال أن يُسَخن كما أن النار محال أن يبرد، فأثبتنا لذلك صانعين قديمين ظلمة ونورا).

أقول: هؤلاء الثنوية كانوا من أصحاب الماني النقاش[1] لعنه الله، وكان في زمن الملك سابور بن أردشير[2]، وأحدث بين مذهب

---

(١) في حديث طويل عن إمامنا الصادق عليه السلام فَمَا قِصَّةُ مَانِي قَالَ: (مُتَفَحِّصٌ أَخَذَ بَعْضَ الْمَجُوسِيَّةِ فَشَابَهَا بِبَعْضِ النَّصْرَانِيَّةِ فَأَخْطَأَ الْمِلَّتَيْنِ وَلَمْ يُصِبْ مَذْهَبًا وَاحِدًا مِنْهُمَا وَزَعَمَ أَنَّ الْعَالَمَ دُبِّرَ مِنْ إِلَهَيْنِ نُورٍ وَظُلْمَةٍ وَأَنَّ النُّورَ فِي حِصَارٍ مِنَ الظُّلْمَةِ عَلَى مَا حَكَيْنَا مِنْهُ فَكَذَّبَتْهُ النَّصَارَى وَقَبِلَتْهُ الْمَجُوس) الإحتجاج على أهل اللجاج ج٢ ص٣٤٥ احتجاج أبي عبد الله الصادق عليه السلام في أنواع شتى من العلوم الدينية على أصناف كثيرة من أهل الملل والديانات.

(٢) وَ مَلَكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكَانَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَعَشَرَةَ أَشْهُرٍ وَفِي ثَمَانِيَ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ قَتَلَتِ الْيَهُودُ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليه السلام فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْبِضَهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ الْوَصِيَّةَ فِي وُلْدِ شَمْعُونَ وَيَأْمُرَ الْحَوَارِيِّينَ وَأَصْحَابَ عِيسَى بِالْقِيَامِ مَعَهُ=

المجوس دينًا ليس هو ذا ولا ذاك، وكان يقول بنبوة عيسى عليه السلام وينكر نبوة موسى عليه السلام، ويقول أن العالم مركب من أصلين قديمين النور والظلمة، وأن كل خير وحسن يكون في هذا العالم فهو من النور، وكل شر وقبح كان فيه فهو من الظلمة، ويقول إن السباع والمؤذيات كالعقارب والحيات خلقها الظلمة، ولا فائدة في وجودها والحكيم لا يفعل ما لا فائدة فيه.

والثنوية لما نظروا إلى العالم فوجدوه صنفين خيرًا وشرًا، وذلك لأن الله سبحانه ما خلق شيئًا إلّا وجعل له ضدًا فقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] وقال مولانا الرضا عليه السلام: (إن الله تعالى لم يخلق فردًا قائمًا بذاته للذي أراد من الدلالة عليه)[2] انتهى.

فخلق الوجود وهو النور وخلق منه كل خير، وجعل له ضدًا وهو الماهية التي يعبر عنها بالظلمة وخلق منها كل شر، والوجود خلق أولا وبالذات، والماهية خلقت ثانيًا وبالعرض لتكون دعامة للوجود، فالوجود نور وهو خير كله، والماهية ظلمة وهي شر كلها، وكان بناء مذهب الثنوية على أن الصانع يفعل بذاته ويؤثر بطبعه فتكون ذاته مبدأ للأشياء، ومعلوم أن الذات الواحدة على مذهبهم لا يصدر عنها الشيئان المتضادان، والطبيعة الواحدة لا تقتضي أفعالًا متخالفة، وهذا

=فَفَعَلَ ذَلِكَ وَعِنْدَهَا مَلَكَ سَابُورُ بْنُ أَرْدَشِيرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً حَتَّى قَتَلَهُ اللَّه) كمال الدين وتمام النعمة ج١ ص٢٢٥ باب اتصال الوصية من لدن آدم عليه السلام وأن الأرض لا تخلو من حجة لله عز وجل على خلقه إلى يوم القيامة.

(١) الذاريات ٤٤.

(٢) التوحيد ص٤٣٩ باب ذكر مجلس الرضا علي بن موسى عليه السلام مع أهل الأديان وأصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر وما كلم به عمران الصابي في التوحيد عند المأمون.

معنى قولهم: (ألا ترى أن الثلج محال أن يسخن، كما أن النار محال أن يبرد) فلما نظروا إلى العالم فوجدوها كذلك، وكان بناء مذهبهم على ما ذكرنا، قالوا ما قالوا وجعلوا للعالم صانِعَين قَديمَين ظلمةً ونورًا، فأبطل رسول الله ﷺ مذهبهم على مذاقهم وقلب دليلهم عليهم فقال ﷺ: (فلستم قد وجدتم سوادًا وبياضًا وحمرة وصفرة وخضرة وزرقة وكل واحد منهم يكون ضدًا لسائرها لاستحالة اجتماع اثنين منهما في محل واحد كما أن الحر والبرد ضدان لاستحالة اجتماع اثنين منهما في محل واحد.

قالوا: نعم.

قال فهل أثبتم بعدد كل لون صانعا قديما ليكون فاعل كل ضد من هذه الألوان غير فاعل للضد الآخر فسكتوا).

أقول: قد عرفت سابقا أن بناء مذهب الثنوية على أن الفاعل يفعل بذاته ويؤثر بطبعه، فعلى هذا قولهم (لأنا وجدنا العالم صنفين خيرا وشرا ووجدنا الخير ضد الشر فأنكرنا أن يكون الفاعل يفعل الشر وضده بل لكل واحد منهما فاعل...إلخ)، إنما يتم دليلًا لهم على مذهبهم إذا كان العالم شيئين متضادين، والوجدان يقضي بخلافه، لأن هنا أشياء متضادة كثيرة غير متناهية في الإمكان، فيجب أن يكون لكل ضد صانعًا فلا وجه لإثباتهم صانعين قديمين.

فإن قلت: إنك قد ذكرت مذهبهم وقلت إنهم يقولون إن كل خير وحسن فهو من النور وكل شر وقبح فهو من الظلمة، والعالم لا يخلو من هذين النوعين لأن الأشياء الطيبة كلها منسوبة إلى النور، والأشياء الخبيثة كلها منسوبة إلى الظلمة، فالأشياء المتضادة كالحمرة والصفرة

والخضرة مثلًا إذا كانت معروضاتها طيبة كالورد الأحمر والأصفر والورق الأخضر الطيب فهي مدرجة تحت الخير الصادر عن النور، وإذا كانت معروضاتها خبيثة كما إذا وجدت هذه الألوان في السباع والمؤذيات كالعقارب والحيات فهي مندرجة تحت الشر الصادر عن الظلمة، وهذا مرادهم حيث قالوا: (لأنا وجدنا العالم صنفين خيرًا وشرًا)، فلا يلزم أن يكون لكل فرد من أفراد الضد صانعًا، بل يجب أن يكون لجميع أجناس الخير وأنواعه وأصنافه وأفراده صانعًا واحدًا، ولجميع أجناس الشر وأنواعه وأصنافه وأفراده صانعًا آخر، فيرجع الأمر كله إلى صانعين قديمين النور والظلمة كما قالوا.

أقول: قولك هذا إنما يتم في الجملة إذا كان الفاعل يفعل بفعله لا بذاته، ويؤثر الصانع بإحداثه وإيجاده لا بطبعه، وهذا خلاف ما عرفت من مذهبهم، ولهذا قالوا إن العالم مركب من أصلين قديمين، وقالوا ألا ترى أن الثلج محال أن يسخن كما أن النار محال أن يبرد، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله: (وكيف اختلط هذا النور وهذه الظلمة وهذا من طبعه الصعود وهذا من طبعه النزول).

وقولي إنما يتم في الجملة، أريد به أن تسليمنا لقولك من رجوع الأمر إلى صانعين في خلق الأضداد في صورة كون الصانع فاعلا بفعله لا بذاته وطبعه، إنما هو في معرض المجادلة مع الخصم بناء على مذهبه، لا أن في الحقيقة يرجع الأمر إليهما، لأن الصانع الحق جل وعلا كما أنه واحد في ذاته، واحد في صفاته وأفعاله، ففعله وصنعه واحد، خلق الأشياء كلها وأضدادها بصنع واحد وفعل واحد لا تعدد فيه، وإن كان لفعله في تعلقه بالأشياء رؤوس ووجوه بعدد

الخلائق قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[١] ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾[٣].

ألا ترى إلى الشمس وهي مظهر من مظاهر قدرته، وظاهر وجه من وجوه فعله ومشيئته، كيف يدبر الأشياء ويرتبها ويؤثر فيها بإشراق واحد له رؤوس ووجوه بعدد جميع متعلقاته من المعادن والنباتات والحيوانات وغيرها، فيتجنس الأجناس، ويتنوع الأنواع، ويتعين الأصناف، ويتشخص الأفراد، ويتلون الألوان المختلفة، ويظهر الأشكال المتفاوتة، منها بإشراقها الواحد، فهو سبحانه لا يحتاج في خلق الأشياء إلى تعدد فعل، أو تردد فكر أو تجدد ذكر، أو معاونة وزير، أو مشاورة مشير، وأنت إذا أردت أن تعرف معبودك سبحانه وصفة صنعه وفعله فانظر بعين الارتضاء إلى خطبة مولانا الرضا عليه ألف ألف تحية وثناء التي خطبها بمحضر المأمون وجماعة من بني هاشم، فإنك إن عرفتها لا تحتاج بعد إلى كلام وبيان وتفسير وتعبير.

فاعلم أن الشيخ الصدوق محمد بن بابويه رحمة الله عليه في كتاب عيون الرضا عليه السلام وكتاب توحيده، والشيخ الطوسي قدس الله روحه في الأمالي، والشيخ أحمد بن أبي طالب الطبرسي طاب ثراه في كتاب الاحتجاج، وغيرهم من العلماء رضوان الله عليهم رووا بالأسانيد المعتبرة عن محمد بن يحيى العلوي وقاسم ابن الأيوب العلوي: (أَن الْمَأْمُونَ لَما أَرَادَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ الرضَا عليه السلام عَلَى هَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ بَنِي هَاشِمٍ فَقَالَ إِني أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الرضَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي

---

(١) الرحمن ٥٠.

(٢) النحل ٧٧.

(٣) لقمان ٢٨.

فَحَسَدَهُ بَنُو هَاشِمٍ وَقَالُوا أَتُوَلي رَجُلًا جَاهِلًا لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ بِتَدْبِيرِ الْخِلَافَةِ فَابْعَثْ إِلَيْهِ رَجُلًا يَأْتِنَا فَتَرَى مِنْ جَهْلِهِ مَا يُسْتَدَل بِهِ عَلَيْهِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ بَنُو هَاشِمٍ يَا أَبَا الْحَسَنِ اصْعَدِ الْمِنْبَرَ وَانْصِبْ لَنَا عَلَمًا نَعْبُدُ اللهَ عَلَيْهِ فَصَعِدَ عليه السلام الْمِنْبَرَ فَقَعَدَ مَلِيًا لَا يَتَكَلمُ مُطْرِقًا ثُم انْتَفَضَ انْتِفَاضَةً وَاسْتَوَى قَائِمًا وَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلى عَلَى نَبِيهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ ثُم قَالَ أَولُ عِبَادَةِ اللهِ مَعْرِفَتُهُ وَأَصْلُ مَعْرِفَةِ اللهِ تَوْحِيدُهُ وَنِظَامُ تَوْحِيدِ اللهِ نَفْيُ الصفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَن كُل صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوقٌ وَشَهَادَةِ كُل مَخْلُوقٍ أَن لَهُ خَالِقًا لَيْسَ بِصِفَةٍ وَلَا مَوْصُوفٍ وَشَهَادَةِ كُل صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالاقْتِرَانِ وَشَهَادَةِ الِاقْتِرَانِ بِالْحَدَثِ وَشَهَادَةِ الْحَدَثِ بِالامْتِنَاعِ مِنَ الْأَزَلِ الْمُمْتَنِعِ مِنَ الْحَدَثِ فَلَيْسَ اللهَ عَرَفَ مَنْ عَرَفَ بِالتشْبِيهِ ذَاتَهُ وَلَا إِيَاهُ وَحدَ مَنِ اكْتَنَهَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثلَهُ وَلَا بِهِ صَدقَ مَنْ نَهاهُ وَلَا صَمَدَ صَمْدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَلَا إِيَاهُ عَنَى مَنْ شَبهَهُ وَلَا لَهُ تَذَلَلَ مَنْ بَعضَهُ وَلَا إِيَاهُ أَرَادَ مَنْ تَوَهمَهُ كُل مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَكُل قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ ـ بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَل عَلَيْهِ وَبِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ وَبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجتُهُ خَلق اللهِ الْخَلْقَ حِجَابٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَمُبَايَنَتُهُ إِيَاهُمْ مُفَارَقَتُهُ إِنيتَهُمْ وَابْتِدَاؤُهُ إِيَاهُمْ دَلِيلُهُمْ عَلَى أَنْ لَا ابْتِدَاءَ لَهُ لِعَجْزِ كُل مُبْتَدَأٍ عَنِ ابْتِدَاءِ غَيْرِهِ وَأَدْوُهُ إِيَاهُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا أَدَاةَ فِيهِ لِشَهَادَةِ الْأَدَوَاتِ بِفَاقَةِ الْمُتَأَدِينَ وَأَسْمَاؤُهُ تَعْبِيرٌ وَأَفْعَالُهُ تَفْهِيمٌ وَذَاتُهُ حَقِيقَةٌ وَكُنْهُهُ تَفْرِيقٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَغُيورُهُ تَحْدِيدٌ لِمَا سِوَاهُ فَقَدْ جَهِلَ اللهَ مَنِ اسْتَوْصَفَهُ وَقَدْ تَعَداهُ مَنِ اشْتَمَلَهُ وَقَدْ أَخْطَأَهُ مَنِ اكْتَنَهَهُ وَمَنْ قَالَ كَيْفَ فَقَدْ شَبهَهُ وَمَنْ قَالَ لِمَ فَقَدْ عَللَهُ وَمَنْ قَالَ مَتَى فَقَدْ وَقتَهُ ـ وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمنَهُ وَمَنْ قَالَ إِلَامَ فَقَدْ نَهاهُ وَمَنْ قَالَ حَتامَ فَقَدْ غَياهُ وَمَنْ غَياهُ فَقَدْ غَايَاهُ وَمَنْ غَايَاهُ فَقَدْ جَزأَهُ وَمَنْ جَزأَهُ فَقَدْ

وَصَفَهُ وَمَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِيهِ لَا يَتَغَيرُ اللهُ بِانْغِيَارِ الْمَخْلُوقِ كَمَا لَا يَتَحَددُ بِتَحْدِيدِ الْمَحْدُودِ أَحَدٌ لَا بِتَأْوِيلِ عَدَدٍ ظَاهِرٌ لَا بِتَأْوِيلِ الْمُبَاشَرَةِ مُتَجَل لَا بِاسْتِهْلَالِ رُؤْيَةٍ بَاطِنٌ لَا بِمُزَايَلَةٍ مُبَايِنٌ لَا بِمَسَافَةٍ قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَاةٍ لَطِيفٌ لَا بِتَجَسمٍ مَوْجُودٌ لَا بَعْدَ عَدَمٍ فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ مُقَدرٌ لَا بِحَوْلِ فِكْرَةٍ مُدَبرٌ لَا بِحَرَكَةٍ مُرِيدٌ لَا بِهَمَامَةٍ شَاءٍ لَا بِهِمةٍ مُدْرِكٌ لَا بِمِجَسةٍ سَمِيعٌ لَا بِآلَةٍ بَصِيرٌ لَا بِأَدَاةٍ لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَضَمنُهُ الْأَمَاكِنُ وَلَا تَأْخُذُهُ السنَاتُ وَلَا تَحُدهُ الصفَاتُ وَلَا تُقَيدُهُ الْأَدَوَاتُ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وَبِتَجْهِيرِهِ الْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ وَبِمُضَادتِهِ بَيْنَ الْأشياء عُرِفَ أَنْ لَا ضِد لَهُ وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ضَاد النورَ بِالظلْمَةِ وَالْجَلَايَةَ بِالْبُهَمِ وَالْجَسْوَ بِالْبَلَلِ وَالصرْدَ بِالْحَرُورِ مُؤَلفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُفَرقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا دَالةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِقِهَا وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلفِهَا ذَلِكَ قَوْلُهُ عز وَجل وَمِنْ كُل شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلكُمْ تَذَكرُونَ فَفَرقَ بِهَا بَيْنَ قَبْلٍ وَبَعْدٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ شَاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغَرزِهَا دَالةً بِتَفَاوُتِهَا أَنْ لَا تَفَاوُتَ لِمُفَاوِتِهَا مُخْبِرَةً بِتَوْقِيتِهَا أَنْ لَا وَقْتَ لِمُوَقتِهَا حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُهَا لَهُ مَعْنَى الربُوبِيةِ إِذْ لَا مَرْبُوبَ وَحَقِيقَةُ الْإِلَهِيةِ إِذْ لَا مَأْلُوهَ وَمَعْنَى الْعَالِمِ وَلَا مَعْلُومَ وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ وَتَأْوِيلُ السمْعِ وَلَا مَسْمُوعَ لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ اسْتَحَق مَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرَايَا اسْتَفَادَ مَعْنَى الْبَارِئِيةِ كَيْفَ وَلَا تُغَيبُهُ مُذْ وَلَا تُدْنِيهِ قَدْ وَلَا تَحْجُبُهُ لَعَل وَلَا تُوَقتُهُ مَتَى وَلَا تَشْمَلُهُ حِينٌ وَلَا تُقَارِنُهُ مَعَ إِنمَا تَحُد الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَتُشِيرُ الْآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا وَفِي الْأشياء يُوجَدُ فِعَالُهَا مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَةَ وَحَمَتْهَا قَدِ الْأَزَلِيةَ وَجَنبَتْهَا لَوْ

لَا التكْمِلَةَ افْتَرَقَتْ فَدَلتْ عَلَى مُفَرِقِهَا وَتَبَايَنَتْ فَأَعْرَبَتْ عَنْ مُبَايِنِهَا لَما تَجَلى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَبِهَا احْتَجَبَ عَنِ الرؤْيَةِ وَإِلَيْهَا تَحَاكَمَ الْأَوْهَامُ وَفِيهَا أُثْبِتَ غَيْرُهُ وَمِنْهَا أُنِيطَ الدلِيلُ وَبِهَا عَرفَهَا الْإِقْرَارُ وَبِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ التصْدِيقُ بِاللهِ وَبِالْإِقْرَارِ يَكْمُلُ الْإِيمَانُ بِهِ وَلَا دِيَانَةَ إِلا بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وَلَا مَعْرِفَةَ إِلا بِالْإِخْلَاصِ وَلَا إِخْلَاصَ مَعَ التشْبِيهِ وَلَا نَفْيَ مَعَ إِثْبَاتِ الصفَاتِ لِلتشْبِيهِ(١) فَكُل مَا فِي الْخَلْقِ لَا يُوجَدُ فِي خَالِقِهِ وَكُل مَا يُمْكِنُ فِيهِ يَمْتَنِعُ مِنْ صَانِعِهِ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسكُونُ وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ أَوْ يَعُودُ إِلَيْهِ مَا هُوَ ابْتَدَأَهُ إِذًا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَلَتَجَزأَ كُنْهُهُ وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ وَلَمَا كَانَ لِلْبَارِئِ مَعْنًى غَيْرُ الْمَبْرُوءِ وَلَوْ حُد لَهُ وَرَاءٌ إِذًا حُد لَهُ أَمَامٌ وَلَوِ الْتُمِسَ لَهُ التمَامُ إِذًا لَزِمَهُ النقْصَانُ كَيْفَ يَسْتَحِق الْأَزَلَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ وَكَيْفَ يُنْشِئُ الْأشياء مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الإِنْشَاءِ إِذًا لَقَامَتْ فِيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ وَلَتَحَولَ دَلِيلًا بَعْدَ مَا كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ لَيْسَ فِي مُحَالِ الْقَوْلِ حُجةٌ وَلَا فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوَابٌ وَلَا فِي مَعْنَاهُ لَهُ تَعْظِيمٌ وَلَا فِي إِبَانَتِهِ عَنِ الْخَلْقِ ضَيْمٌ إِلا بِامْتِنَاعِ الْأَزَلِي أَنْ يُثَنى وَمَا لَا بَدْأَ لَهُ أَنْ يُبْدَأَ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ الْعَلِي الْعَظِيمُ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللهِ وَضَلوا ضَلالًا بَعِيدًا وَخَسِرُوا خُسْرانًا مُبِينًا وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمدٍ النبِي وَآلِهِ الطيبِينَ الطاهِرِينَ)(٢) انتهى.

وباقي كلامه صلى الله عليه وآله مع مشركي العرب ظاهر ونحن لا نحتاج إلى زيادة بيان.

وأما قوله صلى الله عليه وآله لأصحابه: (قولوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبد واحدا لا

---

(١) وفي بعض النسخ للتنبيه (منه رحمه الله).

(٢) التوحيد ص٤٠ باب التوحيد ونفي التشبيه. عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١ ص١٥٣ خطبة الرضا عليه السلام في التوحيد.

نقول كما قالت الدهرية)، إشارة إلى أن قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متضمن لنفي كل معبود سوى الله سبحانه، لأنك أتيت بكاف الخطاب الدال على أن المخاطب الحاضر المشاهد، وأفردت الخطاب الدال على أن المخاطب واحد، وقد قدمت ما هو حقه التأخير، وهذا يدل على أنك لا تقصد بعبادتك إلّا هو سبحانه، فالأول يفيد أن معبودك حاضر موجود في كل مكان بل هو أقرب إليك منك، بل هو موجود في غيبتك وحضرتك، ففي الدعاء: (أُنَاجِيكَ يَا مَوْجُودُ فِي كُل مَكَانٍ لَعَلكَ تَسْمَعُ نِدَائِي فَقَدْ عَظُمَ جُرْمِي وَقَل حَيَائِي)[1]، وقال مولانا سيد الشهداء عليه السلام: (أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُل عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتى تَكُونَ الْآثَارُ [الإشارة] هِيَ التِي تُوصِلُ إِلَيْكَ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبا)[2]، وقال تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] قال مولانا الصادق عليه السلام: (أي موجود في غيبتك وحضرتك) وهذه تدل على أنه تعالى هو المعبود ليس في الوجود معبود سواه، وأن من عبد غيره فقد عبده وإن لم يرضَ بعبادته.

والثاني: يفيد أن المخاطب المعبود واحد لا اثنان كما قالت اليهود عزير ابن الله، وكما قالت النصارى المسيح ابن الله، وكما قالت الثنوية أن النور والظلمة هما المدبران، وإلا لوجب أن تقول

---

(١) المصباح للكفعمي ص٥٤.

(٢) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

(٣) ق ١٦.

(٤) فصلت ٥٣.

إياكما نعبد، وأما ما ذهب إليه بعض النصارى من الاتحاد فباطل لأن صيرورة اثنين أي القديم والحادث شيئاً واحدًا محال، ولا ثلاثة كما قال بعض آخر من النصارى قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾(١)، ولا فوق الثلاثة كما قالت الدهرية ومشركوا العرب وغيرهم ممن يقولون بِقِدم الأشياء ويعبدونها من دون الله أو مع الله، وإلا لوجب أن تقول إياكم نعبد أو نَعبُدكم فافهم.

وإلى جميع ما ذكر أشار بقوله ﷺ لأصحابه: (قولوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبد واحدا... إلى آخره).

والثالث: يفيد أنك تعبده سبحانه وحده ولا تشرك بعبادته أحدًا قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢) والشرك في العبادة على قسمين، فشرك جلي وشرك خفي، والأول يتحقق في المقامين في الظاهر وفي الباطن.

والمراد بالشرك الجلي في الظاهر عبادة الأصنام الظاهرة قال تعالى حكاية عن نبيه يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم على نبينا وآله وعليهم السلام ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) وعبادة بعض من أكرمه من بين عباده كعزير وعيسى بن مريم عليه السلام قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾(٤) ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ

---

(١) النساء ١٧١.

(٢) الكهف ١١٠.

(٣) يوسف ٣٩ ـ ٤٠.

(٤) الأنبياء ٢٦ ـ ٢٧.

مُشْفِقُونَ﴾[١] وقال ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[٣].

والمراد بالشرك الجلي في الباطن الشرك في الولاية، وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فقال: (العمل الصالح المعرفة بالأئمة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ التسليم لعلي عليه السلام لا يشرك معه في الخلافة من ليس ذلك له ولا هو من أهله)[٤].

والقمي عنه عليه السلام: (ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا قال: لا يتخذ مع ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله غيرهم وولايتهم العمل الصالح من أشرك بعبادة ربه فقد أشرك بولايتنا وكفر بها وجحد أمير المؤمنين حقه وولايته)[٥].

وقال عليه السلام في حديث: (هيهات هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنوا أنهم آمنوا وأشركوا من حيث لا يعلمون إنه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردى وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله)[٦] الحديث، وهذا الشرك أي الشرك الجلي ظاهرًا وباطنًا ليس بمغفور، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٧].

---

(١) الأنبياء ٢٨.
(٢) لأنبياء ٢٩.
(٣) النساء ١٧٢.
(٤) تفسير العياشي ج٢ ص٣٥٣ ١٠١.
(٥) تفسير القمي ج٢ ص٤٧.
(٦) الكافي ج١ ص١٨٢ باب معرفة الإمام والرد إليه.
(٧) النساء ٤٨.

وأما الشرك الخفي فهو يظهر في وجوه كثيرة، فعن مولانا الباقر عليه السلام سئل رسول الله صلى الله عليهم وآله عن تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[1] الآية، فقال صلى الله عليه وآله: (من صلى مراءاة الناس فهو مشرك، ومن زكى مراءاة الناس فهو مشرك، ومن صام مراءاة الناس فهو مشرك، ومن حج مراءاة الناس فهو مشرك، ومن عمل عملًا مما أمره الله عز وجل مراءاة الناس فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل مرائي)[2].

وفي الكافي عنه عليه السلام في هذه الآية: (الرجُلُ يَعْمَلُ شَيْئًا مِنَ الثوَابِ لَا يَطْلُبُ بِهِ وَجْهَ اللهِ إنمَا يَطْلُبُ تَزْكِيَةَ الناسِ ـ ويَشْتَهِي أَنْ يُسْمِعَ بِهِ الناسَ فَهَذَا الذِي أَشْرَكَ بِعِبَادَةِ رَبهِ، ثُم قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ أَسَر خَيْرًا فَذَهَبَتِ الْأَيامُ أَبَدًا حَتى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ خَيْرًا، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُسِر شَرًا فَذَهَبَتِ الْأَيامُ حَتى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ شَرًا)[3].

وعنه عليه السلام أنه سئل عَنِ الرجُلِ يَعْمَلُ الشيْءَ مِنَ الْخَيْرِ فَيَرَاهُ إِنْسَانٌ فَيَسُرهُ ذَلِكَ فَقَالَ: (لَا بَأْسَ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلا وَهُوَ يُحِب أَنْ يَظْهَرَ لَهُ فِي الناسِ الْخَيْرُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَنَعَ ذَلِكَ لِذَلِكَ)[4].

وعن مولانا الرضا عليه السلام أنه كان يتوضأ للصلاة فأراد رجل أن يصب الماء على يديه فأبى وقرأ هذه الآية وقال: (وها أنا ذا أتوضأ للصلاة وهي العبادة فأكره أن يشركني فيها أحدٌ)[5].

---

(١) الكهف ١١٠.

(٢) تفسير القمي ج٢ ص٤٧.

(٣) الكافي ج٢ ص٢٩٤ باب الرياء.

(٤) الكافي ج٢ ص٢٩٧ باب الرياء.

(٥) الكافي ج٣ ص٦٩ باب النوادر. تهذيب الأحكام ج١ ص٣٦٥ باب صفة الوضوء والفرض منه.

وفي المجمع عَنِ النبي ﷺ : (قَالَ اللهُ عَز وَجَل أَنَا أَغْنَى الشرَكَاءِ عَنِ الشرْكِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ فَهُوَ لِلذِي أَشْرَكَ)[١].

والعياشي عن الصادق عليه السلام قال: (إن الله يقول أنا خير شريك، من عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له)[٢].

وعنهما عليهما السلام: (لو أن عبدًا عمل عملًا يطلب به رحمة الله والدار الآخرة، ثم أدخل فيه رضى أحد من الناس، كان مشركًا)[٣].

والعياشي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه سئل عن تفسير قوله تعالى: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبهِ» الآية فقال: (من صلى أو صام أو أعتق أو حج يريد به محمدة الناس، فقد أشرك في عمله وهو مشرك مغفور)[٤].

أقول: يعني أنه ليس من الشرك الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأن ذلك الشرك لظلم عظيم لا ينبغي غفرانه.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام والقمي والعياشي عن الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ قَالَ: (شِرْكُ طَاعَةٍ وَلَيْسَ شِرْكَ عِبَادَةٍ) وزاد القمي والعياشي (وَالْمَعَاصِي التِي يَرْتَكِبُونَ فهي شِرْكُ طَاعَةٍ أَطَاعُوا فِيهَا الشيْطَانَ فَأَشْرَكُوا بِاللهِ فِي الطاعَةِ لِغَيْرِهِ وَلَيْسَ بِإِشْرَاكِ عِبَادَةٍ أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ الله)[٥].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج٦ ص٧٧٠.
(٢) تفسير العياشي ج٢ ص٣٥٣.
(٣) تفسير العياشي ج٢ ص٣٥٣.
(٤) تفسير العياشي ج٢ ص٣٥٢.
(٥) تفسير القمي ج١ ص٣٥٨.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: (يُطِيعُ الشيْطَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ)[١].

وفي التوحيد عنه عليه السلام: (الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضَعُونَهَا غَيْرَ مَوَاضِعِهَا)[٢].

أقول: هذا التفسير إشارة إلى الشرك الجلي في الباطن، وهو الشرك في الولاية.

والعياشي عنه عليه السلام هو الرجل يقول: (لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل لله شريكًا في ملكه يرزقه ويدفع عنه.

قال: قلت: فيقول: لولا أن الله مَن عليَّ بفلان لهلكت.

قال: نعم لا بأس بهذا)[٣].

وعن الباقر عليه السلام: (من ذلك قول الرجل: لا وحياتك)[٤].

وعنهما عليهما السلام: (هو شرك النعم)، وعن الرضا عليه السلام: (شرك لا يبلغ به الكفر)[٥].

أقول: فكل من نظر إلى سبب من الأسباب من حيث نفسه، أو اعتمد على شيء من الأشياء، أو عظم أحدًا من الناس أو شيئًا من خلق الله حيث ما أمر الله بتعظيمه، أو رأى لغير الله تعالى شيئية حقيقة

---

(١) الكافي ج٢ ص٣٩٧.
(٢) التوحيد ص٣٢٤.
(٣) تفسير العياشي ج٢ ص٢٠٠.
(٤) تفسير العياشي ج٢ ص١٩٩.
(٥) تفسير الصافي ج٣ ص٥٣.

فهو داخل تحت هذه الآية قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[١]، وقال عز وجل: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾[٢]، وقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[٣]، بل قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾[٤]، وقال مولانا سيد الشهداء: (إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَأَرْجِعْنِي [منها] إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الِاسْتِبْصَارِ حَتى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ [عليك] إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السر عَنِ النظَرِ إِلَيْهَا وَمَرْفُوعَ الْهِمةِ عَنِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا إِنكَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِير)[٥].

وفي الدعاء المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (اللهُم صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي وَأُفْتَتَنَ بِذَم مَنْ مَنَعَنِي وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلهِ وَلِي الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ إِنكَ عَلى كُل شَيْءٍ قَدِير)[٦].

[بحث في النية وأحوالها]

ثم اعلم أن العبادة هي فعل ما يرضى به المعبود، كما أن العبودية هي الرضا بما يفعل، والعبادة لا تتحقق إلّا بالنية الصحيحة الصادقة، وهي لا تصدر إلّا عن قلب سليم من محبة الدنيا وما فيها، لأن سلامة القلب منها تخلص النية لله تعالى في الأمور كلها، ولا تحصل ذلك

---

(١) الأنعام ٩١.
(٢) الكهف ١٨.
(٣) الكهف ١٨
(٤) الأنفال ١٧.
(٥) دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة.
(٦) نهج البلاغة (للصبحي صالح) ص٣٤٧.

إلّا بتصديق قوله تعالى ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]، والنية أصل العمل وروحه، بل هي العمل، بل هي أفضل من العمل، لأنها تقوم مقام العمل الدائم الأبدي على أحسن وجه وأكمله، الذي لا يمكن للعبد أن يقوم به، قال النبي صلى الله عليه وآله: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[٢]، وإنما قال ذلك حين قال بعض الصحابة إن بعض المهاجرين إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلّا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا، أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين صلى الله عليه وآله أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه كائنا ما كان، دنيويًا أو أخرويًا، وهذا الخبر مما يعده أصحاب الحديث من المتواترات، وهو أول ما يعلمونه أولادهم، ويقولون أنه نصف العلم.

وعن الصادق عليه السلام فِي قَوْلِ اللهِ عَز وَجَل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قَالَ: «لَيْسَ يَعْنِي أَكْثَرَكُمْ عَمَلًا، وَلكِنْ أَصْوَبَكُمْ عَمَلًا، وَإِنمَا الْإِصَابَةُ خَشْيَةُ اللهِ تعالى وَالنيةُ الصادِقَةُ.

ثُم قَالَ: «الْإِبْقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ حَتى يَخْلُصَ أَشَد مِنَ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ الْخَالِصُ الذِي لَا تُرِيدُ أَنْ يَحْمَدَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلا اللهُ عَز وَجَل، وَالنيةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، أَلَا وَإِن النيةَ هِيَ الْعَمَلُ»، ثُم تَلَا قَوْلَهُ عَز وَجَل: «قُلْ كُل يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ»: «يَعْنِي عَلى نِيتِهِ»[٣].

---

(١) الشعراء ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) دعائم الإسلام ج١ ص٤ ذكر الإيمان. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف ج٢ ص٤٦٧.

(٣) الكافي ج٣ ص٤٥.

وفي الكافي عنه عليه السلام: (إِنمَا خُلدَ أَهْلُ النارِ فِي النارِ لِأَن نِياتِهِمْ كَانَتْ فِي الدنْيَا أَنْ لَوْ خُلدُوا فِيهَا أَنْ يَعْصُوا اللهَ أَبَدًا، وَإِنمَا خُلدَ أَهْلُ الْجَنةِ فِي الْجَنةِ لِأَن نِياتِهِمْ كَانَتْ فِي الدنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيهَا أَنْ يُطِيعُوا اللهَ أَبَدًا، فَبِالنياتِ خُلدَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، ثُم تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى ـ قُلْ كُل يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ قَالَ عَلَى نِيتِهِ)[1].

أقول: هذا ما أشرنا إليه سابقًا أن النية هي أفضل من العمل لأنها تقوم مقام العمل الدائم الأبدي، وهذا المعنى أحسن وجه من الوجوه التي ذكرت في قوله صلى الله عليه وآله: (نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، وكل عامل يعمل على نيته)[2]، وأقرب إلى هذا الوجه حسنًا أن المؤمن يحب أن يكون داخلًا في كل خير وصادرًا عنه كل بر، ويتمنى أن يكون حاضرًا عند كل مجلس ومشهد يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ولا يمكنه ذلك، فإذا علم الله عز وجل ذلك منه بصدق نيته كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو كان داخلًا فيه وصادرًا عنه كل بر وحاضرًا عندهما.

ففي الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إِن الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ لَيَقُولُ يَا رَب ارْزُقْنِي حَتى أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِر وَوُجُوهِ الْخَيْرِ فَإِذَا عَلِمَ اللهُ عَز وَجَل ذَلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ إِن اللهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ)[3].

وقال النبي صلى الله عليه وآله لما خرج في غزوة تبوك: (إن في المدينة قومًا ما

---

(١) الكافي ج٢ ص٨٥.
(٢) الكافي ج٢ ص٨٤ باب النية.
(٣) الكافي ج٢ ص٨٥.

قطعنا واديًا، ولا وطأنا موطئًا تغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلّا شاركونا في ذلك وهم في المدينة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا، فقال ﷺ: حبسهم العذر فشاركونا بحسن النية)[1].

وفي نهج البلاغة ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله تعالى بأصحاب الجمل وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ وَدِدْتُ أَنَ أَخِي فُلَانًا كَانَ شَاهِدَنَا لِيَرَى مَا نَصَرَكَ اللهُ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ فَقَالَ عليه السلام: (أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟.

فَقَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عليه السلام: فَقَدْ شَهِدَنَا وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرجَالِ وَأَرْحَامِ النسَاءِ سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَان)[2].

أقول: قوله عليه السلام: (سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزمَانُ) أي سيعجل بهم ويظهرهم.

ثم أقرب إلى ذلك الوجه أن المؤمن يحب وينوي أن تقع عبادته على أحسن الوجوه لأن إيمانه يقتضي ذلك، ثم إذا كان يشتغل بها لا

---

(١) في إعلام الورى بأعلام الهدى وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: (أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا جَبَلُ أُحُدٍ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.
وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ نَعَمْ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ) إعلام الورى بأعلام الهدى ج١ ص٢٤٧ فصل في مكر بعض أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) به.

(٢) نهج البلاغة ص٥٥.

يتيسر له ذلك ولا يتأتى كما يريد، ولا يأتي بها كما ينبغي لكرم وجهه تعالى وعز جلاله، فالذي ينوي دائمًا خير من الذي يعمل به في كل عبادة، وأيضًا أنه ينوي خيرات كثيرة لا يساعده الوقت على عملها، وربما يحول بينه وبين ما أراد الموت، فيكون الثواب المترتب على نياته أكثر من الثواب المترتبت على أعماله، وإلى هذا أشار مولانا الباقر عليه السلام حيث كان يقول: (نية المؤمن خير من عمله، وذلك لأنه ينوي في الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شر من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه)[1].

وعن مولانا الصادق عليه السلام أنه قيل له: سَمِعْتُكَ تَقُولُ نِيةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ فَكَيْفَ تَكُونُ النيةُ خَيْرًا مِنَ الْعَمَلِ.

قَالَ: (لِأَن الْعَمَلَ رُبمَا كَانَ رِيَاءً لِلْمَخْلُوقِينَ وَالنيةُ خَالِصَةٌ لِرَب الْعَالَمِينَ فَيُعْطِي تَعَالَى عَلَى النيةِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَمَلِ.

ثم قَالَ: إِن الْعَبْدَ لَيَنْوِي مِنْ نَهَارِهِ أَنْ يُصَليَ بِالليْلِ فَتَغْلِبُهُ عَيْنُهُ فَيَنَامُ فَيُثْبِتُ اللهُ لَهُ صَلَاتَهُ وَيَكْتُبُ نَفَسَهُ تَسْبِيحًا وَيَجْعَلُ نَوْمَهُ عَلَيْهِ صَدَقَةً)[2].

أقول: قوله عليه السلام: (لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين....إلخ)، يعني أن العمل أمر ظاهري لا يكون إلّا بمحضر المخلوقين، بخلاف النية فإنها أمر باطني وعبادة قلبية لا يطلع عليها إلّا رب العالمين فهي خالصة له، فيعطي عليها ما لا يعطي على العمل البدني الظاهري، ولا يريد عليه السلام أن العمل الذي لا يكون إلّا رياء للمخلوقين كانت نيته

---

(١) علل الشرائع ج٢ ص٥٢٤ باب العلة التي من أجلها صارت نية المؤمن خيرا من عمله.

(٢) علل الشرائع ج٢ ص٥٢٤.

خيرًا من ذلك العمل، لأن عمل المرائي باطل ولا يكون إلّا بنية فاسدة غير خالصة لله، وقد تقدم من قوله ﷺ: (من صلى مراءاة الناس فهو مشرك) إلى أن قال: (ومن عمل عملًا مما أمر الله مراءاة الناس فهو مشرك) فكيف تكون خالصة لرب العالمين ويعطي عليها من الأجر ما لا يعطي على العمل.

وعنه عليه السلام أنه سئل عَنْ حَد الْعِبَادَةِ التِي إِذَا فَعَلَهَا فَاعِلُهَا كَانَ مُؤَدِيًا فَقَالَ: (حُسْنُ النيةِ بِالطاعَةِ)[1].

يعني أن يكون له في طاعته نية حسنة، فإن تيسر له الإتيان بما وافق نيته وإلا فقد أدى ما عليه من العبادة بحسن نيته.

اعلم أن العلماء اختلفوا في باب النية ومعناها، فقيل أن من عبد الله سبحانه طمعًا في الجنة أو خوفًا من النار أو طلبًا لمنفعة ترجع إليه في الدنيا وفي الآخرة أو لدفع ضرر عن نفسه فيهما فعبادته باطلة، لأن شرط صحة العبادة الإخلاص في النية الذي هو إرادة وجه الله وحده والتقرب إليه، فمن قصد بعبادته تحصيل الثواب أو الخلاص من العقاب، أو منفعة الدنيا أو الآخرة، أو دفع ضرر فيهما فإنما قصد جلب النفع إلى نفسه بعبادته، أو دفع الضرر عنها، لا وجه الله والتقرب إليه سبحانه، وقد قال عز وجل حكاية عن بعض عباده المخلصين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[2] وقال مولانا أمير المؤمنين وسيد الموحدين: (إلهي ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك، لكن وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك).

---

(١) الكافي ج٢ ص٨٥.

(٢) الإنسان ٩.

وقيل إن إرادة الجنة أو الخلاص من النار، أو طلب المنفعة من الله سبحانه، أو دفع الضرر في الدنيا والآخرة بعبادته لا تنافي صحة العبادة، وإلا لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثًا، وتكون العبادات المطلوبة في باب تحصيل منافع الدنيا والآخرة، أو دفع المضار فيهما كصلاة الحاجات مثلًا باطلة، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾[1] وقال: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾[2] وقال تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾[3]، وليس معنى الإخلاص في العبادة إلّا أن لا تكون النية فيها مشوبة بشوائب الأغراض النفسانية، كمدح الناس والخلاص من النفقة بعتق العبد ونحو ذلك، وكيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المحتاج إلى ربه الغني، الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا أن يستغني عن جلب النفع من مولاه وسيده الجليل لنفسه، أو دفع الضرر عنها، ومن أمعن حق الإمعان فلا يجد أكثر القائلين ببطلان العبادة في صورة إرادة ما ذكر إلّا ونياتهم الصحيحة ترجع إليها وهم لا يشعرون، وربما يظهر من بعضهم التفصيل بأن درجات الناس في معرفة الله سبحانه وعبادته متفاوتة، فمن عرف معبوده سبحانه بما وصف به نفسه من جماله وجلاله وكريم فعاله واتصال تدبيره وكمال تقديره وإتقان صنعه وحسن صنيعته، وعموم رحمته لجميع خلقه وخصوصها لعباده المؤمنين، وأحبه واشتاق إليه وأخلص عبادته له سبحانه لكونه أهلًا للعبادة، ومستحقًا للطاعة والمحبة، أحبه الله واستخلصه لنفسه، واجتباه وقربه

---

(١) الأعراف ٥٦.

(٢) الأنبياء ٩٠.

(٣) الصافات ٦١.

إليه وارتضاه، وهو الذي يقول: (إلهي ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك، لكن وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك).

ومن لم يعرف من الله سوى كونه إلهًا صانعًا للعالم قادرًا قاهرًا عالمًا سميعًا لمن حمده، بصيرًا بمن عبده، وأن له جنة وعدها للمتقين وسينعمهم فيها، ونارًا أوعدها للعاصين وسيعذبهم بها، فعبده ليفوز بجنته ودار كرامته إذا غلب عليه الرجاء، أو يكون له النجاة من ناره ودار غضبه إذا غلب عليه الخوف، أدخله الله تعالى بعبادته وطاعته الجنة، وأنجاه من النار لا محالة، وفاء بعهده وإنجازًا لوعده، وتصديقًا لرسله وكتبه.

أقول: لا شك في تفاوت درجات الناس في معرفة الله وعبادته تفاوتًا لا يتناهى في الإمكان، إلّا أن مرجعهم في العبادة إلى ثلاث مقامات.

فبعض الناس في مقام الخوف، وبعضهم في مقام الرجاء، وبعضهم في مقام المحبة، وإلى هذه أشار مولانا الصادق عليه السلام بقوله: (الْعُباد ثَلَاثَةٌ قَوْمٌ عَبَدُوا اللهَ عَز وَجَل خَوْفًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأُجَرَاءِ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللهَ عَز وَجَل حُبًا لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ وَهِيَ أَفْضَلُ الْعِبَادَة)[1].

قوله عليه السلام: (وهي أفضل العبادة) يعني أن العبادة على الوجهين الأولين لا يخلو من فضل أيضًا فضلًا عن أن لا تكون صحيحة، فقول من ذهب إلى أن العبادة في صورة إرادة الجنة أو الخلاص من النار باطل غير صحيح، إلّا أن هنا شيئًا يجب التنبيه عليه، وهو أن من

---

(١) الكافي ج٢ ص٨٤.

عبد الله سبحانه طمعًا في جنته لكونها دار كرامته ورضاه وجوار رحمته ومحل قربه وثوابه، أو خوفًا من ناره لكونها دار إهانته وسخطه ومحل غضبه وبعده وعقابه، لا لمجرد التلذذ بنعيم الجنة والخوف من التألم بعذاب النار، فعبادته صحيحة، وإن لم تكن هي أفضل العبادة، فكل عبادة ونية لا تقع بقصده ما لله ولا إليه فباطلة، فلو صلى لله مثلًا لكونه أهلًا للعبادة أو شكرًا لنعمته أو رجاء لما عنده من الثواب الذي فيه رضاه، والتوقي من العقاب الذي فيه سخطه في الدنيا والآخرة، كما لو صلى ليدخل الجنة التي هي دار رضاه، أو ليصيبه مالًا يستغني به على طاعة الله، أو عقلًا أو علما يوصله إلى البصيرة في دين الله فيتقوى على امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، أو يتجوز به عن خدع الشيطان عدوه، لتكون جميع إراداته خالصة لله سبحانه، وأمثال ذلك، وقعت صحيحة.

ولو صلى لرضا الله عنه بسبب طاعته له فيثيبه عرضًا راجعًا إلى نفسه كالجاه والمال في الدنيا والنعيم في الجنة، ومجرد التلذذ فيها، وكالتوقي من الفقر والآلام والمكاره في الدنيا والآخرة وقعت باطلة على الصحيح.

وقد كانت هذه عبادة إبليس لعنه الله حين أسرته الملائكة وصعدت به إلى السماء، فكان بين الملائكة أشدهم عبادة وإقبالا على الله، يريد به هوى نفسه فافهم.

ثم اعلم أن تجريد النية لله عز وجل وتخليصها عن شوائب الأعراض النفسانية والحظوظ العاجلة الفانية صعب جدا، ولا طريق إلى الإخلاص إلّا بكسر حظوظ النفس الأمارة الميالة إلى اللهو واللعب، وهدم بناء الإنية وقطع الطمع عن الدنيا التي هي محل

الاغترار، والهجرة إلى الآخرة التي هي دار القرار، بحيث يغلب ذلك على القلب، فكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى فيكون فيها مغرورا لأنه لا يدري وجه الآفة فيها.

كما حُكِيَ عن بعض العباد أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول لأني تأخرت يومًا لعذر وصليت في الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك وأنا لا أشعر به.

وهذا أمر دقيق غامض وقلما تسلم الأعمال عن أمثال هذه وقل من يتنبه له، وأهل الغفلة يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما عملوا، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] ولا يختص الإخلاص للنية في حال العبادات المخصوصة الواجبة أو المندوبة، بل ينبغي في جميع الأحوال.

ففي مصباح الشريعة من باب النية قال الصادق عليه السلام: (ولا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن بهذا المعنى يكون غافلًا، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2]) الحديث.

---

(١) الكهف ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) الأعراف ١٧٩.

تفسير [قوله تعالى]: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إذا عرفت معبودك وكيفية عبادته فاعبده واصطبر لعبادته حتى يأتيك اليقين، واستعن به على عبادته بالاستعانة القولية والفعلية والقلبية، ولا تقتصر بالاستعانة القولية بمجرد قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم نظير هذا في باب الاستعاذة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

وقيل: والاستعانة طلب المعونة، وهي إما ضرورية أو غيرها.

فالضرورية ما لا يتأتى الفعل بدونه، كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها، وعند استجماعها يوصف الرجل بالاستطاعة، ويصح أن يكلف بالفعل.

وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل، كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يقرب الفاعل إلى الفعل ويحثه، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف.

والمراد طلب المعونة في المهمات كلها أو في أداء العبادات، والضمير المستكن في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري

---

(١) البقرة ٤٥.

صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموحدين أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته لحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها، ولهذا شُرعت الجماعة.

وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحضر، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه ما معناه: (نعبدك ولا نعبد غيرك وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولًا وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث أنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث أنها نسبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يتحقق وصوله إذا استفرغ في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى أنه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها إلّا من حيث أنها ملاحظة له ومنتسبة إليه) انتهى.

أقول: قوله: (وهي إما ضرورية أو غيرها) إلى آخره، يريد أن المعونة من الله سبحانه على قسمين:

الأول: ما يتوقف عليه صحة التكليف، وهو ما لا يتأتى الفعل المكلف به بدونه كاقتدار الفاعل على الفعل، وعلمه بكيفية إيقاعه، وحصول آلة ومادة يتمكن بالأولى على التأثير في الثانية، فالأول كاقتدار النجار على النجارة، والثاني كعلمه بكيفيتها، والثالث كآلاتها، والرابع كالخشب، هذا في الأفعال التكوينية.

وأما في الأفعال التكليفية، فالأول كصحة جسم الزاني وسلامة جوارحه، والثاني معرفته بكيفية الزنا، والثالث كآلة النكاح، والرابع كالزانية التي يزني بها، فهذه أسباب وآلات خلقت للطاعة، كما إذا كان الرابع زوجته ولكنها تصلح بعينها للمعصية كما إذا استعملها في غير ما خلقت لأجله وهو الزنى، وتلك الأسباب والآلات عطية من

الله سبحانه للمكلفين، ومعونة منه تعالى ضرورية واجبة عليه سبحانه في الحكمة، لئلّا يلزمه التكليف بما لا يطاق، وعند استجماعها يصح التكليف، هذا إذا استعملها العبد في الطاعة، وأما إذا استعملها في المعصية فلا تطلق عليها المعونة بل يسمى خذلانًا وتخلية، فالعبد مختار فيها إن شاء صرفها في الطاعة، وإن شاء صرفها في المعصية، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[2] فالعابد في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يطلب من الله سبحانه المعونة في صرف جميع ما أنعم عليه في ما خلقت لأجله ليكون من الشاكرين.

والثاني: ما لا يتوقف صحة التكليف عليه، وهو ما يتيسر به الفعل أو يقرب الفاعل إلى الفعل ويحثه عليه، وهو كالترغيب على الفعل المأمور به بالتبشير بالجنة والوعد بالثواب العظيم، والترهيب على تركه بالتحذير من النار والوعيد بالعذاب الأليم، وهذه المعونة غير ضرورية لأن صحة التكليف لا تتوقف عليها إلّا أن الحكيم جل شأنه لا يتركها من باب اللطف بالتكليف.

وقوله: (وعند استجماعها يوصف الرجل بالاستطاعة) ليس بصحيح، لأن تلك الأمور أسباب صحة التكليف وآلة الاستطاعة، لأن العبد عند استجماعها يكون مستطيعًا للفعل، وكيف يكون العبد

---

(١) الإسراء ١٨ ـ ٢٠.

(٢) مريم ٧٥.

المحتاج الضعيف الذي لا يملك شيئًا لا نفعًا لنفسه ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً، بل ولا وجودًا حين كان موجودًا قادرًا على الفعل مستطيعا له قبل أن يفعله، أي قبل أن يوجده الله ذلك الفعل ويجريه على يديه، فليس له من الاستطاعة قبل الفعل شيء، فلا يوصف بالاستطاعة الاستطاعة إلّا حين الفعل ومع الفعل لا قبله ولا بعده.

ففي الكافي من باب الاستطاعة، عَنْ عَلِي بْنِ أَسْبَاطٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرضَا عليه السلام عَنِ الِاسْتِطَاعَةِ فَقَالَ: (يَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ بَعْدَ أَرْبَعِ خِصَالٍ أَنْ يَكُونَ مُخَلى السرْبِ صَحِيحَ الْجِسْمِ سَلِيمَ الْجَوَارِحِ لَهُ سَبَبٌ وَارِدٌ مِنَ اللهِ.

قَالَ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَسرْ لِي هَذَا.

قَالَ: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُخَلى السرْبِ صَحِيحَ الْجِسْمِ سَلِيمَ الْجَوَارِحِ يُرِيدُ أَنْ يَزْنِيَ فَلَا يَجِدُ امْرَأَةً ثُم يَجِدُهَا، فَإِما أَنْ يَعْصِمَ نَفْسَهُ فَيَمْتَنِعَ كَمَا امْتَنَعَ يُوسُفُ عليه السلام أَوْ يُخَلِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ فَيَزْنِيَ فَيُسَمى زَانِيًا وَلَمْ يُطِعِ اللهَ بِإِكْرَاهٍ وَلَمْ يَعْصِهِ بِغَلَبَةٍ).

وفيه عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عبد الله عليه السلام عَنِ الِاسْتِطَاعَةِ.

فَقَالَ أبو عبد الله عليه السلام: (أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَ مَا لَمْ يُكَونْ.

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَهِيَ عَما قَدْ كُونَ.

قَالَ: لَا.

قَالَ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: فَمَتَى أَنْتَ مُسْتَطِيعٌ.

قَالَ: لَا أَدْرِي.

قَالَ فَقَالَ [لَهُ] أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: إِن اللهَ خَلَقَ خَلْقًا فَجَعَلَ فِيهِمْ آلَةَ الِاسْتِطَاعَةِ ثُم لَمْ يُفَوضْ إِلَيْهِمْ فَهُمْ مُسْتَطِيعُونَ لِلْفِعْلِ وَقْتَ الْفِعْلِ مَعَ الْفِعْلِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ الْفِعْلَ فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوهُ فِي مُلْكِهِ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَطِيعِينَ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا لَمْ يَفْعَلُوهُ لِأَن اللهَ عز وَجَل أَعز مِنْ أَنْ يُضَادهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ.

قَالَ الْبَصْرِي: فَالناسُ مَجْبُورُونَ.

قَالَ: لَوْ كَانُوا مَجْبُورِينَ كَانُوا مَعْذُورِينَ.

قَالَ: فَفَوضَ إِلَيْهِمْ.

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَمَا هُمْ.

قَالَ عَلِمَ مِنْهُمْ فِعْلًا فَجَعَلَ فِيهِمْ آلَةَ الْفِعْلِ فَإِذَا فعلوا كَانُوا مَعَ الْفِعْلِ مُسْتَطِيعِينَ.

قَالَ الْبَصْرِي: أَشْهَدُ أَنهُ الْحَق وَأَنكُمْ أَهْلُ بَيْتِ النبُوةِ وَالرسَالَةِ).

وعن صالح النيلي قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام هَلْ لِلْعِبَادِ مِنَ الِاسْتِطَاعَةِ شَيْءٌ.

قَالَ: فَقَالَ لِي: (إِذَا فَعَلُوا الْفِعْلَ كَانُوا مُسْتَطِيعِينَ بِالاسْتِطَاعَةِ التِي جَعَلَهَا اللهُ فِيهِمْ.

قَالَ قُلْتُ: وَمَا هِيَ.

قَالَ: الْآلَةُ مِثْلُ الزانِي إِذَا زَنَى كَانَ مُسْتَطِيعًا لِلزنَا حِينَ زَنَى، وَلَوْ أَنهُ تَرَكَ الزنَا وَلَمْ يَزْنِ كَانَ مُسْتَطِيعًا لِتَرْكِهِ إِذَا تَرَكَ.

قَالَ: ثُم قَالَ: لَيْسَ لَهُ مِنَ الِاسْتِطَاعَةِ قَبْلَ الْفِعْلِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ وَلَكِنْ مَعَ الْفِعْلِ وَالترْكِ كَانَ مُسْتَطِيعًا.

قُلْتُ: فَعَلَى مَا ذَا يُعَذبُهُم؟.

قَالَ: بِالْحُجةِ الْبَالِغَةِ وَالْآلَةِ التِي رَكبَ فِيهِمْ إِن اللهَ لَمْ يُجْبِرْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَلَا أَرَادَ إِرَادَةَ حَتْمِ الْكُفْرَ مِنْ أَحَدٍ وَلَكِنْ حِينَ كَفَرَ كَانَ فِي إِرَادَةِ اللهِ أَنْ يَكْفُرَ وَهُمْ فِي إِرَادَةِ اللهِ وَفِي عِلْمِهِ أَنْ لَا يَصِيرُوا إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ.

قُلْتُ: أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا.

قَالَ: لَيْسَ هَكَذَا أَقُولُ وَلَكِني أَقُولُ عَلِمَ أَنهُمْ سَيَكْفُرُونَ فَأَرَادَ الْكُفْرَ لِعِلْمِهِ فِيهِمْ وَلَيْسَتْ هِيَ إِرَادَةَ حَتْمٍ إِنمَا هِيَ إِرَادَةُ اخْتِيَارٍ).

وقوله: (وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر) كلام قبيح ولفظه كريه وإن حسن المرام، وعبارة شنيعة لا ينبغي بل لا يجوز إيراده في هذا المقام، لأن ذكر المفعول وهو اسم نقص في اللفظ لا يناسب هذا المقام الذي يستدعي غاية التعظيم ونهاية الاهتمام بذكره.

ففي الكافي عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَأَلَنِي أَبُو قُرةَ الْمُحدثُ أَنْ أُدْخِلَهُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الرضَا عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُهُ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ثُم قَالَ لَهُ: أَفَتُقِر أَن اللهَ مَحْمُولٌ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: (كُل مَحْمُولٍ مَفْعُولٌ بِهِ مُضَافٌ إِلَى غَيْرِهِ مُحْتَاجٌ، وَالْمَحْمُولُ اسْمُ نَقْصٍ فِي اللفْظِ، وَالْحَامِلُ فَاعِلٌ وَهُوَ فِي اللفْظِ مِدْحَةٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ فَوْقَ وَتَحْتَ وَأَعْلَى وَأَسْفَلَ وَقَدْ قَالَ اللهُ وَلِلهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَلَمْ يَقُلْ فِي كُتُبِهِ إِنهُ الْمَحْمُولُ بَلْ قَالَ إِنهُ الْحَامِلُ فِي الْبَر وَالْبَحْرِ وَالْمُمْسِكُ السمَاوَاتِ وَالْأَرض أَنْ تَزُولَا، وَالْمَحْمُولُ مَا سِوَى اللهِ وَلَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ آمَنَ بِاللهِ وَعَظَمَتِهِ قَط قَالَ فِي دُعَائِهِ يَا مَحْمُول) الحديث.

فلو قال وقدم إياك أو الضمير المنصوب لكان في كلامه نورًا ولكن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

الفهرس

كلمة آية الله المولى الميرزا عبد الله الحائري الأحقاقي حفظه الله ٥

مقدمة المحقق ٩

وصف المخطوطة ٩

ترجمة المصنف ١٥

سيرته ١٦

لقاؤه بالشيخ الأوحد الأحسائي ٢١

أسفاره ٢٤

مؤلفاته ٢٥

مميزات كتاب (جوامع التفسير) ٢٧

وفاته ٢٨

مصادر الترجمة ٢٩

بيان حدوث العالم وإثبات الواجب وذكر صفاته تعالى ٣٣

بيان علة الإيجاد ٣٥

بيان خلق نور المحمدي صلى الله عليه وآله ٣٥

بيان خلق أنوار الأئمة عليهم السلام ٣٦

بيان خلقة الملائكة وأرواح الأنبياء وغيرهم من الخلق ٣٩

بيان خلقة النبات والأشجار ٤٠

بيان خلق آدم عليه السلام ٤١
ذكر إبليس وقبيله ٤٢
ذكر آدم عليه السلام وحواء وعدوهما إبليس ووسوسته لهما في الجنة ٤٢
بيان خلق بني آدم عليه السلام ٤٣
بيان خلق العلويات ٤٦
بيان خلق النباتات والأشجار ٤٧
ذكر خلق المعادن ٤٧
ذكر خلقة الحيوانات ٤٧
بيان وجوب التكليف ٤٩
بيان التكليف في عالم الذر ٤٩
بيان بعث الأنبياء واحتياج الناس إليهم ٥١
بيان أن الأرض لا تخلو من حجة ٥١
بيان بعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله ٥٢
بيان معجزات النبي صلى الله عليه وآله ٥٣
بيان أكبر معجزات النبي صلى الله عليه وآله وهو القرآن ٥٤
الإشارة إلى تسمية هذا الكتاب بجوامع التفسير ٥٦
[بيان بعض خصائص القرآن الكريم] ٥٧
[الشكوى من حال الزمان] ٧٣
بيان كيفية السلوك [وذكر لقائه مع أستاذه الشيخ الأوحد الأحسائي] . ٨٠
بيان أصول المعاملات ٨٩
بيان المعاملة مع الرب عز وجل ٩٠
بيان المعاملة مع النبي صلى الله عليه وآله ٩٣

بيان المعاملة مع الأئمة عليهم السلام ٩٤
بيان المعاملة مع كتاب الله سبحانه وتعالى ٩٥
[آداب التلاوة الظاهرة والباطنة] ٩٨
بيان المعاملة مع الدين ٩٩
بيان المعاملة مع النفس ١٠٠
[أقسام الطهارة] ١٠٧
بيان المعاملة مع الأبوين والأهل والأقارب ١١١
بيان المعاملة مع الإخوان وسائر الناس ١٢١
بيان المعاملة مع الدنيا ١٢٧
بيان المعاملة مع الآخرة ١٣٨
[أقسام الناس في ذكر الموت] ١٤٢
بيان ذكر الموت على الحقيقة والموت بالإرادة ١٤٨
بيان التوبة ١٤٨
باب الصبر ١٥٠
باب الزهد ١٥٣
باب القناعة ١٥٦
باب العزلة ١٥٨
[باب التوكل] ١٦٠
باب الذكر ١٦٢
باب التوجه ١٦٧
باب المراقبة والمحاسبة ١٧٠
باب اليقين ١٧٨

باب المحبة والأنس ١٨٤
باب الرضا والتسليم ١٩٥
[ذكر أقسام التفسير] ٢٠٧
[معنى تفسير ظاهر الظاهر] ٢٠٨
[معنى التأويل وباطن التأويل] ٢٠٩
[معنى تفسير الباطن وباطن الباطن] ٢١٠
فصل في بيان بعض وجوه الكتاب ٢٢١
[فضل حملة القرآن] ٢٢٦
تفسير الإستعاذة ٢٣٠
ذكر جنود العقل والجهل ٢٣١
فصل في بيان معرفة الوجود إما برسمه أو بحده أو بمعرفة عنوانه وآية معرفته ٢٣٤
بيان خلق العقل الأول ٢٣٩
بيان إدبار العقل ٢٤٠
بيان إقبال العقل ٢٤٢
بيان خلق الجهل الأول ٢٤٣
بيان إدبار الجهل ٢٤٤
بيان عدم إقبال الجهل ٢٤٤
بيان خلق الملائكة ٢٤٦
بيان أن الإنسان أنموذج العالم الكبير ٢٤٧
بيان حقيقة الإستعاذة ٢٥٠
تفسير سورة الفاتحة المباركة ٢٥٧
تفسير البسملة ٢٥٩

تفسير فاتحة الكتاب ٢٦١
ذكر البسملة ٢٦١
تفسير قوله تعالى: (بسم) ٢٧٢
ذكر المذاهب الباطلة ٢٨٥
بيان مراتب التوحيد الباطل ٢٩٠
بيان أسفل مراتب توحيد الحق ٢٩٥
بيان إثبات وجود الصانع الحق ٢٩٦
إبطال المذاهب الباطلة ٢٩٩
بيان مراتب التوحيد الحق ٣٠٢
فائدة شريفة ٣٠٥
تفسير الاسم الكريم وهو (الله) ٣٠٧
بيان مبدأ اشتقاق الاسم الكريم ٣١٩
تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٣٢٢
تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ٣٣٥
تعريف الحمد ٣٣٨
بيان حقيقة الحمد ٣٣٩
تفسير الرب ٣٤١
بيان العالم الكبير ٣٤٥
ذكر العوالم ٣٤٦
تفسير [قوله تعالى]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٣٨٣
قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ٣٨٧
تفسير [قوله تعالى]: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ٣٩١

تفسير [قوله تعالى]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٤٠١
[الجمع بين ما دل على جواز الرؤية وامتناعها] ٤٠٩
[بحث في الأسماء الإلهية] ٤١٦
[ذكر اجتماع أصحاب الأديان عند رسول الله ﷺ وإبطال أقوالهم] ٤٥٩
[بحث في النية وأحوالها] ٤٩٦
تفسير [قوله تعالى]: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥٠٦
الفهرس ٥١٣